

إدوارد براون

تاريخ الأدب في إيران

الجزء الأول

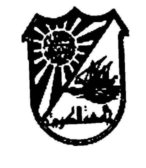
البابان الأول والثاني

ترجمة
الدكتور أحمد كمال الدين حلمي
أستاذ اللغة الفارسية وآدابها بجامعة الكويت

الكويت
١٩٩٤

تاريخ الأدب في إيران

تنفيذ واخراج وطبع ذات السلاسل



الباban الأول والثاني

من

تاريخ الأدب في إيران

منذ أقدم العصور حتى عصر الفردوسي

الجزء الأول

يشتمل على

التطورات التي مرت بها اللغة الفارسية وسير

الأديان والأفكار في إيران

التأليف بالانجليزية

للعلامة المستشرق إدوارد براون

الترجمة والتعليق بالفارسية

للأستاذ علي باشا صالح

الترجمة للعربية

للدكتور

أحمد كمال الدين حلمي

أستاذ اللغة الفارسية وآدابها

جامعة الكويت

١٩٩٤





A LITERARY HISTORY OF PERSIA

VOLUME I

From The Earliest Times
Until Firdawsi
by
EDWARD G. BROWNE

PERSIAN TRANSLATION
BY
ALI PASHA SALEH

ARABIC TRANSLATION
BY
AHMED KAMAL ELDIN
HELMY.



بسم الله الرحمن الرحيم

الاهداء

إلى حفيدي الاول

عبد الرحمن محمد الربعه

نفع الله سبحانه به .

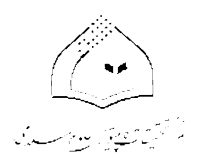
فهرست
الأبواب والفصول والموضوعات

الباب الأول
في نشأة شعب إيران
ولغته وأدبه وتاريخه العام

* * *

الباب الثاني

تاريخ إيران من بداية قيام الساسانيين حتى سقوط بني أمية (٢٢٦ حتى ٧٥٠ م)



ملخص
كلمة إدوارد ج . براون
التي قدّم بها الجزء الأول من كتابه
« تاريخ الأدب في إيران »

منذ سنوات عديدة وأنا أتوق إلى كتابة كتاب يسجّل الحركة العقلية والفكرية والأدبية للايرانيين . . وأن أسير فيه على نسق أسلوب الكتاب الذي وضعه المؤرّخ الإنجليزي « جرين » في تاريخ إنجلترا بعنوان : « التاريخ المختصر للشعب الإنجليزي » .

[John Richard Green, Short History of the English People (1877 - 88)]

وهو كتاب قيّم جدير بأن يشاد به ، فمن النادر أن يوجد من يستطيع تقليده ومحاكاته ، أو يبلغ ما بلغه من درجة رفيعة ومنزلة عالية .

والغريب أنه ـ حتى اليوم ـ لم يكتب أحد عن تاريخ هذه البلاد العريقة . . بصورة جامعة شاملة موجزة مختصرة في آن معاً . والذي لا شك فيه هو أنه توجد رسائل عديدة قيّمة كتبها أصحابها حول الدول والعصور الإيرانية بصفة خاصة ، لكن ما كُتب منها باللغة الإنجليزية كان متعلّقاً بتاريخ إيران العلم . ومن بين هذه الكتابات لا يوجد سوى كتابان فقط يمكن إعتبارهما في عداد المراجع الإنجليزية الأساسية . . كتب أحدها « سيرجان ملكم «Sir John Malcolm ، وكتب الآخر « كلمنتس مارك هم «Clements Mark ham.

ورغم أن كتابيهما يفوقان غيرهما أهمية . . إلاّ أن المعلومات فيهما عن إيران معلومات سطحية . والكاتبان يمنحان الدرجة الأولى من إهتمامهما لبحث أوضاع إيران السياسية وشئونها الخارجية ، ولا يتعرضان لفكر شعبها والغوص في أعماق حياته .

وإدراكاً مني لأهميّة الموضوع وعظمته وخطورته ، وصعوبة العمل الذي أرغب في تناوله والكتابة حوله ، ونتيجة لصلتي الدائبة بالبحث والدراسة وتحليل النسخ الخطيّة ، ورغبتي في الكتابة حول موضوع واسع مفصّل وله بعد فلسفي في نفس الوقت . . بحثت عن كتاب آخر يحوي من الميزات ما أريد . . لأسير على نهجه واتّبع أسلوبه ، فوقع اختياري على كتاب ممتع ، ألّفه « جو سيراند » وأسماه : (تاريخ أدب الشعب الإنجليزي) .

(Jusserand literary History of the English People.)

وقرّرت أن أقفو خطاه في إخراج كتابي (تاريخ الأدب في إيران) . . رغبة مني في الكتابة حول الحركة العقلية والفكرية ، ولأنني لم أكن أنوي الإكتفاء بالكتابة حول سيرة الكتاب والشعراء والبلغاء ممن لهم نتاج فارسي .

وبقدر ما كان الأدب ـ بمعنى الكلمة المحدود ـ يحظى باهتمامي ، كان إبراز نبوغ الإيرانيين في فروع المذهب والفلسفة والعلوم يجتذبني أيضاً ، والحق أنني لم أشغل بالي باختيار لغة الكتابة ما دام بحثي سيتحقق وفق ما خططته .

هذا ، وأرجو أن يتّسع صدر قرائي إذا ما رأوا مني ميلاً إلى تسجيل النهضات والحركات بصورة تفوق ميلي إلى تسجيل ما جاء في الكتب البهلوية والعربية وغيرها .

لقد كانت نيّتي متّجهة عندما بدأت عملي إلى إنجازه في مجلّد واحد . . يضمّ تاريخ إيران منذ بداية أمرها إلى اليوم ، ولكني رأيت ذلك مستحيلاً ، كما أنه لا يتمشّى مع خطّتي ويتسبب في هدمها . لذا قررت أن أكتفي بالوصول إلى غارات

المغول على العالم الإسلامي ، وانقراض الخلافة الإسلامية في القرن الثالث عشر الميلادي . . باعتبار هذا الحدث نقطة تحول في التاريخ الإسلامي ، ولكن ذلك أيضاً كان أمراً مستحيلاً . . نظراً لتشعّب الموضوع واتساعه .

وأخيراً أنهيت مجلدي هذا بالكتابة حول شعراء الأمراء السامانيين والبويهيين ممن سبقوا الفردوس .

ولعلي أكون قد وفّقت في التقسيم الذي ارتأيته ، فمجلدي الأول على الصورة التي كُتب بها يعتبر بمثابة مقدمة لا غنى لطالب الأدب الفارسي عنها . . مقدّمة تعدّه للدرس والتحصيل.وإذا كنت قد خضعت لرأي الناشر وجعلت هذا المجلد منفصلاً عن المجلد التالي له ومستقلاً عنه . . فإنني سوف أقوم بتلخيص موضوعاته في الفصل الأول من كتابي (الثاني) وبذلك يتمم أحدهما الآخر.

وسوف يكون المجلد الثاني متعلّقاً بتاريخ الأدب الفارسي بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى .

ولما كان الباحث عن صديق بلا عيوب ـ كما يقول الشرقيون ـ لا يجد له صديقاً . . فإن هذا يصدُق على كتابي . . فهو لا يخلو من العيوب . . ومن لا يخطىء لا يكتب .

وأعترف أني لم أكن مستعداً لهذا العمل الكبير إستعداداً كاملاً . لكني ـ حتى بفرض إنتظاري عشر سنوات أو عشرين ـ لن أكون مستعداً كذلك . . فالمواضيع دائمة التشعّب ، وهي تتسّع أمام ناظري أكثر فأكثر ، وتفوق علمي ومعرفتي ، ولا يمكنني حصرها والإحاطة بها بنفس سرعة حدوثها وتواليها .

إن أكثر الكتب نقصاً وغَرَقاً في غبار النسيان ، باشتمالها على كلمة جديدة واحدة . . يمكنها أن تفتح لنا باباً لكتابٍ أفضل .

إدوارد ج . براون



خلاصة

كلمة علي باشا صالح
مُترجم الكتاب من الإنجليزيّة إلى الفارسيّة

في أوائل عام ١٣٢٨ ش = ١٣٧٨ ق لفت نظري وزير التعليم السابق - نظراً لاهتمامه البالغ بنشر المؤلفات والمحافظة على الآثار القيمة - إلى ترجمة وضعها « علي أصغر حكمت » الأستاذ بجامعة طهران للجزء الثالث من كتاب « تاريخ الأدب في إيران » تأليف البرفسور « إدوارد براون » . وإلى ترجمة للجزء الرابع من نفس الكتاب قام بها الأستاذ الفقيد « رشيد ياسمي » في عام ١٣١٦ ش = ١٣٦٦ هـ .ق .

وقد لاحظت أن المجلدين الأول والثاني بقيا دون أن يتصدّى احد لترجمتها ، وكأن الأمر لا يهم ، والموضوع لا يعني أحداً . . بينما الواجب أن تترجم جميع الكتب الأساسية الهامة التي وضعها المستشرقون حول إيران ، وأفاد منها الأجانب . الواجب أن تترجم إلى الفارسية السليمة وبأسلوب سلس ، وأن تخضع للدراسة العميقة والنقد الدقيق من قبل علمائنا ، ثم توضع تحت أنظار أبنائنا ليعرفوا ما قيل في حقّ بلادهم وما كُتِبَ . ولا اظن أن هناك من ينكر أهمية ذلك الأمر وضرورته . . ألا ما أكثر العبر وما أقل الاعتبار .

ولم يمض طويل وقت حتى تكرّم المجلس الأعلى للتعليم بتكليفي بإنجاز هذا العمل الصعب ، وحثني عليه كل من الأستاذين : المرحوم الدكتور « عبد الحميد أعظم » وزير التعليم آنذاك ورئيس كلية الحقوق ، والدكتور « علي فرهمندي » مدير عام الفنون الجميلة ، وعدد آخر من أهل العلم والمعرفة .

ومر عام وعامان ، ولم أكن قد أتممت نصف الترجمة . . حين دبّت الخلافات بين إيران وإنجلترا ، وأخذت حدّتها في التزايد يوماً بعد يوم . . إلى أن بلغ الأمر حد قطع العلاقات بين الدولتين . . لكنني نظرت إلى الأمر نظرة علمية أدبية وأكملت ما بدأت ، وسرت في مجال تلك الخدمة الثقافيّة التعليميّة .

وكانت كلمات العلامة الأديب « محمد بن عبد الوهاب القزويني » وقتها ترد في خاطري ، وهي التي يقول فيها : « لقد أنفق مؤلف هذا الكتاب كل وقته الثمين في الدفاع عن حقوق إيران المشروعة العادلة ومساندة شعبها، ولم يدّخر وسعاً في ذلك . . فنشر المقالات، ودبّج الرسائل، وألقى الخطب في المحافل السياسية الإنجليزية . . . . . »[1] .

ولما كنت لا أعرف براون إلا من خلال قراءاتي لآثاره الأدبية ، فقد رأيت الاستفادة من آراء أهل الفضل بشأنه ، وهم الواقفون على أحواله .

فوجدت القزويني يقول في موضع آخر[2]: « إذا ما تحدثت عن خدمات براون الأدبية والعلمية أمكنني ـ بكل شجاعة ـ أن أقسم أنه لا يوجد بين مستشرقي أوروبا المعاصرين له أو السابقين عليه من بذل مثل جهده في ذلك السبيل ، ولا يوجد من بينهم من أفنى عمره في إحياء الآثار الأدبية الإيرانية على النحو الذي فعله دون كلل أو ملل أو تقصير مادي أو معنوي . لقد بدأ ذلك الكفاح في الثامنة عشر من عمره ـ حين بدأ دراسة الفارسية ، واستمر فيه إلى آخر دقيقة في عمره (أدركته الوفاة في الرابعة والستين من عمره) .

لقد أنفق الأموال الطائلة في سبيل طبع الكتب الفارسية النفيسة وتصحيحها . . على نحو لم يسبقه إليه أحد . إن حبه للعالم الإسلامي عامة

(١) شمس القيس الرازي : المعجم في معايير أشعار العجم ، بيروت ١٣٢٧ هـ ، المقدّمة بقلم القزويني .

(٢) مجلة إيرانشهر ، شماره ٢ ، ١٣٠٥ ، سال چهارم ، ص ٧٥ ؛ بيست مقاله قزويني ، جـ ٢ ، ١٣١٣ ش ص ٢٢٦ و٢٢٧ و٢٣٢ .

وإيران وشعبها خاصة حب لا حد له . . . . إن وجوده يعدّ في الحقيقة نعمة من الله وكسب لإيران » .

ولإعطاء صورة إجمالية للجانب الأدبي من حياته التي أنفقها في العلم نحيل القارىء إلى كتبه الإثني عشر الكبيرة ومقالاته الإثنتين والعشرين التي كتبها في الأدب وحده . بدأ تأليفه علم ١٩٠٢ م وأنهاه في علم ١٩٢٤ م (١٣٢٠ - ١٣٤٣ هـ) ، وتبلغ صفحاته ٢٣٠٠ صفحة تقريباً . ولم يستطع أي مستشرق أن يبلغ المستوى الذي بلغه براون في هذا الكتاب الهام الخاص بأدب لغتنا ، بل إن الفرس أنفسهم - وهم أهل اللغة - عجزوا عن أن يصدروا كتاباً يضارعه حسن نظم وروعة ترتيب وبسط وتفصيل ، بالإضافة إلى ما فيه من معلومات هامة نادرة ، جاءت نتيجة ٤٠ عاماً تقريباً من التعب والمعاناة ، وعلى يد عالم يجيد العديد من الفنون واللغات .

إن مثل هذا اللون من المؤلّفات الموسوعيّة الشاملة المنوّعة . . الحاوية لتاريخ الرجال ، والأدب ، وسير الشعراء ، والأشعار المختارة ، والحكايات ، وآلاف المزايا والمحاسن . . لا يوجد له نظير لدينا إلى وقتنا هذا - لذا يجب أن يُترجم كما هو ، وبأقل تعديل ممكن ، إلى الفارسية ، وأن ينتشر بين الإيرانيين ليبصر فيه الدارسون نموذجاً للكتابة والتأليف في التاريخ الأدبي على الطريقة الأوروبية .

لقد بلغ حب براون للفارسية حد أنه كان يقول لمن يعرفها ويكلمه بالإنجليزية : « يحسن أن نتكلم الفارسية ، فإن من لا يعرفها . . هو في رأيي إنسان غير كامل » .

ويذكر الأستاذ « محمود محمود » أن براون وقف إلى جانب الشعب الإيراني إبان محنته مع روسيا وإنجلترا ، وسوف لا ينسى الشعب لهذا الرجل العظيم جهوده وخدماته . ويمكن الرجوع إلى العديد من الأقوال في هذا الشأن[1] .

---

(١) أثبت علي باشا صالح ١٨ كتاباً ومقالة تتحدث عن براون كأديب وعالم ، وتشير إلى موقفه من إيران . (ص هشت ، من مقدمة علي باشا صالح على ترجمته لهذا الكتاب) .

هذا ، وقد وفقني الله إلى ترجمة الكتاب بأمانة تامة واستفدت قدر الإمكان من الآراء العلمية والدراسات الحديثة في تجنب الأخطاء ، وأضفت حواشي وتعليقات ضرورية ، ولم أهتم بسياسة أو مذهب ، ولم أسمح بأي لون من التصرّف في ترجمة المتن .

وأرى أنه من الواجب على المترجم أن يردّ مثالب المؤلف ويرفع عيوبه ويحق الحق ويبطل الباطل ، ويثبت ذلك في هوامشه وتعليقاته في أسفل الصفحات .

وقد رجعت إلى المراجع الأصلية قدر إمكاني فيما يتعلق بشواهد براون المتعلقة بالكتّاب والشعراء والعرفاء والحكماء ، ولم يكن قد ذكرها للأسف ، فلجأت إلى الكثير من المكتبات العامة والخاصة ، ووجدت العون لدى الكثيرين من أهل الفضل .

لهذا أشكر الجميع : السيد الوزير رضا جعفري ، والدكتور علي فرهمندي المدير السابق للتعليم ، ورضا المزيني المدير الحالي ، ورئيس مجلس الشيوخ السابق العلامة سيد حسن تقي زاده ، والأستاذ العالم بديع الزمان فروزانفر ، رئيس كلية المعقول والمنقول لما أمدني به من دراسات حول الأجزاء المتعلقة بالإسلام ، والدكتور إحسان يار شاطر الأستاذ بجامعة طهران ، لما حباني به من معلومات حديثة حول الأوستا والبهلوية ، والدكتور مهدي بياني رئيس المكتبة القومية في وزارة التعليم . . وكل من ساهم في تسهيل مهمتي .

وأرجو من القراء الأعزاء والعلماء والدارسين أن يتحروا الدقّة ، ويمنّوا عليّ بذكر ما سهوت عنه أو أخطأت فيه ؛ لأقوم بتصحيحه وتلافيه مستقبلاً .

وإني لأشكر الله العلي القدير على إلهامنا الحب ، وحفظه لنا من الضلال ، وأسأله أن تجد هذه الحقيقة طريقها إلى كل قلب وروح :

﴿ إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾

علي باشا صالح

كلمة المترجم

عزيزي القارىء

تحية من عند الله مباركة طيبة

في مستهل القرن العشرين شرع المستشرق العظيم ادوارد جرنفيل براون في الكتابة حول إيران ـ أساطيرها وتاريخها وحضارتها وأدبها ـ مستغلاً إتقانه للعديد من اللغات. وفي عام ١٩٢٤م فرغ من عمله تاركاً بين أيدينا أربعة مجلّدات كبيرة .. وضع لها عنوان :

A LITERARY HISTORY OF PERSIA

ومنذ سنواتٍ قمتُ بتعريب المجلد الأول، ونشرتُ البابين الأول والثاني من أبوابه الأربعة، إيماناً مني بأنّ هذا المجلد ذو أهميّة خاصّة، فهو يشتمل على الكثير مما يهمُّ دارسي الحضارات الإيرانيّة القديمة، ويتحدَّث عن الفتح العربي، عن الصِلات بين العرب والفرس: بدايتها وتطوُّرها، ويمهِّد السبيل لدراسة الأداب الإسلاميّة التي نشأت في إيران ابان حياتها في ظل الإسلام. ويسجِّل الكثير من المعلومات التي أوردتها الكتب العربية حول جاهليّة إيران والقرون الأربعة الأولى من حياتها الإسلامية، والعديدَ من الآراء التي بلورها المستشرقون بعد دراستهم لهذه الفترة الطويلة.

وإذا كنتُ قد قمتُ بالترجمة العربيّة عن الترجمة الفارسيّة التي وضعها علي باشا صالح ـ فإنما لثقتي بصحّتها ودقّتِها. ولأثبتَ التعليقات القيمّة التي أوردها هذا الأديب الكبير.

وبهذه الطبعة الثانية ـ التي أقدّمها إليك عزيزي القارىء والتي تشرّفني جامعة الكويت بنشرها ـ أعيد نشر البابين بعد تصحيح ما وقع فيهما من أخطاء، وتنقيح ما ورد فيهما من آراء، وإضافة الضروريّ من التعليقات، وأكرر لك الوعد

بقرب نشر الباب الثالث والرابع. خاصةً وأني قد انتهيت ـ ولله الحمد ـ من ترجمتهما والتعليق عليهما.

ولا يسعني إزاء ما أحسّه من توفيق إلاَّ أن أتوجّه إلى خالقي بالشكر، سائلاً إياه أن يوفّقني لخدمة العلم والعلماء.

كتب اللهُ سبحانه لنا جميعاً النجاح والتوفيق.

أ.د أحمد كمال الدين حلمي

البَابُ الأوّل

في
نشأة شعب إيران
ولغته وأدبه وتاريخه العام



الفصل الأول

المقدمة

بقلم إدوارد جرنفيل براون



[9]* كما يبدو من عنوان الكتاب ، فإنه لم يوضع في تاريخ الأسرات الملكية المختلفة التي حكمت إيران ، وإنما وضع في تاريخ شعب إيران . وقد كتب من زاوية خاصة . . وهي الزاوية الأدبية . وبعبارة أخرى فإننا قد خطونا خطوة في سبيل تجلية الخصائص الدينية والمعنوية للإيرانيين ، وبيان عشقهم وحبهم للجمال والذوق والفن ، مما يبدو في كتاباتهم هم أنفسهم أو ما يرى أحياناً في كتابات جيرانهم .

والحق أن هذا الكتاب ليس في تاريخ أدب اللغة الفارسية ، لأن من تحدثوا الفارسية ولم يكونوا من أصل إيراني لم يرد ذكرهم في الكتاب من جهة ، ولأن الحديث قد دار فيه ـ من جهة أخرى ـ حول آثار الإيرانيين الذين عبّروا عن أفكارهم بلغة غير اللغة الأم . فالهند مثلاً لها أدب واسع باللغة الفارسية لا تتجلّى فيه الروح الإيرانية ، ويصدق هذا المعنى أيضاً على بعض الطوائف التي تنحدر من أصل تركي . . ونحن لا نتعرض لذلك الأدب بأية صورة . كما أن الفتح الإسلامي ـ من جهة أخرى ـ قد مرّ عليه أكثر من ١٢٠٠ عام ، وقد كتب الإيرانيون خلال هذه المدة في موضوعات شتّى تتعلق باللغة العربية ، خاصة الحكمة والإلهيات . وهم قد نحوا جانباً ـ تقريباً ـ لغتهم عند كتابتهم في هذه الألوان ، بينما كانت لغة الفاتحين وحدها وسيلتهم للكتابة وتسجيل أفكارهم الأدبية الإيرانية طوال قرنين متصلين يبدآن من بعد حملة العرب .

وباستثناء ما خلّفوه في نطاق الدين الزردشتي القديم . . . فقد كانت

---

* هذه الأرقام التي أوردتها على يمين المتن بالإفرنجية تشير إلى صفحات الكتاب الفارسي الذي قمت بترجمته ، وسوف يحتاجها القارىء عند إستخدام المراجع والفهارس .

(المترجم إلى العربية) .

العربية وحدها هي لغة الايرانيين الأدبيَّة .

[10] ونحن إذا تجاهلنا ما خلّفه الايرانيون من آثار باللغة العربية . . فإننا نكون بذلك قد تجاهلنا الكثير من تجلّيات النبوغ الايراني ، وقصرّنا تمام التقصير في تقدير النشاط العقلي الذي يتميَّز به هذا الشعب الذكي .

معنى لفظ (پرشن Persian):

مفهوم هذه الكلمة كما يستعملها الإنجليز واليونانيون واليهود والسريانيون والعرب وبقية الأجانب أوسع من مفهومها الأصلي . فنحن معشر الإنجليز ندعو الايرانيين بلغتنا (پرشنزPersians) ، وندعو بلاد إيران (پرشيا Persia) بينما يطلق أهالي هذه البلاد على أنفسهم لقب الايرانيين ، ويسمون بلادهم : إيران[1] .

[11] وكانت في هذه البلاد ولاية إسمها فارس[2]، وكانوا يدعونها (پارس) ، ويدعوها اليونانيون (پرسيسPersis) ، وكانت واحدة من بين ولايات عديدة في إيران ، غير أنها لكونها كانت مسقط رأس الأسرة الهخامنشية العظيمة التي كانت

(١) إيران وارانEran وايران Airân التي أطلق عليها في الأفستا: آيريانا، هي موطن الأريين. (اريا في الأفستا إيريا وباللغة السنسكريتية آريا). وطبقاً لهذا فإن مفهوم هذا الإسم بعيد جداً عن لفظ (پرشيا) لأن (پرشيا) هي إيران الحالية نفسها . . أي إيران بمفهوم الكلمة الجديد. وقد كانت بلخ وسغد وخوارزم تشكل قسماً من أرض إيران، وكان الأفغانيون والأكراد إيرانيين.

(٢) لا يوجد حرف (پ) في اللغة العربية ويأخذ حرف (ف) مكانه . وفارس وأصفهان هما معربا پارس وأسپاهان . والفارسية (أو البارسية) هي لغة إيران الرسمية ، (والفارسية في نفس الوقت هي اللغة الأم لمعظم سكان هذه المملكة ، وهي لغة شعب إيران كما أن اللغة الانجليزية لغة شعب بريطانيا العظمى وإيرلاندا) ، ومن هذا المنطلق فإن قولنا اللغة الفارسية يساوي قولنا اللغة الايرانية . ولو قلنا « فارسي » وقصدنا بذلك شخصاً ، فالمراد واحد من أهالي ولاية فارس . وعندما يقولون في الهند لفظ « پارسين » فهم يعنون أتباع الدين الايراني القديم أي الزردشتيين ، وقد عاد هذا اللفظ إلى إيران بنفس المعنى . وقد أطلق بعض الكتاب الأوروبيين على ولاية فارس - بطريق الخطأ - فارسستان ،لأن اللاحقة (ستان) . تضاف إلى آخر الكلمات التي تعني جماعة من الناس ، فتدل على الاقليم الذي تسكنه هذه الجماعة (كقولنا أفغانستان وبلوچستان) ، لكنها لا تضاف إلى إسم إقليم أو ولاية .

تحكم إيران قبل الميلاد بستة قرون ، والأسرة الساسانية العظيمة التي كانت تحكم إيران في القرن الثالث بعد الميلاد ، ولأن هاتين الدولتين كانتا بمثابة الساعد القوي لإيران ، وقد رفعتا إسمها عالياً في مغرب البلاد . . فقد انتشر معنى هذا اللفظ ، وشمل الشعب كله والمملكة بأسرها وهي التي نسميها (برشيا) .

وفي إيران . . اختلط سكان پارثيا وماد وپارس مع مرور الأيام ، وكوّنوا شعباً واحداً هو شعب إيران . ونتيجة لاختلاطهم وامتزاج لهجاتهم ظهرت اللغة الفارسية على مسرح الإستعمال وصارت اللغة الوحيدة لهذه الشعوب . يقول استرابو Strarbo أن الجميع تقريباً كانوا يتحدثون في عهده لغة واحدة)[1] .

اللغة الفارسية في عهد الهخامنشيين :

اللغة الفارسية الحالية وليدة اللغة التي كان يتكلمها كل من كورش وداريوش ، وهي نفس لغة النقوش التي حفرت بأمرهما على صخور بيستون ونقش رستم وجدران وأعمدة تخت جمشيد . وهذه النقوش التي تخص الملوك الهخامنشيين الذين حكموا إيران في الفترة ما بين عام ٥٥٠ ق . م . وسقوط داريوش الأخير على يد الإسكندر الأكبر عام ٣٣٠ ق . م . . مشروحة شرحاً كافياً ومفهومة إلى حد يجعلنا قادرين على أن نحدد الصورة التي كانت عليها اللغة الفارسية منذ ٢٤٠٠ سنة .

[12] إنقطاع سلسلة آثار اللغة الفارسية المكتوبة :

ترتبط أول آثار اللغة الفارسية المكتوبة بالعصور الموغلة في القدم . وهذه الآثار للأسف غير متصلة فهناك شرخان عظيمان يقطعان تسلسلها فيما بين العصر الهخامنشي واليوم ، وذلك بسبب الحملتين الخارجيتين الكبيرتين اللتين حطمتا قوة إيران وأخضعتا الشعب الإيراني لسيطرة الفاتحين :

الحملة الأولى تبدأ مع الإسكندر وتنتهي بهزيمة السلسلة البارثية على يد

---

(١) Strabo XV' 724

الساسانيين ، وهي فترة تبلغ حوالى ٥٥٠ عاماً (٣٣٠ ق.م . ـ ٢٢٦ م .) .

والحملة الثانية تبدأ مع هجوم العرب ، وهي الحملة التي أطاحت بالدولة الساسانية والدين الزردشتي . ومع أن فترتها كانت أقصر بكثير فقد أثرت في شعب إيران وأفكاره ولغته تأثيراً أكثر عمقاً ودواماً .

يقول نولدكه Nöldeke فيما يتعلق بهذا الأمر :

« وقد أثرت الخصائص الروحية والحضارة اليونانية في شعب إيران تأثيراً سطحياً فقط ، ولم تتعد القشرة . . أما الشريعة الإسلامية وسلوك العرب وطرائقهم فقد نفذت في سويداء قلب إيران » .

وقد بدأت الفتوحات العربية مع موقعة البويب والقادسية (٦٣٥ ـ ٦٣٧ م) . وقد سبقت ذلك معارك كمعركة ذي قار التي دارت في عهد خسرو برويز (٦٠٤ ـ ٦١٠ م .) ، واستمرت المعارك حتى نهاية حياة يزد جرد الثالث آخر ملك ساساني (٦٥١ م أو ٦٥٢ م) ، وهنا تأكد النصر العربي وبلغ أوج كماله . ولا يمكننا أن نذكر بصورة قاطعة متى انتهت فترة السيطرة العربية على إيران ، فقد إستمرت سيطرة العرب في تلك البلاد بصورة من الصور حتى حملة المغول على بغداد وقتلهم المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين عام ١٢٥٨ م ، بأمر من هولاكوخان حفيد چنگيزخان بينما كانت سيطرة العرب في الفترة السابقة على ذلك متمثلة في يد أتباعهم من الإيرانيين والأتراك . وكان الإيرانيون والأتراك [13] يفرضون مطالبهم على الخليفة بالمداهنة أحياناً وبالشدة والتجاهل في معظم الأحيان . وبناء على ذلك إنحصرت سلطة الخليفة في بغداد ، ولم تعد له سوى السلطة الروحية ، وخرجت ولايات إيران على الخليفة تباعاً ، وثار عليه أمراء الأقاليم جميعها . . . وصارت طاعتهم له إسمية فقط . وفي ظل هذا التحول عادت الحياة إلى اللغة الفارسية ودبّت فيها من جديد .

قد يرى البعض أن الطاهريين (٨٢٠ م) هم أول من تمرّد من الأمراء ، إلا

أن الحقيقة هي أن الصفاريين أول من فعل ذلك (٨٦٧ م) ، ثم شق السامانيون (٨٧٤ م) والبويهيون (٩٣٢ م) عصا الطاعة ، وأخيراً حرر الغزنويون والسلاجقة أنفسهم تماماً من ربقة الطاعة لبلاط الخلفاء العباسيين .

مراحل تكامل اللغة الفارسية :

بناء على ما سبق فإن تاريخ اللغة الفارسية ينقسم إلى ثلاث مراحل متميّزة ، وهي على النحو التالي :

(١) المرحلة الهخامنشية (٥٥٠ ـ ٣٣٠ ق . م .) : ويميّز هذه المرحلة الأوامر والنشرات التي نقشت بالخط المسماري . ورغم أن عددها لا بأس به إلا أنها متشابهة نوعاً وأسلوباً ، وعدد كلماتها لا يزيد على ٤٠٠ كلمة متفرّقة[١] . وقد دُوّنت هذه الكتابات في جملتها بلغة تعرف بالفارسية القديمة[٢] ، وهي لغة تشاهد في هذه

---

(١) دار مستتر = دراسات حول إيران ، الجزء الأول صفحة Darmesteter, Etudes Iraniennes.V

(٢) أفضل طبعات هذه الكتابات طبعة كاسويج Kossowicz (في سان بطرسبرج ١٨٧٢ م) ، وطبعة اشبيجل Spiegel (لايبزيج ١٨٦٢ م) . وقد كتبت هذه المتون في طبعة سان بطرسبرج بالخط المسماري والحروف الرومية مصحوبة بترجمة لاتينية ، ونقلت في طبعة لايبزيج بالحروف اللاتينية مصحوبة بترجمة ألمانية .

تعليق المترجم : يرى الدكتور بارشاطر أن الطبعات المذكورة أصبحت قليلة الفائدة نظراً لما بات في يدنا من آثار جديدة باللغة الفارسية القديمة وما ظهر من دراسات جديدة في هذا الصدد . وأهم الكتب في هذا الصدد :

L.W. King and R.C. Thompson, The Sculpture and Inscription of Darius thegreat on the Rock of Behistun in Persia, London, 1907.

نقوش داريوش الكبير على لوحة بيستون الحجرية ، طبع لندن ١٩٠٧ م ، تأليف كنج وتامسون ، ويشتمل على النص المسماري وعلى الترجمة الإنجليزية لنقش بيستون.

H.C. Tolman, Ancient Persian Lexicon and the Texts, New York, 1908 «Cuniform supplement». 1910.

كتاب « لغة فارس القديمة » ، تأليف تلمن ، طبع نيويورك ١٩٠٨ م ، ويشتمل على النص بالخط المسماري وعلى ترجمة وفهرس للكلمات وإيضاحات في قواعد النحو .

النقوش دون غيرها .

[14] (٢) المرحلة الساسانية (٢٢٦ - ٦٥٢ م .) : تميَّز هذا العهد عن غيره النقوش التي تعلو الأبنية التاريخية ، وتميزه كذلك الميداليات والأحجار الكريمة

[15] والأختام والعملات ، وما تخلف عنه من مؤلفات تعادل من حيث الحجم كتب العهد القديم (التوراة وصحف الأنبياء والزبور)[١]. وهذه المؤلفات في مجملها تتصل بزرادشت ، وتدور كلها تقريباً حول الدين والصلاة[٢]. وقد استخدم في كتابتها نوع عجيب من الخط يعرف بالهزوارش أو الزوارشن- Zuwareshn). Huzvaresh) ولو أخلينا هذه اللغة من الخط الهزوارشي لنشأت عندنا نفس اللغة الفارسية الحالية المستخدمة في إيران - تقريباً - بنفس صورتها القديمة جداً

F.H. Weissbach, Die Keilinschriften der Achamenidan Leipiz, 1911.

نقوش هخامنشية ، تأليف وايساخ ، طبع ليبزيج ١٩١١م . يشتمل على متون فارسية هخامنشية وعيلامية وبابلية وترجمتها .

E. Herzfeld, Altpersische Inschriften. Berlin, 1908.

نقوش فارسية قديمة ، تأليف هرتسفلد ، طبع شيكاغو ١٩٤٥م . تشمل المتن العيلامي وترجمة اللوحات التي اكتشفت حديثاً ، مع دراسة مفرداتها واصطلاحاتها الإيرانية

R.G. Kent, Old Persian, New York, 1950.

الفارسية القديمة : طبع نيويورك ، تأليف كنت ١٩٥٠م . يشتمل على كل النقوش الفارسية القديمة مع ترجمتها ، وفهرست للكلمات وشرح لقواعد اللغة الفارسية القديمة .

(١) إرجع إلى كتاب وست فيما يختص بمقدار الأدب البهلوي ولغته وعصره ، ص ٤٠٢ . West, On the Extent, Language and Age of Pahlavi Literature. وارجع كذلك إلى الموضوعات الشيِّقة التي كتبها المؤلف نفسه حول الأدب البهلوي في كتاب جايگر وكون الخاص بفقه اللغة الإيرانية ، الجزء الثاني ص ٧٥ - ١٢٩ . Geiger and Kuhn's Grundris der Iranischenphilologie. يقسِّم وست الأدب البهلوي إلى : ترجمة متون الأفستا (١٤١,٠٠٠ كلمة) ، ترجمة متون الموضوعات الدينية (٤٤٦,٠٠٠ كلمة) ، ترجمة متون الموضوعات غير الدينية (٤١,٠٠٠ كلمة) . . والجملة هي ٦٢٨٠٠٠ كلمة .

(٢) تعليق المترجم : يرى الدكتور بارشاطر أن المؤلفات البهلوية لا تدور كلها حول الدين الزردشتي ، فالمؤلفات (درخت آسوريك) ، (خسرو كواذان وريذك) ، (كارنامة اردشير بابكان) على سبيل المثال مواضيعها غير دينية . فضلاً عن أن في يدنا قدراً لا بأس به من المؤلفات المانوية باللغة البهلوية ، ولا صلة له بالدين الزردشتي .

والمهجورة ، قبل أن يدخلها العنصر العربي[1]. ويطلق على هذه اللغة - بصفة عامة - البهلوية ، ويطلق عليها أحياناً الفارسية الوسيطة . والأصح أن نقول إن لفظ بهلوي يُطلق على الخط لا على اللغة ، غير أننا نطلق إسم البهلوية على لغة العهد الساساني الرسمية إتّباعاً منا للعرف والتقليد ، وطبقاً لما هو شائع حالياً .

[16] وقد إستخدم هذا الخط - ولأكثر من قرن بعد إنتصار الإسلام - في الكتابة على السكّة التي ضربها الخلفاء الأوائل والإسپهباديون في طبرستان[2]. وصيغت في نفس المدة على الأقل وطوال عهد الزردشتيين قطعات في الأدب البهلوي . غير أن آخر المؤلفات التي بقيت عن الزردشتيين باللغة البهلوية لا تتخطى القرن التاسع الميلادي[3]. والواقع أن ما نعرفه بالبهلوية لم يعد يستغل منذ ألف علم تقريباً .

(٣) المرحلة الإسلامية (من ٩٠٠ م تقريباً إلى اليوم) . ونقصد بالفارسية الحديثة تلك التي عادت إلى الوجود بعد إنتصار الإسلام ودخول أغلب سكان إيران في الدين الإسلامي .

والفرق بين البهلوية المتأخرة والفارسية الحديثة كما كان يتحدثها المتقدمون ويكتبونها - وذلك باستثناء العنصر العربي الذي كان يسود اللغة الفارسية الحديثة في

---

(١) تعليق المترجم : يقول الدكتور يارشاطر : لا يمكن أن تطابق اللغة البهلوية اللغة الفارسية الحالية رغم إبعاد العنصر الهزوارشي بدوره ، وإن كانت قريبة منها إلى حد كبير .

(٢) تعليق المترجم : استُخدم هذا الخط ما يقرب من قرنين طبقاً لرأي تقي زاده .

(٣) يقول وست في كتابه (ص ٤٣٣ ، ٣٤٦ ، ٤٣٧) : لقد دوّن دينكرد (Dinkart) وبندهش (Pundahish) واردا ويراف نامك في القرن التاسع الميلادي . ويرى أنه من المستبعد أن يكون أحد الشراح الذين ورد ذكرهم في ترجمات الافستا باللغة البهلوية قد كتب بعد القرن السادس الهجري . وطبقاً لرأي دارمستتر فان تدوين بهمن يشت كان فيما بين ١٠٩٩ و١٣٥٠ م . (أنظر كتابه حول إيران ، والجزء الثاني صفحة ٦٩) .
ويورد الكتاب القيم كجستك أبالش(Gujastak Abalish) ، وهو الكتاب الذي ترجمه بارتلمي Bartélemy وقام بتصحيحه ، والذي طبع في باريس علم ١٨٨٧م ، يورد نقاشاً تم بين موبد زردشتي وأبالش مرتد ، ويدور النقاش في حضرة الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣م) ، وبناء عليه فإنه من البديهي أن هذا الكتاب لم يتعدّ تأليفه القرن التاسع الميلادي .

أوائل الإسلام ـ هو فرق الخط فقط[١] . ومسألة الخط في هذه المرحلة من التطور (القرن ٩ م) ترتبط أكثر ما ترتبط بموضوع الدين .

[17] وما زال الشرق يتجه إلى ربط الخط بالمذهب أكثر من ربطه باللغة ؛ فلغة بعض المسيحيين في سورية هي العربية ، لكنهم يفضلون كتابة العربية بالخط السورياني . وتوجد ـ بنسبة لا بأس بها ـ آثار كتبت بالعربية وبخط سرياني وتقرأ كرشني[٢] (بفتح الكاف وسكون الراء وضم الشين) . كما أن الأرمن يكتبون اللغة التركية بخط أرمني ، واليونانيين الترك يكتبون اللغة التركية بالخط اليوناني . ولليهود في إيران مؤلفات مطولة باللغة الفارسية لكنها بالخط العبري . ومغاربة إسبانيا ـ رغم نسيانهم التكلم باللغة العربية ـ يكتبون رسالاتهم الإسبانية بالخط العربي[٣] .

ويرى الشرقيون أن ارتباط الخط البهلوي بالدين الزردشتي أكبر حتى من إرتباط الخط العربي بالدين الإسلامي ، وحين يرتبط أحد الإيرانيين الزردشتيين بالدين الإسلامي فإنه يتبع هذه القاعدة ويتحرر تماماً من الخط البهلوي ، لأنه ليس شاقاً وثقيلاً وبالغ الغموض فحسب بل إنه مخلوط بالكفر ممزوج بالزندقة . يضاف إلى ذلك أنه طالما كان الخط البهلوي مستخدماً في المكاتبة كانت الكتابة ، وحتى القراءة ـ بين الإيرانيين . . باستثناء الموابدة[٤] وأهل اللغة[٥] والكتاب[٦] ـ من نوادر [18] الكمالات .

---

(١) تعليق المترجم : يقول الدكتور بارشاطر : « هناك فرق في النحو واللغة والمفردات بين أقدم صور الفارسية الحالية واللغة البهلوية ـ حتى بعد إستبعاد العنصر العربي ـ وليس الفرق بينهما قاصراً على الخط وحده .

(٢) Karshuni

(٣) لدرجة أنه يقال أن القرويين سكان وديان Alpuxarras ما زالوا يكتبون رسالات الحب والغرام بنوع غير متكامل من الخط ، لا يعتبر عربياً خالصاً .

تعليق المترجم : ربما يقصد المؤلف البشرات Alpugarras التي وردت على هذه الصورة في دائرة المعارف الإسلامية وهي ناحية جبلية في أسبانيا الجنوبية في حدود ولايتي غرناطة Granada والمرية Almeria

(٤) Magopat

(٥) Dastopar

(٦) Dapir

وفي كارنامة أردشير بابكان (كارنامك ارتخشتر بابكان)[1]- اردشير بن بابك مؤسس الأسرة الساسانية - نقرأ واحدة من ثلاث قصص تاريخية بهلوية بقيت لنا صورتها الأصلية[2]، ولم تتلفها يد الزمان[3] . . فنقرأ أن هذا الأمير حين بلغ السن التي يجب عليه فيها أن يتَّجه إلى الدراسات الأكثر رقياً ، تبحَّر في الكتابة والفروسية وبقية الكمالات . . حتى لقد طبقت شهرته آفاق فارس .

[19] كما نقرأ في تاريخ الطبري[4] المؤرخ الكبير - فيما يتعلق بسلطنة شاپور ولد

---

(١) ترجم بروفسور نولدكه (Professor Noldeke of Stasburg) كارنامة اردشير إلى اللغة الألمانية ، وطبع في المجلد الرابع من (Beitrage Zur Kunde des Indogermanischen Sprachen) بمناسبة العلم الخمسين لذكرى حصول البروفسور بنفي P. Benfey على الدكتوراه ، ونشر في علم ١٨٧٩ م في جيتنجن Gottingen (أنظر الصفحتين ٣٨ ، ٣٩ من هذه النشرة ، وانظر العدد التاسع من المجلة المذكورة سابقاً ، والحاشية رقم ٣) .

وقد طبع أصل المتن البهلوي بالخط الرومي مع ترجمة كجرانيه بتصحيح كيقباد وآذرباد نوشروان في بمباي علم ١٨٩٦م .

(٢) القصتان الأخريان إحداهما زرير والأخرى قصة كواذان (كَواتان) وخادمه (يعني خسرو بن كباد أو غباد) . وقد ترجم جايجر قصة زرير في
Sitzungsberichte d. Philos-Philolog. U. histor. Class, 1890.
وأعيد النظر فيها على يد نولدكه وذلك في المجلد السادس والأربعين من نشرة جمعية ألمانيا والشرق من صفحة ١٣٦ - ١٤٥
Zeitschrift d.D. Morgenland. Gesellschaft, pp.136 - 145 Persische Studien 11.
أنظر في ذلك أيضاً مقالة نولدكه الخاصة بدراسات حول إيران .Persische Studien 11 وذلك في المجلد ١٢٦ من Sitzunger d.K. Akkad in wien, Philos-histor. Class pp.1 - 12.

(٣) تعليق المترجم : هناك شك في أن تكون هذه القصص قد بقيت لنا على صورتها الأصلية - كما يقول بارشاطر - فكَار نامه أردشير بابكان كما تشهد المقدمة وغيرها تلخيص للقصة الأصلية ، وقصة يادگَار زريران - بناء على شواهد من لغتها - فيها أصل پارثي .

(٤) إرجع إلى المقال القيِّم الوارد في الطبعة التاسعة من دائرة المعارف البريطانية والمتعلق بالطبري (أبو جعفر محمد بن جرير ، من أهل آمل في طبرستان ، وقد ولد في علم ٨٣٩م وتوفي علم ٩٣٢م) .
ويعتبر نشر متن هذا الكتاب النفيس على يد دخويه .Professor de Goeje of Leyden وسائر العلماء المشتغلين بالعربية أفضل ما تم في ميدان الإستشراق من أعمال . وقد طبعت الترجمة الألمانية للقسم المتعلق =

أردشير وخليفته ـ أن شابور حينما وصل إلى المكان الذي قرر أن يبني فيه مدينة جندي شابور (گندي شابور) تقابل مع شيخ كبير يدعى « بل » ، وسأله ما إذا كان من الجائز بناء مدينة في هذا المكان . فأجابه بل بقوله : « لو كان في قدرتي أن أتعلم الكتابة وأنا في هذه السن المتقدمة لجاز لك أن تبني المدينة في هذا المكان » .

ويقول نولدكه أن الشيخ كان يعني بقوله (وإن يكن قد ثبت خطأه) أن كلا الأمرين محال : تعلّمه وبناء المدينة . وعلى وجه العموم فإن لأحد الفرنسيين رأي مشهور في تعريف الكلام ، وهو رأي يمكن أن يصدق على الخط البهلوي أيضاً . يقول الفرنسي : « الكلام صناعة إخفاء الفكرة » .

وليس للخط البهلوي أي نصيب من القيمة الذاتية إلا في غموضه . كما أنه لم يحظ بحماية الدين والتقاليد القديمة ولا برعاية المتدينين المحافظين ، لهذا لم يستطع الصمود في وجه الخط العربي الذي كان أكثر سلاسة وتناسباً . . خاصة وأن المسلمين كانوا يرون في تعلم الخط العربي شيئاً من الضرورة .

[20] غير أنه إحقاقاً للحق فإن الغرابة التي كانت تتسم بها البهلوية (كما سيتضح قريباً وبصورة واضحة) كانت تتركّز في الخط دون اللغة . وحينما كان الموبد الزرادشتي أو الكاتب في القرن التاسع الميلادي يقرأ في كتاب بهلوي بصوت مرتفع كان الإيراني المسلم يفهمه تمام الفهم . ولو أن هذا المسلم الإيراني سجّل ما سمعه بالخط العربي لجاءت كتابته بالفارسية الحديثة ولكن على النحو القديم المهجور دون أن تمتزج بها الكلمات العربية .

والحقيقة أن التغيرات التي حدثت في أسلوب الحديث الفارسي خلال الفترة ما بين عهد الساسانيين وعهدنا تغيُّرات تافهة إلى حد ما ، بحيث لو تخيلنا أن أحد

= بالساسانين مع مقدمة قيمة جداً مصحوبة بتعليقات وحواشي كثيرة وضعها نولدكه ، وكان طبعها في ليدن عام ١٨٧٩ م تحت عنوان Geschichte der Perser und Araber Zur Zeit der Sasaniden. والقصة التي نقلت هنا مذكورة برُمتها في صفحة ٤١ من الكتاب المذكور .

الدارسين الإيرانيين اليوم قُدِّر له أن يعود إلى الوراء لما قبل ألف وأربعمائة سنة أو ألف وخمسمائة سنة لكان من المحتمل أن يتمكن من فهم قسم كبير من كلام مواطنيه . . أحياءِ تلك الفترة .

والفرق بين اللغة البهلوية واللغة الفارسية القديمة أكبر بكثير من الفرق بين البهلوية والفارسية الحديثة . ولو استطاع أول ملك ساساني - رغم كماله الذي مكّنه من نشر شهرته في كل أنحاء فارس - أن يعود ستة قرون إلى الوراء . . لما أدرك كلمة واحدة مما كان يقال في بلاط الهخامنشيين .

بداية الأدب الفارسي الحديث :

لا يمكن تحديد تاريخ قاطع لبداية الأدب الحديث . ومن المحتمل أنه لم يطل الأمر بالإيرانيين الذين دخلوا الإسلام فشرعوا بعد الفتح العربي - في القرن الثامن الميلادي - في كتابة لغتهم بالخط العربي . ولعل أول أعمالهم في هذا الميدان كتابة مذكرات ورسالات صغيرة حول مبادىء الدين الإسلامي .

[21] وقد سجّلت الكلمات الفارسية المتفرقة وحتى القصص القصيرة المبعثرة ضمن الآثار التي وضعها أول كتّاب العربية . وهذه المتفرقات تؤكد لنا - على الأقل - أن اللغة الفارسية التي كانت متداولة في آخر عهد الساسانيين وأوائل الإسلام هي نفسها اللغة التي نشاهدها في أقدم مؤلفات الأدب الفارسي الحديث .

النثر :

أقدم نماذج النثر الموجودة هي الترجمة الفارسية لتاريخ الطبري الذي أعدّه الوزير البلعمي عام ٩٦٣ م ، وكتاب « الأبنية على حقايق الأدوية » في أنواع الأدوية وخواصّها ، تأليف أبي منصور موفق بن علي الهروي ، (ونسخته الوحيدة بقينا ويرجع تاريخها إلى عام ١٠٥٥ م ، وقد نشر زليجمن طبعتها الجديدة الجميلة

علم ١٨٥٩ م) ، وقد قُدم الكتابان للأمير منصور الأول الساماني . وهناك كتاب آخر يعود زمنه إلى نفس العصر تقريباً وهو الجزء الثاني من التفسير القديم للقرآن (مكتبة جامعة كمبريج ، تحت رقم Mm. 4.15) [١] .

الشعر :

يُعتــقد أن النظم كان في الفارسية والعربية أسبق في الوجود من النثر . وهناك قصة تناقلها عدد من كتّاب التذاكر الإيرانيين (ومن بينهم دولتشاه) ، وقد نسبوا فيها أول بيت فارسي لبهرام گور الساساني (٤٢٠ ـ ٤٣٨ م) وجاريته دلارام [٢] .

[22] وقد نقل كاتب آخر من كتاب التذاكر (وهو بالتأكيد أبو طاهر الخاتوني أحد كتاب القرن الثاني عشر الميلادي) بيتاً كان منقوشاً على جدران قصر شيرين (محبوبة خسرو برويز ٥٩٠ ـ ٦٢٨ م) . ويقال إن هذا البيت كان ما يزال يقرأ حتى عهد عضد الدولة آل بويه (القرن العاشر الميلادي) [٣] .

ويروي كاتب آخر من كتاب التراجم أن كتاباً من كتب العصور القديمة أهدى يوماً إلى الأمير عبد الله بن طاهر في نيشابور (توفي سنة ٨٤٤ م) ، وكان يحوي بين دفتيه القصة الشيّقة « وامق وعذرا » التي دونّها عظماء القوم وقدّموها لأنوشيروان (٥٣١ ـ ٥٧٩ م) . وذكر هذا الكاتب أن الأمير أمر بإتلاف الكتاب ، وقال : المسلمون يكفيهم القرآن وأحاديث الرسول ، وهذا كتاب كتبه

---

(١) إرجع إلى شرحي حول التفسير القديم للقرآن (مجلة الجمعية الأسيوية الملكية ، يوليو ١٨٩٤ م ، ص ٤١٧ ـ ٥٢٤) وارجع إلى فهرست الكتب الخطية الفارسية مكتبة جامعة كمبريدج ، ص ١٣ ـ ٣٧ .

(٢) تذكرة دولتشاه (طبع براون ص ٢٨ ، ٢٩)، علم عروض الإيرانيين وقوافيهم ، تأليف بلوشمن ص ٢ ، وانظر : الجمل الأولى من « بداية الشعر الفارسي ونشأته » بقلم دار مستتر Darmesteter

(٣) أنظر : شرح كازيمير سكي على ديوان منوچهري ، طبع بلريس ١٨٨٦ ص ٧
A. de Biberstein Kazimirski, Divan de Menoutchehri (Paris, 1886).

وانظر تذكرة دولتشاه ، ص ٢٩ .

المجوس فهو في نظرنا ملعون[1] .

ولدى دولتشاه قصة أخرى ينسب فيها أول سطر فارسي موزون إلى طفل أنشده وقت لعبه ومرحه . هذا الطفل هو ابن يعقوب بن الليث الصفاري زعيم الأسرة الصفارية (٨٦٨ - ٨٧٨ م)[2] .

[23] وكان محمد عوفي صاحب أقدم كتاب في تراجم أحوال شعراء إيران[3] يعيش في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي (١٢١٠ - ١٢٣٥ م) . وقد صرّح بأن أول ناظم للشعر الفارسي هو عباس المروزي ، الذي امتدح الخليفة المأمون بن هارون الرشيد عندما قدم إلى مرو علم ٨٠٩ م بقصيدة فارسية نقل عوفي قسماً من أبياتها . ورغم أن بعض المشاهير[4] قد تقبّلوا هذا الكلام الصريح على أنه حقيقة تاريخية ، فإن البعض[5] قد أبدى تشككه . والذي يمكننا أن نؤكده هو أن الأدب الفارسي

---

(١) أنظر كازيمرسكي : ديوان منوجهري ، الصفحات ٦ - ٧ ، تذكرة دولتشاه ، طبع براون ص ٣٠ .

(٢) أنظر : كازيمرسكي : ديوان منوجهري ، الصفحات ٧ - ٨ ، تذكرة دولتشاه ، طبع براون ص ٣٠ - ٣١ .

(٣) كتاب لباب الألباب نادر جداً ، ليس له سوى نسختين خطيتين ، إحداهما نسخة اشبرنگر Sprenger (فهرست برج Pertsch بمكتبة برلين ، ورمزها ٣١٨ ورقمها ٦٣٧) ، والنسخة الأخرى مملوكة للورد كرافورد Lord Crawford وبالكارس Balcarres . وهذا الكنز الثمين أصبح في يدي بفضل كرم صاحبه ، وقد عولت على نشره ضمن سلسلة النصوص التاريخية الإيرانية . وكانت هذه النسخة ملكاً لجون بارد اليوت John Bardo Eliot قبل أن يودعها أمانة لدى نثانيل بلند Nathaniel Bland. وقد وصف بلند الكتاب في المجلد التاسع من المجلة الملكية الأسيوية علم ١٨٤٦ ص ١١١ ، ١٢٦ . أنظر الصفحات من ١ - ٦ من الفهرست الذي رتبه اشبرنجر لمكتبات الملك أوOude .

(٤) أنظر ما كتبه كازيمرسكي على سبيل المثال حول ديوان منوجهري ، ص ٨ ، ٩ A. debiberstein). Kazimirski)

(٥) تعليق المترجم : أنظر دراسة المرحوم ميرزا محمد خان قزويني : مقالة أقدم شعر فارسي (كتاب بيست مقاله ، الجزء الأول ، باهتمام بور داود ، ضمن سلسلة انتشارات الجمعية الزردشتية الإيرانية ، بمباي ١٩٢٨ م) .

وانظر : كتاب ترانـي للدكتور سعيد خان الكردستاني ، الطبعة الحجرية ١٩٣٥ م - ١٣٠٩ ش . هـ .

الحديث ، وخاصة الشعر ، قد ازدهر في خراسان في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي ، وتحقّق ذلك بصفة خاصة في فترة حكم نصر الثاني السامانى (٩١٣ - ٩٤٢ م) ، ويصدق هذا القول على فترة تبلغ الألف علم تقريباً .

ولقد كانت التغيرات التي حدثت في اللغة الفارسية خلال هذه المدة قليلة إلى [24] حد جعل أشعار القدامى كالرودكي تبدو في نظر الإيرانيين المعاصرين واضحة شأن أشعار شكسبير بالنسبة للإنجليز من المعاصرين .

ويجب ألا تؤخذ الخرافات التي تدور حول نشأة الشعر الفارسي مأخذ الجد فهي لا تزيد عما قاله كبار الكتاب المدققين العرب أمثال الطبري (المتوفى سنة ٩٢٣ م) والمسعودي (المتوفى سنة ٩٥٧ م)[١] حول نشأة الشعر . فقد روى المؤرخان المذكوران أن أول شعر خرج إلى الوجود هو مرثية باللغة السريانية نظمها آدم في موت هابيل ، ونصّها بالعربية كما وردت لدى الطبري والمسعودي[٢] :

تغيّرت البلاد ومن عليها ... فوجه الأرض مغبر قبيح

تغيرّ كل ذي لون وطعم ... وقل بشاشة الوجه الصبيح

وقتل قاين هابيل ظلما ... فوا أسفا على الوجه المليح

فمالي لا أجود بسكب دمع ... وهابيل تضمّنه الضريح

أرى طول الحياة على غما ... وما أنا من حياتي مستريح

ويقال إن إبليس قد أجاب على ذلك المضمون بقوله :

تنح عن البلاء وساكنيها ... فقد في الأرض ضاق بك الفسيح

وكنت وزوجك الحواء فيها ... آدم من أذى الدنيا مريح

---

(١) الجزء الأول من كتاب الطبري ص ١٤٦ ، الجزء الأول من مروج الذهب للمسعودي (طبع باربيه دومينار Barbier de Meynard) ص ٦٥ - ٦٧ ، قصص الأنبياء للثعالبي (طبع القاهرة ١٣٠٦ هـ) ص ٢٩ - ٣٠ ، دولتشاه (طبع براون) ص ٢٠ .

فما زالــت مكايدتــي ومكري إلى أن فاتــك الثمــن الربيح
فلـولا رحمـة الرحمــن أضحت بكفك من جنان الخلد ريح[1]

وهناك أسطورة تتعلق بوجود الشعر الفارسي حتى في عهد الساسانيين . ونحن نصادف هذه الأسطورة دائماً في مؤلفات المشاهير من قدامى الكتّاب[2]. وهم [26] يختلفون في اسم المُغنّي الذي تدور حوله الأسطورة ، فهم يذكرونه بصورتين . ومرجع ذلك في رأينا هو أن الشكلين قد نقلا من أصل بهلوي بنفس صورتيهما . . . ولا يمكن إفتراض غير ذلك . ولهذا ، ففي رأيي أن الأسطورة المذكورة جديرة بالاهتمام . وتذكر الأسطورة أن بلاط الملك الساساني خسرو پرويز

---

(١) تعليق المترجم : نقلت هذه المنظومة من صفحتي ٢٦ ، ٢٧ من مروج الذهب للمسعودي الجزء الأول ، طبع القاهرة عام ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م .

(٢) أول إشارة أبصرتها عن (بهليد) في كتاب عربي كانت في أشعار خالد بن فياض (في حدود عام ٧١٨ م) ، وقد نقلها الهمداني وياقوت والقزويني ، وطبعت ترجمتها في صفحتي ٥٩ ، ٦٠ من مجلة الجمعية الأسيوية الملكية ، عدد يناير ١٨٩٩ م . وقد شرحها ابن قتيبة (المتوفى ٨٨٩ م) شرحاً مسهباً إلى حد ما وذلك في كتابه عيون الأخبار (نسخة متحف سان بطرسبرج الخطية ، تحت رقم ٦٩١) ، والجاحظ (المتوفى ٨٦٩ م) في كتابه : الحيوان (نسخة كمبريدج الخطية ، تحت رمز Qq.. ٢٢٤) ، والهمداني (في حدود ٩٠٣ م) طبع دوخويه De Goeje ، مؤلف كتاب المحاسن والأضداد (طبع Van Vloten الصفحات ٣٦٣ - ٣٦٤) ، وربما ذكره البيهقي (في حدود عام ٩٢٥ م) ، ابن عبد ربّه (المتوفى عام ٩٤٠ م) ، (الجزء الأول ص ١٩٢ ، وفي ص ١٨٨ من طبعة أخرى) ، وأبو الفرج الأصفهاني (المتوفى ٩٥٧ م) في كتاب الأغاني ، ياقوت (المتوفى ١٢٢٩ م) الجزء الثالث ص ٢٥٠ وما بعدها ، آثار البلاد للقزويني (المتوفى ١٢٨٣ م) ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ . وممن أشاروا إلى هذا المطرب من بين كتّاب الفارسية كاتب يدعى شريف المجلدي (تاريخه غير معروف بصورة قاطعة - ينقل ذلك نظامي عروضي السمرقندي في چهار مقاله) كما أشار إليه الفردوسي في شاهنامته (توفي حوالى ١٥٤ م) .
المترجم : (هناك خطأ في الطبعة ، فقد ورد تاريخ الوفاة في مكان آخر على أنه في حدود ٤١١ هـ - ١٠٢٠ م) . وأشار إليه نظامي الگنجوي (المتوفى في حدود عام ١٢٠٣ م) في خسرو وشيرين . نظامي عروضي السمرقندي (المتوفى في حدود عام ١١٦٠ م) ، محمد عوفي (في حدود عام ١٢٢٨ م) ، حمد الله مستوفي القزويني (في حدود عام ١٣٤٠ م) في تاريخ گزيده .
وقد زوّدني البارون روزن والكتاب مائل للطبع بأسماء بعض الكتب التي ذكرتها آنفاً ولم أكن قد سطرتها ، فأنا مدين له بشكري .

(٥٩٠ ـ ٦٢٧ م) كان يزدان بمطرب يسمّيه الكتّاب الإيرانيون (باربد) ، بينما يسميه المؤلفون العرب (بهلبد[١]، فهلبد) (بفتح الفاء واللام وسكون الهاء والدال)[٢]، أو (بهلبد) (بفتح الباء واللام وسكون الهاء والدال)[٣].

والشكل الأول ـ وهو بهلبت ـ يدل على أصله البهلوي[٤]. ولو كتب الاسم (بهلبد) والاسم (باربد) بالخط العربي لما حدث اللبس بينهما بسهولة . أما كتابتهما بالخط البهلوي فيجعل التفرقة غير ممكنة ، لأن كل اسم يكتب بشكل يخالف الآخر .

وفي الخط البهلوي علامة واحدة للحرف A والحرف H ، كما أن الحرفين L R يكتبان فيه بصورة واحدة . وهذه المسألة في حدّ ذاتها تدل على أن الأساطير التي تدور حول هذا المطرب منقولة عن الكتب البهلوية وعن مصدر يتعلق بعصره . ومراعاة منا للسهولة سوف نكتب اسمه على هذا النحو :(باربد)،إلا في الفقرات التي ننقلها من النصوص العربية . وقد كان بين باربد والرودكي شاعر السامانيين ـ [27] كما ذكرنا في موضع آخر[١] تشابه عجيب . وكان الرودكي يعيش في أوائل القرن العاشر الميلادي .

وقد جمع شاعر قديم بين اسمي هذين المطربين ، ونعني به شريف الجرجاني (أبو شريف أحمد بن علي المجلدي الجرجاني) ، حين قال في أشعاره :

ـ كل ما بقي عن آل ساسان وآل سامان من كل نعم هذه الدنيا . .

---

(١) Bahlabad

(٢) Fahlabad

(٣) Belahbad

(٤) Pahlapat

(٥) إرجع إلى مقالتي في مجلة الجمعية الأسيوية الملكية ، عدد يناير ١٨٩٩ م ، ص ٣٧ ـ ٦٩ فيما يتعلق بملكشاه ، والموضوعات التي أعدت وجمعت بخصوص تاريخ الأدب في إيران ، والتكملة الخاصة بباربد والرودكي .

ـ هو ثناء الرودكي ومديحه ، وصوت باربد وقصته[1] .

ومن أعجب ما كتب عن سيرة الرودكي ووقع في أيدينا قطعة أنشدها هذا الشاعر في حضرة الأمير نصر بن أحمد الساماني كي يحثه على الإنتقال إلى بخارى ، ويصرفه عن هرات ونعيمها ومسراتها ، وكان قد قضى بهرات أربع سنوات بعيداً عن بخارى .

وقد لاحظ من تعرضوا لهذا الحدث أن أشعار الرودكي سهلة للغاية ، وخالية تماماً من الزينات والمحسّنات البديعية والمعاني والبيان .

وقد أشاد البعض ـ أمثال نظامي عروضي السمرقندي ـ بسهولة هذه الأشعار ، غير أن آخرين ـ أمثال دولتشاه ـ لم تقع لديهم موقع الإستحسان ، وأبدوا عجبهم من تأثيرها العميق رغم بساطة كلماتها . والقطعة في الحقيقة تخلو من التكلّفات والصناعات الشعرية والمبالغات ، ومن العبارات التي كانت تَلقى في عصور الانحطاط هذه كثيراً من المديح والإستحسان . ويرى دولتشاه أن مثل هذا الشعر لو أنشده شخص في حضرة الملوك والعظماء لتعرّض للومهم وتقريعهم . ويرجع السبب فيما حظي به هذا الشعر من إهتمام بالغ إلى مهارة منشده في علم الموسيقا ، وفرط تمكّنه من إستخدام آلته الموسيقية ، وحسن صياغته للحن مع جمال صوته ودقّة أدائه .

[28

وهذه أشعار الرودكي[2] :

ـ تهب رائحة نهر موليان نحونا فتحمل إلينا ذكرى حبيبنا

(١) نص البيتين بالفارسية :

ازآن چندان نعيم اين جهاني كه ماند ازآل ساسان وآل سامان

ثناء رودكي مانده است ومدحت نواي باربد مانده است ودستان . .

النص الفارسي :

(٢)

بوي جوي موليان آيد همي ياد يار مهربان آيد همي =

- ونحس حصى آمو وعلظته كالحرير تحت أقدامنا
- وماء نهر جيحون لفرط بشاشة الحبيب . . يبلغ وسط جيادنا
- فاسعدي يا بخارس ودومي فسوف يحل الأمير عليك ضيفا[1]
- الأمير قمر وبخارى سماء والقمر يأتي صوب السماء
- الأمير سرو وبخارى بستان والقمر يتجه نحو البستان

ويقول نظامي عروضي السمرقندي ، صاحب أقدم مرجع لهذه القصة :

حينما طرق الرودكي هذه النقطة بشعره انفعل الأمير إلى حدّ أنه نزل عن عرشه وامتطى جواده دون أن ينتعل حذاءه ، وانطلق صوب بخارى . وحين أعطوه حذاءه وسرواله كان قد قطع فرسخين ، فارتداهما ، ولم يتوقف إلا عند أبواب بخارى . وأخذ الرودكي مبلغ الخمسة آلاف دينار مضاعفة[2] (وكان الجنود قد وعدوه بهذا المبلغ إذا وُفّق في مسعاه) .

[29] نستنتج من هذا أن الرودكي كان شاعراً حلو الصوت ، يجيد التلحين والتأليف ، ويرتجل الشعر أثناء الغناء . ولعله يشبه مطربي هذا الزمان الذين يدخلون السرور في مجالس الطرب الإيرانية على الضيوف بموسيقاهم وتآليفهم وغنائهم . والرودكي - كما قلنا - شبيه بباربد أو بهلبد العهد الساساني . ويخصُّ الإيرانيون عشر أشخاص بالتعظيم ، ويضعون كل واحد منهم في منزلة لا يدانيها

= ريگ آموي ودرشتي هاي أو زير پايم برنيان آيد همي
آب جيحون از نشاط روي دوست خنگ مارا تاميان آيد همي
أي بخارا شاد باش وشاد زي مير سويت ميهمان آيد همي
ميرماه است وبخارا آسمان ماه سوى آسمان آيد همي
مير سرو است وبخارا بوستان سرو سوي بوستان آيد همي

(١) تعليق المترجم : ورد هذا البيت في چهار مقاله لعروضي السمرقندي (طبع القزويني ، الذي أعاد الدكتور محمد معين طبعه مع شرح مفرداته وتوضيح بعض النقاط الأدبية ، في طهران عام ١٣٣١ هـ ش) ، على النحو التالي :

أي بخارا شاد باش وديرزي ميرزي نوشادمان آيد همي

(٢) چهار مقاله ، الطبعة المذكورة ، ص ٥٣ .

غيره ، وأحد هؤلاء هو باربد . ويكفينا أن نذكر تدليلاً على كفاءته وحظوته أن القوم كانوا يلجأون إليه ليبلغ مولاهم خسرو برويز ما يخشون البوح به لديه ، فكان باربد يستخدم عبقريته وفنه في إبلاغه بما يريدون في ثنايا أشعار يصوغها وينشدها بين يديه .

يروى أن أبرويز كان يمتلك حصاناً إسمه شبديز يفوق غيره جمالاً وذكاء ، وقد أحب هذا الجواد حباً جعله يقسم أن يقتل من يبلغه خبر موته . وتصادف أن مات الجواد ، فتوسَّل الأمير خورشاه إلى باربد أن يخبر الملك في ثنايا أشعاره . وأدرك الملك بفراسته ما استهدفه باربد فصرخ في ألم : ويحك ، هل مات شبديز ؟ فهتف باربد : قد قالها الملك .

وهكذا انتهى تأثير قَسم الملك وكتبت له النجاة . وقد نقل هذه القصة ـ بعد قرن تقريباً من وفاة خسرو برويز ـ شاعر عربي يدعى خالد بن فياض :

والملك كسرى شهنشاه تقنصه ... سهم بريش جناح الموت مقطوب

إذ كان لذته شبديز يركبه ... وغنج شيرين والديباج والطيب

بالنار آلى يميناً شدَّ ما غلظت ... أن من بدى فنعى الشبديز مصلوب

حتى إذا أصبح الشبديز منجدلاً ... وكان ما مثله في الناس مركوب

ناحت عليه من الأوتار أربعة ... بالفارسية نوحا فيه تطريب

30] ورنم البهليد الأوتار فالتهبت ... من سحر راحته اليسرى شبابيب

فقال مات فقالوا أنت فهت به ... فأصبح الحنث عنه وهو مجذوب

لولا البهليد والأوتار تندبه ... لم يستطع نعي شبديز المرازيب[1]

أخنى الزمان عليهم فاجرهدَّ بهم ... فما يرى منهم إلا الملاعيب[2]

وقد حملت لنا العصور المتأخرة ـ هي الأخرى ـ اسم منشدين آخرين ، لا

---

(١) سقط هذان البيتان من الترجمة الإنجليزية .

(٢) تعليق المترجم : نقلت هذه الأشعار عن ياقوت الحموي ، طبع ليبزج ، جـ ٥ ص ٢٥٢ .

نعرف عنهم غير أسمائهم ، ومن بينهم آفرين وخسرواني ومادرستاني[1] ونكيسا[2] عازف الصنج .

وتفاصيل حياة هؤلاء المنشدين ومعلوماتنا عنهم تقل كثيراً عما نعرفه عن باربد ، ولم يصل إلى آذاننا من أنغامهم التي صاغوها سوى رجع الصدى . ولا يمكننا أن ننكر أن قاعات الساسانيين وقصورهم كانت تنعم بألحان المغنين وأصواتهم ، وأن ذلك كان له صداه في العصر الإسلامي على الأقل . فبقدر ما كان أسلوب النظم الفارسي الحديث وعروضه وقوافيه تنحو نحواً عربياً . . فإن جزءاً من أقسام الشعر الفارسي ـ من بينه الرباعي والمثنوي ـ كان كما تنطق به الشواهد . . من ابتكار الإيرانيين أنفسهم .

ويرى دارمستتر ـ على ما يبدو[3] ـ أن القصص المنظوم ـ كان له وجوده في إيران حتى في عهد الهخامنشيين . ونحن نود قبول هذا الرأي ، ولكن هل هناك في يدنا من الوثائق ما يكفي لإثباته ؟ . إن هذه المشكلة أصعب من أن تحلّ في بحثنا هذا .

[31] نظرة أوسع لشعب إيران :

لقد كنا حتى كتابة هذه السطور نقوم بدراسة تاريخ اللغة الفارسية بالمعنى المحدود لهذه الكلمة ، والآن يجب أن نوسّع ميدان البحث بحيث يشمل كل شعب إيران ويستوعب آثار إيران الأدبية . والميدان الذي نرده الآن ميدان جديد ، وما قطعناه فيه حتى اليوم لا يطمئن كثيراً ، وستواجهنا منذ الآن مشاكل غاية في التعقيد ، وسنلجأ في حلها غالباً إلى الحدس والتخمين .

والأسرة الهخامنشية التي بدأنا دراساتنا بها هي أقدم أسرة ملكية تاريخية في

---

(١) كتاب المحاسن للبيهقي (طبع Van Vloten) ، ص ٣٦٣ .

(٢) نظامي الكنجوي : خسرو وشيرين .

(٣) نشأة الشعر الفارسي ، بقلم دار مستتر ، باريس ١٨٧٧ م .
Darmesteter, Origines de la Poésie persane (Paris, 1877).

إيران . ولما أفل نجم هذه الأسرة بزغ نجم دولة لا تقلّ عنها شهرة وذيوع صيت ، ونعني بها دولة ماد . والماديون - طبقاً لمفهوم الكلمة الحديث - هم في الواقع إيرانيون ، ينتمون إلى غرب إيران لا جنوبها ، وعاصمتهم هي اكباتان (هگمتانه[1] في النقوش الفارسية القديمة ، وهمدان الحالية) وليست پرسپوليس ولا تخت جمشيد ولا مدينة استخر الساسانية التي تقع قرب شيراز عاصمة ولاية فارس . ولا يمكن تحديد حدود ماد الحقيقية على وجه الدقة ، غير أنه يمكن القول تخميناً أنها كانت تحد من الشمال بجبال آذربيجان (آتروپاتن)[2] ومن الجنوب بشوش وخوزستان ، ومن الشرق بجبال زاجروس[3] حتى قرب خط طهران وأصفهان الحديدي الجديد . وبناء على ذلك فإن ماد بتعبير آخر تشمل كردستان ولرستان والقسم الشمالي من خوزستان والقسم الغربي من العراق العجمي والقسم الجنوبي من آذربيجان . وقد برزت قوة الميديين بين رجال الجبال ، وتبدّت جسارة أهالي هذه المنطقة الواسعة . وقد اختفى اسم ماد من موطنها الأصلي بينما بقي إسم إيران . غير أن ما ذكره دولاجارد[4] والسهاوزن[5] يؤكد أن هذا الإسم ظلّ مستعملاً حتى العصر الإسلامي ولكن بصورة أخرى وهي كلمة (ماه) ، ويلفظونها بالفارسية القديمة (مادا) . وكانت هذه الكلمة (ماه) تستعمل كجزء من اسم بعض الولايات أمثال ماه كوفه وماه بصره وماه نهاوند[6] . [32

---

(١) Hagmatana

(٢) Atropatene

(٣) Zagros

(٤) de Lagarde

(٥) Olshausen

(٤) تتبع الدكتور هايد Dr.Hyde - عالم كمبريج المشهور وتلميذ أبراهام فهيلاك Abraham Wheelock - مادة كلمة ماه ، وذكر أنها نفسها (مادا) .

أنظر Vet. Pers. Relig. Hist. ed. 1760, p.424. هذا وقد نال هايدن منصب أستاذ اللغة العبرية والعربية وأمين مكتبة بودلين ، وذلك في أواخر حياته .

مصادر ماد التاريخية :

وعلى خلاف البارسيين . . فإنه لا يوجد في أيدينا لسوء الحظ أثر يتعلق بالماديين حتى الآن . وإذا أردنا معرفة شيء عنهم فإننا نضطر إلى الاعتماد على الآثار التي خلفتها لنا الشعوب الأخرى كالآشوريين واليهود واليونانيين الذين كانوا يعرفون أحوالهم بطريق مباشر أو غير مباشر .

آثار الآشوريين :

أما فيما يتعلق بآثار الآشوريين فقد ورد في نقش تيجلات بيسلر[1] (حوالى ١١٠٠ ق . م .) أن امدن (بفتح كل الحروف)[2] أي (همدان) عاصمة ماد كانت جزءاً من الأراضي التابعة لآشور[3] . كما ورد ذلك أيضاً في نقش يعود تاريخه إلى القرن التاسع قبل الميلاد . ويفخر شلمنسر سرجون[4] (٧٣١ ـ ٧١٣ ق . م) بأن اسمه كان إذا ما سمع في أقصى بلاد ماد استولى الرعب على سامعيه . وقد أشار خليفته سناخريب[5] ، كما أشار اسرهدون[6] (٦٨٠ ـ ٦٦٩ ق . م) إلى نفس الموضوع .

آثار اليهود :

نقرأ في التوراة ـ كتاب الملوك الثاني ، الفصل السابع عشر ، الآية السادسة ـ أن « هيوشع »[7] ملك آشور (٧٢٢ ق . م .) قد أسر شومرون[8] في

---

(١) Tiglath Pilesser
(٢) Amadana
(٣) Spiegel, Eränische Alterthumskunde. 11. 246.
(٤) Salmonassar Sargon
(٥) Sennacherib
(٦) Esar - Haddon
(٧) Hoshea
(٨) Samaria

العام التاسع كما أسر إسرائيل ، وأنّه حملها إلى آشور ، وأنزلها في حلح[1] وحابور[2] على شاطىء نهر جوزان[3] والمدن الميدية . وقد تكرر ذلك القول ثانية في الآية الحادية عشر من الفصل التالي[4] .

مآثر هيرودوت وكته زياس اليونانية :

ومن بين المؤرخين الذين تُعَدُّ آثارهم المرجع الأول لهذه الفترة ، نذكر ـ للوهلة الأولى ـ هيردوت لأن أقواله صحيحة ، وتشهد بصحتها النقوش المسمارية من جهة ، ولأن كتابه التاريخي هو الذي بقي لنا كاملاً من بين ثلاثة أعمال تاريخية .

أما كته زياس[5] فكان يعيش في القرن الخامس قبل الميلاد ، وقد بلغ حداً من النضج جعل منه طبيباً لارتاكزرگسيس منمون[6] أو أردشير الثاني . وقد ادعى أن دراساته مبنية على ما رآه في الدفاتر والأوراق الملكية الإيرانية .

وهذا القول في حدّ ذاته يدلّ على الأقل على أن هناك وجوداً لهذه الوثائق (الدفاتر والأوراق المكتبية) . كما أننا نقرأ في التوراة (كتاب أستير « استر »[7] ، الفصل السادس ، الآية الأولى) أن الملك احشويروس[8] عندما أحسّ بعدم قدرته على النوم أمر بإحضار الكتاب الذي يسطرون فيه الأخبار ويسجلون الأحداث ، وأن يقرؤوه في حضرته .

وقد جاء في (الفصل الثاني ، الآية ٢٣ من كتاب أستير) أن بگثان[9]

---

(١) Halah (٢) Habor

(٣) Gozan

(٤) Noldeke, Aufsätze zur persischen Geschichte (leipzig 1887). p.5

(٥) Ctesias (٦) Artaxerxes Mnemon

(٧) Ssther (٨) Ahasueras

(٩) Bigthan

وتيرش[1] ـ سيدي قصر الملك وحارسي عتبته ـ حين غضبا ووجدا الفرصة سانحة تطاولا على الملك احشو بروش ، وحاولوا قتله ، ووقف مردكي (مردخاي)[2] على تفاصيل المؤامرة ، فأخبر الملكة استير . « وقد كتبت هذه القصة في كتاب التواريخ بحضور الملك » .

والآن نتساءل : ألم يفهم كته زياس هذه الآثار جيداً أم أنه حرَّفها عن عمد وصحَّفها ، أم أن هذه الآثار في حد ذاتها مفتعلة ملفقة ؟ (ويمكن إدراك ذلك بتطبيق المقاييس الجديدة) . وأرجح الآراء هو أن هذه القصة غير موثوق بها ، فالكثير من الكتّاب التالين أمثال فوتيوس[3] (٨٢٠ ـ ٨٩١ م) لم ينقلوا غير قسم منها .

بروسوس :

وبروسوس[4] ـ وهو أحد رجال الدين الكلدانيين المعاصرين للإسكندر الأكبر وخلفائه التالين له مباشرة ـ قد قام بترجمة تاريخ بلاده إلى اللغة اليونانية لولي نعمته انتيوخوس[5] ملك سوريا . وقد بقيت لنا مجرد قطعات من كتابه تضمَّنتها مؤلفات الكتّاب الذين جاؤوا بعده . ومن هؤلاء الكتّاب بلي هيستور[6] وأبولودوروس[7] (القرن الأول قبل الميلاد) ، وقد سجَّل سيرتها أوسبيوس[8] وسينسلوس[9] .

يقول هيرودوت : كان الماديون أول شعب حرَّر نفسه من نير آشور ، ونال إستقلاله بعد ٥٢٠ عاماً من تبعيته لها ، وذلك في عام ٧٠٠ ق . م.

[35] وبعد عام أو عامين من الإستقلال جلس ديوكس[10] أول ملوك ماد على

---

(١) Tiresh
(٢) Mordecai
(٣) Photius
(٤) Berosus
(٥) Antiochus
(٦) Polyhistory
(٧) Apollo dorus
(٨) Eusebius
(٩) Syncellus
(١٠) Deiocus

العرش . ديوكس : ويذكر هريدوت أربعة من ملوك ماد ويبتدئهم بديوكس . وفي مؤلف آشوري يرجع تاريخه إلى عام ٧١٥ ق.م . يرد اسم دياوكو[١] وهو نفسه ديوكوس الذي وقع في الأسر . وفي عام ٧١٣ ق.م تمكن سرگون[٢] ملك آشور من إخضاع أسرة دياوكو أو ديوكوس لطاعته .

فرا ارتس[٣]: سجلت النقوش الفارسية القديمة هذا الإسم على الصورة التالية : فرڤرتش[٤]. وقد أصبح فرا ارتس سلطاناً على ماد في عام ٦٤٧ ق.م ، وأصبح البارسيون ـ شأنهم شأن الماديين من مواطنيه ـ تابعين له ، خاضعين لنفوذه وسلطانه .

كيا گزارس :

وفي عام ٦٢٥ ق.م. آل الحكم إلى خليفته كياگزارس[٥] (هو فخشتر)[٦]. وقد خرب كياكزارس نينوا في عام ٦٠٧ ق.م. بمساعدة ملك بابل ورفقته ونتيجة لكسوف الشمس الكامل الذي وقع في الثامن والعشرين من شهر مايو في ذلك العام ، وفسرهٌ الطرفان المتحاربان على أنه غضب إلهي ، تصالح كياگزارس مع الليديين عام ٥٨٥ ق.م. ويحتمل أنه مات في نفس العام ، وحلّ محله ابنه استياك[٧].

استياك :

وقد أسقط كورش الهخامنشي استياك في عام ٥٥٠ ق.م. ، ونقل السلطة من يد الماديين في غرب إيران عام ٥٥٠ ق.م. إلى البارسيين في جنوب إيران .

---

(١) Dayaukku
(٢) Sargon
(٣) Phraortes
(٤) Faravartish
(٥) Cyaxares
(٦) Havakhshatara
(٧) Astyages

ونحن في بحثنا هذا لا تهمّنا أعمال الميديين ولا بطولتهم ، وما يهمّنا بالفعل هو موضوعان ، أولهما : لغتهم . . . ما هي ؟ وثانيهما : أيّ دين كانوا يعتنقون ؟

[36] لغة الماديين :

الرأي السائد والذي أرجّحه وربما يكون أقرب للصحة هو أن الماديين من أصل إيراني ، وأنهم كانوا يتحدثون إحدى اللغات الإيرانية التي ترتبط بالفارسية القديمة بصلة قرابة شديدة[1] .

ويرى نولدكه نفس الرأي ، فهو يقول في نهاية حديثه حول الإمبراطورية المادية[2] : « ربما تكشف الدراسات الدقيقة يوماً عن آثار أخرى يرجع تاريخها إلى العهود السابقة ، أو تكشف الحفريات فيما جاور همدان عن أشياء هامة . وحينما يُعثر على نقوش ترجع إلى ملوك الماديين فسوف تكون لها أهميتها البالغة . وفي تصوري أن خط مثل هذه النقوش ولغتها سوف يشبهان تمام الشبه خط ملوك بارس ولغتهم » .

وهنا نفصّل الحديث حول رأي دار مستتر الذي يمضي إلى أبعد من ذلك فيقول إن لغة الأفستا التي تسمى (الزند) هي لغة ماد .

[37] ويقول دارمستتر بعد أن يقيم الأدلة على صحة رأيه[3] :

---

(١) تعليق المترجم : يقول يارشاطر : لا شك اليوم في صحة هذا الرأي ، فالكلمات التي عرفت طريقها من اللغة المادية إلى الفارسية القديمة توضح تقارب هاتين اللغتين . أنظر : الفارسية القديمة Old Persian تأليف كنت R. Kent ص ٨ . وهناك شك كبير في كون زرادشت قد كان ميدياً ، وأقرب الاحتمالات إلى الصحة أنه ينتمي إلى شرق إيران ، فلغة أناشيد زرادشت هي لغة أجزاء إيران الشرقية .

(٢) Aufsatze zur persisch, Gesch, (Leipzig, 1887) p.12.

(٣) Darmesteter, Etudes Iraniennes, Vol. I pp.12, 13

ولهارله نفس الرأي

M. De Harlez (Manuel de la langue de l'Avesta, 1882, PP.Xi, Introduction à L'étude de L'Avesta et de la religion Mazdéenne, 1881, PP. XIV et Sc 99.)

« والنتيجة التي نخلص إليها هي أن الروايات الفارسيّة وروايات الأفستا والشواهد الخارجية كلها تؤيد أن مركز الدين الزردشتي ومهده ـ سواء أكان في اتروباتن[1] أم في الري ـ هو ماد . . . .

وأعتقد أن الصحة في جانب اتروباتن ، وأن دين زرادشت قد بدأ سيره من هناك متجهاً من الغرب إلى الشرق . وعلى أية حال فإن الدين الزردشتي يرتبط بماد ، والأفستا هي الأخرى عمل الموابدة الماديين . والحق أنه من الواجب علينا أن نقول (اللغة الميدية) بدلاً من قولنا (لغة الزند) فالتسمية غير صحيحة .

وهناك رأي مختلف تماماً وهو يستحق الإهتمام ونعني به رأي اپر .

رأي اپر المتعلق بانحدار الماديين من عنصر توراني :

يذكر اپر[2] في كتابه الخاص بالشعب الميدي ولغته[3] رأياً مختلفاً تماماً عما سبق . فالمعلوم لنا جميعاً أن نقوش الملوك الهخامنشيين قد دونت بثلاث لغات مختلفة : أولاها الفارسية القديمة ، وثالثها الآشورية . أما اللغة الثانية فتحيط بها [38] شبهات كثيرة . ويقول اپر أنها اللغة الميدية وهي ليست آرية بل تورانية ، ويورد في سبيل إثبات هذا الرأي العجيب عديداً من الأدلة البديعة . فيقول : إسم ماد مشتق من لفظة سومرية) ، فإن مد (بفتح الميم والدال)[4] بمعنى البلاد ، وأسماء السلاطين الميدين التي ذكرها كته زياس[5] مرادفات آرية لأسماء تورانية دخلت بطريقة آرية ، ونقلها هيرودوت[6] وشوهدت في النقوش الفارسية القديمة . وفي

= فهو يقول : أعتقد أننا أثبتنا أن الأفستا يجب أن تنسب إلى ماد ، وأن لغتها كانت لغة المجوس ، ومع ذلك فمادام هذا الرأي لا يجد قبولاً لدى العامة حتى الآن فإننا نفضّل أن نستعمل لفظ (لغة الأفستا) أسوة بالفرس ، فهو لفظ يخلو تماماً من الخطأ . وكلمة (الزند) أفضل من (البلخية القديمة) باعتبارها لفظ متداول متعارف عليه ، لا ينجم عن إستعماله خطأ في التعبير .

(1) Atropatène

(2) Oppert, Le Peuple La Langue des Mèdes

(3) تعليق المترجم : يرى تقي زاده أن رأي اپر مرفوض اليوم تماماً ولا يعدو ذكره أن يكون جانباً تاريخياً لسير الدراسات في أول عهدها ، وهو شبيه بالرأي القائل بأن بني إسرائيل من أصل أفغاني .

(4) Mada (5) Ctesias (6) Herodotus

رأيه مثلاً أن اسم أول ملك ميدي أثبته هيرودوت . . . إسم مركّب من كلمتين : أولاهما : دي (بفتح الدال والياء)[1] بمعنى (آخر) وثانيتهما أوكو[2] بمعنى (القانون) ، ويحتمل أن رسمها الأري أو الفارسي كان (داه يوكا) ومعناها (صانع البلاد) ، بينما ترجمتها الفارسية كما جاء لدى كته زياس[3] هو (ارتايوس) الذي يكتب في الفارسية (ارتايو)[4] . وهو لفظ مركّب من كلمة ارت[5] (بفتح الألف والتاء وسكون الراء) بمعنى القانون ، وكلمة آيو[6] بمعنى (تجديد الاتحاد) . ويذكر هيرودوت (في الكتاب الأول ، الفصل ١٠١) ست طوائف مادية ، أما أپر فيؤكد أنها فعلاً أسماء لقبائل آرية . ولكن طائفتين منها على الأقل تنحدران من أصل توراني ، وهما بوسائي واستروخاتس . [39]

رأي دار مستتر : وقل من بين العلماء من أقرّ مسلك اپر[7] وقل من بينهم من اتخّذ رأياً مستقلاً بخصوص النتائج التي أثبتها اپر بالنسبة للفروع .ونحن نتفق مع دارمستتر[8] فيما أورده بإيجاز حول الكليّات التي وردت في فرض اپر . يقول دارمستتر في نهاية تقريظه ونقده للكتاب المذكور[9] : « طبقاً للرأي القائم على النقل والتواتر فإن لغة الماديين[10] كانت لغة آرية ، يشهد بصحة ذلك استرابون[11] بصورة

---

(١) Daya
(٢) Ukku
(٣) Dahyuka
(٤) Ctesias
(٥) Artayu
(٦) Arta
(٧) Ayu
(٨) Oppert

(٩) يرى تقي زاده ان رأي دارمستتر الخاص بلغة الافستا لا يحظى بتأييد أحد اليوم ، وأن اللغة الثانية للنقوش الهخامنشية باتت هي الأخرى معروفة بصورة قاطعة ، ونعني بها العيلامية . يضاف إلى ذلك أن ظهور الافستا في غرب إيران أمر لا يؤيده الكثيرون بل ربما لا يؤيده أحد إطلاقاً .

(١٠) Darmesteter Etudes Iraniennes عن مجلة Revue Critique العدد ٢١ يونيو ١٨٨٠ م .

(١١) تعليق المترجم : يقول بارشاطر فيما يتعلق بلغة الميديين ونص نقوش داريوش : هذا الرأي غير صحيح ولا شك وهو أن لغة الميديين كانت لغة إيرانية وقريبة من الفارسية القديمة . ويتضّح هذا المعنى من الكلمات التي انتقلت من هذه اللغة إلى غيرها من اللغات . كما أنه يشاهد في نقوش داريوش عدد من الكلمات الميدية ، وهي في معظمها كلمات رسمية وإدارية والصورة الثانية لنقش بيستون باللغة العيلامية . أنظر : F.H. Weissbach. Die Keilinschriften der Achameniden, Leipzig, 1911 .

(١٢) Strabon

مباشرة ، ويشهد عليه هيرودوت[1] بصورة غير مباشرة . وهناك من الأدلة الدامغة ما يبرهن على أن ماد هي أصل الزند افستا ومسقط رأس الزند ، وليس لدينا دليل كاف يجعلنا نعدل عن هذا الرأي » .

[40 وما دمنا عاجزين عن تحقيق اكتشافات أخرى فالواجب أن نقرّ بصحة الفرض القائل بأن الميديين كانوا إيرانيين ، وأنهم كانوا يتكلمون اللغة الإيرانية ، وأن لغتهم كانت قريبة جداً من اللغة الفارسية القديمة .

ويقال إن الملوك الميديين على العكس من الملوك الهخامنشيين لم يتركوا أثراً يدلّ على أعمالهم . ويرى البعض ـ ومن بينهم نولدكه[2] ـ أنه لا يوجد في يدنا حتى نموذج واحد للغة الميدية ، وأن الأمل معقود على الإكتشافات التي تظهر مستقبلاً . بينما يرى آخرون أمثال اپر[3] أن نقوش الدرجة الثانية نموذج للخط الميدي . ويرى غيرهم ـ ومن بينهم دارمستتر[4] ـ أن كتب الزند افستا الزردشتية تشكّل نموذجاً كاملاً للغة الميدية وآدابها .

الأفستا :

والمسألة الثابتة المؤكدة التي لا يتطرق إليها الشك هي أن لغة الأفستا لغة إيرانية ، وأن العلاقة بينها وبين الفارسية القديمة علاقة أختين وليست علاقة إبنة وأم . وحول المنطقة الإيرانية التي راجت فيها هذه اللغة . . تختلف الآراء وتتضارب فيرى دارمستتر أنها لغة ماد ، بينما يسود الإعتقاد في ألمانيا بأنها كانت لغة بلخ القديمة ، ويسمونها لذلك « لغة بلخ القديمة »[5] أو « لغة إيران الشرقية » . وقد استعمل دارمستتر ـ في إيجاز ـ أسلوبه السهل الواضح الذي عرف به ، وعرض الشواهد التي يثبت بها البعض فرضية أن تكون الأفستا هي لغة إيران الشرقية أو لغة

(١) Hérodote
(٢) Noldeke
(٣) Oppert
(٤) Darmesteter
(٥) Bactria

بلغ القديمة أو باختر . وبعد أن عرضها قام بتفنيدها واحدة واحدة على النحو التالي[1] :

١ ـ الزند ليس لغة فارس .

٢ ـ أول نصر لزرادشت ـ بناء على الروايات ـ قد تحقق بانضمام الملك گشتاسب إليه في بلخ .

[41] ٣ ـ تتعلق المعلومات الجغرافية التي وردت في الأفستا بشرق إيران فقط . ويرى دارمستتر صحة الموضوع الأول ، لكنه ينفيه تماماً . . عند افتراض أن پارس خارجة عن الموضوع ، وتبقى بقية أجزاء إيران .

ويقول دارمستتر : إن الاستدلال الثاني صحيح هو الآخر ، غير أنه لا يثبت سوى أن بلخ كان لها دورها الكبير في نشر الدين الزردشتي ؛ فبلخ بفضل وضعها الجغرافي كانت ميداناً للصراع بين الإيرانيين والتورانيين الوثنيين . ولا شك أن هذا الصراع قد جذب انتباه من يعبدون الله إلى هذا القسم من بلاد إيران ، لأن عبدة آهورامزدا كانوا يخوضون في هذا القسم قتالاً ضد عبدة الآلهة المزيّفة . لهذا يجب أن تعتبر بلخ بمثابة نقطة حراسة على حدود ارمزد ، رصدت لتواجه عبادة الأوثان في عهود البربرية . حتى ليغلب على الظن أن تكون القصص المرتبطة باهتمام بلخ والملك گشتاسب بالدين الزردشتي مجرد فكرة تاريخية حول انتصارات زرادشت ، وردت إلى أذهاننا من الشرق وتوارثناها .

ولم يرد في أي مكان أن بلخ هي مهد زرادشت والدين الزرادشتي . ويجمع رواة الفرس على أن مهد زردشت هو غرب إيران واتروباتن (آذربيجان) وليس الشرق ولا بلخ . ولا يقتصر ذكر هذه المسألة على الروايات الفارسية ، بل إن الأفستا نفسها شاهدة على هذا المعنى .

والموضوع الثالث أيضاً غير صحيح ، لأن الأفستا ـ فضلاً عن بحثها في

(١) Darmesteter, Etudes Iraniennes, Vol. i -, pp.10 - 12

شرق إيران ـ تبحث أيضاً في شمال إيران وغربها . فالفصل الأول من الونديداد يورد وصفاً لإيران بالصورة التي كان يعرفها بها كتاب الونديداد . ولكي يحصي أنحاء إيران . . يبدأ من ارانوج (إيرانفيج) (بكسر الألف وسكون النون وكسر الفاء)[1] . وتقع ارانفيج في حدود اتروباتن ، ومنها يمر نيك دائيتي (بفتح الياء الأخيرة)[2] ، وهو نفسه نهر أرس[3] . كما يهتم الونديداد بنفس النسبة أيضاً ـ بشمال إيران ؛ فقد أورد في ذلك الصدد ذكراً للري الواقعة في ماد . وكان اليونانيون يطلقون على ذلك الموضع (راگا) ، ويسمى الآن (الري)[4] . [42]

ولكي يعزز دارمستتر رأيه القائل بأن لغة الأفستا هي لغة الميديين يأتي بدليل من فقه اللغة ، فيقول إن كلمة سگ[5] في الفارسية الحديثة هي نفس كلمة ساكا في الفارسية القديمة . (فيما تخلف لنا من وثائق عن الفارسية القديمة ـ وهي التي يجب أن نعتمد عليها رغم ضآلتها في إستقاء معلوماتنا عن الفارسية القديمة ـ لم يقع بصرنا على هذا اللفظ) .

يقول هيرودوت ان سگ في لغة الميديين (سپاكا)[6] ، وفي لغة الأفستا

---

(١) Eran-Ve'j

(٢) Good Daitia

(٣) ليس هذا رأي الجميع ، فجايجر Geiger على سبيل المثال يقول : ايريانافجا Airyana Veaja أو ارانفج Erân-Vêj في جهة پامير وبناء على التفسير الذي أورده جايجر للمعلومات المذكورة في الفصل الأول من الونديداد فإن أقصى المناطق الغربية التي ورد ذكرها في الأفستا هي فهركانه Vehrkāna (هيركانيه أو جرجان الحالية) ، رنگهة (الري ـ قرب طهران عاصمة إيران الجديدة) ، فرنه Verena ، چهارگوش ، التي تدخل وفق رأيه ضمن القسم الشرقي من مازندران .

(٤) تعليق المترجم : يقول بارشاطر : « إن الفصل الأول من الونديداد الذي يتحدث عن ولايات إيران ، وعما خلقه أهورامزدا واهريمن من نعم وبلايا . . لا يتفق مع سائر موضوعات الونديداد ، ويبدو أنه أضيف إليه . وقد أصبح رأي دارمستتر حول موضع ايرانفيج ونهر دائيتي نيك اليوم منسوخاً تقريباً . فإذا لم يكن إيرانفيج إسماً أسطورياً فالواجب أن يكون مشرق إيران . إرجع في ذلك إلى الفصل الأول من الونديداد ، تأليف كريستنسن ، كوبنهاك ١٩٤٣م . غير أنه يجب علينا أن نحتاط بخصوص بعض تعبيرات كريستنسن .

(٥) صفحة ١٣ من كتاب دارمستتر الذي مرّ ذكره .

(٦) تعليق المترجم : يقابل سگ في اللغة الروسية ساباكا ، وفي الأرمينية شون .

(سپن) (بسكون السين والنون وفتح الباء)[1] ، (في السنسكريتية سفَن بسكون السين والنون وفتح الفاء[2] ، وفي اليونانية كوان Kuon) . والعجيب أن هذا اللفظ مازال موجوداً في بعض لهجات اللغة الفارسية على هذه الصورة (اسپا) (بكسر الألف وسكون السين)[3] كما هو الحال في قهرود (قرب كاشان) وفي نطنز .

43] هوار يتبنّى رأي دارمستتر :

وقد كتب م . كليمان هوار[4] عدة رسائل على درجة كبيرة من الكمال والبراعة ونشرها في المجلة الأسيوية[5] ، وهي رسائل تتعلق باللهجات الفارسية المتنوعة . . كلهجتي يزد وسيوند ، ولهجة جاويدان الكبير العجيبة (الأثر الهام لفرقة الحروفية[6] المبتدعة التي ظهرت في القرن الخامس عشر الميلادي) وقد تبنى هوار رأي دارمستتر[7] ، وحاول إثبات أن عدداً من تلك اللهجات السائدة في مناطق إيران النائية والجبلية (خاصة في الغرب أي في ماد) قد اشتقت من لغة الأفستا ويطلق

---

(١) Span

(٢) Svan

(٣) Ispa أنظر الكتاب الاخر للمؤلف (علمٌ بين الايرانيين) ص ١٨٩ A year Amongest the persian
وانظر كذلك Polak, Persien المجلد الاول ص ٢٦٥ .
تعليق المترجم : في نطنز يقولون : (كوبه) .

(٤) M. Clément Huart

(٥) pp.502 - 545, Leq Quatraines de

J.A. For 1885, Vol. vi pp.502 - 545, Leq Quatraines de Baba Tahir, Ibid, for 1888, Vol. Xi, pp.298 - 302, Note sur le Prétendu Déri des Parsis des yesd, ibid. 1889, XiV. pp.238 270, Notice d'un Manuscrit pehlevi-Musulman; ibid. 1893, Vol. i, pp.241 - 265, Le Dialecte persan de Siwénd.

(٦) إرجع إلى مقالة الكاتب نفسه حول أدب فرقة الحروفية وأصول عقائدها ، وذلك في المجلة الأسيوية الملكية (يناير ١٨٩٨ ص ٦١ - ٩٤) .

Literature and Doctrines of the Hurufi Sect in the J.R.A.S. For January, 1898, pp.61 - 94.

(٧) Darmesteter

على هذه اللهجات المحلية : الميدية الجديدة أو البهلوية الإسلامية[1] يقول هوار : من الإختلافات أيضاً أن تكون مادة الفعل كردن في لغة الأفستا (كر) بينا صيغة الأمر من هذا الفعل في الفارسية القديمة (كن) ، كما هو الحال في الفارسية الحديثة . كما أن مادة الفعل الذي ورد في لغة الأفستا بمعنى گفتن هي (واج - Wach) ، (اوج -aoj) ، بينا هي في الفارسية القديمة(Gaub).

(وهكذا نرى أن الفارسية الحديثة تنتسب إلى الفارسية القديمة) . وفي الفارسية الحديثة أفعال بمعنى (كردن) و(گفتن) . . صيغة الأمر منها (كن) ، (گو) أو (گوى) .

[44] وفي اللهجات التي يطلق عليها « هوار » اسم (الميدية الجديدة) تظل ساق الكلمة (كر) كما هي في كل وقت . . (فبدلاً من كنم يقولون كرم . . وقس على هذا) . والكلمات التي تدل على الحديث والتحدّث مشتقة من مادة (واج) أو من مادة أخرى على وزن (اوج) - aoj أو (واج)[2] التي تنسب إلى لغة الأفستا .

وقد استغل هوار هذه التجربة لتحديد اللهجات ، فتمكّن بذلك من تحديد أي اللهجات ميدية وأيها فارسية[3] . وطبقاً لهذا الرأي الناتج عن قوة إبداع وابتكار وسعة إطلاع . . فإن في إيران حالياً عدة لهجات أو لغات محلية ترجع في أصلها إلى لغة الأفستا . . من بينها لهجة رباعيات بابا طاهر (أوائل القرن الحادي عشر) ،

---

(١) يطلق الايرانيون على هذه اللهجات بصفة عامة : البهلوية ، وكان هذا الأمر متبعاً في القرن الرابع عشر الميلادي ، كما قال بذلك أيضاً حمد الله مستوفي القزويني . أنظر : كتاب : Polak, Persien

(٢) تعليق المترجم : يرى الدكتور يارشاطر أن (واج) و(اوج) صورتان لمادة واحدة .

(٣) تعليق المترجم : يقول الدكتور شاطر : مثل هذا التقسيم للغة الايرانية مرفوض اليوم ، فهي تقسم الآن بصفة عامة إلى شرقية وغربية . فاللغات الايرانية الشرقية تشمل ضمن ما تشمل : السغدية والختنية والخوارزمية والأسنية (بضم الأول وكسر الثاني) ولهجات بامير . واللهجات الغربية تشتمل على : الفارسية والبهلوية والبارتية والفارسية الهخامنشية والأفستية والكردية واللارية والبلوجية ولهجات وسط وجنوبي إيران . واللهجات الغربية هي الأخرى يمكن تقسيمها إلى شمالية وجنوبية . وبناء على هذا التقسيم الفرعي يكون إنتماء لغة الأفستا إلى القسم الشمالي والفارسية القديمة إلى القسم الجنوبي .

ولهجة جاويدان الكبير (القرن الخامس عشر) ، واللهجات المتداولة حالياً في قهرود وسيوند ، واللهجات المتداولة بين زردشتي يزد وكرمان . وعلينا أن نضع في إعتبارنا أنهم في لهجة طالش ـ كما يقول برزين[١] أيضاً ـ يستخدمون كلمة (از) بدلاً من كلمة (من)، ويبدو أن هذا اللفظ قد بقي عن كلمة (ازم Azem) الواردة في الأفستا (وعن كلمة ادم Adam الواردة في الفارسية القديمة)[٢] . [45]

ولكي يصبح هذا الموضوع أكثر وضوحاً . . علينا أن ننتظر ظهور دراسات أكثر تكاملاً وشمولاً حول اللهجات الرائجة حالياً في أكثر من موضع من إيران (رغم أن هناك دراسات عديدة قام بها جوكوفسكي[٣] ونشر جانباً منها ، فإننا ما زلنا نعتبر دراسة هذه اللهجات ومعرفتنا بها ناقصة) .

ورغم أن دارمستتر[٤] قد حاول في كتابه الآخر (أغنيات أهالي أفغانستان المحبوبة ص ٦٢ ـ ٦٥) أن يثبت أن لغة البشتو أو البختو[٥] الأفغانية هي خلف صدق للغة الأوستا القديمة وإحياء لها، ورغم أن هذا الغرض يتعارض مع النظرية التي عرضها في كتابه الذي سجل فيه دراساته حول إيران . . فإن الجمع بين الرأيين في الحقيقة أمر ممكن ، فربما يكون زرادشت ـ وهو من قبيلة (مگوش) الميدية ـ قد نشر تعاليمه ونقلها من اتروباتن (آذربايجان) في أقصى الشمال الغربي من إيران إلى بلخ في أقصى نقطة من الشمال الشرقي . . وهناك نال أول انتصاراته الهامة ونعني

---

(١) أنظر كتاب برزين الخاص بالدراسات المتعلقة باللهجات الفارسية ، طبع ١٨٥٣م ص ٣١ وما بعدها :

Berezine. Recherches sur les Dialectes persans, Kazan. 1853. pp. 31, et Seqq.

(٢) تعليق المترجم : يقول بارشاطر : كلمة (من) لها نفس الأصل أيضاً في اللهجات : البارثية والسغدية والختنية واليغنوبية .

(٣)

Zhukovski, Materialy dliaizuchenia persidskikh Narèchil, part 1 Dialects of Kashan. Vanishun, Qohrud. Keshe, and Zefre) St., Petersburg, 1888.

(٤) Darmesteter, Chansons, populaires des Afghans

(٥) Pashtô, Pakhtô

بها كسب اهتمام شاه گشتاسب (ويشتاسب) . وربما كانت لهجات اتروپاتن وبلخ ولهجات كل مناطق شمال إيران شبيهة ببعضها البعض .

وفي الأفستا لهجة اسمها (گاتها) ، وتُعرف لهجتي بلخ ولهجة الونديداد الموجودة في الأفستا بلهجة اتروپاتن .

وطبيعي أن هذا مجرد تخمين ، وإن كان الأفضل أن يقال إنه إفتراض صحيح .

دين الإيرانيين القدماء ، زردشت :

لو أردنا أن نتحدث عن الدين الميدي بصورة قاطعة فلن يقل الأمر صعوبة عن بحث اللغة الميدية . فبالرغم من وجود نقوش ميدية عديدة[1] . . فإنه لم يثبت حتى الآن بصفة قاطعة ما إذا كان خلفاؤهم الهخامشيون قد تبعوا زرادشت أم لم يتبعوه . أما بالنسبة لشخصية زردشت وتاريخ حياته ومسقط رأسه فالآراء متعددة متشعبة إلى حد كبير . . وبعض هذه الآراء ينفي حتى وجوده تاريخياً ، وبعضها يرى أن شخصيته تظهر في (الگاتها) واضحة جلية . والكاتها في رأي القائلين بذلك - إن لم تكن تعاليم زرادشت وإرشاداته - فإنها على الأقل كلمات أتباعه وحوارييه . ويرى بعض الدارسين أن تاريخ حياته يتفق مع عصر الفدا[2] أي علم ١٨٠٠ أو ٢٠٠٠ أو حتى ٦٠٠٠ قبل ميلاد المسيح . وهناك من يقولون إنه كان يعيش قبل المسيح بسبعة آلاف سنة .

ويرى البعض أن زردشت من بلخ في أقصى نقطة شمال شرقي إيران ، بينما

(١) تعليق المترجم : يرى پارشاطر أن الميديين كانوا حتماً پارسيين ، وليس في يدنا قول أو أثر آخر مخطوط يؤكد عكس ذلك . وما يعنيه براون هو أن الهخامنشيين بدورهم - رغم ما خلّفوه من نقوش عديدة - لا يُعرف يقيناً ما إذا كانوا زرادشتيين لم كانوا غير ذلك .

Veda(٢)

يقطع البعض بأنه نشأ في اتروپاتن في أقصى الشمال الغربي . ويصدق هذا الخلاف على الأفستا بدورها ، وهي كتاب أتباع زردشت المقدس . وقد حاول دارمستتر في الترجمة الجديدة التي طبعها متحف جيمه[1] (في المجلدات ٢١ - ٢٤) أن يخرج قسماً من أقسام الأفستا على الأقل من نطاق العهود الموغلة في القدم وأن يصل بها إلى ما بعد عهد المسيح . وليس هناك كبير خلاف حول هذا الموضوع فحسب . . بل إن المشاعر لتلتهب إلى حد كبير بشأنه . [47]

فهالفي[2] - وهو من كبار العلماء ومن السوّاح المشهورين بالشهامة - قد صرح لي أثناء النقاش معه أن ساحة العلم الهادئة قد تعرّضت لهجوم عنصري ونفور شعبي . لقد كنا آنذاك نبحث آراء دارمستتر التي نشرها في كتابه في الآونة الأخيرة ، وكنت أظهر تعجبي من أن دارمستتر قد عيّن تاريخاً قريباً جداً للأفستا ، وتساءلت : ألا يملك العلماء البارزون العديدون - الذين صرحوا بقِدَم زمن الأفستا - دليلاً على صحة ما يقولون[3] . . فأجابني هالفي : لديهم الكثير من الأدلة ، لكن نفورهم من الجنس السامي ، واعتدادهم بصلابة الآريين ، وكراهيتهم الإعتراف بأي تقدم يحرزه اليهود على الشعوب الآرية قد دفعهم إلى تحقير موسى إجلالاً لزردشت، وجعلهم يخفضون أسفار التوراة الخمسة بيد ويرفعون الأفستا باليد الأخرى .

ولو صحّ هذا لكان من المؤسف حقا أن تتسلل المشاعر البغيضة والكراهية العنصرية - وهي منبع الأثام - إلى أعتاب العلم الرفيعة القدر ، وأن تخضع ساحة العلم - التي يجب أن تنزّه عن كل شائبة - لكل هذه الأحاسيس وتلك المشاعر .

---

(١) Darmesteter, Traduction Nouvelle, Annales de Musée Guimet, Vols. XXi - XXiV (Paris, 1892 - 3).

(٢) M. Halévy

(٣) تعليق المترجم : فيما يتعلق بمذهب الايرانيين قبل ظهور زرتشت وعوامل الدين الزردشتي ، أنظر مقالة بارشاطر « موضوعات تتعلق بالمذهب الهندوإيراني » ، وذلك في مجلة يغما ، شماره بهمن ١٣٣٠ .

وليس من شأني التدخل في هذه الشئون ، فقد وقفت حياتي على أدب العصر الإسلامي وأفكاره . . لأن هذا الميدان يتميّز بالإتساع ولا يمكن لأحد أن يبلغ نهايته ، والسير فيه كفيل بإرضاء أذواق ذوي الهمة والجادين من الناس وميزتنا أننا في عملنا قد استندنا إلى تاريخ محكم ، وأن الوقائع التي نبحثها لا خلاف حولها من جهة الزمان ولا المكان . . فنحن نتحرك عبر القرون المتعددة والميادين المختلفة من بلخ إلى اتروپاتن Atropatene ، ولا يمكننا أن نثبت في نقطة ونعتبرها كل شيء وأهم شيء . ومع ذلك فإن من يعقدون العزم ويستهينون بمتاعب الدراسة في ميادين العهود السحيقة الجافة الشاقة ـ بفضل همّتهم ـ ويستخرجون من بطون الأساطير بفكرهم وتدبيرهم تاريخاً ، ويتحمّلون المشاق الهائلة لكي يجعلوا مما هو مشوش مضطرب شيئاً يتسم بالترتيب والنظام . . لهم أناس يستحقون كل ألوان الفخار .

[48]

والدراسات التي قام بها هؤلاء المحققون حول العصور السحيقة والأحداث الهامة هي مرشدنا ، وعليها نبني رأينا . ومن بين مرشدينا وأرجحهم عقلا وأكثرهم تبحُّرا ، رجل يجمع بين أصالة البحث التي اشتهر بها الألمان والموهبة الإلهية التي وُهبها الفرنسيون وهي حسن الإيضاح والقدرة على التشويق في مجال المسائل العلمية . . ونعني به البرفسور جاكسون ، الأستاذ في جامعة كولومبيا بنيويورك[1] . ويتمتع جاكسون بروح الإنصاف والتصميم . . وهما علة نبوغ الأنجلوساكسون . وسلسلة مقالاته تستوجب المديح والتقدير ، وقد نشرها في المجلات الأمريكية[2] .

[49] وقد كتب جاكسون في معظم الموضوعات الشائكة التي ذكرناها ، وتحدث في

---

(١) Professor A.V. William Jackson of Columbia University, New York.

(٢) صورة مباحثات ومحاضرات الجمعية الشرقية الأمريكية ومجلة فقه اللغة الأمريكية : Proceedings of the American Oriental Society, American Journal of Philology, etc.

نقاط اخرى كثيرة تتعلق بتاريخ الدين الزردشتي وعقائده واصوله ، وطرق كل باب على حدة ، ثم عمد في النهاية إلى وضع خلاصة دراساته في كتاب قيّم جدير بالقراءة ، إسمه (زردشت نبي إيران القديمة) ، طبع في نيويورك عام ١٨٩٩ م .

وهذه هي النتائج الرئيسية لبحثه :

١) زردشت شخصية تاريخية ، وهو ينتمي إلى طائفة ميدية يطلق عليها (مغ) او المجوس[١] .

٢) كان يعيش في اواسط القرن السابع قبل الميلاد على وجه التقريب ، اي إبان حكم الميديين وقبل ظهور الهخامنشيين وازدياد نفوذهم . وقد توفي في حدود عام ٥٨٣ ق. م وهو في السابعة والسبعين من عمره .

٣) مسقط راسه غرب إيران (اترو پاتن Atropatene او ماد) ، غير ان اول نصر له يستحق الإهتمام كان في بلخ[٢] حيث اعتنق شاه ويشتاسب (گشتاسب)[٣] دينه .

٤) تعكس الگاتها (وهي اقدم اقسام الأفستا) جوهر مواعظه التي بثها اول الأمر في بلخ . . في صدق وامانة .

٥) تسرّب دين زردشت من ولاية بلخ القديمة في سرعة منتشرا تشمل كل اجزاء إيران وكتبت له السيطرة التامة في فارس (پارس) في اواخر حكم الهخامنشيين لكن تاريخ دخول الدين في هذه البقعة من إيران ، وتاريخ إعتناق شعب

(١) تعليق المترجم : يقول بارشاطر في هذا الصدد : « قلّ ان يوجد اليوم من يوافق على هذا الراي . وربما يكون المغان (المجوس) - ثمة الدين من الميديين - قد إعتنقوا الدين الزردشتي فيما بعد ، إذ يبرز كتاب الونديداد ادابهم وتقاليدهم التي تسربت إلى الدين الزردشتي » .

(٢) تعليق المترجم : يقصد بها(Bactria) : ولاية بلخ القديمة .

(٣)Vishtaspa

فارس وحكّامها له . . غير معروف على وجه الدقة[1] .

ورغم أن هذه الآراء لا تلقى قبولا لدى الجميع فإني أعتقد أن أدلّة جاكسون التي تتعلق بالروايات المحلية التي نقلت عقب انتصار الإسلام مباشرة . . تؤيد رأيه . وهذه الأدلة مستندة في معظمها إلى الروايات التي كانت منتشرة في عهد الساسانيين ويمكن القول بأن كتّاب هذه الفترة لم يتعودوا حجب الحقيقة ، لهذا يستبعد أن تكون كلمتهم قد اتفقت على تحديد تاريخ لظهور زرادشت .

أما فيما يتعلق بانتساب زرادشت إلى ماد ، فإن جايجر Geiger يتفق مع دارمستتر Darmesteter وجاكسون تمام الاتفاق في قولهما بأنه إن كانت لغة الأفستا مرتبطة بشمال شرقي إيران (بلخ) . . فإن أصول عقائدها ـ كما تشير كل الروايات [51] الفارسية ـ قد ذكرها الأثرفنيون (بفتح الراء والفاء)[2] أو الموابدة الميديون عبدة النار . وقد اشتهر عن الأثرفنيين قيامهم بمهمة التبشير ، وتنقلهم في سبيل ذلك بين مناطق الشمال الشرقي . وكانت ديارهم في الري وماد .

ويذكر دارمستتر[3] ضمن ما يذكر موضوعاً هاماً يختص بكلمة مغو[4] (بضم

---

(١) تعليق المترجم : يرى پارشاطر أن صحة هذه الآراء موضع شك كبير . وللوقوف على آخر الدراسات حول زردشت إرجع إلى Zoroaster ، تأليف W.B. Henning (لندن ١٩٥١) ، فقد سجل فيه المؤلف كذلك رأي هرتسفلد ورأي نوبرج . والتاريخ الذي يلقى قبولا أكثر من سواه بالنسبة لظهور زرتشت هو نفس التاريخ الذي جاء في الروايات الزردشتية ، أي حوالي القرن السادس والسابع قبل الميلاد . وارجع كذلك إلى Zoroastre تأليف J. Duche - son-Guillemin (باريس ١٩٤٨) ، وهو مذيل بترجمة جديدة للگاتها ، وانظر كذلك الطبعة الثانية للگاتها ، تأليف پورداود (تهران ١٣٣١) .

(٢) Athravan

تعليق المترجم : وضع پورداود للفظ (اثرڤان) لفظا يقابله وهو (اذربان) ومعناه حارس النار . انظر : (فرهنك لغات أوستا ، جلد دوم يشتها ، كتاب أدبيات مزديسنا) وانظر : تحقيق الدكتور محمد معين حول لفظ أذروان (كتاب مزديسنا وتأثير آن در ادبيات پارسي ١٣٢٦ ص ٢٩) .

(٣) ترجمة الأفستا (المجلد الأول ، ص ٥١ ، ٥٢) التي نشرت ضمن كتب الشرق المقدسة في أكسفورد بتاريخ ١٨٨٠ م .
Translation of the Avesta in the Sacred Books of the east. (Oxford 1880).

(٤) Môghu

الميم) (وهي مادة إشتقاق كلمة مغان أو مجوس) ، ويقول إن هذه الكلمة تشاهد فقط في عبارة واحدة من عبارات الأفستا . . (اليسنا ٤٤ ـ قطعة ٢٥) ، ولفظ مغوتبيش[1] المركب معناه مغ آزار (أي من ينفر من المغان أو يؤذيهم) ، لأن نفور البارسيين منهم كان مرجعه أنهم من أصل ميدي . . ولم يكن سببه أن الأثرفنيين كانوا ينشرون الدين الزردشتي .

هذا وقد سيطر البارسيون بعد الميديين ، غير أن الميديين أخذوا في أوائل عهد الهخامنشيين يهدرون سيادة البارسيين بما عمدوا إليه من تمرّد وثورات .

والنموذج الواضح لطغيان الميديين يتمثل في كئومات[2] مغ (مگوش)[3] الذي ادّعى كذباً أنه بردیا[4] (اسمرديس)[5] بن كورش ، فعمد داريوش إلى قتله . وقد شرح داريوش نفسه هذا الحادث في نقش بهستون (بيستون) على النحو التالي : (ثم ثار رجل مغى يدعى گئومات وهو من بي سي ي أو اووده[6] - كما ثار أحد رجال الجبال ويدعى أركادرس[7] في اليوم الرابع عشر من شهر ڤيخن[8] ، وخدع الناس بقوله : أنا بردیابن كورش أخو كمبوجيه[9] (قمبيز) ، فثار الجميع على كمبوجيه ، وناصرته فارس وميديا وسائر الولايات فاستولى على العرش في التاسع من شهر گرم يد[10] (بفتح الميم والباء والدال) ، ثم مات كمبوجيه منتحراً) .

[52]

---

(١) Môghutbish

تعليق المترجم : موغوتبيش = مغ ازار (فرهنگ اوستا ـ يسنا ـ جلد أول ، تأليف أقاي پورداود ـ ص ٢٥٢) .

(٢) Gaumâta

(٣) Maghush

(٤) Bardiya

(٥) Smerdis

(٦) Pisiyâuvâdâ

(٧) Arkadris

(٨) Viakhna

(٩) Cambyses (Kambujiya)

(١٠) Garmapada

يقول الملك داريوش :

لقد كان عرش البلاد - الذي استولى عليه گئوماتاي مغ وانتزعه من كمبوجيه - لأسرتنا منذ القدم . وقد استولى گئوماتا على فارس وميديا وغيرهما من الولايات وانتزعها من يد كمبوجيه وامتلكها فأصبح ملكا .

كان الناس يخشونه لأنه قتل معظم من كانوا يعرفونه جيدا[1] خوفا من تعرفهم عليه واعترافهم بأنه ليس برديا بن كورش . لهذا لم يجرؤ أحد على قول شيء في حق گئوماتاي مغ إلى آن جئت أنا فطلبت العون من آهور مزدا ، فأعانني . وفي اليوم العاشر من شهر ياگياديش (باغ ياديس) قتلت - بمعاونة عدة أشخاص - گئوماتا هذا وعددا من كبار أعوانه . وفي ماد توجد قلعة اسمها سي كت هئوواتيش[2] في إقليم نساي (بفتح الياء)[3] ، وقد قتلته هناك ، وانتزعت الملك منه واستعدته وصرت ملكاً بفضل اهورمزدا . . لقد وهبني اهور مزدا الملك . يقول الملك [53] داريوش : لقد استرجعت الحكم الذي ضاع من يد أسرتنا ، وبلغت به مكانته التي كان عليها ، وأصلحت للشعب ما هدمه گئوماتا من معابد[4] ، وأعدنا للطوائف ما سلبه گئوماتا من بضائع وخدم ومساكن . ومنحت الإستقرار للفرس والميديين ولأهالي سائر الولايات ، فعادوا إلى أماكنهم السابقة . وهكذا أعدت كل ما انتزع إلى حالته السابقة . لقد فعلت كل هذا بفضل أهور مزدا . لقد تعبت لتتبوأ طائفتي مكانتها السابقة . (ثم وضعت طائفتي بفضل آهور مزدا في مكانتها تلك ، إذ أنها كانت هي المالكة قبل أن يسيطر گئوماتا)[5] .

---

(١) تعليق المترجم : ترجم يلرشاطر النقش على النحو التالي : « . . كان الناس يخشونه كثيرا (لأنهم كانوا يعتقدون) أنه سوف يقتل الكثيرين ممن كانوا يعرفون برديا من قبل »

(٢) Cikathauvatish

(٣) Nicâya

(٤) تعليق المترجم : يرى الدكتور شاطر ان ترجمة النص الصحيحة على النحو التالي : « المزارع والقطعان والأثاث والمساكن التي كان گئوماتا . . . . »

(٥) يرى شاطر ان هذا هو متن النقش :

« ثم حاولت جاهدا ألا يزيل گوماتاي مغ - بمساعدة اهور مزدا - أسرتنا الملكية ويقضي عليها » .

يقول داريوش الملك : هذا ما فعلته بعد أن أصبحت ملكا .

لقد كان گئوماتا المغاني ـ الذي تسبب في ثورة فارس ـ اول ميدي يتغلب عليه داريوش من جملة الملوك التسعة المتمردين الطغاة الذين هزمهم واسرهم خلال المعارك التسعة عشر التي خاضها . . ولكنه لم يكن الأخير ، فقد وقع فراورتيش (فرا اورتس)[1] ـ الذي تسبب في ثورة ماد ـ في أسره بالري ، وبعد أن أهين صلب في نهاية الأمر في همدان (اكباتانه أو عاصمة ماد القديمة) . وكان فراورتيش يدعي أنه من سلالة هو وخ شتر (كيا گزارس الثالث ملك الميديين وفق قول هيرودوت) . كما أن جترتخمه[2] Chitratakhma قد تمرّد في سگرتيه Sagartia وشق عصا الطاعة ، وصلب في اربيل (اربيرا) . [54]

والحق أن القواد والجنود الميديين قد حاربوا بإخلاص ووفاء ، لكن الخصومة نفسها والعناد اللذين كانا بين الاسكتلنديين والانجليز في زمان الملوك الذين يطلق على كل منهم ادوارد (Edwards) . . مثل هذه الخصومة وذلك العناد كانا موجودين بين الميديين والفرس . ورغم أن الميديين والفرس كانوا متفقين تقريبا من حيث الأصل واللغة وربما من حيث الدين . . فإن الحقد والتنافس اللذين كانا يسودان بينهما آنذاك يعتبران أحد عوامل التاريخ القومية . وكما يقول دارمستتر فإن موبد ماد رغم كونه محترماً بسبب منصبه الديني ، يخشاه الناس ويعدّون وجوده ضرورة لممارسة الطقوس الدينية . . إلاّ أن هذا نفسه كان علة نفور فرس الجنوب منه واعتباره عدوا .

وهدفنا من كتابنا هذا دراسة التقدّم الذي أحرزه الأدب بعد الإسلام ، وتطوّر الفكر الايراني . وبعبارة أخرى فإننا إلى جانب دراستنا لتاريخ الأدب الخاص بالقرون العشرة الأخيرة ، قد أولينا العهود القديمة إهتمامنا لما في ذلك من ضرورة لفهم الموضوع . ولو شئنا أن نفصّل الحديث عن العهود القديمة التي

---

(١) ينطق اليونانيون فرورتيش على النحو التالي : فرا اورتس Phraortes

ذكرناها لتجاوزنا بحثنا . وقد عدنا في فصلنا هذا إلى بداية قوة الميديين التي ترجع إلى سبعمائة سنة تقريبا ـ قبل ميلاد المسيح . ويمكن القول بأن العهد التاريخي يبدأ من هذه النقطة نفسها .

ويمكننا أن نعينّ عهودا أكثر لو نظرنا من خلال نافذة العهود القديمة واستفدنا من بصيص الضوء الذي كان يتخلل ظلمة تلك الأيام . وقد حقق اشبيجل[1] ذلك الأمر في كتابه الذي طبعه في ليبزج في ثلاث مجلدات بتاريخ ٧١ ـ ١٨٧٨ .

ولو نحينا موضوع النزاع جانبا ، وهو المتعلق بأصل العنصر الآري ، وأنه كان من مركز واحد ثم تفرق إلى أكثر من ناحية . . فإن الذي لا يبدو موضع شك على الأقل هو أن الهنود والإيرانيين من أصل مشترك هندي وإيراني . وقد كانا متحدين في فترة ما في ناحية من نواحي البنجاب[2] .

والفرض الذي افترضه مكس مولر[3] يجتذبني لطرافته بحيث يتملكني الأسف إذا لم أشر إليه[4] . وخلاصة الموضوع أن هذا الفرض قائم على بعض الإصطلاحات الدينية التي تشاهد في الفيد أو الفدا (Veda) الهندية والأفستا الزردشتية ، ومادة إشتقاقات هذه الإصطلاحات واحدة ، لكن معناها مختلف تماما . وقد ورد في السنسكريتية لفظ دڤا Deva بمعنى مضيء . ويسمون إله الهند (دڤا) ويقصدون (الأنوار) . ومن جهة أخرى فإن دئڤا (التي تحولت إلى ديوفي

---

(١) Spiegel, Eränische Alterthumskunde. 3 Vols. Leipzig. 1871 - 78.

(٢) تعليق المترجم : يقول بارشاطر : ذلك الرأي الذي بموجبه يكون الإيرانيون قد توجهوا مع الهنود أول الأمر إلى البنجاب ثم وفدوا إلى إيران . . . رأي لا يحظى اليوم بتأييد الكثيرين . ويجب أن يسبق انفصال الهنود عن الإيرانيين وصولهم إلى البنجاب .

(٣) Max Muller's Selected Essays. (London. 1881). Vol. ii.pp. 132 - 134.

(٤) يقول تقي زاده : كل هذه الفروض والآراء الخاصة بنشأة الأفستا وغيرها منسوخة الآن

الفارسية الحديثة) هي في الأفستا تعني الشياطين[1] .

ويراعى الزردشتي أثناء تأديته الطقوس الدينية أن يقول في خشوع مخاطباً خالقه : « سوف لا أعود لعبادة الشياطين » .

والزردشتي يطرد (ديو : الشيطان) ، وهو نفسه (دوا) إله الهند ، ويعبد آهور مزدا . وطبقاً لإحدى قواعد علم الأصوات فإن حرف الهاء الفارسي يطابق حرف السين في السنسكريتية (فالهند على سبيل المثال هي نفسها السند ، والسند - كما يقولون - قسم من الهند معروف للإيرانيين أكثر من غيره) .
بناء على هذا فإن (آهورا) الوارد في الأفستا هو نفسه (اسورا) في السنسكريتية ، والمعنى : الروح الدنسة أو إبليس . من هاتين الكلمتين الصغيرتين اللتين ذكرناهما افترض مكس مولر أن زرتشت النبي المصلح رجل بليغ نشأ بين جماعة موحدة من الهنود والإيرانيين ، وهاجم شرك المشركين عبدة الطبيعة ، وهاجم بلسانه الأفكار المتدنية الآخذة في الهبوط . . لأن أفكار الأقدمين كانت أفكار باكتر ، وقد أخذت في التدني وحلّت محلها عقائد الطبيعيين . ولكي يبدي زرادشت سخطه واضحاً ويطيح بنظامهم . . أطلق على آلهتهم اسم (ديو) . ثم هاجر في النهاية مع بعض أتباعه تاركاً المتعصبين لعبادة الشياطين على حالهم ، واستوطن بلاد المغرب التي تسمى اليوم : إيران .

ويمكن القول بأن هذا الرأي قائم في معظمه على الافتراض ، لأن أول فركرد (فصل) في الونديداد كان موجودا - ولمدة طويلة - في ألمانيا على وجه الخصوص ، وكان المعروف أن بلخ هي مسقط رأس زردشت .

[57] وسوف نتحدث عن تأليف الأفستا في موضع آخر . أما الآن فيكفينا أن نقول أن الونديداد قسم من أقسام الأفستا يشتمل على أحكام دينية ، وعلى أساطير الأولين . والحق أن نسبة الونديداد للأفستا هي نفس نسبة الأسفار الخمسة

---

(١) تعليق المترجم : للوقوف على معلومات حول (دئوا) و(اسورا) وعن العلاقة بين آلهة الهنود والإيرانيين ، إرجع إلى المقالة التي نشرها يارشاطر بعنوان (ايندرا) ، مجلة يغما (آذر ١٣٣٠) .

للتوراة . وتشتمل الونديداد على ٢٢ فصلاً (فركرد) .

الفصل الأول : يدور حول خلق أهورامزدا وانرمئي نيو (انگرمينيو)Anra mainyu الروح الشريرة النجسة (أهريمن)، والأراضي الستة عشر التالية التي خلقها آهورامزدا . :

١ ـ إيران ڤئجو (إيران ڤيج) Airyana Vaêjô قرب مجرى نهر (نيك دائي تي) (مكان أسطوري ينطبق في عهد الساسانيين على منطقة نهر ارس في آذربيجان) .

٢ ـ سغدا (سغديانا ، سغد) Sughda, Soghdiana, Sughd

٣ ـ مورو (مرگيانا ، مرو) Margiana, Môru

٤ ـ باخدي (باكتر ، نفس ولاية بلخ القديمة) Bâkhdi

٥ ـ نساي Nisâya (عاصمة پارت ، وتقع نسا الجديدة في خراسان على بعد يومين من سرخس وخمسة أيام من مرو) .

٦ ـ هرويو Horôya (هرات) .

٧ ـ ڤائكرتا Vaêkereta (معناها بالبهلوية كابل نفسها) .

٨ ـ اورڤا Urva (طوس نفسها) .

٩ ـ ڤهركانه Vehrkâna (هيركانيه Hyrcania ، گرگان الحديثة أو جرجان) .

١٠ ـ هره وايتي (Harah waiti) اراختس(Arakhotos)

١١ ـ هائتومنت Haêtument (الموضعان العاشر والحادي عشر يقعان على نهر هيرمند) .

١٢ ـ رغ (بفتح الراء والغين) Ragha ، الري أو (رگائي) طبقاً لنطق اليونانيين ، وهي على مقربة من تهران العاصمة الجديدة لإيران .

١٣ ـ چخرا Chakhra (شرغ أو جرغ على بعد أربعة فراسخ من بخارى كما يقول ابن خردادبه)[1]

---

(١) طبع دوخويه ص ٢٥ ، ٢٠٣ .Ed. de Goeje (Vol. vi. of Bibl. Geog. Arab)

[58] ١٤ ـ ڤرنه أو ڤرناي چهاركوش[1] (؟ في ناحية من البرز) Varena

١٥ ـ هپتا هندو Hapta-Hendu أو مجاري أنهار البنجاب السبعة .

١٦ ـ الأراضي القريبة من شلالات رنها Ranha « حيث يعيش أناس بلا حاكم أو زعيم » .

ويتصور جايجرهو وبعض العلماء أن هذا الترتيب الذي ذكرناه هو نفسه خط السير الذي اختاره المهاجرون الايرانيون بعد الإنشقاق والإنقسام ، وبعد تشعّب المجموعة الأصلية الهندوإيرانية في پامير ودخولها إيران . وأن تدفق أول سيل للمهاجرين من پامير إلى إيران كان يتجه في الغالب جهة الغرب وحتى حدود سغد ومرو وبلخ ونسا وهرات . وقد سارع سيل آخر نحو الجنوب والجنوب الغربي ، واتجهوا إلى البنجاب وكابل ونواحي نهر هيرمند .

وولى بعض المغامرين وجههم قبل الغرب ، وواصلوا سيرهم إلى جرجان والري . ولكن أي المدن دخلها المهاجرون قبل غيرها ؟ . هناك شك في الترتيب الذي أوردناه ، وبفرض حذفنا لكل النقاط المشكوك فيها فإننا ـ بناء على أدلة جغرافية ـ لا يمكننا الدفاع عن هذا الترتيب . وما يمكن تصوّره هو أن التقدّم معزو إلى الدين الزردشتي لا إلى شعب إيران . وهذا الإفتراض قوي إلى حد يجعلنا [59] نطمئن إلى القول بأن إيران فيج Airyana - Vaējo هي نفسها اترو پاتن (آذربيجان) ، وفي هذه الحالة فإن أصح الفروض هو أن الدين قد نبع من أقاصي شمال غربي إيران لكنه حقق أول إنتصاراته في أقاصي الشمال الشرقي .

---

(١) تعليق المترجم : ضبطت الكلمة في المجلد الأول من اليسنا ص ٦٧ على النحو التالي (رنگها) ، والمقصود بسيردريا (سيحون ؟) . انظر : مينوى اوستا لپورداود ص ٦٧ . وقد ضبطها محمد معين على النحو التالي (رنكه) ، وذلك في كتاب مزديسنا وتأثيره في الأدب الفارسي ، طبع جامعة طهران سنة ١٣٦٦ هامش ص ١٢٠ ، وصحبها بهذا الشرح : « وقد ورد اسم احر بالأفستا وهو رنگه Rangha ومعناه بالبهلوية نينوا . غير انه بناء على الدراسات التي قام بها العلماء يثبت ان رنگهه اسم نهر داستاني الذي يسمى في البهلوية ارنك ياوه رود ويقابل نهر جيحون .

فيما يتعلق ببابل ونينوا ورنگهه .. انظر : الأفستا ـ يشت ٥ (ابان يشت) بند ٢٩ ، يشت ١٠ (مهريشت) بند ١٠٤ .

ولو أردنا إيراد الدليل على أن الأنبياء والرسل لا يجدون العزة في وطنهم غالباً فعلينا بالتاريخ الإسلامي . ولقد كانت يلخ بالنسبة للدين الزردشتي شبيهة تمام الشبه بالمدينة بالنسبة للدين الإسلامي .

وبعد تغطية العصر الهندوإيراني والعهد الأول من عهود إيران القديمة . . يبحث اشبيجل[1] في فترة أخرى . . . ويبذل في بحثه جهداً كبيراً ويبدي دراية ودقة . ويبدأ تلك الفترة قبل ميلاد المسيح بألف عام ، وهي الفترة التي سادها نفوذ الأشوريين . ويتبدى نفوذهم بوضوح في أحجار الهخامنشيين ونقوشهم . والقسم الذي خصصه اشبيجل تنعكس فيه كثير من الأساطير والخرافات وأصول العقائد السامية وغير الآرية . والعجيب أن يكون النفوذ السامي قد بلغ هذا المبلغ الكبير في كل العهود التاريخية الإيرانية . فقد كان للعرب نفوذهم في أواخر العهد الساساني ، كما كان لهم نفوذهم في العصر الإسلامي . وكان للآراميين نفوذهم في أوائل عهد الساسانيين وأواخر عهد البارثيين . وكان للآشوريين نفوذهم في العهود القديمة . وهذه حقيقة يعدُّ كل إعتراض عليها تصلباً وعناداً لا أكثر . وقد أصيبت دراسات اللغة الفارسية في مجال علم اللغة أكثر من غيره بلطمة قاسية . فإن إستخدام قرابة جذور اللغة والعنصر تعتبر من وجهة نظر فقه اللغة ـ بصفة عامة ـ أكثر أهمية وأعمق دلالة من تأثير الإتصال الأدبي والديني . . . رغم أن النفوذ الديني والأدبي أعمق بمراحل . وفي إنجلترا يهتمّون بدراسة اليونانية أكثر من إهتمامهم بدراسة العبرية . . . مع أن فهم نوايا المصلحين المسيحيين في إنجلترا واسكتلندا[2] وفهم أسلوبهم ـ بصرف النظر عن أشعار ميلتون[3] ـ يقتضي المعرفة بالكتاب المقدس بنسبة تعادل على الأقل وجوب معرفة العلوم والفنون اللاتينية واليونانية الراقية . ويصدق هذا المعنى على إيران بصورة كبيرة ، حيث كان النفوذ

[6]

---

(١) Erânische Alterthumskunds, Vol. ipp.446 - 485, «Beginn der Irânischen Selbstandigkeit. Die Altesten Beruhrungen mit den semiten.

(٢) English Puritans, Scottish Covenanters.

(٣) Milton.

السامي يتغلغل من الناحيتين الأدبية والدينية .

ولو أنني خيِّرت ـ أثناء إعدادي وسائل دراساتي حول سير العقائد والأفكار في إيران وحول الأدب الفارسي ـ بين أن أحيط إحاطة كاملة بواحدة من إثنين : اللغات السامية أو اللغات الأرية ، لاخترت اللغات السامية دون تردد ، وذلك للأسباب التي ذكرتها .

فإنه لكي يتمكن المرء من القراءة في البهلوية يجب عليه أن يعرف اللغات الآرامية ، كما أنه بدون معرفة واسعة بالكتب العربية لا يستطيع المرء أن يحقق نجاحاً في دراسته الخاصة بالأداب والعقائد والأفكار الايرانية بالنسبة للفترة التالية للإسلام . بينما لا يجني المرء فائدة كبيرة من وراء معرفة اللغة السنسكريتية إذا ما أراد الإستفادة منها في دراسة الفرعين المذكورين ـ وحتى في مجال تفسير الأفستا يجب علينا ألا نتوسع في محاولة الإستفادة من السنسكريتية ، وأن نمنح إهتماماً كبيراً للتقاليد والروايات البهلوية .

وفي ختام فصلنا هذا ـ وهو الذي يعتبر بمثابة مقدمة ـ نجد من الأفضل أن نحدد باختصار عصور إيران التاريخية المختلفة التي تحدثنا عنها :

(١) العصر الهندو إيراني .

(٢) عصر إيران القديمة .

(٣) عصر النفوذ الأشوري (ألف عام قبل ميلاد المسيح)[1] .

(٤) العصر الميدي (٧٠٠ عام قبل ميلاد المسيح) . [61]

(٥) العصر الفارسي القديم (الهخامنشي) (٥٥٠ عام قبل ميلاد المسيح) .

(٦) عصر الضعف : في الفترة ما بين حملة الإسكندر واستعادة إيران عظمتها على يد الساسانيين (٣٣٠ ق.م ـ ٢٢٦ م) .

---

(١) وربما أكثر من ذلك (أنظر ص ٣٢ من نفس الفصل) .

(٧) العصر الساساني (٢٢٦ م - ٦٥٢ م) .

(٨) العصر الإسلامي (من سقوط السلسلة الساسانية حتى اليوم) .

وسوف نركّز إهتمامنا على العصر الأخير ، وسنجده متفرعاً إلى عدة فروع - وقبل أن نخوض في هذا الموضوع نجد من الضروري أن نتحدث قليلاً حول الأدب الفارسي القديم وكيفية إكتشافه . . إلى غير ذلك من المسائل المتعلّقة به . وسوف نخصّص الفصل التالي لذلك .



الفصل الثاني

اكتشاف النقوش والوثائق الإيرانية القديمة وترجمتها، والتحدث حول سائر الموضوعات الخاصة بعلم اللغة



62] نبذة عن تقدّم الدراسات الشرقية في أوروبا :

كانت اللغة الفارسية الحديثة ، أي لغة إيران بعد الإسلام ـ ولفترة طويلة ـ موضع حب أوروبا وموضع إهتمام الدارسين (بناء على براهين وأدلة عملية) قبل أن تكون وسيلة لحل غموض اللغات الثلاثة القديمة .

وسوف يدور البحث في هذا الفصل بصورة مختصرة حول إكتشاف اللغات الثلاثة المذكورة وقراءتها . . وهي : الفارسية القديمة (لغة النقوش الحجرية الهخامنشية) ، لغة الأفستا ، والبهلوية (لغة النقوش الساسانية) . ويجب أن ندرك أيضاً أن دراسة اللغة العربية كانت مفضلة في أوروبا على دراسة اللغة الفارسية ، إذ كانت وسيلة إنتقال الفلسفة اليونانية ، خاصة فلسفة أرسطو . فعن طريق اللغة العربية عرفت هذه الفلسفة في أوروبا الغربية لأول مرة . لهذا كان إهتمام العلماء بالعربية يفوق كثيراً إهتمامهم بالفارسية الحديثة .,وأول من ترجموا إلى الأوروبية عن العربية هم اليهود والمغاربة الذين إعتنقوا الدين المسيحي[1] .

---

(١) وربما أكثر من ذلك (أنظر ص ٣٢ من نفس الفصل) .

(١) يرد في هذه النشرة قدر كبير من المعلومات عن المستشرقين الروّاد .
Gallia Orientalis of Paul Colomés (Opers Hambourg. 1709 pp.1 - 272).

وكذلك الحال في الشرح التاريخي القيّم الذي كتبه جوستاف دوجا بعنوان مقدمة في التاريخ ، إذ أن به الكثير عن مستشرقي أوروبا في القرن الثاني عشر وحتى الرابع عشر ـ طبع باريس ١٨٦٨ م :
Histoire des Orientalistes de L'Europe du Xii au XiX Siecle (Paris, 1868).

وإني لمدين لجوستاف دوجا بمعلوماتي في هذا القسم .

وارجع إلى دراسات جوردون النقدية حول زمن ترجمات أرسطو اللاتينية ومصادرها ، والتفاسير اليونانية أو العربية التي استفاد منها علماء الاسكولاستيك (الفلسفة والإلهيات في القرون الوسطى) :
M. Jourdain. Recherches Critiques Sur L'age et L'origine de traductions Latines d'Aristone et sur les commentaires grecs et Arabes employés par les docteurs scolastiques.

[63] وقد بدأوا ترجماتهم في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي تقريبا . ولم يمض الكثير حتى اقتفى خطاهم مترجمون أوربيون أمثال جيرار[1] من ولاية كرمونا[2] في

ايطاليا (من مواليد عام ١١١٤م) والبرتوس مجنوس[3] (من مواليد عام ١١٩٣م) الذي كان يرتدي الملابس العربية ويشرح تعاليم أرسطو إستنادا إلى مؤلفات الفارابي وابن سينا والغزالي، ومايكل سكوت[4] الذي كان قد تعلم العربية في طليطلة[5] عام ١٢١٧م. وقد ذكر روجر بيكن[6] وريموندلل[7] (القرن الثالث عشر) أهمية دراسة اللغات الشرقية بالنسبة للدراسات الفلسفية والعلمية .

وقد قال البابا كليمنت الخامس[8] (عام ١٣١١ ـ ١٣١٢ م) أنه يجب أن تنشأ كراسي أستاذية لكل من اللغات العبرية والكلدانية والعربية في كل من روما وباريس وبولونيا[9] وأكسفورد وسالامانكا[10] ، وأن تدرس تلك اللغات بسرعة (١٣٢٥) تحت إشراف الكنيسة ورقابتها الدقيقة حتى لا تتعرض المسيحية الأرثوذكسية ـ الأصيلة ـ للخطر .

وتقرر أن يتولى هذا المنصب العلمي أستاذان في كل مدينة من المدن الخمسة [64] المذكورة ، بشرط أن تعينها الدولة أو الكنيسة ، وأن تعدّ ترجمات سليمة باللغة اللاتينية لأمهّات الكتب القيمة التي كتبت باللغات المذكورة ، وأن ينشأ تلاميذهم على نحو يجعلهم قادرين على ترجمة الدعايات الدينية ترجمة جيدة .

غير أنه يبدو وللوهلة الأولى أن هذه الإقتراحات التي تستحق التمجيد لم يكتب لها التنفيذ ، فحتى عام ١٥٣٠ م ـ حين أسست الجامعة الفرنسية[11] على يد

---

(١) Gerard
(٢) Cremona
(٣) Albertus Manus
(٤) Michael Scot
(٥) تولدو Toledo
(٦) Roger Bacon
(٧) Raymond Lull
(٨) Pope Clement
(٩) Bologna
(١٠) Salamanca
(١١) Collège de France

فرانسيس الخامس - لم يكن أي أمر هام - في الحقيقة - قد تحقق في سبيل تقدم دراسة اللغة العربية . وفي عام ١٢٧٤ م كان أرمجان Armegand - من جامعة مونبلييه[1] - قد ترجم أجزاء من مؤلفات ابن سينا وابن رشد إلى اللاتينية .

ويرجّح دوجا M. Dugat أن يكون جيلوم بستل Guillaume Postel هو أول مستشرق فرنسي . وكان جيلوم من كبار العلماء والرحالة ، ويبدو أنه أول من تسبب في إعداد الحروف العربية للمطبعة .

وفي عام ١٥٨٧ م أسس هنري الثالث كرسياً للغة العربية في جامعة فرنسا ، وبعد سنوات . . عين سفاري دوبرف Savary de Brèves في سفارة فرنسا بالقسطنطينية .

[6 وكان سفاري - كما يقال - يتميز بتذوّقه للأدب الشرقي ، وقد جلب إلى باريس فيما بعد حروفاً للطباعة تمتاز بالجودة الفائقة ، كانت مستعملة في الشرق . وقد ابتيعت هذه الحروف (العربية والسريانية والفارسية والأرمنية والحبشية) بعد موته من قبل لويس الثالث عشر ، مضافاً إليها النسخ الخطية العربية والفارسية والتركية والسريانية التي كان يمتلكها ، وامتلكتها المطبعة الملكية (ما دفع في شرائها عبارة عن معونات مالية من رجال الدين) .

وقد حققت دراسات الإستشراق في أوروبا في القرن السابع عشر تقدماً كبيراً ، وأخذت منذ هذا التاريخ تسير قدماً في طريق الرقي والإزدهار . وفي القرن

---

(١) هذا أول شرح لما ورد عن Montpellier Gallia Orientalis يقول فيه المؤلف (ترجمة عن اللاتينية) : أول شخص أعرفه من بين أهالي گل . . درس اللغات الشرقية واطّلع على ما كتب بها - من عام ١٢٠٠ حتى الآن - هو Armegandus of Belasius الذي كان دكتوراً في الطب ، وكان يعيش في عهد فيليب بن لودويج الملقب بالمقدس . تعليق المترجم : في أيام الرومان . . كان يطلق على فرنسا الحالية والقسم العلوي من إيطاليا باللغة الفرنسية (گل) وبالإنجليزية (گال) ، وباللاتينية (گاليا) .

المذكور نفسه . . أنشأ سير توماس آدمز[1] وأسقف لاد[2] الأعظم كرسيين للعربية ، أحدهما في كبريدج (عام ١٦٣٢ م) والآخر في أكسفورد (١٦٣٦ م) ، وكان كرسي أكسفورد من نصيب العالم الشهير پاكاك Pococke ، وكرسي كيمبردج من نصيب أبراهام ڤهيلوك Abraham Wheelock الذي كان يضاهيه في شهرته ومقامه العلمي . وإلى جانب تدريب العربية والأنجلوساكسونية . . عهد إلى ڤهيلوك برياسة مكتبة الجامعة . وكان توماس هايد من بين تلاميذه المشهورين ، وقد أصبح عالماً وتولّى منصب الأستاذية للغتين العبرية والعربية في أكسفورد .

ومن الكتاب الذي وضعه توماس هايد في موضوع تاريخ الديانة لدى قدامى الإيرانيين والبارثيين والميديين يظهر لنا أن هذا الموضوع العلمي قد بلغ درجة رفيعة في نهاية القرن السابع عشر . وقد طُبع الكتاب عام ١٧٠٠ م قبل وفاة المؤلف بعام تقريباً[3] .

[66] والحق أنه حتى نشر كتاب (الأفكار) لأنكتيل دوبرون Anquetil du perron (١٧٦٣ - ١٧٧١ م) كان كتاب توماس هايد هو الذي يحدّد منزلة هذا العلم الشامخة في ذلك التاريخ . ويعدّ كتاب الأفكار من جهة الأهمية في حكم بداية أحد العصور التاريخية ، وسوف نتحدث عنه في موضعه لذا نجد من المناسب إيراد ملخص لآراء توماس هايد قبل شروعنا في هذه الدراسة . لقد كان لجديته ودأبه ومعرفته باللغات إلى جانب التسهيلات التي نالها بسبب رياسته لمكتبة بودلين . . الفضل في وضع كتاب جامع متكامل حول موضوع دين إيران القديم ، في حدود الوسائل والمعلومات المتوفرة آنذاك ، ولم يستفد هايد من مؤلفات سابقيه

---

(١) Sir Thomas Adams توفي علم ١٥٨١ في سن الخامسة والتسعين أو السادسة والتسعين ، أنظر : Gallia Orientalis pp.59 - 66.

(٢) Archbishop Laud

(٣) توفي في ١٨ فبراير ١٧٠٢م بعد إستقالته من رياسة مكتبة بودلين في أبريل ١٧٠١ ، أنظر في ذلك الطبعة الثانية من كتابه المنشور علم ١٧٦٠ .

فحسب بل ومن قدر من المخطوطات أيضاً.والمقصود بمؤلفات سابقيه هذا النوع من الكتب والرسائل : كتاب بارنا بي دي بريسون الخاص بالإمبراطورية الإيرانية ، وهو في ثلاثة مجلدات (طبع باريس ١٦٠٦ م)[١] ويعتمد أساساً على تصريحات المصنفين اليونانيين واللاتينيين وآرائهم . كتاب هنري لورد الخاص بدين الفرس (١٦٣٠)[٢] . كتاب سانسون (١٦٨٣)[٣] الخاص بوضع إيران الحالي . [67

بدرو تكزيرا Texerra (١٦٠٤) ، بير جابريل دوشينون Père Gabriel de Chinan (١٦٠٨ - ١٦٥٠) ، تافرنيه Tavernier (١٦٢٩ - ١٦٧٥) ، الثاريوس Olearius (١٦٣٧ - ١٦٣٨) ، ثقنو Thevenot (١٦٦٤ - ١٦٦٧) شاردن Chardin (١٦٦٥ - ١٦٧٧) ، بيتي دولاكروا Petits dela Croix (١٦٧٤ - ١٦٧٦) ، صموئيل فلاور Samuel Flower (١٦٦٧) .

وقد كانت النسخ الخطية باللغات : الفارسية والعربية والتركية والعبرية والسريانية ، وقد استفاد منها هايد بمهارة تدعو للإعجاب . ولكي يستكمل هايد معلوماته لجأ إلى بعض أصدقائه من الفرس المقيمين بالهند ، وأخذ منهم كثيراً من المعلومات اللغوية . وكتابه في الجملة يعدُّ سجلاً للعلم والأدب . والعجيب أنه عند كتابته كانت التسهيلات لمثل هذا اللون من الدراسات قليلة جداً ، وكانت الاستنتاجات تقوم على الفراسة ثم تأتي الأدلة بعد فترة من الزمن . ويرى هايد أن

---

(١) Veterum Persarum... Religionis Historia: Barnaby de Brisson, De Regio Persarum Principata Lybria Tres (Paris, 1606).

(٢) وعنوان هذه الرسالة الكامل هو : Henry Lord's Religion of the Parsees. دين الفرس بناء على ما كتب في أحد كتبهم - بالخط الفارسي - عن طريقة العبادة ، والذي يسمونه الزند والأفستا . وقد شرح في رسالته التي تصل إلى ٥٣ صفحة الطقوس الخرافية التي كانت سائدة بينهم ، وخاصة عبادة النار التي هي نوع من عبادة الأصنام . ومصدر معلومات مؤلف هذه الرسالة فارسي من سورت Surat قضى مدة طويلة في خدمة إحدى الشركات ، ونتيجة لذلك تعلم اللغة الإنجليزية بنسبة متوسطة . والمعلومات التي جمعت في هذا الكتاب والخاصة بأصول عقائد الدين الزردشتي قليلة وتافهة ، وليس فيها معلومات عما حوته الأفستا حتى بصورة غير مباشرة .

(٣) Sanson, De Hodierno Statu Persiae, 1683.

(ماد) في العربية هي (ماه) وهي الجزء (المقطع) الأول من بعض أسماء البلاد (أنظر كتابه ، ص ٤٢٤) . كما يرى أنه توجد بين زردشتي إيران لهجة خاصة تسمى « گبرى » (الصفحات ٣٦٤ و٤٢٩ من الكتاب) . ويرى أن فرقة الحروفية [68] هي نفس المانوية ، غير أنها ظهرت على نحو جديد وبروح جديدة (ص ٢٨٣) .
وقد وضع هايد يده على الترجمة التي وضعها البنداري للشهنامة بالعربية ، فاستفاد من هذه الترجمة النادرة . كما اطّلع على خط الزند[1] وعلى بعض المؤلفات الفارسية مثل : زردشت نامه ، صد در (وقد ترجمه بأكمله إلى اللاتينية) ، وعلى الترجمة الفارسية لكتاب : اردا ويرافنامه .

ولم يكن يعرف شيئاً قط عن لغة الأڤستا واللغة البهلوية ، وقد أخطأ كلية في فهم كلمة زند أڤستا أو زندو أڤستا ، وحاول أن يثبت أن النقوش الفارسية القديمة ليست خطاً على الإطلاق ، وإنما هي مجرَّد زينة لتزيين البناء .

ويحاول انكتيل دوبرون في نهاية حديثه[2] أن يثبت خطأ هايد فيما يتعلّق بلغة الأڤستا ، فيقول : إن كتاب هايد برمّته يبدو فيه الخط الزندي كغطاء فقط للجمل الفارسية المنقولة عن كتابات فارسية حديثة . ونحن لا يعوزنا الدليل على صحة ذلك ؛ فقد كان هايد يمتلك نسخة لقسم من أقسام الأڤستا ، كما اطلع على نسخة اليسنا التي كان مودي[3] ـ أحد التجار الإنجليز ـ قد أهداها في أواسط القرن السابع عشر لمدرسة أمانوئل في كمبريدج Emmanuel College Cambridge. ومن المسلم به أنه قرأ هذه الوثيقة[4] .

---

(١) يستفاد من الرسالة التي كتبها سير ويليم جونز Sir William Jones للدكتور آ . . . دوب ، وما نقل من ذلك الكتاب في صفحة ٦٠٢ أن الدكتور هايد قد أذن بصب حروف خط الزند لكتابه بصفة خاصة . وهي مجموعة ممتازة من الحروف تفوق كثيراً حروف آخر طبعة للأڤستا (كلدنر Geldner) جمالاً ودقة .

(٢) Anquetil du perron, Discours Préliminnaire (pp. CCCCIXXXiX - CCCCXCViii)

(٣) Moody

(٤) أنظر كتاب هايد الذي عرّفنا به قبل ذلك وامتدحناه ، هامش ص ٣٤٤ .

[69] إن كان قد استطاع قراءتها ـ لأنها تهمه جدا في بلوغ هدفه . فرغم علمنا بأنه كان يعرف هذا الخط وأنه قد استعمله في كتابه ، فإننا نعلم أيضاً أنه لم يكن يفهم شيئاً من لغة هذا الخط . لقد كان يعتبر عنوان كتاب الزردشتيين المقدس عنواناً أجنبياً ، ويراه خليطاً ، ويقول إنه مركّب من لفظين ، أحدهما عربي وهو (زند = آلة لإشعال النار) ، والآخر عبري وكلداني وهو (اشتا = النار .) (أنظر الكتاب الذي يشرح ذلك ، ص ٣٣٥ وما بعدها) . وهو ينظر إلى النقوش الفارسية القديمة في غير إهتمام ويعتبرها تافهة ، ويرى أن أهميتها تنحصر في كونها تغري بالتفحّص والتدقيق (ص ٤٥٦) . ويؤكد أنها ليست الفارسية القديمة (ص ٥٤٧) ، وليست خطاً . . وإنما هي مجرد نقوش ابتدعتها رأس معماري يجيد التخيّل (ص ٥٥٦ ـ ٥٥٧) ، وقد خططها هذا المعماري على لوح حجري ونقرها وحفرها . وهكذا وبنفس الطريقة نجده ينكر وجود أي لون من ألوان الخط الفارسي في النقوش البهلوية . ويقول صراحة فيما يتعلق (بالأرقام واحد وأربعة) (البهلوية الساسانية) : هذه الخطوط لا يمكن أن تكون فارسية قديمة لأنها تختلف عن الكتب القديمة التي تحت يدي تمام الإختلاف (ص ٥٤٨) .

[70] كان هذا معدل المعلومات في عام ١٧٥٤ م . ومع أن عدداً من النسخ الخطية الجديدة لكتاب الأڤستا قد أحضر إلى إنجلترا ، فإنه لم يحرز تقدماً في سبيل فهم الأڤستا . وكانت الونديداد واحدة من النسخ التي حصل عليها جورج بوجيير (أوباوچير) George Boutehier or Bowcher عام ١٧١٨ م وهو من الفرس المقيمين بالهند ، وقد نقلها ريتشارد كاب Richard Cabbe إلى إنجلترا عام ١٧٢٣ ، وقدّمها إلى مكتبة بودلينBodleian ، وما زالت بها تحت علامة ورقم : (Bodlo. 321). وقد اشترى فريزر Frazer في سورت Surat نسخة خطية لليسنا ، وحاول جاهداً أن يتعلم اللغتين لغة الأڤستا واللغة البهلوية على يد رجال الدين الزردشتي ، لكنه لم يتمكن من ذلك ولم يستطع إغراءهم وضاعت جهوده هباء . وفي نفس العام وقعت صور عدة أوراق من نسخة الونديداد الخطية في يد شاب فرنسي في العشرين من عمره ـ وهي عن النسخة الخاصة بمكتبة بودلين ـ فدفعه

حماسه الفرنسي إلى الإسراع بسلب مفتاح الأسرار الخفية لأحد الأديان القديمة التي كانت معروفة في الدنيا القديمة ، وصمم على إنتزاع هذه الأسرار من بين مخالب رجال الدين المتشككين ، وأن يضع تحت أبصار علماء الدنيا أصول الديانة الزردشتية إعتماداً على الكتاب السماوي القديم نفسه لا إعتماداً على أقوال الكتاب من غير الزردشتيين أو حتى زردشتي الفرس الجدد . . وبذلك يحقق لبلاده الرفعة والفخار . وقد دفعه حماسه إلى الإسراع دون إنتظار لمعونة مادية . ورغم أنه كان قد وعد بمساعدة مالية ليتمكّن من السفر إلى الهند فإنه لم يثق بهذا الوعد ، وسجل اسمه بصفته جندياً متطوعاً في شركة الهند الشرقية . وكان جاداً حازماً فيما إعتزمه ؛ [71] فبرغم المشاكل والصعاب والمتاعب والأمراض والأخطار والمغامرات البحرية والحروب . . دأب على عمله سبع سنوات ونصف ، ولما عاد إلى باريس في ١٥ مارس ١٧٦٢ م - بعد سفره الطويل المليء بالأحداث - سلّم نسخه الخطية إلى المكتبة الملكية Bibliothèque du Roi ، تلك النسخ التي تعدّ ثمار متاعبه التي تفوق حد التصوّر .

وقضى الشاب تسع سنوات أخرى يتألم في صمت . . إلى أن كان عام ١٧٧١ م ، ففي هذا العام اطمأن باله حين خرج إلى الوجود كتابه العظيم الذي يقع في ثلاثة مجلدات ، وقد اتخذ هذا العنوان الوقور المحكم : « زند - اوستا - كتاب زردشت ، كتاب شامل لأفكار هذا المشرّع المتعلقة بالروح والجسم والأخلاق ، ويحوي شعائره الدينية التي وضعها ، ونقاط هامة أخرى تتصل بتاريخ إيران القديم مترجمة من أصل الزند إلى الفرنسية ، مع إيراد حواشي وتعليقات حول الموضوع تلقى الضوء على المضامين وتجلّيها » .

ويعتبر هذا الكتاب - بكل ما في الكلمة من معنى - بمثابة بداية لعصر من العصور التاريخية . أو يعتبر - بناء على قول الألمان - في حكم الكشف الريادي . لقد أنجز انكتيل دوبرون Anquetil du perron العمل العظيم الذي أخذه على عاتقه على أكمل وجه ، وإن بقيت بعض الجزئيات والفرعيات التي يلزم على خلفائه أن يدرسوها ويقوموا بتحقيقها . ومن الطبيعي أن ترد في كتابه كثير من

الموضوعات غير الصحيحة[1] ، إلا أن الواجب علينا أن نقول ـ من باب الإنصاف ـ أن الفخر الكشفي والريادي ـ الذي تم في حقل الدين واللغة التي كان يستخدمها الزردشتيين القدماء ـ ينسب في معظمه إليه ، وأن النتائج العديدة والهامة من النواحي الأدبية ، والتي تتعلق بعلم اللغة وعلم الأنساب والفلسفة قد تم التوصّل إليها عقب إكتشافه .

وليس هنا مجال البحث في تفاصيل سفر انكتيل ، فقد دوّن ذلك بدقة في الجزء الأول من كتابه (ص ١ ـ ٤٧٨) والموضوعات التي طرقها بإسهاب لها طابع الجانب الشخصي الصرف ـ وقد يحسن حذفها . ونتيجة للإطالة والإسهاب صار كتابه هدفاً سهلاً لسهام الطعن واللمز . وخلاصة ما كتبه أنه سافر من باريس في السابع من نوفمبر عام ١٧٥٤ م وليس معه سوى القليل من الزاد والمتاع (عدّة كتب وقميصين ومنديلين وزوجين من الجوارب) . وكان سفره سراً لا يعرفه غير أخيه . وقد اتجه إلى الشرق ضمن كتيبة لا يتفق أفرادها معه في الذوق والطبع . وقد وصفهم في كتابه بالحيوانات . وفي السادس عشر من الشهر المذكور . . وصل انكتيل إلى أوروبا الشرقية ، وقد بلغها في الوقت الذي وصلت فيه الأخبار تحمل نبأ تبرّع الملك بخمسمائة ليرة لتكاليفه ، ومنحه تذكرة سفر بالدرجة الأولى على السفينة المتّجهة إلى الهند .

وفي السابع من فبراير عام ١٧٥٥ م أبحرت السفينة تاركة أوروبا الشرقية . وفي التاسع من أغسطس من العام نفسه وصلت إلى بونديشري Pondichery حيث استقبله جوپيل M. Goupil القائد العام لقوات بونديشري بحرارة . وانطلق انكتيل بكل ما أوتي من حماس يتعلم اللغة الفارسية ، وصار يتحدث بها بعد ذلك مع رجال الدين الزردشتي . ومضت ثلاث سنوات قبل أن يصل إلى سورت Surat وكان وصوله إليها في أول شهر مايو عام ١٧٥٨ م . وما أن جاء شهر مارس

---

(١) أنظر كتاب هاوج الخاص بالفرس ، تصحيح وست (الطبعة الثالثة ـ لندن ـ ١٨٨٤ ـ ص ٢٤)
Haug's Essays on the Parsis edited by West (third edition. London 1884). p.24.

في عام ١٧٥٩ م حتى سقطت في يد الإنجليز . وتعرقلت مسيرة انكتيل لانه - على ما يبدو - لم يكن هناك ما يرضي ذوقه ويشبع طبعه المدقق ، كما أنه كان مولعاً بدراسة الآثار القديمة وديانات الهنود وشعائرهم وطقوسهم ولغاتهم ، وكان يميل أكثر ما يميل إلى كل ما يرتبط إرتباطاً مباشراً بالدين الزردشتي .

وكانت مشكلات العصر السياسة هي المانع الثاني لتقدّم مسيرته . وفي سورت ، وثّق انكتيل صلته برجلين من رجال الدين الزردشتي هما داراب وكاوس . وبعد ثلاثة أشهر من الجهد والدأب والبطالة والسأم وقعت في يده نسخة من الونديداد . لقد أحس الرجلان برغبته في التعدّي والسرقة فنفضا أيديهما من الموضوع ، وأعطياه نسخة ادّعيا أنها كاملة . ولما كان لزاماً عليه الإحتياط والتثّبت . . فقد استعار نسخة قديمة أخرى من نسخ الونديداد من رجل دين زردشتي آخر يدعى منوچهرجي (لا صلة له بداراب وكاوس) . وأجرى مقابلة بين نسخة منوچيهرجي ونسخة الرجلين فتبينّ له ما في نسختهما من نقص ، وأدرك أنهما تعمّدا أن يعطياه النسخة ناقصة . ولما واجههما بما اكتشفه أخذا يتلطفان إليه ، وأصبحا أكثر رغبة في الكلام ، وأقلّ إستعداداً للهجوم ، وقدما له مؤلفات أخرى . . من بينها القصة الفارسية « سنجان » (أثبت أنكتيل خلاصتها في كتابه ص ٣١٨ - ٣٢٤) . وعرف كيفية انتقال نسخ الونديداد ، والتفسير البهلوي الذي وضع لها في الهند . وهذا التفسير مدوّن على الأصل الفارسي الذي نقله من سيستان إلى الهند - في القرن الرابع عشر الميلادي تقريباً - رجل دين زردشتي يدعى أردشير . كما أن هناك تفسيراً آخر يتعلق بالروابط التي تربط بين زردشتي إيران والهند . . وهي الروابط التي كانت تنشأ بين حين وآخر .

[73]

وفي الرابع والعشرين من مارس عام ١٧٥٩ انتهى انكتيل من تأليف معجمه البهلوي - الفارسي ، وبعد ذلك بستة أيام بدأ في ترجمة الونديداد مقابلاً بين النسختين الخطيتين اللتين مرّ ذكرهما ، وانتهى من الترجمة في السادس عشر من يونيو من نفس العام . ثم تعرض انكتيل لمرض شديد وهجوم وحشي من جانب أحد مواطنيه ، ونتيجة لهذين الحادثين توقف عن العمل خمسة أشهر . وفي العشرين من

[74] نوفمبر بدأ العمل من جديد يساعده داراب رجل الدين الزردشتي . وفي خلال هذه المدة وبدافع الصداقة . . . قدم له السيد سبنسر Spencer والسيد ارسكين Mr. Erskine كثيراً من المساعدات ومنحاه حمايتها .

وقد تعرَّض انكتيل للمرض مرتين أثناء ترجمته اليسنا والويسبرد Vispered والونديداد والبندهش البهلوي وسي روزه والروايات وغيرها . . وأثناء رؤيته النار المقدسة في معابد النار وزيارته للقبور .

وخوفاً من ضياع ثمرة جهده البالغ فقد أغفل مخططاته الأخرى ، ولم يعد يفكر في السفر إلى الصين . ورغم أن إنجلترا وفرنسا كانتا في حالة حرب فقد اضطر إلى اللجوء إلى الإنجليز مرتين ، ونعم بمساعدتهم وأفاد منها ؛ ولهذا يقول في صفحة ٤٣١ من كتابه : « لو نظرنا إلى الإنجليز من زاوية واحدة لوجدناهم أناساً يتمتعون بطبع سخي » . ثم غادر سورت Surat إلى بمباي بطريق البحر ومكث بها شهراً . ثم تحركت به السفينة بريستول Pristol وهي تحمل النسخ الخطية النفيسة وذلك في الثامن والعشرين من ابريل عام ١٧٦١ م . (كان عدد هذه النسخ الخطية ١٨٠ نسخة ، وهناك في المجلد الأول من كتابه ص ٥٢٩ ـ ٥٤١ صور لقسم من هذه النسخ) . وفي السابع عشر من نوفمبر من نفس العام دخل برتسموث Portsmouth ، وهناك اضطر مكرها إلى ترك النسخ الخطية في الجمرك . وقد تمَّ عزله مع غيره من الأسرى الفرنسيين في فيكهم Wickham وباعتباره لا يدخل ضمن أسرى الحرب ، ولأنه كان تحت حماية الإنجليز فقد سمح له بالتوجُّه فوراً إلى فرنسا .

ورغم ما كان يحمله بين جوانحه من شوق عارم لوطنه الحبيب تسببت فيه هذه الغيبة الطويلة ، ونتيجة لحرصه الكبير على إقتناء الوثائق القيِّمة التي جمعها بعناء ومشقة ، والتي تشغل فكره بصورة دائمة ، فقد فضل عدم الخروج من [75] إنجلترا طالما هو لم يزر أكسفورد ولم يقع بصره على نسخ الأفستا الخطيّة الموجودة بها . يقول في صفحة ٤٥٤ من كتابه : « لقد أعلنت صراحة أني لن أرحل عن

إنجلترا قبل أن أزور أكسفورد . لقد أسروني هنا مخالفين حقوق الإنسان ، ولقد كان أملي أن أقابل بين نسخي الخطيّة ونسخ جامعة أكسفورد الخطيّة الشهيرة . . لكن بعض الأسباب اضطرني إلى العودة إلى أوروبا عن طريق انجلترا . ولا يمكن القول بأن رغبتي في مقابلة النسخ الخطية كانت مجرد تعللات أو أني لم أكن صادقاً في إصراري هذا » . ومن رسائل انكتيل نعرف أنه وصل إلى أكسفورد في ١٧ يناير عام ١٧٦٢ م ، وبعد أن قضى بها يومين عاد إلى جريڤسند Gravesend عن طريق فيكهم وبرتسموث ولندن . . وأنه سافر من هناك في الرابع عشر من فبراير إلى استندOstend ، وكان وصوله إلى باريس آخر الأمر في الرابع عشر من مارس عام ١٧٦٢ . وقد سلّم نسخه الخطية إلى المكتبة الملكية في اليوم التالي لوصوله .

ولم ينل كتاب انكتيل حين نشره عام ١٧٧١ م إستحسان كل علماء الدنيا ، ولم يحظ بالرضاء لقاء ما بذل من خدمات كبيرة في ميدان العلم ؛ فبدلاً من الكلمات الحكيمة التي كانت تنتظر من حكيم كزردشت ـ ذلك الحكيم الذي نالت أفكاره الفلسفية العميقة شهرة مدوية حتى في العصر الكلاسيكي[1] ـ وجد العلماء والدارسون أنفسهم أمام خليط من خرافات الأطفال ومجموعة من العبارات المعادة المملّة والأحكام المضحكة الغريبة .

[76] ولقد كان لخيبة الأمل التي مني بها العامة ـ والتي كان يتوقعها انكتيل نفسه (ص ١ ـ ٢) ـ رد فعل وحشي عنيف ، تبدت صورته بوضوح في رسالة سير ويليم جونز ـ وهو أحد الشباب الذين أنهوا دراستهم في أكسفورد[2] . وقد كتب الشاب رسالته بالفرنسية وكان يقلّد فيها ڤولتيرVoltaire ، وطبعها في نهاية الجزء الرابع من كتابه في الصفحات من ٥٨٣ ـ ٦١٣ (طبع لندن ١٧٩٩) . وتاريخ

---

(١) تعليق المترجم : شهدت العصور القديمة أياماً كان فيها الأدب والفن والصناعة اليونانية والرومية في أوج كمالها ، تحتل المرتبة الأولى ـ وتسمى تلك الأيام بالعصر الكلاسيكي .

(٢) كان عمر Sir William Jones آنذاك حوالى ٢٥ عاماً ، وقد حصل على درجة .B.A (التي تعادل الليسانس) ، وكلف بدراسات من قبلUniversity College ، وقد مات عام ١٧٩٤ م وهو في الثامنة والأربعين من عمره .

تحرير الرسالة هو عام ١٧٧١ م ، وهو نفس العام الذي تم فيه طبع كتاب انكتيل . ومما يستلفت الإنتباه في هذه الرسالة : فصاحة الكاتب ولطف بيانه وبلاغة أسلوبه من جهة ولهجته العنيفة وعباراته البعيدة عن الإنصاف من جهة أخرى .

وفي كتاب انكتيل شيئان آذيا مشاعر وليم جونز المرهفة ، الشيء الأول هو إطالة الكلام والإطناب الممل ، والشيء الثاني هو ضعف الأسلوب ، كما أن لهجة انكتيل بما يشوبها من غرور قد أشعلت نار غضبه . والحقّ أن أفكاره تجاه الشعب الانجليزي عامة والدكاترة العلماء في أكسفورد خاصة ، ورأيه بشأنهم قد انعكس بوضوح فيما كتب ، وبرز أثناء نقل الحكايات التي أوردها . وكانت أفكاره وآراؤه ، ومشاعره تلك هي نفسها علّة الكدر الذي لحق بمزاج جونز وجعلته يلجأ للقدح والذم ، والإتهام بما يتنافى مع الواقع ، واللجوء إلى ما يجافي الذوق السليم . لقد كان الواجب يحتّم تقديم الشكر له على هذا الكشف عن طريق التغاضي عن زلاته حتى ولو كانت أخطاؤه أشد خطراً مما وقع فيه . وما أجمل ما كتبه دارمستتر Darmesteter في هذا الموقف :

« لقد لحق الضرر بالزند ـ أفستا بسبب سوء عرضها والتعريف بها ، ولحق الضرر بزردشت بفضل انكتيل » .

[77] والحق أن تصريحات انكتيل التي أطلقها في حق الإنجليز (لو تذكّرنا الوضع في فترة تأليف الكتاب ، وحالة الحرب بين الإنجليز والفرنسيين) كانت تتسم بالإنصاف والإعتدال . فقد رأى بعينه كيف يتلف الإنجليز دنيا الفرنسيين ، وأحسّ بمرارة أسرهم له مع أنه لا يدخل في نطاق أسرى الحرب . بل ويمكننا القول بأن ما قاله بخصوص عزة نفس الشعب الإنجليزي أقوال مستساغة في جملتها . وشاهدنا على ذلك ازجاؤه المديح بحرارة كبيرة لمستر سبنسر (ص ٣٤٦) ، ووصفه الشعب الإنجليزي ـ رغم عدائه لشعبه ـ بالفتوة (ص ٤٣١) . لقد كان يؤمن بروحهم المضيافة الودودة ومشاعرهم اللطيفة (٤٣٧) . . وقس على ذلك ، كما أن تهكّمه بشخص أو اثنين من دكاترة اكسفورد لم يكن في الحقيقة بالغ الضرر ،

ولم يكن يستهدف من وراء تهكمه سوء النية أو يقصد الضرر . لقد قال مثلاً في حق الدكتور سوينتون Dr. Swinton: « ذلك الخبيث المغرور ، بقبعته الثلاثية الزوايا (أي بما له من شهامة نابليونية) » كما أنه سخر من الدكتور هنت Dr. Hunt بسبب الوصف السيء الذي استعمله في الهزليات . أما سخريته من الدكتور بارتن Dr. Barton فمرجعها إلى كبره و(فرعونيته) وسلوكه الآمر .

وعلى العموم فليس هناك في كتابه ما يستوجب تلك السخرية المريرة وذلك السباب المقذع اللذين صدرا عن سير وليم جونز ، وما يصل به حد محاولة إنكار ما قدّمه في مؤلّفه من خدمات جليلة ، ومحاولة إطفاء السراج الذي أضاء لتوه . . السراج الذي ألقى الضوء على الكثير من المسائل التاريخية والمسائل المتعلقة بفقه اللغة والإلهيات بصورة مفاجئة لم يكن يتوقّعها أحد .

[78] ونحن ننقل هنا قسماً من رسالة سير وليم جونز كنموذج كاف لبيان لهجته :

« سيدي . لا تعجب من أن يكتب لك هذه الرسالة شخص لا تعرفه ، فهذا الشخص يحب جوهر الأشخاص واستعدادهم الحقيقي ، ويعرف أيضاً قدر جوهرك حق المعرفة » . « إسمح لي أن أبارك اكتشافاتكم السارة المرضية ، فما أكثر ما أضعت من سني عمرك العزيز ، واكتحلت عيناك بمرأى البحار الهائجة المائجة ، وطويت الجبال المملوءة بالنمور ، وحرمت نفسك المتعة والراحة ، وفقدت لون بشرتك الذي تقول ـ في ظرف وطلاقة وحياء ـ أنه كان وردياً ، وتحملت متاعب وآلام تفوق ذلك بكثير . . كل هذا من أجل الأدب ولنفع من يناظرونك من المحظوظين » .

« لقد تعلمت لغتين قديمتين لم يكن يعرفهما أي شخص في كل أنحاء أوروبا ، وجلبت ثمرة متاعبك إلى فرنسا ونعني بها كتب زردشت الشهير ، وفتنت عامة الناس بترجمتك الشيّقة الجذابة التي وضعتها لتلك الكتب ، وبلغت أقصى أمانيك فأنت الآن عضو الجمعية الأدبية للنقوش التاريخية » .

« نحن قوم نحترم الأدباء والعلماء والفنانين البارزين ونقدّرهم حق قدرهم

لكنك تستحق في نظرنا لقباً مميزاً . . فأنت أهم من كادموس[1] وتفوقه كسائح ، وقد أحضرت مثله أبجدية جديدة وآلهة جديدة . والحق أقول ، إن من الواجب أن ينصبوك ـ على الأقل ـ موبد الموابدة و يجعلوا منك كبير رجال الدين لدى المجوس ، فقد هيأت نفسك لهذا المنصب الجديد وأشعلت الكثير من النيران في كتاباتك » .

[79] « السائح ، العالم ، خبير الآثار ، البطل ، كاتب التوافه . . هل يوجد بين هذه الألقاب لقب لا تستحقه ؟ »

« ولكن اسمح لي أن أقول لك رأي أرباب القلم في أسفارك وكتبك الثلاثة الضخمة ، ورأيهم في علمك الذي تحدثت عنه دون تواضع وفخرت به وتدللت إلى أقصى حد . . . علينا أن نحب العلم لكن هناك أشياء لا تستحق أن نتعب لنعرفها » .

« رأى سقراط يوماً بائع الجواهر يبسط بضاعته فقال : ما أكثر الأشياء التي لا أحتاجها . ويمكننا أن نطبق ذلك على آثار العلماء ، فنقول بصوت عال : ما أكثر المعلومات التي لا فائدة من تعلُّمها » . « لو أنك كنت تفكر بنفس الطريقة لما استقبلت الموت واعتبرته شيئاً حقيراً . . فقد حصلت لنا في النهاية على علوم لا فائدة منها . ولو ثبت أن براهينك وحججك ليست خاطئة برمتها فيكفي أن هدفك لم يكن حسناً ولا هاماً . . ولم يكن علماء أوروبا في حاجة قط إلى الزند أفستا التي تملكها . لقد قمت بترجمة ما ترجمت إلى لغتك ، وأضعت في هذا السبيل ثمانية عشر عاماً من عمرك الغالي الثمين . ما أبخسه من شرف أن عرفت ما لم يعرفه أحد ، وترغب في تعليمه للآخرين . . . إن الجميع يعتقدون أنك قد تفوَّقت على كل علماء أوروبا بما أودعته في ذهنك من كلمات الزند الثقيلة الصعبة الرتيبة المتعبة الخشنة القلقة . ألا تعرف أنت أن اللغة ليست لها قيمة في ذاتها؟ . وأخيراً ، هل أنت مطمئن إطمئناناً كاملاً إلى سيطرتك التامة على لغات إيران القديمة؟ لا يسوءك هذا ، وتخيل ما شئت.

---

(١) تعليق المترجم : كادموس Cadmus هو مكتشف مدينة طيبة Thebes ، وهو الذي جلب الأبجدية الفينيقية إلى اليونان .

[80] ليس المفروض ان يبحث الشخص عن لهجات إيران القديمة في كتب زردشت الوهمية وحدها ، وإلا فلن يعرفها . وتلك الكتب التي تخيلت واهماً أنها لزردشت . . مملوءة بتكرار لا يفيد ولا ينفع .

لكنك ربما تتساءل : هل أعطاه لي الخبثاء لأني أريد أن أخدع الناس ؟ .

لا يا سيدي ، لم يقل أحد ذلك ، لقد خدعت نفسك . . . . . »

« إلى هنا يا سيدي لا نتهمك إلا بأنك شغلت أذهاننا ، وحركت آمالنا ثم أخمدتها ، وتسببت في تعبنا وصداعنا . . وهذا ولا شك لا يعتبر ذنباً في حد ذاته . إن من يخافون هذه الأبخرة المنوّمة سهل أمرهم ، فهم يتصفحون الكتاب الذي يجلب الكسل أو يهجرونه وينسونه . إن العلاج أمر طبيعي في هذه الحالة والاحتياط أفضل » .

« ولن يدور الكلام حول أسلوبك الثقيل المتكلّف ، ذلك الأسلوب الذي يجافي الموضوع في أغلب الأحيان ، ولا يصدر عن سليقة ولا يستحق مديحاً . ولدينا حديث طويل عن خاتمة كلامك . .

أي عقاب هذا الذي يتوعّد به زردشتك الكافرين الجاحدين ؟ أية كمية من بول الثيران يجب على هؤلاء الأشخاص أن يبتلعوها ؟ . سيدي المحترم ، أوصيك أن تتجرّع هنيئاً جرعة من هذا السائل المقدس الطاهر الذي يصفّي النفس ويطهّرها »

« سيدي ، إننا نفخر بما يعرفه الدكتور هنت Dr. Hunt ونباهي بمقامه الشامخ ، ونحترم وجوده ونوقّره . إنه لا يغشّ قط . . لم يقل لنا مرة ـ ولا يمكن أن يكون قد قال لك ـ أنه يفهم لغات إيران القديمة . إنه يؤمن مثلنا أنه ما من أحد يعرف هذه اللغات أو سيعرفها إلا إذا استعاد كافة التواريخ والمنظومات والكتب الدينية التي تلفت على يد خليفة المسلمين عمر وقادة جيشه وأمرائه ، وضاعت نتيجة حقدهم وعداوتهم . . لهذا فإن السياحة التي يصفرُّ بسببها الخد الوردي

[81] ويذبل من أجلها الوجه المشرق . . سياحة لا فائدة منها .

والحق أن الدكتور هنت لا يأسف لجهله بهذه اللغات ، لأنه من النادر أن يبلغ شخص المنزلة التي بلغها في الفارسية الحديثة ، بمعنى أن تكون له معرفة بلغة البلغاء أمثال سعدي وكاشفي ونظامي ، فمثل هذه المعرفة تعوّض هذا النقص .

[82] إنك لا تجد أثراً في دواوين هؤلاء البلغاء لكلمتي برسم[1] ولنكم ، ولا علم لديهم

---

(١) تعليق المترجم : بناء على دراسات آقاي بور داود الأستاذ بجامعة طهران (أدبيات مزديسنا - يشتها - جلد أول - قسمتي از كتاب مقدس اوستا - ص ٥٥٦ - ٥٦٠) . . فقد وردت هذه الكلمة في الأفستا : (برسمن) وهي مشتقة من كلمة (برز) بمعنى النمو ، وهي في السنسكريتية (بره) Barh وتعني أغصان الشجرة المقطوعة التي يقال لكل واحدة منها في الفارسية (تاي) وفي البهلوية (تاك) . ولم يذكر في الفارسية نوع الشجرة التي تقطع منها هذه الأغصان . غير أنه ورد في كتب المحدثين أن البرسم يجب أن يقطع من شجر الرمان . ويكون القطع بسكين خاصة يسمونها (برسم چين) ، ويصحب عملية القطع اغتسال ومراسم وأدعية خاصة . وفي بعض الفترات كانت هناك براسم معدنية تصنع من النحاس أو الفضة وتستخدم بدلاً من البراسم النباتية . والغرض من إمساك البرسم وتلاوة الأدعية عليه هو تقديم الشكر على نعمة النباتات التي هي أصل غذاء الإنسان والحيوان وزينة الطبيعة .

ويؤخذ البرسم الذي ذكرناه من أغصان الشجر الخضراء اللينة ، ويعتبر نموذجاً لكل النباتات . وكانوا يرسلون بها السلام ويؤدون بها طقوس الشكر على نعمة الله . وبالإضافة إلى الأفستا . . فقد أخبرنا استرابون أن عادة إمساك البرسم عادة قديمة جداً لدى الإيرانيين . يقول عالم الجغرافيا المذكور حين يتحدث عن أحد معابد النار في كاپاتوكا (في آسيا الصغرى) :

وهناك يرعون ناراً لا تخمد قط ، ينشدون في المعبد في مواجهتها كل يوم ساعة تقريباً ، وهم يمسكون في يدهم قطعة من الخشب ، ويتلثّمون بلثام يخفي شفاههم ويصل إلى أسفل ذقونهم . والخشبة واللثام يعنون نفس البرسم والتعويذة .

« سبق وقلنا إن إمساك البرسم قبل الغذاء كان تقليداً متبعاً في عهد الساسانيين ، ونحن نقرأ عن تلك العادة مراراً في الشاهنامة . ومما نقرأ نعرف أنه أثناء وجود نياطوس سفير الروم في ضيافة خسرو برويز دخل (بندوي) - أحد نواب الملك وعماله - قبل الغذاء ممسكاً البرسم ، وكان الملك مشغولاً بالحديث عن الضريبة والخراج ، فاضطرب السفير المذكور ونهض عن الخوان :

- وجاء نياطوس برفقة الرومان ، وجلسوا مع الفلاسفة حول الخوان .

- ولما نزل خسرو برويز عن عرشه ، مرتدياً زي الروم المرصع بالجواهر . .

- وسار متبختراً ضاحكاً وجلس إلى المائدة . . دخل بندوى في عجلة والبرسم في يده .

بالطقوس المضحكة التي تثير السخرية ولا بغيرها من الأفكار الوهمية . بل إنك تشاهد في تلك الدواوين آراء مسمومة وكنايات كثيرة في ذم الجحود ومهاجمة الجهل والكذب والنفاق .

« إنك تتصرّف كمن فتح فتحاً جليلاً . لقد تباهيت بنفسك وركبك الغرور لأن الدكتور هايد لا يعرف لغات إيران القديمة . . بينما أنت نفسك لا تقول جديداً . إنك توبخ الدكتور هايد وتلومه لأنه لم يعرف أن (پنج گاه) تعني أقسام اليوم الخمسة ، أو لأنه استخدم لفظ (Tou) مكان (Ton) ، أو لأنه لم ينتبه إلى أن (أهريمن) هي مخفف لفظ (انگر منيوش) Enghri meniosh.. لأن (انگر) قد تحولت إلى (اهر) ولأن (منيوش) قد تحولت إلى (من) فصارت أهريمن . وقياساً على ذلك يمكن القول بأن لفظ (ديابل) Diable هو الآخر ـ ومعناه في الفرنسية : الشيطان ـ قد كان في الأصل انگر منيوش وقد تبدلت أنگر إلى دي Di ومنيوش إلى آبل able».

ثم يستمر جونز فيجعل من ترجمة انكتيل هدفاً للتسلية . .

والواقع أنه لو صيغت ترجمة أفضل من تلك التي صاغها انكتيل لما كان من الصعب أن تكون هدفاً للسخرية ، لأن كتاب 'الأفستا' به كثير من الموضوعات [83]

ـ وتطرّق الحديث بسيد العالم إلى الخراج الذي يجبى من العظماء ، وكان يدلي برأيه في رحمة وبقوله في الخفاء .

ـ ولما رأى نياطوس ذلك ألقى الخبز وابتعد عن الخوان في اضطراب . .

ـ وهو يقول : الخراج والصليب . . إنه ظلم القيصر يحيق بالمسحيين . النص الفارسي :

بيامد نياطوس* باروميان نشستند بافيلسوفان بخوان
چو خسرو فرود آمد ازتخت بار ابا جامه* روم گوهر نكار
خراميد خندان ويرخوان نشست بشد تيز بندوي وبرسم بدست
جهاندار بگرفت باز مهان بزمزم همي راي زد درنهان
نياطوس كان ديد انداخت نان زآشفتكي بازپس شد زخوان
همي گفت باز وچليبا بهم زقيصر بود بر مسيحا ستم

* يجب أن يكون الاسم على النحو التالي Theodosius - Taiadus

المضحكة التي لا تناسب فيها ، والتي تبدو عجيبة وطفولية .

ويلخص جونز أدلته على النحو التالي :

« الموضوع لا يعدو أحد أمرين : إما أن زردشت كان عديم الفهم والشعور ، أو أن الكتاب الذي نسبته إليه ليس من كتابته . فلو كان عديم الشعور فهو بالتالي فرد عادي من عامة الشعب ، ويجب لذلك أن يوضع في زوايا النسيان ، وإن لم يكن كاتب الكتاب فإن نشر كتاب باسمه يعتبر مبالغة في قلة الحياء .

وبعرضك لهذه الموضوعات التي تتسم بالغباء تؤكد أنك كنت تبغي إما إلحاق الإهانة بذوق المجتمع ، أو خداع المجتمع بالأكاذيب والأباطيل . . وأنت في كل الأحوال تستوجب نفور المجتمع وتستحق بغضه » .

ومع أن رسالة جونز كانت بمثابة لطمة وجِّهت إلى النصر الذي أحرزه انكتيل دوبرون ، وأعمت - وهذا هو الأهم - عيون عدد من العلماء والأدباء عن الأهمية الحقيقية لاكتشافاته . . إلاّ أنها - أي رسالة جونز - لم تعد الآن موضع الإهتمام ، اللهم إلا من الزاوية التاريخية . لقد أثبت مرور الزمان أحقية انكتيل المطلقة ، إلى حد أن أي قاض له صلاحية الحكم لا يمكنه أن ينكر صلاحية الكتاب وأهميّته . وقد انتقمت يد الزمان لانكتيل من جونز ، فقد بات مقدَّراً على من كان لا طاقة له يتحمل (الأفستا) أن يركع أمام (الدساتير) ، وابتلع الجمل من لا قدرة له على أن يهشَّ بعوضة .

إن أم الدهر لم تنجب قط كتاباً مزوراً ملَّفقاً يفوق (الدساتير) وقاحـة . [84] والواقع أن سير وبليم جونز لم يطّلع على متن هذا الكتاب التافه ، لأن نسخته الخطية الوحيدة قد نقلها مُلاّكاوس من إيران إلى الهند في حدود عام ١٧٧٣ م ، ونشرها ابنه ملافيروز عام ١٨١٨[1] .

(١) العنوان الكامل للكتاب هو : دساتير يانوشته هاي مقدس پيامبران إيران باستان ، زبان أصلي آن ، ترجمهٔ فرس قديم وتفسير ساسان پنجم ، باهتمام ملا فيروز بن كاوس . (الدساتير أو كتابات رسل إيران القديمة المقدّسة ، لغته الأصلية ، الترجمة الفارسية القديمة وتفسير ساسان الخامس ، بإشراف

وقد عرف جونز طريقه إلى محتويات هذا الكتاب نتيجة لقراءته الكتاب العجيب : « دبستان مذاهب » أي مدرسة الأديان . . . فأعطى نفسه الحق - دون تردد - في أن يكون أول شخص في أوروبا يلفت نظر العلماء إلى الكتاب الأخير .

[85] وقد ألفت رسالة (دبستان مذاهب) في بلاد الهند في أواسط القرن السابع عشر الميلادي تقريباً[1] . وقد بالغ جونز في تقريظها وكتب في عام ١٧٨٩ يقول[2] :

واهتمام ملا فيروز بن كاوس) . وملا فيروز هو الذي ضمّ إلى الكتاب معجماً مسهباً للكلمات المهجورة والفنية الفارسية ، وزاد عليه الترجمة الإنجليزية للدساتير وشرحها ، وذلك في مجلدين (بمباي ١٨١٨) . وقد ورد شرح النسخة الخطية في الصفحة السابعة من مقدمة المجلد الثاني . وقد كتب دوساس de Sacy دراسة حول كتاب دساتير في مجلة Journal des Savants (الصفحات ١٦ - ٣١ - ٦٧ - ٧٠) عدد يناير - فبراير ١٨٢١ م ، وأماط اللثام عن سخف إدعاءات كاتبه وضعفها وتفاهتها .

أنظر الأعداد : ٦ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٨ ، ٢٠ من المجلد الأول من (سالنامه) (المؤرخة في ١٨٢٣)

Heidelberger Jahrbucher der litteratur, by H.E.G. Paulus.

وانظر كذلك : مقالة أرسكين Erskine في المجلد الثاني من التقرير الذي طبعته (جمعية بمباي الأدبية) . وأقرب الفروض إلى الصحة فيما يتعلق بأصل الدساتير ونشأتها هو الفرض الذي قال به استانيسلاس جويارد Stanislas Guyard في مقالته القيّمة (المجلة الأسيوية ، عام ١٨٧٧ ، ص ٦١ - ٦٢) . وقد طبعت المقالة أيضاً منفصلة تحت عنوان (يك معلم بزرگ حشاشين بالحشيشيون در زمان صلاح الدين) . . (أستاذ الحشاشين أو الحشاشون في عهد صلاح الدين) . . وملخص المقالة أن (الدساتير من مؤلفات الفرقة الإسماعيلية وأنها تتحدث عن مبادىء تلك الطريقة) .

تعليق المترجم : يقول شاطر : الدساتير من تأليف آذركيوان الشهير الذي كان يعيش في عهد أكبر شاه الهندي (٩٦٣ - ١٠١٤) .

أنظر في ذلك : « فرهنگ إيران باستان » تأليف پور داود ، جلد أول ١٣٢٦ و« هرمزد نامه » لنفس المؤلف ، « مقالة دساتير » . . وتعد آراء جويارد في هذا الصدد منسوخة لاغية .

(١) أنظر : فهرست نسخة هاي خطي فارسي در موزهٔ بريتانيا جمع ريو Rieu ص ١٤١ - ١٤٢ (فهرست النسخ الخطية الفارسية بالمتحف البريطاني) . وقد طبع متن الكتاب في الشرق أكثر من مرة ، ونشرت ترجمته الإنجليزية في باريس عام ١٨٤٣ م على يد شي Shea وترويرTroyer .

(٢) أنظر بيانه المتعلّق بإيران ، ذلك البيان الذي ألقاه في جلسة الجمعية الأسيوية بكلكتا في ١٩ فبراير ١٧٨٩ م .

Sixth Anniversary Discourse on the Persians (Works, Vol. i, pp.73 - 94).

فيما يختص بهذا الاكتشاف السعيد فإني مدين في المقام الأول للأمير محمد حسين وهو واحد من أذكى وأعقل المسلمين . لقد فرّق هذا الكشف ما تراكم من سحب ، وسلّط الأضواء على تاريخ إيران القديم وعلى أصل البشرية . لقد تملّكني اليأس مدة ولم تكن هناك أية جهة أخرى يمكنها أن ترسل هذا الضوء . إن هذه الرسالة الهامة النادرة الوجود ، واسمها دبستان ، تبحث في ١٢ ديناً مختلفاً ، وهي من تأليف سائح مسلم من أهالي كشمير يدعى « محسن » ، ويلقّب بالفاني . وأول فصولها عجيب جداً ، وهو يدور حول دين هوشنگ الذي ظهر قبل دين زردشت بمدة طويلة . وكان الكثير من علماء إيران ـ وحتى زمن المؤلف ـ يؤمنون سراً بهذا الدين . وقد هاجر إلى الهند عدد من كبار أتباع دين هوشنگ وأنصاره ، وهؤلاء الأتباع والأنصار يختلفون مع المجوس في نقاط عديدة ، وكانوا قد تعرّضوا للإعتقال من قِبل أجهزة السلطة الحاكمة . وقد ألفوا العديد من الكتب في بلاد الهند ولكنها الآن نادرة الوجود .

[86] وقد قرأ محسن هذه الكتب ، وعقد مع معظم كتّابها صداقة ، وتقرب منهم إلى أن ألفوه . وأدرك من صحبتهم أن العديد من الأسر قد شيّدت لنفسها ملكاً قوياً في إيران قبل أن يجلس كيومرس أو كيومرث على العرش .

وهناك من الأدلة التي سنذكرها ما يؤكد أنهم كانوا يطلقون على تلك السلسلة اسم سلسلة المهاباديين . وقد بلغ الكثيرون من أمراء هذه السلسلة ـ الذين ذكر منهم هذا الكتاب سبعة أو ثمانية فقط ـ بالإمبراطورية الإيرانية أوج العظمة والرفعة ، ومن بينهم مهبول أو مهابلي . ولو وثقنا بهذه الوثيقة ـ وهي في رأيي تخلو من الشوائب ولا تقبل إعتراضاً ـ لكانت مملكة إيران أقدم مملكة في الدنيا . غير أنه يبقى لنا الشك حول العنصر الذي كان منه أول ملوك إيران . أي عنصر هو ؟ . . هل هو من الهنود ، من العرب ، من التاتار أم من عنصر رابع يختلف عن الثلاثة المذكورة . ومثل هذه المسائل في تصوّري يمكننا الإجابة عليها بدقة متناهية إذا

درسنا لغة الإيرانيين القدماء وأدبهم ودياناتهم وفلسفتهم وربما صناعاتهم وعلومهم دراسة دقيقة .

« بالنسبة للموضوعات الجديدة الهامة التي سأستعرضها الآن في مجال لغات إيران القديمة وخطوطها ، أرجو الوثوق بي في كثير من المواضيع ، إذ لا يمكنني إثبات هذه المواضيع . . ولو فعلت فسوف أقدم فهرساً جافاً من ألفاظ وكلمات مفردة بدلاً من تقديم بحث دراسي ، ولن أجذب بذلك التفاتكم . لكني واثق من ثقتكم بأقوالي فأنا لم أتخذ مسلكاً معيناً أريد الدفاع عنه ، ولم أسمح لأوهامي بالانحراف عن جادة العقل . لقد تعوّدت دائماً على أن تكون آرائي مستندة إلى الوثيقة قائمة على البرهان . . فهذا ما يجب أن تبنى عليه علوم المعرفة ، كما أن التجربة هي [87] أساس علوم الطبيعة المحكم القوي . لقد قتلت المسائل التي أريد عرضها بحثاً . وإذا كنت أطمئنكم إلى أني لن ألقى بياناً قاطعاً دون إثبات كاف ، فإن لكم أن تثقوا بأني لن أخرج عن مساركم » .

مما سبق ونقلناه عن سير ويليم جونز يبدو لنا أن بياناته سواء في مقامي النفي أو الإثبات قاطعة لا رجعة فيها . وكان مسلكه في الحالين يدعو للأسف في معظم الأحوال . فهو يقول في ثقة أن كوروش وكيخسرو (كاواهو سروا[1] أو هوسروان في الأفستا)[2] شخص واحد ، بينما الواقع أن كيخسرو قد ورد اسمه في الشاهنامة مع غيره من الملوك الأسطوريين . ويرى أن لفظ كامبيز (الذي ضبط في النقوش الفارسية القديمة كامبوجيا) مشتق من مادة اللفظ الفارسي الجديد (كم بخش) . كما يطلق على گزرسس (الذي ورد في النقوش خشايارشا) : شيرويه . (ويأتي تخريجه هذا بعد تحقيره لدراسات انكتيل ، وتخطيئه لقوله بأن أهريمن مشتق من انكره منيوش[3] ، وهو قول صحيح) .

---

(1) Kawa Husrawa

(2) Husrawanh

(3) Anra Mainyush

ويشكك جونز - بالأدلة المحكمة - في وجود كتب أصيلة بلغة الزند واللغة البهلوية ، معتمداً على قول مؤلف ديستان الذي يعتبر (بصفته واسع الإطّلاع) أن كتاب زرادشت مفقود تماماً ، وقد وضع مكانه كتاب حديث التأليف . وفي ذلك يقول جونز :

[88 كانت أقدم اللغات الإيرانية : الكلدانية والسانسكريتية ، وبتوقّفهما وخروجها عن أن تكونا لغتي إيران الوطنيتين . . اشتقت اللغتان : البهلوية والزند من اللغتين : الكلدانية والسنسكريتية على التوالي . واقتبست اللغة الفارسية هي الأخرى من الزند أو من لهجة البراهمة مباشرة . ويشارك جونز الإيرانيين إعتقادهم بأن پرسپوليس قد بناها جمشيد . (ورد اسم جمشيد في الأفستاييا وفي الأساطير الهندية يما ، وهو إما أن يكون شخصية غامضة أو وهمية، ترد في الأساطير الهندية والإيرانية معاً) .

ويشارك جونز الإيرانيين في أن نقوش تخت جمشيد الهخامنشية - رغم كونها في الحقيقة حروف هجاء - هي في الغالب مجرد رمز ، ربما يكون مفتاحه في يد رجال الدين وحدهم .

وفي النهاية ينظر جونز إلى (الدساتير) - وهو العديم الفائدة - على أنه كتاب مقدّس ، كتب بلغة سماويّة . (بينما الحقيقة أن لغة الدساتير ليست لغة أساساً ، فهي عبارات خاطئة لا معنى لها ولا ترابط بينها ، أُخضعت للأسلوب الفارسي بمشقة وجهد ، فهي تقلدّه وكأنها عبدة له) . ويعتبر جونز (الدساتير) وثيقة تاريخية قديمة في الدرجة الأولى من الأهمية ، ويرى أن الضوء سوف يسلط مستقبلاً من صفحات الدساتير على تاريخ أقدم العصور التي عاشها الشعب الأري ، وسوف يثبت أن دين البراهمة كان مزدهراً قبل أن يجلس گيو مرث على عرش السلطنة في إيران . والپارسيون يعتبرون گيومرث - احتراماً منهم لشخصه - أول أفراد البشر بينما هم يؤمنون أن طوفاناً قد أغرق الدنيا قبل سلطنته . لقد تحقق انتقام

انكتيل كاملاً ، ويقال دائماً أن سوء الظن القائم على غير أساس يقترن غالباً بسرعة التصديق . . وقصة سير ويليم جونز وانكتيل نموذج بارز لذلك القول . ولكن بقدر ما وقع جونز في أخطاء كبيرة تتعلق بمسائل التاريخ القديم ولغات إيران القديمة بقدر ما علت منزلته بسبب خدماته الحكومية وسعة أفقه وحرية أفكاره وشموخ [89] مقامه الأدبي والعلمي ، مما جعل لآرائه وزنها في مملكته . وقد روّج اثنان من العلماء في إنجلترا شكوك جونز تجاه الأفستا وحقيقتها ، وهما : سيرجان شاردن Sir John Chardin وريتشارد سون Richardson (مؤلف القاموس الفارسي الشهير) . كما وجدت شكوكه صداها في نفوس العلماء الألمان أمثال ماينرس Meiners وتيكسن Tychsen. وقد أصبح الأخير - فيما بعد - أقوى مؤيدي انكتيل .

وقد أيّد انكتيل منذ البداية عالم ألماني اسمه كلويكر Kleuker ؛ فقد ترجم كتابه للألمانية وزاد عليه كثيراً في الملحقات . وكان رأي سير ويليم جونز هو السائد آنذاك في انجلترا فاعتبرت ترجمة انكتيل منحولة لا تستحق الإلتفات، فأهملت بينما تقبّلها العامة في فرنسا بمجرد ظهورها[1]، وهي الآن تجد الحظوة لدى المفكّرين المتأملين .

ولو أردنا أن نخوض في هذا الموضوع تفصيلياً ، ونبين كيف لقي كتاب انكتيل صداه لدى الجميع لضاق كتابنا عن هذا . غير أننا يمكننا أن نعرض أهم النقاط في هذا الشأن على أن يرجع راغبو التفصيل إلى مقالات هاوج ودارمستتر القيّمة التي يرد ذكرها في هامش صفحتنا هذه ، ولهم أن يرجعوا كذلك إلى مقالة جلدنر[2] وعنوانها (أدب الأفستا)، وذلك في المجلد الثاني من أساس فقه اللغة الإيراني ، طبع اشتراسبورج ١٨٩٦م[3]، ص ١ - ٥٣ خاصة ص ٤٠ . المتعلّقة بقصة

---

(١) أنظر مقالات هاوج Haug ، الطبعة الثالثة لوست West الخاصة بالفرس في الصفحات ١٦ - ٥٣ Haug's Essays on the Parsis ومقدمة دارمستتر على ترجمة الأفستا في الجزء الرابع من كتب الشرق المقدسة - مكس مولر - ص ١٣ - ٢٥ Max Muller's Sacred Books of the East (Oxford, 1880) وأنا مدين في هذا القسم من موضوعاتي كثيراً لهذين المؤلفين .

(٢) Geldner, Awesta Litteratur

(٣) Geiger und Kuhn, Grundriss der Iranischen Philoggie (Strassburg, 1896).

الدراسات حول الأفستا[1] .

[90] وأول من تصدّى لتأييد انكتيل والدفاع عنه هو مواطنه الشهير سيلفستر دوساسي Sylvestre de Sacy فقد نشر في علم ١٧٩٣م خمس مقالات مشهورة حول رأيه وخواطره الخاصة بآثار إيران القديمة المختلفة [2] . وهذه المقالات التي نشرها في رسالة العلماء[3] . . تتصل في الغالب بنقوش ملوك الدولة الساسانية التي كتبت بالبهلوية . ولكشف رموز هذه النقوش وقراءتها ـ بالتغاضي عن الترجمات اليونانية المصاحبة لبعضها ـ كان اعتماد سيلفستر الأساسي على معجم الكلمات البهلوية الذي صنّفه انكتيل في المجلد الثالث (ص ٤٣٢ ـ ٥٢٦) . وما أجمل ما قاله دارمستتر في هذا الشأن « بذلك أثبت كتاب انكتيل وجوده وجدارته ، ولقد كانت المساعدة التي قدّمها هذا المعجم البهلوي في حد ذاتها في سبيل تقدّم الكشف أفضل بكثير من حشد الأدلّة والبراهين . لأن تاريخ أقدم نسخة بين أيدينا من نسخ الأفستا هو القرن الرابع عشر الميلادي ، بينما ترجع النقوش الساسانية إلى القرن الثالث الميلادي . وبناء على ذلك لا يمكننا أن نغفل النقوش المذكورة بحجة أنها منحولة .

وإذا كان معجم انكتيل قد أصبح مفتاح النقوش الساسانية ، فهذا يعزى إلى ما تعلمه انكتيل على يد رجال الدين الزردشتي من لغة پهلوية كانت ـ كما يبدو ـ اللغة الحقيقية للعصر الساساني . ولا مراء في أن هذه النقوش تحوي كلمات سامية مثل : (ملكا) بمعنى (پادشاه : ملك) ، و(شنة) بمعنى (سال : سنة) ، و(اب) بمعنى (پدر : أب) ، و(شمسا) بمعنى (خورشيد : الشمس) ، و(لا) بمعنى (نه : لا) .

---

(1) Geschichte der Awesta forschung

(2) Mémoires sur diverses Antiquités de la perse

(3) Journal des Savants

[91] وقد قال سير وليم جونز عن هذه الكلمات أنها عربية[1] (ثم عاد فقال بعد مدة أنها كلدانية)[2] ، واتخذ من وجودها في النقوش دليلاً على أن قصة قِدَم لغة هذه النقـوش لا تعـدو أن تكون وهماً ، ودليلاً على أن انـكتيل كان رجـلاً سريع التصديق ، وأن معلمه الفارسي كان هو الآخر لصاً محتالاً .

ويقف تيكسن Tychsen في هذا الصدد وقفة صلبة للغاية فيقول : « تدلّ هذه المسألة على أن اللغة البهلوية كانت مستعملة في العهد الساساني ، لأن هذه النقوش صادرة عن الساسانيين ، وهم الذين أحيوا الدين الزردشتي . بل ويمكن القول بأن أردشير بن بابك (اردشير بابكان) مؤسس الأسرة الساسانية هو الذي أحياه » .

والآن يمكن معرفة السبب الذي من أجله ترجمت كتب الزند إلى اللغة البهلوية . . . فكل شيء هنا يؤكد قدم اللغة البهلوية ويحكي بصوت عال عن أصالتها[3] . »

وكانت النقوش البهلوية التي قرأها دوساسي De Sacy بهذه الطريقة معروفة في أوروبا منذ عهد صموئيل فلاور Samuel Flower ، وقد نشر الأخير صورة لها (منسوخة عنها في علم ١٦٦٧م ضمن تقارير فلسفية ص ٧٧٥ ـ ٧٧٧) وكان نشرها بتاريخ يونيو من علم ١٦٩٣م .

[92] كما أن صوراً أخرى لها قد طبعت[4] في كتب شاردن Chardin (١٧١١)

---

(١) رسالة بعنوان آفا آ . . . ب . . . صفحة ٦١٠ .

« حين نرى الألفاظ العربية المحرفة وقد احتلت مكان كلمات الزند ومكان الكلمات البهلوية نحكم على هذا الشخص في جرأة بأنه كذاب مخادع (إشارة إلى الدكتور داراب) ونقول إنه قد خدعك وسعيت أنت بدورك في خداع قرائك » .

(٢) Sir William Jones's Works Vol. 1, p.81.

(٣) نقل دارمستتر هذا الموضوع في مقدمته على ترجمة الونديدا (ص ١٩ ـ ٢٠) (انظر : ص ٨٩ ، هامش رقم ٦) .

(٤) ارجع إلى الشرح الذي كتبه وست West حول النقوش الساسانية ، وذلك في مقالته الخاصة بالأدب

ونيبور Niebuhr (١٧٧٨ م) وغيرهما من السواح في تاريخ متأخر .

وبالرغم من أن هايد Hyde قد نقل صورة للنقوش مرتين في كتابه ، فإن دوساسي Sylvestre de Sacy هو أول من شرحها ، ووفق في شرحه إلى حد ما .

وبعد خمس سنوات من نشر أفكار دوساسي وخواطره (أي في علم ١٧٩٨ م) نشر بل دوسن بارتلمي[١] - عضو جماعة الرهبان في دير كرمل Carmel - رسالته في مدينة روما ، وكانت تدور حول قدم اللغتين السنسكريتية والألمانية والصلة بينهما . وقد دافع عن قدم الأفستا لدرجة الظن بأن هناك انتساب وتشابه وأصل مشترك بين لغة الأفستا واللغة السنسكريتيه[٢] .

[93 ثم كانت أول خطوة هامة في طريق المعارف الفارسية والعلوم الايرانية وهي قراءة النقوش المكتوبة بالخط المسماري . وقد كان ذلك في أوائل القرن التاسع عشر على يد جروتفند Grotefend. وربما كانت هذه أهم الخطوات (إذ لم يكن أحد حتى هذا التاريخ يعرف الخط واللغة المسمارية) . والمقالات التي كتبها جروتفند في هذا الصدد نموذج لما يمكن أن يكون عليه الكاتب من عمق الإستدلال وقوة الإدراك ، وبعد النظر . لقد استخرجت مقالاته من ملفات جمعية جوتنجن الملكية للعلوم Gottingen Gesellschaft der Wissenschaft في الأونة الأخيرة فقط ،

البهلوي ، المجلد الثاني من كتاب أساس فقه اللغة الايراني ، ص ٧٦ - ٧٩ :

Geiger und Kuhn. Grundriss d. Iranischen Philologie vol. ii. pp.76 - 79

وانظر كذلك رسالة هاوج الخاصة بالبهلوية (طبع بمبائي ولندن ١٨٧٠ م)

Haug. Essay on Pahlawi (Bombay and London. 1870).

ففي بداية هذه الرسالة شرح مفصل عن تقدُّم الأوروبيين في طريق الدراسات المتعلقة باللغة البهلوية .

(١) Paul de St. Barthélemy. De antiquitate et affinitate linguae samscredamicae

(٢) مقدمة ترجمة دارمستتر Darmesteter التي مر ذكرها . القول الذي يقرُّه الجميع هو أن القرابة بين لغة الأفستا والسنسكريتية تجعل منهما شقيقتين وهذا هو نفسه رأي دوساسي Desacy الذي سجله صراحة في رسالة العلما Journal des Savants ، عدد مارس ١٨٢١ م ، ص ١٣٦ .

ونشرت على يد ماير W. Meyer ضمن أخبار الجمعية المذكورة ، وذلك في ١٣ سبتمبر سنة ١٨٩٣م . (انظر ص ٥٧١ ـ ٦١٦ من نشرة الجمعية) .

لقد قرأ جروتفند أولى مقالاته في تلك الجمعية في الرابع من سبتمبر عام ١٨٠٢م والثانية في الثاني من أكتوبر ، والثالثة في ١٣ نوفمبر من نفس العلم ، والرابعة في العشرين من مايو علم ١٨٠٣م . وقد حاول تيكسن Tychsen ومونتر Munter من قبله قراءة النقوش ، ففشلت محاولاتهما ولم يوفّقا لقراءتها .

وكما لاحظنا أثناء مطالعة كتاب هايد . . فإن عامة الناس ـ حتى هذا التاريخ ـ بما فيهم رجال العلم . . كانوا يعتقدون أن هذه الحروف ليست كتابة بحال من الأحوال . . وكانوا يرون أنها زينة معمارية ، أو آثار تخلفت عن دودة أو أرضة أو حشرة من حشرات الأرض ، أو علامات لتمييز البنايات ، أو علامات كان يستخدمها النحاتون بدلاً من الأرقام والأعداد ، وقد دفع جروتفند إلى دراسة هذا الأمر جدال احتدم بينه وبين صديق له يدعى فيوريلو Fiorillo. كان فيوريلو يحكم بأن إدراك معنى النقوش أمر مستحيل ، لأن خطها ولغتها مجهولان لا يعرف أحد متى استعملا ، وقد ووري الثرى من كانوا يستعملون هذا الخط ويتكلمون تلك اللغة . وهذا مجمل النتائج الهامة التي توصل إليها جروتفند في مقالته الأولى :

[94] أولاً : ما يشاهد في هذه النقوش من أشكال ورسوم هو علامات ذات معان ودلالات خاصة .

ثانياً : هذه النقوش مكتوبة بثلاث لغات ، بمعنى أن كل موضوع قد سجل بثلاث لغات مختلفة وثلاث خطوط متمايزة .

ثالثاً : النقوش التي يريد جروتفند أن يشرحها هي الطبقة الأولى بصفة خاصة وهي الفارسية القديمة نفسها . أما الطبقة الثانية فإنها تتكون من حروف وهي لم تحذ حذو النقوش الآشورية والصينية ، بمعنى أنها لم تستخدم أشكالاً وصوراً وعلامات اختصار بدلاً من المعاني والألفاظ .

رابعاً : كل النقوش المسمارية التي عرضت حتى الآن تتخذ دائماً وضعاً أفقياً وتتجه من الشمال إلى اليمين .

وحين توصل جروتفند إلى هذه النتائج الكليّة (التي عرف فيما بعد أنها صحيحة كلها) عمد إلى دراسة نقشين من الطبقة الأولى دراسة أدق وأعمق . وخلص إلى أن هذين النقشين قد كتبا بلغة الزند (يعني لغة الأفستا) . ومع أن تخمينه لم يكن صحيحاً إلا أنه كان أقرب إلى الحقيقة . وقد نسب النقشين المذكورين إلى أحد ملوك إيران القدماء الذين حكموا في الفترة ما بين كورش والإسكندر ، وهو يقصد الهخامنشيين[1] . ونتيجة لدراسة النقوش الساسانية المكتوبة بالخط البهلوي ـ تلك التي كان دوساسي قد قرأها ـ تنبّه جروتفند إلى أنه من الممكن أن تكون الكلمة الأولى في النقش اسم واحد من ملوك السلسلة ، والكلمة الثانية هي لقبه . ثم لاحظ أن الإسم الوارد في صدر النقش الثاني قد ورد في النقش الأول بعد اللقب ، فافترض (مستنداً إلى وجود تشابه مع النقوش الساسانية) أن معنى تلك الكلمة هو (شاه شاهان : ملك الملوك) وكان افتراضه صحيحاً . ولما كان هناك اختصار في آخر الكلمة . . فقد رجح أن يكون ذلك ناجماً عن حالة المضاف إليه والتصريف . . وكان صائباً في تخمينه .

واستنتج بتلك الطريقة أن الإسمين اللذين يشاهدان في النقش الأول يشير أحدهما إلى اسم الأب ، والأخر إلى اسم الإبن . وكان تيكسن قد قرأ أحد هذه الأسماء على النحو التالي : ملكئوش Malkeush ، فقرأه جروتفند : داريوش . وقد ورد اسم داريوش في كتب دانيال وعزرا ونحمياه في صورة دارياووش (درياوش) وقد انطبق الإسم الآخر الذي كان تيكسن قد قرأه : اش باتشا Osh Patscha على اگزرسس (خشيارشا) Xerxes (Khschherschen) لأن كل اسم

(١) الشيء الذي خلص إليه جروتفند هو أن نقوش الطبقة الأولى الخطية المدونة بلغة الهخامنشيين أي بالفارسية القديمة . . كانت تحتلّ مكان الصدارة من بقية النقوش . أي أنها كانت دائماً في صدر الألواح المكتوبة بلغات ثلاثة .

من الإسمين يتركب في النقوش الفارسية القديمة من سبعة حروف منفصلة على النحو التالي :

يتركّب الإسم الأول من : د . أ . ر . ي . و . و . ش .

ويتركب الإسم الثاني من : ك . ش . ي . أ . ر . ش . أ .

وقد ورد حرف الألف في هاتين الكلمتين ثلاث مرات ، ووردت الحروف الثلاثة (ر . ي . س) مرتين .

وإذا وضعنا ترتيب الحروف المكوّنة لأجزاء هذين الإسمين في الإعتبار . . لوجدنا القراءة صحيحة . وبناء على ما نقله المؤرخون اليونانيون . . نعرف أن (داريوش) كان ابناً لـ (هيستاسب Hystaspes). وقد ضبط انكتيل اسم هيستاسب بالشكل المستخدم في هذا الموضع وهو گشتاسب ، ويشتاسب وغيرهما . ونتيجة للتشابه بين نقشي گزرسيس (خشايارشا) وداريوش ، أصبح من المحتمل أن يكون داريوش هو الآخر قد ذكر اسم أبيه في نقشه . والواقع أنه قد شوهدت في نقش داريوش المذكور كلمة مكونة من عشر حروف ، كان يظن أن [96] الحروف الثلاثة الأخيرة منها هي حروف النهايات الخاصة بالمضاف إليه (واليوم يرونها هـ . ي . أ) ومن بين السبعة حروف الباقية كان هناك حرفان قد عرفا من قبل : الحرف الثالث وهو (ش) والحرف الخامس وهو (أ) . ولما كانت هناك أجزاء مشتركة في أشكال هذا الاسم بين اليونانية والأفستا . . فقد رجّحوا أن يكون الرابع والسادس والسابع (ت ، س ، ب) . ويبقى بعد ذلك الحرفان الأولان في الإسم . وكان من الواضح أن الحرف الأول حرف صامت (ك أو واو) ، ولا بد والحال هذه أن يكون الحرف الثاني مصوّتا (لا يمكن أن يكون حرف الواو مصوّتاً لأنه كان معروفاً لديهم من قبل) ، لهذا رُجِّح أن يكون حرف (ي) . . لكن جروتفند قرأ هذين الحرفين (ك ـ أ) ولم يقرأهما (و . ي) .

كانت هذه نتيجة الاكتشافات العظيمة القاطعة التي حققها جروتفند . وكان

يبغي التقدّم أبعد من ذلك ، لكن اعتقاده بأن لغة النقوش ولغة الأڤستا هما لغة واحدة من جهة ، وأن شرح الأڤستا الذي وضعه انكتيل ناقص وخاطىء في كثير من الفروع والجزئيات ، وأنه لهذا أصبح عرضة للتضليل وارتكاب الخطأ ، بالإضافة إلى قلّة وسائل العمل المستخدمة لكشف رموز النقوش وقراءتها وترجمتها وتفسيرها من جهة أخرى . . جعل أسلوبه في تحديد قيمة الحروف وقدرها ـ كما نعرفها نحن الآن ـ نصف صحيح أو حتى أقل من ذلك . وبات ما استنتجه من متون التفسير استنتاجاً تقريبياً فقط . وهذا نقش من نقوش تخت جمشيد التي درسها[١]، ننقله كمثال يؤكد ما ذهبنا إليه . وهذا هو نص النقش على النحو الذي يقرأ به اليوم :

داريوش . خشايثيه . وزرك . خشايثيه . خشايثيه نام . خشايثيه . دهيونام . ويشتاسپهيه . پوتره . هخامنشيه . هيه . امم . تچرم . اكونه اوش[٢]

ومعنى العبارة كالآتي :

« داريوش ، الملك العظيم ، ملك الملوك ، ملك البلاد ، ابن ويشتاسب

---

(١) أنظر :

Neibuhr, Pl. XXiV: Spiegel, keilinschriften, 1862 p.48, B.

(٢)

Darayavush. Kshayathiya. Var Zaka. Khshayathiya. Khshayathiyanam. Khshayathiya dahyunam. Vishtaspahya. Putra. Hakhamanishiya. hya. imam. tacharam. Akunaush.

ويرى الدكتور پارشاطر أن القراءة السائدة الآن بالنسبة لكلمة (پوتره) هي پوس Puça. وقد صارت (tr) الآرية تلفظ في الفارسية القديمة أقرب إلى السين . ويرى العالم الألماني بارتولومه في كتابه : معجم الفارسية القديمة ، طبع ستراسبورج ١٩٠٤ م أن المعنى الصحيح للفظ تچر Tachara هو قصر .

Christian Bartholamee, Altiranisches Worterbuch. Strassburg 1904.

إرجع في ذلك أيضاً إلى : كتاب الفارسية القديمة تأليف كنت ، المستشرق الأمريكي طبع نيويورك ١٩٥٠ .

R. Kent, Old persian. Americal Oriental Series New York, 1950.

وأرجع كذلك إلى : فرهنگ إيران باستان ، تأليف إبراهيم پور داود الأستاذ بجامعة طهران ، ص ٢٩٤ .

الهخامنشي الذي بنى هذا المعبد »[1] .

[98] لكن جروتفند ترجم النص بصورة أخرى ، فجاءت العبارة على النحو التالي : « داريوش ، الملك المقتدر ، ملك الملوك ، ملك البلاد ، ابن هيستاسپ (ويشتاسپ) ، من أسرة حاكم الدنيا . . . . ؟؟ الإله » .

وإذا كان جروتفند لم يستطع إنجاز ما أقدم عليه ، فإن من تصدوا للأمر كانوا قليلين . ولقد كان أسلوبه واكتشافاته التي ترتبت على هذا الأسلوب بداية لدراسات أخرى انتهت بإيجاد حل تام لهذا اللغز الصعب . وكان دوساسي أول من قدّر أعماله العظيمة حق قدرها ، وبذل الجهد لتجليتها ، ووفّق إلى عدة إكتشافات فتحت الطريق أمام إكتشافات جروتفند . ولقد اقترح سان مارتن Saint Martin طريقة بديلة لطريقة جروتفند لكنها لم تلق استحساناً[2] .

ثم كان النجاح والتقدم اللذان تحققا في مجال قراءة النقوش خلال السنوات

---

(١) تعليق المترجم : هذه نفس الكلمات نقلاً عن متن الكتاب :

«Dàrbeûsh Khshèhiòh - eghré. Khshèhiòh. Khshêhiòh. Khshéhioh - ètchào. Khshchioh. Dàhutchào. Goshtàspàhè. Bûn. akhèotchòschòh. Ab. òou. Mòro èzütchùsch.».

وقد ترجمها جروتفند باللغة اللاتينية وجاءت كلماتها الأخيرة غير مفهومة . وبعد مكاتبة علماء أمريكا وانجلترا عرف أنها لا تقبل الترجمة ، خاصة وأن الكلمة قبل الأخيرة مكتوبة على ما يبدو بالخط اليوناني . ولو كان المراد من اللفظ اليوناني (tou) هو الإضافة الملكية ، وأنه يضارع لفظ du بالفرنسية ، وأن الكلمة الأخيرة هي اللفظ الفارسي (الله) ، لكانت هذه ترجمة جروتفند :

«Darius rex fortis, rex regum, rex Daharum (Filius) Hystaspis, stirps mundi restoris. In constellatione mascula, Moro tou Ized».

(٢) لمعرفة المزيد من التفاصيل والوقوف على المراجع الخاصة بنجاح هذا الاكتشاف أنظر : مقالة اشپيجل حول تاريخ قراءة الخطوط ، وذلك في طبعة كتابه المسمى بالخطوط المسمارية Keilinschriften الصفحات ١١٩ ـ ١٣٢ .

Spiegel, Kurze Geschichte der Entziffering

وانظر كذلك : جايجروكون ، الجزء الثاني من أساس فقه اللغة الإيراني ص ٦٣/ ٧٤

Geiger und kuhn, Grundriss der Iranischen philologie.

وانظر :

Geschichte d. Entzifferung und Erklarung d. Inschriften.

ما بين ۱۸۳۱ ـ ۱۸۳۷ م . فقد تصدى لهذا العمل ثلاثة من العلماء في وقت واحد ، وهم : لاسن Lassen ، بورنوف Burnouf ، راولنسون Rawlinson . وقد اضطلع راولنسون بالعمل وحده في إيران دون أن يطّلع على دراسات جروتفند . وقد قرأ في القسم الأول من نقش داريوش الكبير في بيستون هذه الأسماء :

ارشامه Arshama اريارامنه Ariyaramna جايشپش هخامنشي Chaishpish وقد استفاد بورنوف من معلوماته عن اللغة السنسكريتية وشرح الأفستا بطريقتين : إحداهما عن طريق التطبيق ، والأخرى عن طريق الإستفادة من ترجمة نريوسنگ السنسكريتية .

وبعد أن أكمل بورنوف مؤلفه العظيم عن اليسنا[1] عمد إلى دراسة النقوش الفارسية المسمارية . وقد استفاد من المتاعب التي صادفها شولتز Schulte ، ومن المعلومات التي كان ذلك الرحّالة التعس قد جمعها من (الوند) و(وان)[2] وبعد أن طبعت نتيجة دراسات لاسن Lassen الباهرة انحسرت الأضواء عن كتابه . ولكنه بالإضافة إلى قراءة إسم الإله العظيم (آهورامزدا) وغيره من الكلمات ، وبالإضافة إلى ذكره أن لغة النقوش ولغة الأفستا رغم ما بينهما من صلة قرابة ليستا لغة واحدة ، وبالإضافة إلى رأيه القائل بأنه لا يرى في خط النقوش حروفاً مصوّتة قصيرة (بدل الإعراب) إلا عندما تأتي هذه الحروف في بداية الكلمات . . بالإضافة إلى هذا كله . . فهو أول من دعا طلاب المعرفة إلى فهرست المالك الذي ورد اسمه في نقش داريوش العظيم . وقد وقعت هذه النسخة في يد لاسن صيف عام ۱۸۳۵ م فاستفاد منها في تحديد قيمة الكلمات بصورة أدق ، وفي إثبات وجود الحرف المصوّت القصير (مكان الفتحة) بين الكثير من الحروف غير المصوتة وقد

---

(١) أنظر : شرح اليسنا ، أحد كتب الدين الفارسي ، طبع باريس ۱۸۳۳ ـ ۱۸۳۵ م . وهذا الكتاب يحتوي على متن الزند (متن الأفستا كما يقول المترجم) الذي شرح لأول مرة .

(٢) Mémoire sur deux inscriptions Cunéiformes, Paris, 1836.

أثمر هذا العمل فتبين مثلاً أن .S.P.R.D قد كتبت مكانSparda.

[100] وفي خلال السنوات الأربعة التالية (حتى علم ١٨٤٠م) تبع عالمان آخران هما بيرBeer ، جاكه Jacquet دراسات لاسن ، وأوضحوا العديد من المسائل ، وصححوا أخطاءه ، وطبعت الموضوعات الجديدة التي كان كلود جيمز ريج Claude James Rich مندوب انجلترا الدائم في بغداد - قد جمعها ، فصارت في متناول الجميع . وجلب ڤسترجارد Westergaard معه نسخاً مصورة لنقوش تخت جمشيد تتميز بوفرة الدقة والجدة .

وليس ثمة ما يدعو هنا إلى إلقاء المزيد من الشرح عن تقدم هذا الفرع من فروع الدراسات الفارسية . وسوف نكتفي بالإشارة إلى اكتشافات لافتوس Loftus ١٨٥٢م وديولافوا Dieulafoy (١٨٨٤م) ، تلك الاكتشافات الأخيرة التي تمت في شوش . وسوف نشير فقط إلى الصور التي التقطها اشتولتزه Stolze في علم ١٨٧٦م والسنوات التالية في تخت جمشيد ، وقام في علم ١٨٨٢م بطبعها في برلين في مجلدين . كما سنشير هنا إلى مسائل أخرى أوضحها العلماء أمثال :

بنگ Bang ، بارتولومهBartholomae ، بولنسن Bollensen فوي Foy ، هالفيHalévy ، هيتزيگHitzig ، هوبشمنHübschmann ، كرنKern ، مولرMuller ، منانMènant ، سيسSayce ، ثمThumb ، وغيرهم . وهي مسائل تتعلق بالخط واللغة الفارسية القديمة .

[101] وقد جاء كنت دوگبينو[1] بفروض مضطربة مشوشة ،وذلك في رسالته المسماة بالخطوط المسمارية (طبع باريس ، علم ١٨٦٤م) . وكان مما قاله أن النقوش المذكورة مجرد طلاسم . والواجب ألا تستوقفنا فروضه ولو للمحة خاطفة . أما أبر Oppert فإن فرضه يتسم بالمعقولية ، ويدور حول أصل الخط المذكور وكيفيته ، وقد جاء فيه بعدة نقاط ، فقال إنه بالرغم من التشابه في الصورة بين الخط المسماري

(١) M. Le conte de Cobinean: Traité des écritures cunéiformes (Maris, 1864).

الآشوري والخط المسماري الفارسي القديم فإن هناك إختلافاً بينهما على درجة كبيرة من الأهمية فالخط الفارسي القديم خط أبجدي (تتكون أحرف الهجاء فيه من ٤١ حرفاً ، أربعة[1] منها علامات اختصار لكلمات شائعة الإستعمال مثل : أهورامزدا ، شاه ، سرزمين ، خاك . . وعلامة خاصة بفصل الألفاظ عن بعضها البعض) . . بينما الحروف الآشورية مجموعة عظيمة من العلامات التي تقوم مقام بعض الألفاظ ، أو صور تفيد معاني خاصة شأنها شأن الخطوط الصينية أو المصرية القديمة المعروفة بالهيروغليفية . وكل علامة من هذه العلامات تدل في الخط الآشوري على فكرة خاصة أو مفهوم خاص ، وليس لها ارتباط بالصوت . وإذا فرض وكانت هناك نسبة مع معادلها الصوتي فهذه مجرد مصادفة . فالنقش أو الصورة ذات المفهوم الخاص في الخط الآكادي - على سبيل المثال يمكن استعمالها بنفس المعنى في الخط الآشوري أيضاً . . ولكن بأصوات مختلفة .

[102] ويبني ابر فرضه على أساس أن الحروف الفارسية القديمة قد اخترعت تقريباً في فترة سقوط الميديين واستيلاء الإيرانيين (الهخامنشيين) على الحكم . وقد اقتبست من الخط التصويري الآشوري بالطريقة التالية : -

اختاروا من الخط الآشوري علامات ونقوش تعبر عن معان خاصة ، وخصصوا لتلك العلامات والأشكال ما يقابلها من أصوات في اللغة الفارسية . أي بعبارة أخرى أنهم كتبوا الخط المصوَّر الآشوري وقرأوه باللغة الفارسية . ثم بسَّطوا كل شكل وكل علامة ، واستخدموا ذلك الشكل أو العلامة بدلاً من الحرف الذي كان يطابق الصوت الأول لكل لفظ فارسي . وواصلوا السير على هذا المنوال حتى أصبحت هناك علامات أو حروف كافية لكل عناصر الأصوات الفارسية .

وهكذا حقَّق الإيرانيون في القرن السادس قبل الميلاد مثل هذا التقدّم وذاك النجاح العظيمين في سبيل تبديل الخط التصويري بألف باء (أبجدية) حقيقية

---

(١) تعليق المترجم : بناء على رأي الدكتور يارشاطر فإن عدد هذه العلامات أكثر من أربعة ،والكلمات التي تبدو بالعلامة عبارة عن : شاه ، كشور (علامتان) خدا ، زمين وآهورامزدا (علامتان) . .

(يحتمل أن تكون الهيروغليفية أو التصاوير والنقوش هي الأساس)[1].

[103] لكن عدد الأشخاص الذين تصدوا لتحليل الكلمات وتبديل الخط التصويري بحروف أبجدية تناقص فجأة ، لأنهم لم يستطيعوا ـ في المواضع التي تأتي فيها الحركة بعد الحروف الصامتة ـ أن يفصلوا تلك الحروف عن الحركات ، وأن يضعوا حروفاً خاصة بالإعراب . وبناء على هذا فقد استعملوا فيما يتعلق بجانب من المقاطع الهجائية ـ أمثال : كا ، كو ، گا، گو، جا ، جي ، دا ، دي ، دو ، ما ، مي ، مو . وقس على ذلك ـ حروفاً أخرى خاصة تختلف عن الكاف والكاف والجيم والدال والميم والحروف الأخرى غير المتحركة . وكانت الحركات قسماً من تلك الحروف ، وكانت كل حركة تعتبر حرفاً مستقلاً .

وهذا نموذج آخر لقياس مدى النفوذ الأجنبي السياسي في إيران ، وهو يوضح لنا إلى أي حد كانت هذه البلاد ، منذ أقدم العصور ـ خاضعة للنفوذ الآشوري بادىء ذي بدء ، ثم للنفوذ الآرامي ، وأخيراً للنفوذ العربي .

---

(١) تعليق المترجم :

أنظر : « فرهنگ‌إيران باستان » لپورداود أستاذ الأڤستا ومعجم إيران القديم بجامعة طهران ، شهر مرداد ٢٥٥٩ مادي ـ ١٣٢٦ هـ . ش ، طبع طهران الفصل الخاص بالإنشاء = الخط ، وعلاقة بلاد إيران ببابل وآشور ، ووجه اشتقاق كلمتي الكتابة والخط في تاريخ إيران والشومريين والآكاديين ، والخط المسماري الهخامنشي وغير ذلك .

وانظر كذلك : كتاب « مزديسنا » وتأثيره في الأدب الفارسي (مزديسنا وتأثير آن در أدبيات پارسي) تأليف الدكتور محمد معين : الفباي أوستا (دين دبيري) .

وانظر يزدگردي : إيران كوده) ، الجزء الثاني ، جمع الدكتور مقدم (مغدم) أستاذ لغة الأڤستا والفارسية القديمة بجامعة طهران : وثائق تاريخية خاصة بالأبجدية في إيران ، ص ٢٠ ـ ٢٦ .

وانظر مقالات اقاي محمد سرشار في طريقة اكتشاف التزوير ، وحول ظهور الخط وأنواعه ، وذلك في مجلة كانون وكلاء ، ١٣٣٢ شمس قمري ، طبع طهران .

وانظر : (تاريخ أدبيات إيران) تأليف آقاي جلال الدين همائي الأستاذ بالجامعة ، طبع تبريز ١٣٠٨ ، ١٣٠٩ هـ . ش .

وانظر : (تاريخ أدبيات إيران) تأليف الدكتور رضا زاده شفق الأستاذ بجامعة طهران ١٣٢١ .

وانظر : (سبك شناسي) ، تأليف ملك الشعراء (بهار) في ثلاث مجلدات طبع طهران .

ويبدو النفوذ الآشوري واضحاً غاية الوضوح في أحجار تخت جمشيد وبيستون ، وفيما وجد بها من نقوش . وقد أكّد القسم الذي سجله اشبيجل على وجه الخصوص[1] آثار هذا النفوذ بنفس القدر الذي أكّدته الأديان والنظم السياسية والاجتماعية والمسلك القضائي والحروب . لقد كانت الكلمات : (پادشاه بزرگ ـ الملك العظيم شاه شاهان ـ ملك الملوك ، پادشاه إيران ـ ملك إيران ، پادشاه كشورها : ملك البلاد) ـ من جهة الشكل واللقب والمعنى وغير ذلك ـ وريثة الكلمات : (پادشاه بزرگ، پادشاه آسور ـ الملك العظيم ، ملك آشور) . ولعل هذه النسبة توضّح لنا لغز وجود عنصر الهزوارش في الپهلوية ، وهو اللغز الذي حيرً الدارسين وضللهم أثناء بحثهم في حقيقة الپهلوية وكنهها .

1] بحث في إحدى مميزات الخط البهلوي :

لماذا كان الكاتب الپهلوي ـ رغم درايته التامة بالأبجدية الپهلوية ـ يكتب اللقب القديم : (شاه شاهان : ملك الملوك) على النحو التالي (ملكان ملكا)[2]؟ . بينما كان الجنود ورعايا الشاه في ذلك العصر ـ وفقاً لقول المؤرخ المعاصر اميانوس مارسلينوس[3]ـ وكما هو الحال في أيامنا هذه . . يلقبون ملكهم بملك الملوك (شاهنشاه) ، وهو نفس اللقب الذي كانت صورته في العصور القديمة ، خشايثيه خشايثيا » .

لماذا كان الكاتب الپهلوي يكتب اللفظ الآرامي (بسرا)[4] بدلاً من كلمة (گوشت) بمعنى لحم ؟ ولماذا كان يكتب كلمة (لهما)[5] بدلاً من كلمة (نان) بمعنى خبز ؟ .

لماذا يفعل الكاتب هذا بينما يقول صاحب الفهرست وغيره من كتّاب صدر

(١) أنظر المجلد الأول (الجزء الأول) من كتاب : Fr. Spiegel, Eränische Alterthumskunde, Leipzig, 1871, pp. 446 - 485.

(٢) Malkan-Malka

(٣) Ammianus Marcellinus

(٤) Bisra

(٥) Lahma

الإسلام أن نفس الكاتب كان حين قراءته لنفس هذه الألفاظ الآرامية يلفظ ما يقابلها ويعادلها من ألفاظ فارسية ، فيقرأ (بسرا) و(لحما) على النحو التالي : (گوشت) و(نان) ؟ .

إننا نفعل ذلك أيضاً في اللغة الإنجليزية ، لكنا نعتبره أمراً غير طبيعي . فنحن - على سبيل المثال - نستخدم في اللغة الإنجليزية الحرفين اللاتينيين المختصرين (J.e.) بدلاً من اللفظين الانجليزيين : That is (والمعنى بالعربية : يعني) ، ونستخدم الحرفين اللاتينيين (e.g.) بدلاً من العبارة الإنجليزية for example [1] (والمعنى بالعربية : على سبيل المثال) . ونستخدم العلامة (&) بدلاً من حرف العطف (و) .

لا شك أن هذا المسلك كان أسهل بالنسبة لمن تعوّدوا على الخطوط التصويرية ومن كانوا يدركون مغزى التصاوير والعلامات بفراستهم دون إعتماد منهم على الحس السمعي .

وإذا كان الآشوريون قد نقلوا إليهم العلامة الخاصة التي كان الأكاديون يستخدمونها للفظ (بدر) بمعنى أب ، وكانوا عند قراءتهم لتلك العلامة يلفظون الكلمة الآشورية المضارعة مكان الكلمة الأجنبية الأصلية ، فلماذا ينتظر [105] الايرانيون ولا يعاملون الكلمات الآرامية ، أمثال (ملكا ، بسرا) وغيرهما بنفس الطريقة ؟ .

إن ما سبق أن ذكرناه يؤكد أن اللغة البهلوية قد أخذت صفة العمومية حين زالت آشور من الوجود ، وهي اللغة الخاصة بالعهد الساساني (٢٢٦ - ٦٤٠ بعد الميلاد) ، وأوائل العصر الإسلامي التالي للعهد الساساني .

غير أن الدراسات المتواصلة في حقل اللغة البهلوية قد أدت بالبعض إلى

---

(١) تعليق المترجم : في اللغة الإنجليزية ، يقوم الحرفان المختصران J.e مقام العبارة اللاتينية idest (يعني) . ويقوم الحرفان المختصران .e.g مقام الكلمتين اللاتينيتين exempli gratia (مثلاً)

الاعتقاد بأن اللغة المذكورة كانت تستخدم في القرنين الثالث والرابع قبل ميلاد المسيح أو ربما كانت تستخدم في تاريخ أقدم من ذلك .

وفي ممالك الشرق ، وبين الأهالي المحافظين . . لا شيء يثير العجب في استخدام طريقة الهزوارش . واليوم نجد الايرانيين يتبعون أسلوباً في المحاسبات يشبه إلى حد ما العجيب من الأشياء التي ذكرناها في بحثنا . فالعلامات التي تستخدم بدل الأرقام العربية العادية في السياق عبارة عن أشكال مختصرة ناقصة لأسماء أعداد عربية عديدة مختلفة قد لا يعرفها الكاتب الايراني في بعض الأحوال .

وقبل أن نستطرد في بحثنا حول البهلوية ، هناك ما ينبغي قوله أيضاً عن دراسات الأفستا التي تتقدم بصفة دائمة .

لقد لاحظنا في الصفحات السابقة إلى أي مدى استعان بورنوف Burnouf ولاسن Lassen ـ في دراستهما الخاصة بالنقوش الهخامنشية ـ بالسنسكريتية . وقد [10 أشرنا قبل ذلك ضمناً إلى الكتاب العظيم الذي نشره بورنوف فيما بين ١٨٣٣ ـ ١٨٣٥ ، والذي يدور موضوعه حول اليسنا .

وقد استفاد بورنوف من المواد والموضوعات الكثيرة التي كان انكتيل قد جمعها ، وتركت مهملة فترة في المكتبة الوطنية . ولكي يحصل على المتن الصحيح لهذا القسم من الأفستا بدأ أولاً بالمقابلة بين النسخ الخطيّة ، وبذل في ذلك دقة وعناية فائقتين . ولكي يوضح الموضوع ويجليه كان جلّ إعتماده على الترجمة السنسكريتية التي كان قد وضعها نريوسنگ Neriosengh والتي كانت تحت يده آنذاك ، كما اعتمد على أقدم التفاسير .

وقد وضع هذه الترجمة في ميزان النقد ، وأمعن في فحصها إلى أن أثبت صحتّها . وصحب ذلك جهد كبير في سبيل تنظيم قواعد اللغة ووضع قاموس لكلمات الأفستا .

وهكذا كشف الطريق للآخرين ، ووضع دراسة الأفستا وتحقيقها في مساره العملي الصحيح .

والكتاب العظيم الذي قام بورنوف بنشره يشرح أولاً الفصل الأول من فصول اليسنا البالغ عددها اثنين وسبعين فصلاً (كل فصل من فصول اليسنا يسمى « ها ») وهذا يعد قسماً من أقسام كتاب زردشت المقدّس البالغ عددها خمسة أقسام ، (يدور حول آداب عبادة الخالق) . وهو وإن يكن ـ بعد ذلك ـ قد درس الفصل التاسع من فصول اليسنا (فيما بين عامي ١٨٤٤ ، ١٨٤٦ م) ، فقد جاءت دراسته مختصرة ، ولم تزد تحقيقاته ودراساته في هذا الفرع عما ذكرناه .

ويجرّنا نشر المؤلّف الذي وضعه بوب العظيم Bopp في تلك الآونة ـ وهو المؤلّف الخاص بالصرف والنحو التطبيقي في اللغات الآرية أو الهندو أوروبية ـ إلى الحديث حول الجدال العنيف الذي نشب حول الأفستا . . ونعني به الجدال حول الطريقة التي يجب اتّباعها ، هل هي طريقة الرواية والأخبار والأحاديث أم طريقة التطبيق والتحقيق .

وكان النابهون من العلماء آنذاك لا يشكّون أدنى شك في أصالة الكتاب نفسه ويؤمنون كل الايمان ببعده عن التزوير والتلفيق . وكانت المجادلات تتركز حول قيمة التفسير الذي وضعه الزردشتيوّن استناداً إلى سننهم وتقاليدهم ، (مع أن ذلك التفسير مبني على الرواية) .

[107] ويعتمد بورنوف على تفسير زيوسنگ العرفي (لأن الترجمات البهلوية القديمة لم تكن مفهومة حتى ذلك الوقت بالقدر الذي يمكّن من الإستفادة منها) . وبناء على ذلك ، يجب أن يعتبر بورنوف من أنصار الطريقة الأولى . وكان بوب قد بلغ شأواً بعيداً في السنسكريتية وفقه اللغة التطبيقي ، ونبغ فيهما أكثر من غيرهما . وكانت دراسته للأفستا من جهة اللغة فقط ، وباعتبارها شعبة من شعب السنسكريتية . لهذا يجب أن يعتبر من مؤيدي الطريقة الثانية .

وبعد نشر الأفستا (طبع وسترجارد Westergaard واشبيجل Spiegel في الفترة ما بين ١٨٥٢ ، ١٨٥٨م) انسعت دائرة الباحثين إلى حد كبير ، وكان بمُكْنتهم فحص مشكلات الأفستا وبحثها . وثار الجدال من كل جانب . . وهو الجدال الذي أسماه دارمستتر Darmesteter حرب الطرائق (أي الحرب بين طريقة الرواية وطريقة التطبيق والتحقيق) . وكان أبرز أتباع الطريقة الأولى - بعد بورنوف - اشبيجل ويوستي . كما يعتبر دوهارله وجايجر بدورهما - إلى حد ما - داخلين في زمرة أصحاب هذه الطريقة .

أما بنفي Benfey وروث Roth فمن أتباع الطريقة الثانية . وقد اختار ويندیشمن Windischmann طريقة وسطا . وكان هاوج من أنصار بنفي المتعصبين أول الأمر ، غير أنه حين عاد من الهند أبدى إيمانه المطلق بقدر الروايات الفارسية وقيمتها ، واعتبر بعد ذلك واحداً من قادة الدراسات والتحقيقات البهلوية . وقد أخلص وست West في سلوكه نفس الطريق ، وكان التوفيق حليفه أكثر من سواه . وكان هذا سبباً في أن يقول جلدنر[1] في حقّه : « لقد استطاع بفضل علمه وفهمه وإدراكه وبُعد نظره وبراعته المنقطعة النظير أن يرتقي بالدراسات والتحقيقات المتعلقة باللغة البهلوية ، ويسمو بها من المراحل المتدنية إلى الدرجات العالية ، « حتى لقد » صار - بصورة غير مباشرة - مُصلح دراسات الأفستا » .

واختار القدر رجلاً لا نظير له هو جيمز دارمستتر James Darmesteter فبُحثت على يديه الموضوعات المتعلقة بالروايات (مقترنة بدراسات دقيقة للمتون نفسها) ، وحقق في ذلك المجال نتائج أتمّ وأكمل نتيجة حزمه واهتمامه .

---

(١) انظر مقالة جلدنر البليغة القيّمة المتعلّقة بتاريخ دراسة الأفستا .
Geldner: Geschichte der Avesta Forschung.
ويوجد نصها في المجلد الثاني من كتاب مبادىء فقه اللغة الإيراني ، تأليف جايجروكون - ص ٤٠ - ٤٦ .
Geiger und kuhn, Grundriss der Iranischen Philologie.

ومما يبعث على السرور حقاً أن يعمد جلدنر إلى وصف مؤلّف شخص وأسلوبه مستخدماً كريم الصفات . . بينما أثر عن هذا الشخص أنه كان قد هاجم أسلوبه النقدي بصورة بالغة العنف[1]، فيقول :

« وكان دارمستتر بادىء الأمر أحد الموالين المتحمّسين لترجمة العصر الساساني وقد درس مقدمات البهلوية دراسة عميقة فكوّن أرضاً صلبة لدراساته ، غير أن شرحه لم يعتمد قط على المصادر البهلوية وحدها . وقد قرر الإشتراك في النزاع الناشب حول أفضل وسيلة للدراسة عن طريق التوسُّع في نطاق الفكر ، وبذا يمكن الخروج من الظلمة إلى النور ، فبدلاً من الظن والتخمين وتقليد من يسعون جاهدين ليشقوا سبيلهم تاركين الظلمة إلى النور ، يمكن عن طريق التوسُّع الفكري وحده تحقيق الهدف المنشود ، وبلوغ مرحلة علم اليقين والشهود . وقد بدأ بالإستعانة بالترجمات التي كان الايرانيون أنفسهم قد أعدّوها ، واستفاد كل الفائدة من تلك المصادر الأولية ، ودرسها دراسة شاملة كاملة .

وقد استفاد ـ بصورة غير مباشرة ـ من جميع الروايات التي شاعت من عهد الساسانيين حتى اليوم ، ومن الأدب البهلوي بأكمله والپازند والشاهنامة ، ومن مؤلفات العرب الذين سجّلوا المعارك ، ومن الأخبار التاريخية المنقولة عن السلف ، ومن التصريحات الشخصية المأخوذة من أفواه الأحياء من البارسيين ، [109] ومن الآداب والتقاليد والعقائد والآراء والطقوس الدينية الحالية التي تعد تقليدية لم يدخلها أي لون من ألوان التغيير .

وفي القسم الخاص بعلم اللغات استفاد من مواد فقه اللغة الايرانية في كافة مراحلها وبمختلف اللهجات ، ومن السنسكريتية . . خاصة القدا .

وكانت الترتيبات والإستعدادات قبله ناقصة غير كافية ، فتمكّن من جمعها

---

(١) أنظر مقالته السالفة الذكر ، ص ٤٥ .

وتنسيقها ، وحقق نتيجة مقبولة يعترف بها . وأثمرت مساعيه وجهوده اخر مؤلفاته العظيمة ، وهو كتاب بعنوان : « زند افستا ، ترجمة جديدة مع شرح تاريخي ولغوي »[1]. وقد أحيا دارمستتر طريقة السنة والتقليد ، بل إنه هو في الحقيقة موجد الطريقة التي أطلق عليها بنفسه اسم الطريقة التاريخية لتحقيق الأفستا .

ولكي يعرض طريقته بوضوح وجلاء عمد إلى جمع العديد من المواد والمواضيع بصورة لم تتوفر لغيره . والمستقبل كفيل بالحكم على مدى صدقه في ذلك السبيل ، كما أن المستقبل كفيل ببيان كيفية تجاوزه لهدفه نتيجة تمسُّكه بالفروع واهتمامه بشرح النقاط وسلوكه طريقي المبالغة والإطناب » .

والآن نعود ثانية إلى تاريخ اكتشاف رموز النقوش والنصوص البهلوية ، أي نعود إلى ذلك الفرع من علم اللغة الايراني ، وهو الذي مازالت معظم الأمور التي تقرّرت بشأنه ناقصة لم تتم « رغم الجهود المضنية المثمرة التي قام دوساسي Sylvestre de Sacy بها هو وأعقابه ، ورغم أن هذا البحث الصعب قد جلاه ووضحه إلى حدٍ كبير - في الأيام الأخيرة - علماء أمثال : وست West واندره اس Andreas ونولدكه Nöldeke ودارمستتر Darmesteter وزلمن .Saleman وغيرهم .

وسوف نخصص الصفحات التالية للحديث عن دوساسي وخلفائه .

[11 جاء في صفحات سابقة ذكر المساعي الجليلة التي بذلها دوساسي في سبيل قراءة بعض النقوش الساسانية الموجودة في نقش رستم . وتقع اللوحة الحجرية التي نقش عليها نقش رستم جهة اليمين من مجرى نهر بلوار . وينتهي حوض مجرى النهر إلى سهل مرو بين سيوند وزرقان ، على بعد ميلين أو ثلاثة شرقي تخت جمشيد .

ويُعتقد أن النقش الذي درسه دوساسي - على وجه الخصوص - أقدم نقش

---

(١) أنظر دوريات متحف جيمه ، الأجزاء ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، طبع باريس ، ١٨٩٢ - ١٨٩٣ م .
Annales du Musée Guimet, Vols. XXi, XXii, XXiV, Paris, 1892-3.

حفره الملوك الساسانيون ـ تقليداً للهخامنشيين ـ على هذه الصخور ، فإن ثبت غير ذلك ، فهو على الأقل واحد من أقدم النقوش . . لأن تاريخه يعود إلى فترة حكم أردشير (ارتخشتر) بن بابك مؤسس تلك الأسرة (٢٤١ ـ ٢٢٦ بعد الميلاد) .

والنقش مكتوب بخطين بهلويين (أحدهما يتخذ شكل الخط الكلداني[1] والآخر شكل الخط الساساني) والخط في كل شكل من هذين الشكلين يتميَّز عن الآخر .

ثم تشاهد ترجمة يونانية للنقش ، تفسيرها كما يلي[2] :

(نُقِلت هنا الترجمةُ اليونانية بعينها دون تغيير)

وهذه هي العبارة البهلوية الساسانية الواردة بالنقش[3] :

[111] « بتكري زنا مزديسن بگى ارتخشتر ملكان

ملكا إيران ، مينوچتري من يزتان برا

پاپكي ملكاً »[4] .

---

(١) تعليق المترجم : يقول بارشاطر : قلَّ الآن أن يستخدم الإصطلاح « بهلوي كلداني «Calden-Pahlavi» . . وبدلاً منه . . يستخدم الإصطلاح « بارتي Parthian» . ولم يلق الإصطلاح الذي وضعه هرتسفلد ، واستخدم في بايكولي ، قبولاً لدى العامة . . ونعني به إصطلاح (پارسي) بدلاً من بهلوي ، (پهلوي) بدلاً من پارتي .

(١) أخذت النصوص من مقالة هاوج التي تتحدث في موضوع البهلوية (طبع اشتوتجارت بتاريخ ١٨٧٠) ص ٤ ، ٥ Haug, Essay on Pahlavi (Stuttgart, 1870) وطريقته أن يبدي حروف النقش اليوناني الممحوَّة أوضح وأدق وأصغر من الحروف الأخرى . وقد سرت على هذه الطريقة هنا . لقد رأيت النقش في مارس من علم ١٨٨٨ م أثناء سفرتي التي قمت بها من الشمال إلى شيراز ودرسته آنذاك ، وقد تلفت بعض مواضع النقش فيما بعد .

(٣) تعليق المترجم : هذا نص العبارة التي وردت بالخط اللاتيني في النص الإنجليزي لهذا الكتاب :
«Patkari Zana Mazdayasn Bagi Artakhshatr, Malkan Malka Airan. Minu Chitri Minyaztan. Bara Papaki Malka».

(٤) الكلمات المكتوبة في النقش والواردة بالخط الأسود الثقيل تسير على نظام الهزوارش (سوف يتضح معنى الهزوارش في الحال) . عند قراءة الهزوارش تقرأ الكلمة الفارسية مكان الكلمة الآرامية

وهذه ترجمتها (التي نقلت من الإنجليزية إلى الفارسية) :

« هذه صورة السيد (الملك) عابد مزدا ، اردشير ، ملك إيران ، الذي خلقه الله من عنصر الجنان ، إبن الملك بابك »[1]

[112] وقد شجعت دوساسي تلك النتيجة التي توصّل إليها بفضل دراساته . . فدرس في كتابه الثالث والرابع ما جاء على وجوه العملات من عبارات پهلوية ، كما

المضارة لها . . فمثلاً لفظ « زنا » بمعنى « آن : ذلك » ، وتقرأ « آن » نفسها . كما أن لفظ « ملكان ملكا » معناه « شاه شاهان : ملك الملوك » ، ويلفظ شاهنشاه . و« من » (بكسر الميم) بمعنى « از : من » ، و« برا » بمعنى « پسر : ابن » . و« ملكا » بمعنى « شاه : ملك » وتقرأ كما هي .

(١) تعليق المترجم : يقول يارشاطر : هذه هي القراءة الصحيحة لهذا النقش : « بتكر اين مزد يسن بغ ، ارتخشتر شاهنشاه إيران ، كه چتر ازيزتان ، پس بغ پاپك شاه » . . .

الترجمة :

« هذه صورة السيد (السلطان) عابد مزدا ، أردشير ملك إيران ، الذي هو جزء من الله ، ابن الملك بابك » .

ومينو تلفظ في الهزوارش MNU ويجب أن تقرأ (كه) . وتلفظ پسر في الپهلوية الساسانية « بس » (بضم پ) وليس « پور » .

وقد حقق اكتشاف النقوش الپهلوية والتوصّل إلى قراءتها منذ تأليف هذا الكتاب نجاحاً كبيراً . ومن أهم النقوش الپهلوية التي تمّ اكتشافها منذ ذلك الوقت :

أولاً : نقش پايكولي في العراق (شمالي قصر شيرين) ، وهو النقش الذي كتبه نرسي بمناسبة انتصاره على بهرام الثالث ، واستخدم في كتابته لغتين : الپهلوية والپارثية .

أنظر : هرتسفلد ، پايكولي .H. Herzfeld, Paikuli (2 Vol.) 1924 وهنينگ (هنينج) :
W.B. Henning. A. Farewell to the Khagan of the Ag-Agatarũm. Bsoas. 1952.

ثانياً : نقش شاهبور الأول في « معبد زردشت » بثلاث لغات : الپهلوية ، الپارثية ، اليونانية . وهذا النقش من أهم النقوش الپهلوية ، وهو يضارع في أهميته نقش بيستون بين النقوش الهخامنشية والنقش الآخر هو نقش كرتير الموبد الزردشتي ، الذي يدل على جهود هذا الرجل وتعصّبه في إقرار الدين الزردشتي ، ونجاحه في هذا السبيل .

أنظر :
M. Sprengling, «A New pahlavi Inscription», Amer. Jour of Senet Lang. and Liter. L I1, 120.2.

وبه :
W. B. Henning, The Great Inscription of Sâpũr, I, Bsoas, IX, 1947.

درس نقوش بيستون التي يرجع تاريخها إلى نفس العصر . وكانت معاناته في ذلك السبيل بمثابة مقدمة للجهود التي بذلها گروتفند فيما بعد في سبيل اكتشاف رموز النقوش المسمارية الفارسية القديمة (والتي لوحظت في الصفحات السابقة) . وقد سار أوزلي Ouseley في طريق علم السكّة (١٨٠١ م) ، وتمكن من قراءة ٤٠ سكة من السكّات الساسانية . وواصل تيكسن Tychsen نفس العمل في السنوات من ١٨٠٨ إلى ١٨١٣ م .

ويختلف رسم الخط في النقوش البهلوية عنه في الخطوط التي تشاهد في الآثار الساسانية آنذاك (خاصة النقوش والمسكوكات) إختلافاً كبيراً . ويجب أن يكون معلوماً لنا أنه باستثناء قطعات پاپيروس التي تمّ اكتشافها في الفيوم بمصر منذ ٢٢ [1] عاماً ـ والتي كانت باللغة البهلوية ولم تطبع للآن ، ولم يُقرأ سوى قسم منها [113] فقط ـ فإن أقدم نموذج بهلوي مكتوب يرجع تاريخه إلى عام ١٣٢٣ م . أي أنه دُوّن بعد النقش الذي مرّ ذكره بأكثر من ألف عام . وخلال هذه المدة ، كان الخط البهلوي يسير في طريق الانحطاط بخطوات ملحوظة إلى حد أن بعض الحروف التي كانت تتميّز عن بعضها البعض باديء الأمر قد أخذت بالتدريج شكلاً واحداً ، وأصبح الحرف الواحد يلفظ بأصوات عديدة . (وفي النصف الثاني من المدة المذكورة ، كان الخط البهلوي معطّلاً ، لا يستخدمه سوى الموابدة الزردشتيون في نسخ الآثار الموجودة) .

وكانت الحروف المستخدمة في النقوش قبل ذلك ذات أصوات كثيرة إلى حدٍ ما ، بينما لا يوجد في البهلوية الكتابية حرف له ما لهذه الحروف من اتّساع . . فيما عدا حرف واحد . . كما هو الحال في الأصوات الأربعة(Z.d.g.y.) ، بينما كان لكل صوت من هذه الأصوات علامة مستقلّة في النقوش . . وهذا هو سبب صعوبة البهلوية الكتابيّة .

---

(١) تعليق المترجم : يقول پارشاطر : طبع هانسون قسماً من قطعات پاپيروس . أنظر:
O. Hansen, Die Mittelpersischen Papyri der papyrussamlung der staatlichen Mussen Zu Berlin, 1938.

ونتيجة لذلك ، فإن للنقوش الساسانية قيمتها وأهميتها في توضيح البهلوية الكتابيَّة . وقد وضَّح مارك جوزيف مولر ـ الذي يعمل أستاذاً في جامعة ميونيخ ـ هذه القيمة وتلك الأهمية توضيحاً تاماً في رسالته التي كتبها حول اللغة البهلوية . . تلك الرسالة التي نشرت في المجلة الأسيوية ، في إبريل عام ١٨٣٩ م[١] .

ويقول هاوج منوهاً بقيمة تلك الرسالة : هذه الرسالة بداية عهد جديد في الدراسات البهلوية .

وقد استن الزردشتيون ـ خاصة فرس بمباي ـ سُنَّة ساروا عليها ، وهي أن ـ يقرأوا الكتب البهلوية بطريقة خاطئة . لهذا كثرت الكلمات التي يظن أنه لم يستخدمها أي شعب في الحديث أو الكتابة . فهم يقولون مثلاً : بومن Boman وحقيقتها برا Bara بمعنى پسر أو پور : إبن ، ويقولون : مدا Moda وحقيقتها Malya بمعنى (الكلمة) ، ويقولون أنها Anhoma وحقيقتها اوهرمزا Awharmaza بمعنى خدا : الله[٢] ، ويقولون : جمنونتن Jamnuntan وحقيقتها يمللونتن Yemaleluntan بمعنى التحدُّث ، وقس على هذا .

[114

والسبب في قراءة هذه الألفاظ وغيرها على هذا النحو الخاطىء يرجع إلى رسم الخط البهلوي وأشكاله المعقَّدة الغامضة ، ولكن تكفي المقارنة بالنقوش البهلوية في كثير من المواضع ـ وهي الأقل غموضاً وإبهاماً ـ لإثبات أي الأشكال هو الصحيح . .

ورغم أن هذه الطريقة لم تكن تؤمِّن لنا القراءة الصحيحة بصفة دائمة ، إلاّ أن الفضل في ابتكارها يرجع إلى مولر الذي قدَّمها وقام بتطبيقها .

---

(١)
Marc Joseph Muller, Essai sur la langue Pehlevie, Journal Asiatique, Avril, 1839.

(٢) تعليق المترجم : الكلمات المذكورة تنتمي إلى نظام الهزوارش فيما عدا (أنها) فإنها قراءة خاطئة لكلمة (اوهرمزد) .

وقبل أن نجدد البحث في هذا الموضوع يجب علينا أن ندير الحديث حول ميزة أصلية تتميز بها البهلوية . وقد سبقت لنا الإشارة إلى هذه الميزة مراراً ، ونعني بها عنصر الهزوارش أو الزوارشن في الكلمات الآرامية . . تلك الكلمات التي كانت تظهر في كثير من المواضع متخذة شكلاً آخر نتيجة التغيير الذي يقتضيه الصرف الفارسي و(اللواحق الصوتية) .

ونحن نلاحظ أن قدراً كبيراً من كلمات أحد المتون البهلوية التي نقرأها سامي وليس إيرانياً . ولكي نكون أكثر دقة في التعبير نقول إن الكلمات المذكورة قد اقتبست من إحدى اللهجات الآرامية التي لها قرابة قريبة من السريانية والكلدانية . كما نرى في كل متن من المتون العادية الفارسية الحديثة قدراً كبيراً من الكلمات السامية (العربية) ، وهم يقرأون هذا القدر من الكلمات العربية كما كتبوه تماماً .

والحق أن هذا الوضع نفسه قائم في اللغة الإنجليزية إذ تشكل الكلمات اليونانية واللاتينية والفرنسية وغيرها من اللغات الأجنبية . . تشكّل في مجموعها قدراً كبيراً من الكلمات الإنجليزية الحديثة . هذا وقد صارت الكلمات العربية جزءاً لا يتجزأ من اللغة الفارسية . وكان المعتقد بادىء الأمر أن العنصر الآرامي الوارد في البهلوية يطابق تمام المطابقة العنصر العربي الوارد في الفارسية . لكن [115] التحقيق الدقيق والدراسة العميقة أثبتا أن بين العنصرين تفاوتاً أصلياً وفرقاً ذاتياً . إن أي لغة يمكنها أن تستعير الكثير من الكلمات من لغة أخرى ، لكن لهذا الأمر حداً لا يمكن تجاوزه . ويمكننا أن نضع يدنا بسهولة على جمل في الفارسية الحديثة استعملها البلغاء بالتفصيل ، وجاؤوا فيها بالصفة والموصوف واسم المصدر . . . . وكلها من أصل عربي . يضاف إلى ذلك وجود الكثير من الشواهد والأمثال والعبارات العربية في تلك الجمل . . . . ومع ذلك فإن بناء الجملة الفارسية في مجمله وتركيبها فارسي ، والضمائر والأفعال بدورها فارسية . . والواجب أن يكون

الأمر كذلك . ونفس الشيء موجود في اللغـة الإنجليزية ، ففـي الجملـة التـالية مثلاً :

(I regard this expression of opinion as dangerous)

ومعناها :

أرى أن هذا التعبير عن الرأي خطير .

توجد أربع كلمات فقط من ثمانية تعود إلى أصل إنجليزي[٢]، ومع ذلك فإن الجملة المذكورة جملة إنجليزية تماماً . ولا يمكننا أن نتصوّر أن توضع مكان الضمائر وحروف الإضافة وحروف الربط[٣] هي الأخرى ما يضارعها من كلمات من أصل أجنبي ، لكن اللغة البهلوية تختلف تماماً . وربما يكون هاوج[٤] قد عمـد إلى المبالغة حين قال : « كل العلامات الخاصة بحالات الإسم وحتى أواخـر الأسماء ونعنـي بهـا علامـات الجمـع ، وكل الضمائـر الشـخصية وأدوات الإستفهـام ، والموصول ، وكل الأعداد من ١ إلى ١٠ ، والأفعال التي تستعمل أكثر من غيرها أمثال يودن ، رفتن ، آمدن ، خواستن ، خوردن ، خوابيدن ، نوشتن وغيرها ، وكل حروف الإضافة تقريباً ، والقيود ، وحروف العطف والربط ، وعدة أجزاء هامة في آخر الأسماء ، والغالبية العظمى من الكلمات بصفة عامة (في النقوش الساسانية) من أصل سامي) . .

116]

وحقيقة الأمر هو أن نهايات الأفعال والضمائر المتّصلة ومبنى الجملة وتركيبها هي وحدها ـ في الغالب ـ القسم الإيراني الموجود في العبارة البهلوية ، وإن يكن هو

---

(١) تعليق المترجم :

(٢) الكلمات الإنجليزية هي : I - this - of - as

(٣) يقصد بحروف الإضافة في الفارسية حروف الجر والظرف ، كما أن حروف الربـط تعنـي حروف العطف .

(٤) أنظر رسالة هاوج Haug, Essay on Pahlavi الخاصة بالبهلوية ، ص ١٢٠ و١٢١ .

تعليق للترجم : كان الدكتور مارتين هاوج Martin Haug Ph.D. أستاذاً للسنسكريتية وفقه اللغة التطبيقي في جامعة ميونيخ ، وله رسالات أخرى حول لغة البارسيين المقدّسة وآثارهم ودينهم . . قام بطبعها الدكتور وست E.W. West بعد وفاته .

القسم الأصلي المميز . يضاف إلى ذلك أن لدينا قدراً من الكلمات المجهولة المصدر ، وهي كلمات مهجّنة نصفها آرامي والنصف فارسي . ولا يتصوّر عاقل أن يكون أحد قد تفوّه بمثل هذه الكلمات . فالأصل السامي للكلمة التي بمعنى (نوشتن : الكتابة) ـ على سبيل المثال ـ مركّب من ثلاثة حروف هي : ك ، ت ، ب ، والمضارع المسند للشخص الثالث والمنسوب لهذا الأصل هو : يكتيبون (بكسر الحرفين الأول والثالث) Yektibun (وهو بالعربية : يكْتُبُون) Yaktubun بينما الفعل الفارسي المقابل هو نپشتن أو نبشتن أو نوشتن . وقد كتب الكاتب البهلوي هذه الكلمة يكتبونتنYektibunten . ومما هو مسلّم به أن هذا الكاتب لم يقرأها قط يكتبونتن .

ورغم أن كلمة يكتبون كلمة مستعملة ذات معنى فإنها تشكّل في نظر الكاتب البهلوي مجرّد علامة حلت محلّ اللفظ البهلوي ، أو مجرد شكل كان يدل على معنى نبشNapish ، ثم أضاف إلى آخره الحرف تن الذي هو علامة المصدرية في الفارسية .

وكذلك كلمة (مرد) التي كتب الكاتب البهلوي بدلاً منها الكلمة السامية (گبرا) ، وكان كلما أراد أن يقرأ الشكل الآخر هذه الكلمة ـ ونعني به مردم ـ أضاف إليها الصوت (ام) ، ثم كتبها (گبرا ـ لم) . Gabrạ - um (بضم الألف) .

[117] وقد سبق لنا أن ذكرنا نظائر هذا الأسلوب العجيب الذي نجده في اللغة الآشورية . وفي اللغة التورانية الأكدية القديمة[1]، كانت كلمة (پدر : أب) هي adda ادا

---

(١) تعليق المترجم : يرى اقاي تقي زاده أن ذكر اللغة الأكدية القديمة هنا يشكل خطأ عجيباً ، فقد كانت اللغة الأكدية تعني البابلية القديمة في اللغة الساسانية وليست التورانية . والظاهر أن اللغة القديمة قد كانت سومرية ، وليس للتورانية معنى أصلاً .

ويقول هاوج[1] في هذا الشأن :

« كان الأشوريون عندما يرغبون في كتابة (پدر) ، يأخذون المقطع (اد) أو (أت) من الكلمة (أدا) ، ولكنهم يلفظونها اب . وكانوا يعرفون كلمة (اب) ويستعملونها في مكان كلمة پدر . أما كلمة پدرم : أبي فكانوا يكتبونها (اتوى) atuya ولكنهم يقرأونها (ابوى) abuya والواو (المضمومة) في اللغة الآشورية هي علامة الرفع في حالة الفاعلية . و(ى) المفتوحة حين تلحق بآخر الكلمة يكون لها معنى ضمير الملكية « من » (مال من) . ويضيفون (ات) إلى الكلمة الأجنبية عند كتابتها .

وفي نفس الوقت ، حين كان الكاتب البهلوي يفكر في كتابه « پتر Pitar» (پدر) فإنه كان يكتبها ابيتر Abitar بالطريقة التي كان يأخذ بها كلمة (اب) من الآشورية[2] . وهي هنا تماماً بمثابة شكل تصويري يدلّ على المعنى المطلوب . وعند قراءة المقابل الفارسي ، كانوا يضيفون المقطع المتمم (تر) .

وهناك جانب عجيب آخر يتصل بالخط البهلوي له قيمته وأهميته بالنسبة للكلمات الفارسية التي كانت تعرف في ذلك العهد بأنها مركّبة وقابلة للتجزئة . لقد كان يعوّل على اللغة السامية أو الهزوارش في تفسير كل مقطع من مقاطع تلك الكلمات على حدة . فليكن مثالنا في هذا الشأن الفعل المعروف « پنداشتن » . [118] فالواقع أن الإيراني المعاصر لا يتصوّر قط أن يكون هذا الفعل قابلاً للتجزئة ، ويرى أنه لا يعدو أن يكون فعلاً بسيطاً . أما الكاتب البهلوي فكان عالماً بكيفية تركيبه ، ولهذا كان يكتبه على هذا النحو :

بـون Pavan (بفتـح الأول والثانـي) (بـ = براي) ، (هانـا = اين) ،

---

(١) تعليق المترجم : الدكتور مارتن هاوج Martin Haug حاصل على الدكتوراه في فقه اللغة التطبيقي من جامعة ميونيخ .

(٢) تعليق المترجم : يرى تقي زاده أنها الآرامية أو السريانية .

يخسنونتن Yakhsanun-tan (ـ داشتن)[1] .

يقول نولدكه فيا يتعلق بتجزئة الكلمة المعروفة « مكر » :

« كانت هناك كلمتان آراميتان أو عنصران من عناصر الهزوارش يفسرّان كلمة مكر ، الكلمة الأولى بمعنى : نه ـ لا ، والكلمة الثانية بمعنى : اگر ـ لو . إذا . وهذا الأمر يصلق في مواضع أخرى ، ويحمل في ثناياه الغرابة ونتعلم منه أشياء » .

ضمير المتكلم المفرد في الفارسية الحديثة هو (مَن) ، وهذه الكلمة مشتقة من حالة إضافة هذا الضمير نفسه في الفارسية القديمة ، فكلمة ادم adam ـ كلمة ازم azem في لغة الأوستا ، وضمير الملكية المتصل هو مناManа

وهناك حقيقة جديرة بالإهتمام وهي أنهم في رسم الخط البهلوي يكتبون كلمة (لي) السامية مكان (من) ، وهذه كلمة هزوارش تقابل كلمة (من) .

وإذا تغاضينا عن البراهين الأجنبية ، فإنه في مُكنَةِ أي شخص بعيد النظر ملاحظة أن الخصائص البهلوية الغريبة كلها تقريباً مرتبطة برسم الخط البهلوي وأنه لا غرابة بعد ذلك في قراءته بصوت مرتفع . ومن حسن الحظ أن هناك العديد من البراهين الأجنبية الكافية لإثبات حقيقة هذا الأمر .

[119] أولاً : شاهدنا المباشر هو اميانوس مارسلينوس Ammianus Marcellinus الذي يقول :

« في إيران ، يطلقون على شاپور وشاهنشاه . . پيروز .

وهذا يعني أن هذا الشاه يتحكّم في غيره من الملوك ، وأن له النصر عليهم في الحروب » . (ترجمة عن اللاتينية) .

---

(١) تعليق المترجم : يقول پارشاطر : قراءة (بون) منسوخة . تُكتب بنداشتن في البهلوية Pat Znh Yhsnunin وتقرأ Pad en daston توضيح : tn في آخر يخسنونتن ـ پهلوية ، وهي علامة المصدر ، ولهذا السبب كتبت بحروف صغيرة . (XiX 2, II).

وهو يشير إلى شابور الثاني (٣٠٩ ـ ٣٧٩م) . وكان القدماء يكتبون لقب شابور على المسكوكات على النحو التالي : ملكان ملكا (= ملك الملوك) . غير أنهم كانوا في نفس الوقت ـ وكما هو الحال اليوم ـ يذكرون لقبه في مكالماتهم على النحو التالي : شاهنشاه .

ثانياً : شاهدنا المُباشر الثاني هو المؤلف العالم محمد بن إسحق (٩٨٧ ـ ٩٨٨) مؤلف الفهرست .

ويستند محمد بن إسحق في حديثه حول هذا الموضوع وغيره من المواضيع التي تتعلق بإيران الساسانية . . يستند إلى قول ذلك الرجل العجيب الألمعي ونعني به ابن المقفع الزردشتي[1] الايراني ، الذي كان يعيش في أواسط القرن الثامن الميلادي . وقد أشهر ابن المقفع إسلامه ، لكن هناك من يشك في صدقه ، وقد لقي مصرعه علم ٧٦٠م .

ويرى ابن مقله الوزير الخطاط المعروف (المتوفي علم ٩٣٩ هـ) أن ابن المقفّع أحد الفصحاء ، ويضعه في الصف الأول بين الكتّاب العرب . ويؤيّد ابن خلدون المغربي بدوره سيطرة ابن المقفع على اللغة العربية بنفس الدرجة التي كان يسيطر بها على اللغة الفارسية ، ويمتدحه .

وكان ابن المقفع يعرف اللغة البهلوية معرفة تامة ، وقد ترجم العديد من الكتب البهلوية الهامة إلى اللغة العربية . ومن المؤسف أنه لم تبق لنا من ترجماته هذه سوى ترجمة واحدة ، هي كليلة ودمنة . ويعدُّ كتاب كليلة ودمنة قليل الأهمية إذا ما قورن بغيره من الكتب التي قلم ابن المقفع بترجمتها .

يقول مؤلف الفهرست[2]ـ استناداً إلى قول العالم ابن المقفع ـ وذلك في مقالة له وردت بعد شرح طريقة كتابة الخطوط السبعة التي استخدمت في الكتابة

---

(١) تعليق المترجم : يرى اقاي تقي زاده أن ابن المقفع مانوي .

(٢) ابن النديم هو مؤلف الفهرست .

واستعملها الإيرانيون قبل الإسلام[1] :

[120] « ولهم هجاء يسمى زوارشن (أوهزوارش) (المراد بالهجاء الإملاء وليس الكتابة التي هي رسم الخط) حروفه متّصلة ومنفصلة ، وتصل إلى حوالى ألف كلمة ، ويمكن بواسطتها تمييز المتشابهات عن بعضها (المقصود بالمتشابهات الكلمات الغامضة) . فعندما يريد أحد الأشخاص ـ على سبيل المثال ـ أن يكتب (گوشت) فإنه يكتب (بسرا) بكسر السين وسكونها (كتبت هذه الكلمة في الفهرست لابن النديم بالخط البهلوي) ، ولكنه لا يقرؤها (بسرا) بل يلفظها (گوشت) .

وحين يريد شخص أن يكتب (نان) فإنه يكتب (لهما) (بفتح اللام وسكون الهاء) (وقد أثبتت هذه الكلمة أيضاً في فهرست ابن النديم بالخط البهلوي)ولكنه لا يقول لهما ، بل يقرؤها نان . ويسيرون على هذا النحو في معاملة كل ما يريدون كتابته ـ إلاّ في الأشياء التي لا تحتاج إلى القلب فإنهم يلفظونها كما يكتبونها[2] .

[121] ثالثاً : هناك حقيقة نعرفها ، وهي أنه حتى في أقدم نماذج اللغة الفارسية التي

---

(١) يعد كاترمر Quatremére أول شخص لفت الأنظار عام ١٨٣٥ إلى هذه المقالة ، لكن النص الأصلي لها لم يكن قد نشر حتى عام ١٨٦٦ م . وفي العام المذكور نشر النص على يد شارل كانو Charles Ganneau مصحوباً بترجمة جديدة ، وببعض الملاحظات النقدية حول ترجمة كاترمر .

(٢) أنظر رسالة هاوج الخاصة بالبهلوية ، ص ٣٧ وما بعدها Hagg's Essay on Pahlawi

وانظر المجلة الأسيوية ، ص ٢٥٦ ، عام ١٨٣٥م Journal Asiatique
وانظر الفهرست لابن النديم ـ طبع فلوجل Flugel

هناك خلاف بيني وبين هاوج فيما يتعلق بأجزاء من ترجمانه ، خاصة فيما يتعلق بالمتشهابهات التي استخدمت بمعنى المترادفات . ففي رأيي أن المراد باللفظ المذكور هو الكلمات الفارسية التي يتولّد عنها الابهام والغموض عندما تكتب بالخط البهلوي ، لكن عنصر الهزوارش ليس فيه مثل هذا الإبهام . . فكل شخص يكتب كلمة نان بالخط البهلوي ، ثم ينتبه إلى الوجوه المختلفة التي يمكن أن نقرأ بها الكلمة نفسها ، سوف يحل غموض المسألة بسهولة .

كتبت باللغة العربية ليس هناك من أثر للآرامية والهزوارشية . وعندما كانت الكلمات المذكورة تستعمل في الحديث كان لها أثر في الكتابة . ولكن لما كانت العناصر الأجنبية المذكورة ترتبط بالكتابة فقط ولا تستعمل وقت التكلم ، أي أنها كانت في حكم الأشكال والصور التي يراد من ورائها معاني خاصة ، فقد كان من الطبيعي في هذه الحالة أن يزول العنصر الآرامي ويزول الهزوارش .

رابعاً : بقيت اليوم بين الزردشتيين سنّة جارية . . وهي من حيث الفروع - كما رأينا من قبل - سنّة خاطئة ولكنها من حيث الأصول الكلية واضحة تمام الوضوح . وطبقاً لهذه السنّة تقرأ كلمات الهزوارش بالفارسية ، لهذا فإن الكتب التي يُطلق عليها كتب البازند ما هي إلاّ نقل كتب پهلوية بكلمات أفستائية لا غموض فيها . والكتب التي يطلق عليها كتب فارسية ما هي إلاّ نقل كتب پهلوية بكلمات عربية لا غموض فيها » . غير أنهم استبدلوا كلمات الهزوارش والكلمات الآرامية بما يعادلها من كلمات فارسية .

وجميل أن نختتم هذا الفصل بتلخيص للإصطلاحات المختلفة التي كانت تستعمل في فترة البحث حول اللغات الإيرانية القديمة ، وجميل أيضاً أن نختتمه بتوضيح المعنى الدقيق لكل مصطلح ، وبيان وجه إشتقاقه بقدر المستطاع .

الميدية :

لغة ماد ، أي القسم الغربي من البلاد ، وهو الذي يسمونه اليوم إيران . وهي نفس الميدية التي وردت في نقوش داريوش ، ونفس (الماهات) التي نقلها الجغرافيّون العرب القدامى (ماهات جمع « ماه » ، وهي الجزء الأول من كلمة ماه بصره وماه كوفه وماه نهاوند . . . . وغيرها) . وعاصمة هذه الناحية هي المدينة القديمة اكباتان (التي وردت في النقوش : هگمتانه) ، والتي يطلق عليها الآن همدان .

ولا توجد لها آثار بين أيدينا إلاّ إذا قبلنا رأي « دارمستتر » القائل بأن الميدية هي نفس اللغة الأفستية[1]، أو أخذنا برأي « ابر » الذي يقول إن الميدية هي اللغة التي احتلّت المرتبة الثانية بين اللغات الثلاثة التي استغلّت في نقوش العصر الهخامنشي (المرتبة الثانية بين الفارسية القديمة والترجمة الآشورية) . ويغلب على الظن أن تكون لها قرابة وثيقة بالفارسية القديمة .

ويبدو من مجموعة الكلمات التي حفظها لنا هيرودوت Herodotus وأمثاله أن أصول بعض اللهجات الحديثة الفارسية وجذورها ربما تكون ميدية هي الأخرى .

الأفستية :

لغة الأفستا ، ويسمونها خطأ (الزند) . وقد يسمونها (البلخية القديمة) وهي تسمية غير مقبولة إلى حدٍ كبير ؛ لأن هناك احتمالين متساويين في القوة . أولهما أن يكون مسقط رأس لغة الأفستا هو اتروپاتن Atropatene (آذربايجان) أي الشمال الغربي ، وثانيهما أن يكون مسقط رأسها بلخ القديمة Bactria أي الشمال الشرقي . هذا والأفستا وحدها هي التي كتبت بهذه اللغة .

وقد استخدمت لهجة أخرى مهجورة في إنشاد قسم من الأناشيد القديمة المعروفة باسم (الكاتها) وهي لهجة أقدم بكثير من اللهجة التي استخدمت في سائر أقسام الكتاب .

وللغة الأفستية حروف خاصة تستعمل في الكتابة ، وهذه الحروف مشتقّة من الخط البهلوي لكنّها تنطوي على ميزات أكثر .

ولو درسنا وتتبّعنا أصل كلمة أوستا بمختلف أشكالها لبعدنا عن العصر

(١) تعليق المترجم : يرى تقي زاده أن آراء كل من دارمستتر وأبر أصبحت الآن باطلة ومرفوضة تماماً .

الساساني ؛ لأنه طبقاً لرأي اپر Oppert فإن كلمة ايستا Abstam التي وردت في نقش داريوش الكائن في بيستون (العمود الرابع ـ السطر ٦٤) كان المقصود بها [123 الأفستا . وقد وردت في البهلوية « أوستاك » Avistak (وضبطها دارمستتر ايستاك Apastak) . كما وردت في السريانية « ايستاگا »Apastaga ، وفي العربية ابستاق (بفتح الحرفين الأول والثاني) .

ويميل اندرياس Andreas إلى الإعتقاد بأن الأفستا مشتقة من كلمة اوپستا Upsata الفارسية القديمة (وهي تعني المساعدة والرعاية والمحافظة) ، وهو بذلك يجعل معناها (المتن الأساسي) . وعلى أي حال فإن ذلك هو نفس معنى (أوستا وزند) ، وقد نشأ اللفظ المركب (زند أوستا) ـ الذي تسبب في التضليل والخطأ ـ نتيجة الإعتقاد بصحة الإصطلاح القائل بأن : (الأوستا) هي المتن الأصلي لكتاب زردشت المقدس ، و(الزنـد) هي ترجمة الأفستا وتفسيرها وتوضيحها باللغة البهلوية . ويأتي التفسير والتوضيح عادة بعد المتن ؛ لهذا فإنه إذا أشير إلى (لغة الزند) فالمقصود هو نفس اللغة التي ترجمت إليها الأوستا وشرحت بها . . يعني اللغة البهلوية . لكنه نظراً لأن الدارسين في أوروبا لم يفهموا المصطلحات فهماً صحيحاً فقد أطلقوا لفظ الزند على لغة الأفستا الأصلية . لهذا فإنه من الأفضل أن يستبعد إصطلاح « لغة الزند »[1]

الفارسية القديمة :

إصطلاح يدلُّ على لغة فارس القديمة . وهي نفس لغة النقوش الهخامنشية الرسمية . ولا مراء في أن داريوش وخشايارشا وملوك الأسرة المذكورة كانـوا يتحدَّثون هذه اللغة التي عرفناها عن طريق النقوش فقط .

---

(١) تعليق المترجم : يقول بارشاطر : « لقد ثبت بطلان هذا الإصطلاح ، ولم يعد يستعمل اليوم فعلاً » .

[124] اللغة البهلوية :

اللغة البهلوية على النحو الذي بينه السهاوزن Olshausen تعني تماماً اللغة البارثية ، فإنه كما صارت الكلمتان القديمتان (ميترا) ، (چيترا) .Mithra Chitra (مهر) ، (چهر) ، فإن لفظ (پرتو) أيضاً Parthava ـ الذي هو (پارت) بالفارسية القديمة ـ قد مرَّ بمراحل عدة ، وأخذ أشكالاً وصوراً متقاربة أمثال (پرهو) Parhav وو (پلهو) Palhav و (پهلو)Pahlav

والرسم العربي لهذه الكلمة هو (فهلو) ، وهو الإسم الذي يطلقه الجغرافيّون العرب على الأقسام الوسطى والغربية من إيران ، وتشتمل على المدن : أصفهان والري وهمدان ونهاوند وقسم من آذربيجان . وما ورد في المصادر الايرانية عن البارثيين قليل إلى حد أنه لا يكفي لإثبات ما إذا كان البارثيون ينحدرون من عنصر إيراني أو توراني[1] .

وما ورد عن البارثيين من أخبار ـ في أساطير إيران القومية ـ قليل . . حتى أن ما كتبه الفردوسي عنهم لم يتعدَّ صفحة واحدة من صفحات الشاهنامة (يطلق الفردوسي عليهم فيها اسم ملوك الطوائف ، ويعتبرهم قوماً همجيين غير متعلمين ، ويرى أنهم لا يستحقون أن يُكتب حولهم أو يُذكر شيء عنهم) .

ويدّعي الساسانيون أن إحياء الدين القومي ـ الذي كان قد مُحِق على يد الإسكندر ـ قد تمّ بفضل مساعي البارثيين وجهودهم . ويؤيد ادعاءهم ـ إلى حدٍ ما ـ الخطوط اليونانية التي على العملات ، والتي يرجع زمنها إلى أوائل عهد البارثيين . إذ يلاحظ على وجه المسكوكات المذكورة وجود عبارة (محب اليونان) . . وهذا لقب ارتضاه الملوك البارثيون ومنحوه لأنفسهم .

---

(١) تعليق المترجم : « لا يوجد اليوم أدنى شك في كون البارثيين من أصل إيراني . كما أنه ليس هناك أساس علمي للاصطلاح (توراني) . ويغلب على الظن أن التورانيين الذين ورد ذكرهم في الشاهنامة ينحدرون من طوائف إيرانية . أما إذا كان الهدف هو نسبة البارثيين إلى الترك فإن هذا خطأ محض » .

هذا وقد كان اسم پهلو Pahlava معروفاً في الهند ، وما زال يستخدم في إيران حتى اليوم . وكلمة (پهلوان) صفة تتداولها الألسن أثناء الكلام عن الأبطال القدامى ، والحديث حول المحاربين الأقوياء . غير أنه عند الحديث عن البهلوية يكون المقصود بها هو اللغة البهلوية . فالحق أن مدلول هذا اللفظ في إيران أقل بكثير من مدلوله في أوروبا . لأن إطلاق اللفظ المذكور ـ في أوروبا بصفة عامة ـ ينحصر في لغة العصر الساساني والفارسية الوسيطة التي كانت تكتب مع العنصر الأرامي والهزوارش . . بخط خاص بها .

أما اللغة البهلوية التي استخدمها ملوك شاهنامة الفردوسي وأبطالها في خطاباتهم فلا يعرف كنهها على وجه التحديد ، ولا يمكن القطع برأي في شأنها . وكذلك الحال بالنسبة لصيحات الجنود البهلوية التي ورد ذكرها في غزليات حافظ وأشعار الخيام ، والفهلويات أو الأشعار ذات اللهجات المختلفة التي نقلتها المؤلفات الفارسية الكثيرة ، واللغة البهلوية التي كانوا يتكلّمونها في أنحاء مختلفة من بلاد إيران . . وخاصة في الشمال الغربي كما يؤكد لنا حمد الله مستوفي القزويني المؤرّخ والجغرافي المعروف (.ق ١٤ م) .

وبناء على رواية الفردوسي[١] ، فإن طهمورث مقيّد الشياطين (ديوبند) هو الشخص الأول بين البشر الذي لم يكتف باستخدام لغة واحدة في الكتابة وإنما استخدم ٣٠ لغة تقريباً ، منها اليونانية (الرومية) والعربية والفارسية والهندية والصينية والبهلوية . . حتى لقد كان يكتب كل ما تلتقطه أذناه[٢] .

---

(١) أنظر الشاهنامة طبع ماكان ، المجلد الأول ص ١٨ .

(٢) تعليق المترجم : يفهم ذلك من أشعار الفردوسي (الشاهنامة ، المجلد الأول ، ص ٢٢ ، طبع بروخيم) التي كتبها حول سلطنة طهمورث . وقد طبع هذا المجلد بمساعدة مجتبي مينوى ، كما طبع المجلد الثاني والمجلد الثالث والمجلد الرابع والمجلد الخامس بتصحيح عباس إقبال . وقام سعيد نفيسي بتصحيح المجلدات الثلاثة التي تصل بالشاهنامة إلى نهايتها ، وذلك بمناسبة العيد الألفي للفردوسي فيما بين ١٣١٣ ـ ١٣١٥ هـ .ش .

وطهمورث هو والد جمشيد الذي جاء اسمه في الأفستا على هذه الصورة
[126] (يمه) أو (يما) Yima ، وفي الكتب الهندية (يمه) Yama وهو شخصية أسطورية تماماً عرفتها الأساطير الهندوإيرانية . أي أنها تنتمي إلى أقدم الأزمنة الآرية التي عرفها الوجود قبل أن يتمّ الفصل بين اللغة الأفستية أو الفارسية القديمة وبين اللغة الآرية الأصلية بزمن طويل . . ويصل بنا هذا إلى الفارسية الوسيطة .

ومن ناحية أخرى ، فإن الكاتب حمد الله مستوفي قزويني . . حين يذكر أن القوم في القرية الفلانية يتكلّمون اللغة البهلوية . . لا يهدف من وراء كلامه سوى تسجيل إجابة أدلى بها أحد القرويين من أهالي قهرود[1] حين سأله الكاتب : « بأي لهجة يتكلم القهروديون ؟ » فأجابه : « الفارسية القديمة » .

ويرى الإيرانيون أنفسهم (باستثناء الزردشتيين) أن كلمة پهلوي ليس لها معنى أدق من ذلك ، غير أن هذه الكلمة لها في هذا الكتاب مفهوم آخر . لقد استخدم هنا لفظ پهلوي بالمعنى الأخص للكلمة ، وهو الفارسيّة المتوسّطة أو الفارسيّة الساسانيّة .

[127] ونسبة اللغة البهلوية لبارث لا تتعدّى النسبة التي تلاحظ بين أقدم الآثار البهلوية الموجودة في عملات عبد زهر والعملات السابقة على بارث في القرنين

النص الفارسي :

نبشتس بخسرو بياموختند دلش رابدانش برافروختند
نبشتن يكي نه كه نزديك سي چه رومي چه تازي وچه پارسي
چه سغدي چه چيني وچه پهلوي نگاريدن آن كجا بشنوي

الترجمة :

- علمّوا الملك الكتابة ، وأضاؤوا بالعلم قلبه .
- ولم يكن ما تعلّمه قاصراً على خط واحد . . بل كان ما يقرب من ٣٠ خطاً ، منها الرومي والعربي والفارسي . .
- والسغدي والصيني والبهلوي . . وكان يكتبها بمجرد سماعها .

(١) تقع قهرود في منطقة جبلية على بعد منزل من جنوب كاشان .

الثالث والرابع قبل الميلاد[1] .

تحدثنا قبل ذلك عن الهزوارش Huzvarish أو الزوارشن Zawarishn أو الزوارش . . إلاّ أنّ مادة إشتقاق هذه الكلمة مازالت موضع شك . ويرجع ذلك إلى أن الاشتقاقات قد ذكرت دون ترو ودراسة كافية وتمحيص وموازنة .

فها نحن نجد دستور هوشنگ جي - على سبيل المثال - يقول إنها مشتقّة من هزوان آسور Huzvan - Asur ومعناها بالعربية لغة آشور . بينما يعتقد درنبورگ Derenbourg أنها مشتّقة من هاسورس ha Sursi بمعنى « هذا سرياني » . غير أن هاوج Haug يفصّل الأمر قائلاً إنه اسم فعل مشتق من المصدر زواريدن (بضم أوّله) ، بمعنى قديم ومهجور ، أو مشتق من فعل مشابه . . يرى دارمستتر أنه فعل قديم مهجور لكنه باق بمفهومه الأصلي في اللغة العربية ، وهو الفعل (زوّر) (من المصدر تزوير) و(زوّر) بمعنى أخفى ، حرّف ، لفّق ، خدع ، خدَع ، اغفل . . ونحن نرجّح صحّة هذا التفسير أكثر من سواه .

وفيما يتعلّق بالكتابة الخطيّة فإنهم حين يكتبون - على سبيل المثال - ائتون يملونت ايغ Aètûno Yemalelûntaigh فإنهم يقرأونها اتون گويندكو ètûn goyand ku (وهي نفس پازند التي تقرأ مكان الهزوارش التي تقابلها في الفارسية) . لهذا فإننا - من باب الإنصاف - لا نملك إلا أن نقول إن تزوير الموضوع معناه إخفاء الكلام أو تحريفه .

[12 وكما أن الزند يعني تفسير متن الأفستا باللغة البهلوية ، فإن البازند (- بي تي - زين تي) Paiti-Zainti هو أيضاً توضيح يد للمتن البهلوي وتفسير جديد له . فهم ينقلون المتون البهلوية بحروف أقل غموضاً وإبهاماً من حروف الخط

---

(١) أنظر رسالة هاوج Haug ص ٣٠ - ٣١ ، ومقالة وست West الخاصة بالأدب البهلوي ، وذلك في الجزء الثاني من كتاب أساس فقة اللغة الايراني ص ٧٥ .
Geiger und Kuhn, Grundriss der Iranischen Philologie

تعليق المترجم : يذكر تقي زاده أن العصر البارتي لم يكن حتى القرن الرابع الميلادي قد بدأ بعد .

البهلوي . وحيثما وجدوا الكلمات الهزوارشية وضعوا مكانها كلمات فارسية صحيحة تعادلها في المعنى . وحينما يستخدمون الحروف الأوستية في نقل النصوص يكون « البازند » نتيجة عملهم . وحينما يستخدمون الحروف الفارسية (أي الأبجدية العربية) ينتج عن عملهم ما يسمّونه غالباً (الفارسية) .

وعلى أية حال فسواء أكان ما نتج هو (البازند) أو (الفارسية) . . فقد نسخ الفارسي الحديث هذا وذاك معاً وصيرهما باليين عتيقين . ونعني بالفارسي الحديث أو الفارسية الحديثة تلك الفارسية التي استخدمت بعد الإسلام ، والتي اختفى منها العنصر الآرامي تماماً . ولا يمكننا لسوء الحظ ، أن نعتمد كثيراً على صحة النقاط الفرعية . . نظراً للنقص الموجود في الرواية الفارسية . وفي يدنا نسخ خطيّة لعدد من الكتب أمثال مينوى خرد[1] . . بعضها بالخط البهلوي وبعضها بالبازند أو الفارسي ، لكن جميع النصوص الأصلية للبازند تعود بالتالي إلى الأصل البهلوي ، إذ لم يكن هناك شعور بالحاجة إلى شرح جديد . . إلى أن نسيت ـ رويداً رويداً ـ ماهية البهلوية الحقيقية نتيجة عدم استعمالها ، وطول مدة هجرانها ، واندثار علماء البهلوية تقريباً . .

[129] الفارسية الحديثة :

عندما نتحدّث عن الفارسية الحديثة أو الفارسية بعبارة أبسط ، فإنا نقصد الفارسية التي ساد استعمالها بعد الإسلام ، والتي تكتب بحروف عربية .

والفارسية القديمة في العصر الهخامنشي ، والفارسية الوسيطة في العصر الساساني ، والفارسية الحديثة في العصر الإسلامي . . إصطلاحات تناظر تماماً

---

(١) أعد اندره اس Andreas طبعة حجرية للنص البهلوي لمينوى خرد في كيل Kiel في عام ١٨٨٢ م . وقد طبع وست West النسخة في اشتوتجارت Stuttgart عام ١٨٧١ م بعد أن نقلت إلى البازند مستعملاً الحروف الرومية ـ وهي نفس حروف الكتابة المعهودة ـ مقترنة بالترجمة السنسكريتية والإنجليزية ، وثبت بمفرداتها .

الإنجليزية القديمة لدى الأنجلو سكسون والإنجليزية الوسيطة والإنجليزية الحديثة . . وهي التي تمثل المراحل المختلفة لمسيرة لغتنا في طريق التكامل . وإذا جعلنا هذا المعنى في إعتبارنا ، أمكننا بسهولة أن نسمّي لغة الشعراء أمثال الرودكي ـ ممن كانوا يعيشون منذ ألف علم تقريباً ـ بالفارسية الحديثة .

وبنفس القياس ، يمكننا أن نقول إن شكسبير Shakespeare قد كتب آثاره بالإنجليزية الحديثة . أما إذا كان إطلاق تسمية « الفارسية الحديثة » على لغة تعود إلى القرن التاسع الميلادي أمراً غير مرغوب فيه فإنا نقترح أن تسمى « الفارسية الإسلامية » ، وإن كان هذا العنوان بدوره قابلاً للنقد .

وقد أشرنا من قبل إلى أن التغييرات التي تعرّضت لها هذه اللغة خلال عشرة قرون تقل عن التغييرات التي تعرضت لها اللغة الإنجليزية خلال ثلاثة قرون . هذا ، وتنحصر الكلمات المهجورة في الكتابات التي أُلفت قبل فتنة المغول في القرن الثالث عشر بصفة خاصة .

لهجات إيران :

قبل أن ننهي فصلنا هذا يلزمنا أن نضيف بضع كلمات تتعلّق باللهجات الفارسية الحديثة . وقد تحدّثنا مراراً حول هذا الموضوع في كتابنا هذا ، وأوردنا بعض الإشارات . . ونقصد باللهجات ما يرتبط منها بإيران نفسها وينحصر فيها ، فنحن لا نقصد اللغات الإيرانية الهامة التي يتحدّثونها في أفغانستان وبلوخستان وكردستان وپامير ، ولا نقصد اللغة الأستية (بضم الأول وكسر الثاني)Ossetic [13] التي هي لغة قسم من أهالي قوقاز الوسطى ، الذين يحتمل أن يكونوا قد هاجروا من إيران إلى ذلك المكان ، ويمكن الرجوع في ذلك إلى الدراسات الشاملة الواردة في القسم الأخير من المجلد الأول من الكتاب القيّم (أساس فقه اللغة الإيرانية)[1] . . وقد سبقت الإشارة إليه أكثر من مرّة .

(1) Geiger und Kuhn: Grundriss der Iranischen Philologie

ورغـــم ما عانـاه برزين Berésine ودرن Dorn وزلمن Solemann وجوكوفشــكي ـ على الأخص ـ في روسيا (Zhukovski) ، وجايجــر Geiger وزوســين Socin ، وهوبشمــن Hübschmann ، وهوتـوم شيندلــر ـ Houtum Schindler في ألمانيا ، وهوار Huart ، وكري Querry في فرنسا ، وما عانيته أنا بنسبة أقل كثيراً في إنجلترا . . فإن ما بقي من أعمال في هذا المجال ، وما يجب أن يُنجَز ، يفوق غيره في أي شعبة من شعب علوم اللغة الفارسية .

ويمكن دراسة هذه اللهجات عن طريق الحوار والكلام في المنطقة التي تسود فيهـا اللهجـة (كما فعـل درن في مازنــدران وجيلان ، وجوكوفشــكي في إيران الوسطى ـ خاصة في كاشان وأصفهان ـ وزوسين في كردستان ، وهوتوم شيندلر في يزد وكرمان . . . وغيرهم) . أو يمكن دراستهـا عن طريق الآثـار القليلـة التـي بقيـت ، والتي تزيد كثيراً عما يتصوّره البعض . وعندما تفهم هذه اللهجات فهماً جيداً ، سوف تتضـح ولا شك كثـير من الأمـور الغامضـة المتّصلـة بفقـه اللغـة الإيرانية . ومن أشهر الشعراء الذين أنشدوا شعرهم بلهجة خاصة إثنان هما :

١ ـ الأمـير بازواري (الـذي نشر درن أشعـاره) ، وقــد قال شعــره باللهجــة المازندرانية .

٢ ـ بابا طاهر العريان ، وقد أنشد رباعياته باللهجة الهمدانية أو بلهجة لرستان . . على خلاف في ذلك .

[131] وقد جرت رباعياته على الألسن في كثير من بقاع إيران ، وقام هوار بنشرها عام ١٨٨٥ م في المجلة الأسيوية Journal Asiatique مصحوبة بترجمـة فرنسية ، وأطلق على بابا طاهر لقب برنز إيران[1] .

ولا شك أن قدراً كبيراً من شعبية بابا طاهر يرجع إلى بساطة أفكاره وقرب لهجته من الفارسية السليمة وسلاسة كلامه وحلاوة لفظه وسهولـة الأوزان التـي

(١) روبرت برنز Robert Burns (١٧٥٩ ـ ١٧٩٦ م) ، شاعر معروف من شعراء اسكتلندا .

ينظم فيها ، واتحاد البحر الذي يستخدمه في الشكل (بحر الهزج المسدس المحذوف ، حيث يحذف المقطع الهجائي الأخير في المصراع على النحو التالي :

U--- — U--- — UU ـ/ وقد تكرّر أربع مرّات في الرباعي .

وهذه ثلاث رباعيات من أفضل رباعياته :

چه خوش بي مهربوني ازدو سربي
كه يك سر مهربوني درد سربي !
اگر مجنون دل شوريده اي داشت
دل ليلي ازاو شوريده تربي !

وهذا الرباعي يشتمل على كلمات كانت تؤدي فقط بلهجة إحدى الولايات ، وأولى هذه الكلمات كلمة (بي) ومعناها (بود) ، وثانيتها (مهربوني) التي تلفظ على هذا النحو في معظم اللهجات ، ومازالت تستعمل إلى اليوم في المحادثات الفارسية المتداولة . . خاصة بين أهالي جنوب إيران الذين يقولون (مهربوني) بدلاً من (مهرباني) .

(٢)

مگر شير وبلنگي اي دل اي دل
بمو دائم بجنگي اي دل اي د ل !
اگردستم فتي خونت وريژم
وونيم تاچه رنگي اي دل اي د ل !

وفي هذا الرباعي جاءت (بمو) مكان (بما) ، ووردت الكلمات : (دستم) و(وريژم) و(وينم) (مع ضم حرف ما قبل الآخر في كل كلمة) مكان الكلمات (دستم) و(بريزم) و(به بينم) (مع فتح حرف ما قبل الآخر في كل كلمة) .

[13

وشم واشم ارين غانم بدر شم
وشم ازچين وماچين دير ترشم !
وشم ازحاجيان حج بپرسم
كه اي ديري بسه يادير ترشم !

وهنا استعملت كلمة (وشم) ، بضم الشين بدلاً من (بشوم) ، و(واشم) بضم الشين بدلاً من (باشم) أو (بازشوم) ، و(ديرتر) بدلاً من (دور تر) و(اي) بدلاً من (اين) ، (بسه) بدلاً من (بس است)

وفضلاً عن هذا فإن الكثير من الشعراء المشهورين أمثال سعدي وحافظ وبندار أو البندار الرازي وأبي إسحق - ممن اشتهروا في شيراز ببلاغتهم وجودة أشعارهم ، وغير هؤلاء من ذَكَرْتُ أسماءهم في مقالة نشرتُها في مجلة الجمعية الملكية الأسيوية Royal Asiatic Society's Journal في علم ١٨٩٥ م ، بالصفحات من ٧٧٣ إلى ٨٢٥ (وتدور المقالة حول الشعر واللهجات الفارسية) . . قد صاغوا في بعض الأحيان أشعاراً بلهجات الولايات المختلفة . غير أننا إذا استثنينا أفضل النسخ الخطّية وأقدمها . . وجدنا أن النصوص التي بين أيدينا قد حُرِّفت وبنيت على نحو لا يمكُننا من فهم شيء منها .

وهناك نسخة خطية قديمة بالغة الجودة وضعت في علم ٦٣٥ هـ لمؤلّف فارسي فريد في تاريخ السلاجقة عنوانه « راحة الصدور » . . . في تواريخ سلاطين آل سلجوق . والمؤلّف هو نجم الدين أبو بكر محمد بن علي بن سليمان بن محمد بن أحمد بن الحسن بن همت الراوندي .

[133] وتوجد هذه النسخة الآن في مكتبة المرحوم شارل شفر Charles Schefer وتشتمل على فهلويات أو أشعار عديدة بلهجات الولايات . ومن قراءتي الإجمالية للنسخة المذكورة تبينَّ لي أن الكتاب يستحق الدراسة الدقيقة لتحقيق تاريخ النسخة الخطيَّة والتأكد من صحة النص رغم صعوبة الأشعار .

وفي الشرح الذي وضعه حمد الله المستوفى لأحوال تسعة وثمانين شاعرا (تاريخ گزيده ، الفصل السادس ، الباب الخامس) . . وردت أسماء الأشخاص التالية أسماؤهم ضمن من نظموا الشعر بلهجات الولايات (وقد وضعتُ نجمة أمام اسم كل شاعر نُقِل شعره) :

* أبو المجد رايگاني القزويني (أواخر القرن الثالث عشر) ، أميركيا القزويني ،

* أتانج رنجاني (ريحاني) ، بندار أو بندار الرازي ،* جولاهه ابهرى ،

* عز الدين الهمداني ، كافي الكرجي (القرن الثالث عشر الميلادي) .

ويقول ناصر خسرو الشاعر الرحالة داعية فرقة الاسماعيلية الشهير (كتاب سفرنامه ، طبع باريس علم ١٨٨١ م مصحوباً بترجمة بقلم شيفر ، صفحة ٨) أنه في سفرته إلى الغرب علم ١٠٤٦ م كان قطران التبريزي الشاعر يسأله عن معاني بعض أشعار الشاعر فيجيك التي نظمها بلهجات الولاية .

وبناء على ذلك ، يكون في يدنا الدليل القاطع الذي نثبت به ما ندَّعيه من أن أشعاراً قد نظمت بلهجات الولايات في إيران منذ القرن الحادي عشر ، وما زالت تنظم إلى يومنا هذا .

وفي معجم (لغت فرس) لأسدى (وهو من مؤلفات القرن الحادي عشر الميلادي ، طبعة پاول هرن بناء على نسخة الفاتيكان الخطية النادرة في برلين علم ١٨٩٧) نقلت أشعار في أكثر من موضع بلهجات الولايات أطلق عليها كالعادة (پهلوية) .

[13] ومن بين الكتب النثرية التي كتبت بلهجة إحدى الولايات . . يشتهر كتابان أكثر من غيرهما ، وهما مخالفان لأصول العقائد المذهبية العامة . أول الكتابين جاويدان الكبير ، وهو أحد الكتب الأساسية لفرقة الحروفية التي ظهرت في عهد تيمورلنگ (القرن الرابع عشر الميلادي) ، وقد كتب قسم منه بلهجة ولاية غرب

إيران[1] . والثاني : ثورة البابية في مازندران ، وقد كتب علم ١٨٤٩ م بلهجة تلك الولاية . وقد نشره درن بعد ترجمته ، في المجلد الخامس من المجموعة الأسيوية[2] (طبع سان بترسبورج علم ١٨٦٦ م ، الصفحات ٣٧٧ وما بعدها) .

فهرست أهم اللهجات :

أشهر اللهجات الفارسية وأكثرها شيوعاً اليوم : المازندرانية والميلانية والطالشية في الشمال ، والسمنانية في الشمال الشرقي ، والكاشانية والقهرودية والنائينية في النواحي الوسطى ، واللهجة المجوسية الغريبة الخاصة بالزردشتيين من سكان يزد وكرمان ورفسنجان وغيرها ، ولهجة سيوند في الجنوب ، ولهجة لري في لرستان وبهبهان (ويوجد في هذه الناحية شاعر يسمى رضا قليخان) ، واللهجة الكردية في كردستان بغرب إيران ، كما يوجد كثير من اللهجات غير ما ذكرنا وذلك في أماكن بعيدة عن الطريق . . بعضها مجهول للأوربيين تماماً .

ومن اللهجات التي لم تدرس دراسة كافية إلى الآن . . اللهجة البختيارية في الغرب والسيستانية في الشرق ، وهي تحتاج إلى قدر أكبر من الاهتمام[3]

---

(١) أنظر الفهرست الذي وضعه المؤلف (براون) بناء على النسخة الخطيَّة الموجودة بمكتبة جامعة كمبريدج (الصفحات ٦٩ ـ ٨٦) ، وأنظر مقالته في مجلة الجمعية الأسيوية في يناير سنة ١٨٩٨ م (الصفحات ٦٩ ـ ٩٤) حول المؤلفات التي تتحدث عن عقائد فرقة الحروفية وأصولها .

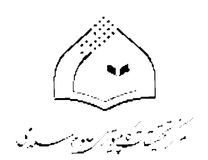
(٢) Mélanges Asiatiques (St. Petersburg. 1866).

(٣) فيما يتعلق باللهجات الايرانية الرائجة حالياً داخل إيران أو خارجها ، يقول الدكتور يارشاطر انه توجد كثير من الدراسات التي تمت منذ تأليف الكتاب إلى وقتنا هذا . وللاطلاع على مصادر هذه الدراسات ، يمكن الرجوع إلى :
W.B. Henning, Bibliography of Important Studies on Old Iranian Subjects (Tehran, 1950).

[135]

الفصل الثالث

أدب الإيرانيين قبل الإسلام مع شرح مختصر من أساطير الشاهنامه



135] قد يبدو للوهلة الأولى أنَّ الكتاب الذي يريد أن يبحث بجديَّة في تاريخ أدب شعب ما عليه أن يهتم ـ بنسب متساوية قدر الإمكان ـ بكل عصر من عصور هذا الشعب وبكل مظهر من مظاهر نبوغه ، غير أن هذا الموضوع يمكن أن يتحقق فيما يتعلّق بإيران في حالة واحدة فقط ، هي أن يعمل فريق من العلماء المتخصصين جنباً إلى جنب . . كما حدث بالنسبة للكتاب القيِّم الذي وضعه عالمان ألمانيان[1] في علم اللغة الإيرانية . . والذي أشرنا إليه مراراً .

وقد يتحقق إذا وجد مثل هذا العمل العلمي الفني شخصاً تجتمع فيه كل ألوان الكمال والفضائل التي يندر اجتماعها في فرد واحد .

وطبقاً لتقسيمات علم اللغة ـ التي أشرنا اليها ـ فإن للأدب الذي نبحثه أربع مراحل متمايزة ، يمكن اعتبار كل منها مرحلة من مراحل (الفارسية) .

١) النقوش الفارسية القديمة ، بالخط المسماري ، في عهد ملوك الهخامنشيين .

٢) الأفستا (ما بقى في أيدينا من الأفستا) ملحقاً بها الگاتها (أقدم أجزائها) وقد كتبت بلهجة أخرى مختلفة . . أكثر قِدَما . . قد هُجرت أكثر من سابقتها . . ويعتقد الكثيرون أنها ترتبط بعهد زردشت .

٣) الأدب البهلوي ، مصحوباً بنقوش العصر الساساني .

٤) الأدب بعد الإسلام أو (الفارسي الحديث) الذي يرتبط بالأعوام الألف الأخيرة ، وهو وحده الذي يسمى عادة بالأدب الفارسي .

136] وبناء على ما قدمناه من براهين في الفصل الأول من كتابنا هذا (ص ٩ ،

1. Geiger und Kuhn, Grundriss der Iranischen Philologie.

١٠) يمكننا أن نضيف إلى هذا التقسيم قسماً كبيراً من الأدب العربي الذي هو وليد الفكر والقلم الايراني .

وفيما يتعلق باللغات الثلاثة وبالأدب الفارسي الموغل في القدم . . أستطيع أن أحكم بأن دراساتي سطحية لا جديد فيها لأن فرع الفارسية الحديثة واسع إلى حد يجعل أقوى العقول البشرية في حاجة إلى عمر كامل لاستيعاب محتوياته .

وأقسام الأدب الايراني الأخرى متمايزة تماماً ، ودارسو تلك الفروع يجب أن يتصفوا بصفات وأن تتحقق لهم شروط تختلف تماماً عن صفات وشروط من يتصدون لدراسة ذاك الفرع . وعلى من يريد تعلُّم الفارسية القديمة والأفستائية أن يعرف السنسكريتية معرفة تامة ، ويأتي علم العربية والإلهيات الإسلامية ونظائرها في الدرجة الثانية من الأهمية . كما أنه لدراسة الفارسية القديمة . . يجب معرفة الآشورية ، ولتعلم اللغة الأفستية يجب تعلم البهلوية . ولا يمكن تعلُّم البهلوية دون أن يكون قارئها متبحّراً تماماً في اللغات الآرامية ـ خاصة السريانية والكلدانية ـ لكي يؤتى تعبه الثمرة المرجوّة .

ولما كان لزاماً على الكاتب ويلزمه حفظاً لمقامه أن يكون ذا اطلاع مباشر على الموضوعات التي يطرقها ، ولما كانت دراساتي حول اللغات وحول الأدب في الفترة السابقة على الإسلام مستقاة فقط من آثار المتخصصين (ورغم أنّي أميل إلى معرفة الكثير عن شعب إيران وأود مخلصاً أن أكمل معلوماتي حول إيران) فإني ـ إذا لم تتوفّر لي البراهين الكافية ـ ربما أضطر إلى تحديد نطاق كتابي ، وقصره على العصر التالي للإسلام . وسوف أفعل هذا عن طيب خاطر ، واعتقاداً مني بأني صالح لدراسة هذا العصر دون سواه .

[137] غير أنه كلما زادت دراسات الإنسان وغزرت معلوماته تنبّه إلى مدى التسلسل التاريخي وارتباط حبل أفكار الشعب بصورة تفوق ما كان يظن ويتخيَّل ، ورأى كيف أن الخطوط الفاصلة التي كانت واضحة جليّة لعينه ذات يوم قد باتت

ضعيفة لا تتناسب مع اتساع دائرة علمه وشمولها . لذا لم أستطع اقناع نفسي بتضييق دائرة الدراسة ، وتضليل القراء بفرض مثل تلك الحدود المصطنعة .

وقد بدأت دراساتي الشرقية بدراسة اللغة التركية ، لكنني سرعان ما هجرتها إلى الفارسية لأن الأتراك قد استعاروا معارفهم وأشكالهم الأدبية من الايرانيين .

ثم أدركت أنه ما من شخص يأمل في معرفة الفارسية معرفة جيدة بدون معرفة العربية وآدابها والوقوف على حضارة العرب وثقافتهم . إذ أنه بدون ذلك لن يعرف هذه اللغة إلاّ معرفة سطحية . كما فكّرت في أنه ربما كان انتصار العرب على إيران واعتناق معظم الايرانيين للدين الاسلامي سبباً مقنعاً لهذه الدراسات فقد كان هذا الحادث من الأهمية بحيث أوجد صفحة بيضاء قد محي كل ما خُطَّ عليها في الماضي . غير أنه بمرور الوقت بات معلوماً أن هذا تصور خاطيء تماماً ، وأصبح من المؤكد أن كثيراً من مظاهر الحضارة العباسية ـ المركّبة من عناصر عديدة لكنها مترابطة مختلطة مرتّبة ـ وكذلك التاريخ المذهبي في صدر الإسلام ، وكتاب الرسول العربي وتعليماته . . يمكن فهمها فقط بالنظر عبر نافذة تاريخ العصور السابقة[1] .

[1] وتجب العودة لا محالة من العصر الاسلامي إلى العصر الساساني ، ومن الساساني إلى عهد البارثيين ، ومن البارثيين إلى الهخامنشيين والميديين والآشوريين والآريين الأوائل . وإني لأجهل كل شيء عن العهد السابق على الآريين ، ولهذا أجدني مضطراً إلى ترديد قول الشاعر الايراني :

مر خردمند هنرپيشه را عمر دو بايست دراين روزگار
تا بيكى تجربه آموختن در ديگرى تجربه بردن بكار

والمعنى :

يلزم العاقل المجتهد عمران في هذا الزمان الفاني . .

(١) فيما يتعلق بنفوذ الطرق السياسية والمذهبية قبل الإسلام ، وفيما يتصل بحضارة الإسلام . . يجب أن تكون مؤلفات فن كرمر Von Kremer موضع اهتمامنا أكثر من غيرها ، خاصة مؤلفة الصغير :
Streifzuge auf dem Gebeite des Islams.

ليتعلّم التجربة في أحدهما ، ويحولها إلى عمل في العمر الثاني .

لهذا أجدني غير راغبٍ في التحدث في مسائل لست متبحراً فيها ، وأجدني غير متحمّس لنشر كتاب أعرف أنا نفسي أنه ناقص موجب للتضليل ، لأن هذا التصرف لا يطابق المفهوم الذي أروّجه فيما يتعلق بتاريخ أدب شعب من الشعوب ، وأكون بذلك قد ادّعيت ادعاء باطلاً ، ولا يكون البيان وحده فجاً في هذه الحالة بل يكون أصل الموضوع وأساس التفكير هو الآخر غير صحيح وغير سليم . لهذا قررت أن أشرح في هذا الفصل ـ وباختصار ـ رؤوس الموضوعات المتعلقة بالنقوش الهخامنشية وبالأفستا والآثار والأدب البهلوي والدين الزردشتي . كما قررت أن أبينَ ـ حتى لمن يتعاملون مع الفارسية الحديثة اكثر من غيرها ـ أي هذه الموضوعات يفضل غيره ويرجحه في الأهمية .

وسوف يكون بحثي حول العصر الساساني أكثر تفصيلاً ، كما سأبحث ضمناً في شئون البهلوية التي كانت في ذلك العهد لغة إيران الرسمية . . ذلك لأن البحث في هذا النطاق سوف يكشف عن جذور أشياء عديدة تلفت نظرنا في صدر الإسلام . ومن اليسير علينا أن نضع جسراً على طرفي الشق الفاصل بين العصر الساساني والعصر الإسلامي الأول ، لكن وضع مثل هذا الجسر بين العهد الساساني والعصور التالية أمر صعب للغاية ؛ لأن درجة أهمية تاريخ الأساطير لدى كل قوم تتساوى تقريباً من وجهة النظر الأدبية مع التاريخ الحقيقي لهؤلاء القوم .

وسوف أبحث في هذا الفصل أيضاً في ميدان البطولات الفارسية أو القصص الشعبية الإيرانية ، وسوف نرى أن هذا البحث يقترب مع بداية العهد الساساني فقط من التاريخ القومي الحقيقي .

بناء على هذا ينقسم هذا الفصل إلى أربعة أقسام ، هذا موجزها : الآثار الأدبية الهخامنشية ، والأفستا ، والأدب البهلوي ، قصص البطولات الشعبية الإيرانية .

السلسلة الهخامنشية أول سلسلة كبيرة من سلاسل ملوك إيران ، بدأت علم ٥٥٩ ق . م . على يد كورش وانتهت علم ٣٣٠ ق . م . بهزيمة دارا على يد الاسكندر ، ومصرعه الأليم على يد اثنين من قادته الخائنين هما بسوس Bessus وبرزنتس Bartzaentes . وكل معلوماتنا حول هذه الأسرة منقولة عن المؤرخين اليونانيين ، وخاصة هردوت Herodotus وكتزياس Ctesias وگزنوفون Xenophon (١) . والواقع أنه يمكن بلوغ بعض الحقائق ومعرفة بعض المعلومات عن الإيرانيين عن طريق ما ذكره اسكيلوس أو أخيلوس(٢) .

وسوف لا نتحدث أكثر من ذلك عن المصادر الأجنبية التي استفاد منها كثيراً كتّاب التاريخ الهخامنشي أمثال رالنسون Rawlinson واشبيجل Spiegel ويوستي Justi ، لأن تلك الكتب محلّ دراسة العلماء الكلاسيكيين(٣) ، لا المستشرقين .

وقد جاء في الترجمة القيّمة التي وضعها رالنسون لما قاله هيرودوت أن هناك شيئين يؤيدان صدق أقوال ذلك المؤرخ الكبير . .

أولهما : النقوش الكتابية الهخامنشية .

وثانيهما : الصفات التي جسّدها في كتابه بصورة حقيقية ، والتي تشبه الستارة المنقوشة التي تعكس الصفات الشعبية . والواقع أن كثيراً من النقاط [14 الخاصة بالنقوش الكتابية ـ التي لم تكن قد اتضحت في نظره ـ قد اتّضحت مبهماتها فيما بعد بفضل مساعداته . . كما يحدث مثلاً بالنسبة للكلمات التي ترد في السطور من ٨ إلى ١١ بالقسم الأول من نقش داريوش الكبير الكائن في بيستون :

« هكذا يقول الملك داريوش :

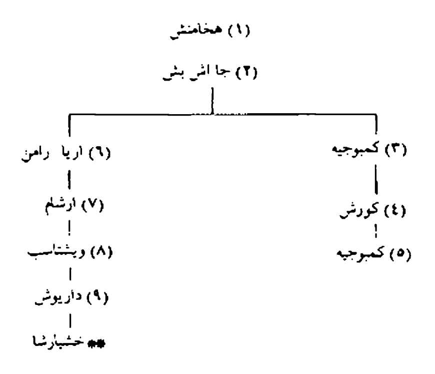
---

(١) Annabasis Cyropedia Agesialus

(٢) Aeschylus, Persae

(٣) في العصور السابقة ، بلغ الفن والأدب والصنعة لدى اليونان والروم يوماً أعلى مراحل الكمال . . فسميت تلك الأيام بالعصر الكلاسيكي .

من اسرتي تناسل ثمانية ملوك ، وكنت تاسعهم ، ونحن ملوك ننتمي إلى فرعين » إذ بملاحظة شجرة النسب التالية التي يمكن استخراجها مما قاله هيرودوت[1] يتضح مقصودنا :



[141] فالشائع أن كوروش (٥٥٩ ـ ٥٢٩ ق . م) أول ملك هخامنشي ، وأن ابنه كمبوجيه (٥٢٩ ـ ٥٢٢ ق .م) هو الملك الثاني ، أما داريوش (٥٢١ ـ ٤٨٥ ق . م) فهو الثالث . لكن داريوش نفسه يربط نسبة بهخامنش ، ويفعل نفس الشيء بالنسبة لثلاثة ملوك آخرين موجودين في سلسلة الهخامنشيين في الفرع الموازي . (واضح أن داريوش يرى أن كمبوجيه والد كورش وكمبوجيه بن كورش عضوان في تلك السلسلة) .

---

(١) Achaemenes
(٢) Teispes (Chaish Pich)
(٣) Cambyses (Kambujiya
(٤) Cyrus (Kurush)
(٥) Cambyses (kambujiya)
(٦) Ariaramnes (Ariyaramna)
(٧) Arsames (Arshama)
(٨) Hystaspes (Vishtaspa)
(٩) Darius (Darayavush)
** Xerxes (Khshayarsha)

ومن هذا يتَّضح أن معنى كلمة دوويتاثونم[1] هو : (في الفرعين) . وكان قد ترجم في السابق : (منذ زمن موغل في القدم) ، كما يتضح اتضاحاً تاماً معنى عبارة داريوش : (أنا التاسع) .

وأي سائح يرقب مناظر تخت جمشيد بدقة ويتجوَّل في أنحائها ، يدهشه أن يجد أن أقدم الكتابات قد نجت من لدغات الزمن إلى حد كبير . . بينما تصعب قراءة الكتابات التي دُوِّنت بعدها بمدة طويلة ؛ فالخطوط المسمارية الهخامنشية واضحة بدرجة يصعب معها تصوّر أن يكون النحّات قد فرغ من عمله منذ ما يقرب من ألفين وأربعمائة عام .

ومع أن النقوش الساسانية (البهلوية) قد حفرت بعد ذلك بسبعمائة وخمسين عاماً تقريباً فإنها بالنسبة للهخامنشية معتمة باهتة . أما النقوش الجديدة تماماً والتي كتبت بالفارسية الحديثة فكلها ممحوَّة تقريباً .

[14 وفي رأيي أن هذا نفسه نموذج لعصور ثلاثة ، لأن النقوش المذكورة تقدم تلك العصور وتصفها . . ويتضَّح ذلك في أسلوب النقوش الأدبي أيضاً . . فداريوش الكبير قانع بأن يسمّي نفسه « الملك الكبير ، ملك الملوك ، ملك إيران ، ملك البلاد ، ابن ويشتاسب ، حفيد ارشام (Arshama) الهخامنشي » .

ويرى شابور الساساني ـ في الكتابات البهلوية في حاجي آباد ـ أنه « سماوي (فوق البشر) وعابد لمزدا » . ويقول : « أنا ابن الملك ، ملك ملوك إيران وغير إيران ، من خلق الجنة ، من عند الله ، إبن الوجود السماوي وعابد مزدا ، أردشير (ارتخشتر Artakhshatr من خلق الجنة من عند الله ، حفيد بابك الملك الذي كان سماوياً هو الآخر ومن عند الله » .

---

(١) Duvitatanam يقول يار شاطر القراءة الصحيحة لهذه الكلمة هي : دويتابرنم Duvita Paranam ومعناها (واحدة بعد أخرى) وهذا المعنى يطابق المعنى العيلامي لتلك الكلمة ، وهو مرجَّح على المعنى السابق « في الفرعين » (كينك وتامسون وهرتسفلد) ، والمعنى السابق « منذ مدة » (نولدن) .
أنظر : Old Persian تأليف R.C. Kent صفحة ١١٧ ، العمود الأول من النقش ، السطر ١٥ .

وكل من يدرس الفارسية يصادف الكثير من الألقاب المطّاطة الخاوية التي كان صغار الحكام الإيرانيين يرونها ـ في العهود التالية على الإسلام ـ لازمة لطيب ذكرهم ورفعة أسمائهم . وسوف لا أؤذي مشاعر الآخرين بتكرار تلك المكررات الدالة على الغرور .

ولقد ذكرنا أن النقوش الهخامنشية يجب أن تعتبر جزءاً من المآثر التاريخية لا من الآثار الأدبية الفارسية القديمة . . غير أن الصراحة التي كتبت بها العبارات وما اتّسمت به من صدق وبساطة ومتانة تعطينا الحق في أن نعتبر هذه النقوش الحجرية ذات أسلوب أدبي حقيقي .

وهناك قسم من نقش داريوش الكبير في بيستون ـ أوردنا ترجمته في الصفحات من ٥١ إلى ٥٣ من كتابنا هذا ـ وهو يعدّ نموذجاً لما نعنيه . كما أن هناك نموذجاً آخر من قول الملك نفسه ننقله عن تخت جمشيد ، وهذه ترجمته :

[143] « الإله العظيم آهورمزدا هو الذي خلق هذه الأرض ، والذي خلق تلك السماء والذي خلق الإنسان ، والذي خلق السرور للناس ، والذي جعل داريوش ملكاً ، وجعله الملك الوحيد ومشرّع القانون الوحيد للعديد من أفراد البشر » .
« أنا داريوش ، الملك العظيم ، ملك الملوك ، ملك الأقاليم التي بها كل أنواع الجنس البشري ، ملك هذه الأرض منذ زمن بعيد ، إبن ويشتاسب الهخامنشي الفارسي ، إبن الفارسي ، الآري من عنصر الآريين » .

« يقول الملك داريوش الكبير : شاءت رغبة آهورمزدا أن أسيطر على البلاد التالية بالإضافة إلى فارس ، وأن أبسط فيها سلطاني ، وتؤدي لي الخراج ، وتنفّذ أي أمر يصدر إليها من جانبي ، وأن يكون قانوني بها محترماً نافذاً :

ماد ، سوسيانا ، پارت ، هرئيوا Haraiva (هرات) ، باختر (بلخ) ، سغد ، خوارزم (خيوه) ، درنگي ينه ، Drangiana ارخوزيا Arachosia ثت گوش (ستگيد) (satagydae) Thotaguch گندارهGandara ، هندوستان ،

هئــوم وركا سكاي تيگر خدا سكاي Hauma Varka ، Tigra Khuda Sacae
Sacae ، بابل ، آشور ، عربستان ، مصر ، أرمنستان ، كاپا دوكيه Cappadocia
اسبـاردا ، بلاد اليونـان ولاية السـكا عبـر البحـر The Sacae Across the sea
اسكودرا Skudra مملكة اليونانيين المتوّجين[1] ، پوتيا Putiyœ كوشيا Kushiya ،
مچيا Machiya ، كركا Karkas [2] .

[144 « يقول الملك داريوش : حـين رأى آهورمـزدا هذه المملـكة منحهـا لي ، وجعلني ملكاً ، أنا الملك ، قد نظمت البلاد وفقاً لمشيئة آهورمزدا ، وقام الناس بتنفيذ كل ما أمرتهم به وفقاً لإرادتي . إذا فكرت في أن تَعُدَّ الأقاليم التي بسط الملك دريوش نفوذه عليها . . فانظر إلى هذا الشكل ، إنهم يحملون عرشي ، ويمكنك أن تعرفهم عن هذا السبيل ، وسوف تعرف عندئذٍ أن حراب رجال فارس تبلـغ أماكن بعيدة ، ومنها ستعرف أن الفرس قد حاربوا بعيداً عن فارس » .

« يقول الملك داريوش : إن كل ما فعلته وفقاً لمشيئة آهورمزدا ، لقد قدم أهور مزدا لي العون ، فأنجزت العمل . ليحفظني آهور مزدا من . . . . ويحفظ أسرتي أيضاً ويحفظ هذه البلاد . . هذا ما أرجوه من آهور مزدا : ليقبل آهور مزدا مني هذا الرجاء » « أيها البشرى . . هذا أمر آهور مزدا إليك : لا تفكِّر في السوء ، لا تترك الطريق المستقيم ، لا ترتكب إثما » . .

وهناك نقطة غريبة تثير الاهتمام ترتبـط بنقشٍ هخـامنشي متأخـر (خـاص بأردشير الثالث Artaxerxes Ochus) (٣٣٦ - ٣٦١ ق . م) تدفعنا للتساؤل :

---

(١) The crown-wearing Ionians أعتقد أن هذا الراي موضع شك واعتراض وقد ذكر البروفسور كاول Professor Cowell في دراسته أن المقصود بالتاج هنا هو اللفظ اليوناني كروبولوس ، ومعناه خصلة كبيرة من الشعر مربوطة بسلسلة ذهبية . وكان لليونانيين مثل هذه الخصلة حتى عهد Thucydides

(٢) يقول د . پارشاطر : من هذه الولايات : سوسيانا شوش ودرنگي ينه زرنگ (سيستان) وارخوزيا رخج ، ومنها ثت گوش وگندار من ولايات سيستان الشرقية . وهناك ولايتان بعد هندوستان من أراضي السكا : سكاثيو هوم نوش (أوهوم ساز) وسكاثيو تيزخود . واسباردا هي سارد نفسها ، واسكود هي مقدونية (بناء على قول يوستي) . وپوتيا هي (بلاد نجور) وكوشيا (الحبشة) ومچيا (طرابلس) وكركا (كارتاژ) . . كلها ولايات أفريقية تابعة للامبراطورية الهخامنشية .

هل هناك ارتباط وثيق بين فساد لغةٍ ما وفساد عنصر من العناصر البشرية ؟ أو هل يوجد ـ على الأقل ـ انقياد عنصري مؤقت ؟

سمعت من العلماء الإنجليز أن اللغة الأنجلو سكسونية أو الإنجليزية القديمة لم تكن تكتب قبل حرب هيستنجز Hastings طبقاً لقواعد الصرف [145] والنحو ، وأن آخر مراحل الانحدار والانحطاط كان قبل هجوم النورمنديين وسيطرتهم .

انحطاط اللغة والدين في النقوش المتأخرة :

ولا شك أن هذا الموضوع يصدق على الفارسية القديمة على الأقل . . فنرى في النقش الذي أشرنا اليه أخطاء في تصريف الأسماء وحالات الإسم ، فمثلا (بوملم) تحل محل (بوميم)[*] بمعنى بوم أو زمين (أرض) . . في حالة المفعولية مع المفرد ، و (اسمانام) تحل محل (آسمانم)[1] بمعنى آسمان (السماء) . . في حالة المفعولية مع المفرد ، (شايتام) تحل محل (شياتيم)[2] بمعنى شادي (السرور) في حالة المفعولية مع المفرد ، (مرتى هيا) تحل محل (مرتيهيه)[3] بمعنى مردها (الرجال) . . في حالة المضاف إليه مع الجمع[4] خشايتيه[5] (بمعنى شاه في حالة الفاعلية بدلاً من حالة المفعولية مع المفرد) وقس على ذلك . وإلى جانب انحطاط اللغة ، ظهرت شواهد تدلّ على انحطاط الدين هو الآخر . . بمعنى أن آهورمزدا لم يعد مفرداً وحيداً في النقوش بل اقترنت به الآلهة الأخرى ، أمثال ميترا (مهر = خورشيد : الشمس)[6] ، وآنهيتا (ناهيد أو الزهرة ربة النوع . . ربة العشق والجمال) .

---

* Buman, Bumin.

(١) Asmanam, Asmanum

(٢) Shayatam, Shiyatim

(٣) Martihiya, martiyahya

(٤) تعليق المترجم : يرى د . پار شاطر : أن هذه صيغة الإضافة للمفرد .

(٥) Khshayathia

(٦) تعليق المترجم : يرى شاطر أن ميترا ليست في الأصل إلهة الشمس وإن يكن هذا المعنى قد فهم عنها بعد ذلك ، ويقول إن إله الشمس هو هور .

في الفصل الأول ، أوردنا إشارة حول المسائل المتعلقة بالأفستا ونشأتها وزمانها ومكانها ولغتها . ويؤسفنا أننا لا نجد إلى الآن إجابات دقيقة على هذه المسائل يمكننا أن نسلم بها ونبني عليها . فمقالة جلدنر[1] حول زردشت ، الواردة في الطبعة التاسعة من دائرة المعارف البريطانية (١٨٨٨ م) ، وترجمة الأفستا إلى الفرنسية بقلم دارمستتر[2] الواردة في المجلدات ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ في الكتاب التذكاري الذي أصدره متحف گيمه[3] . . مصداق لوجود رأيين متناقضين حول هذه القضية . فجلد نر يرى أن قسما واحدا من أقسام الأفستا على الأقل - هو الگاتها - يحتوي على تعاليم زردشت العملية أو تعاليم تلاميذه الذين كانوا يلازمونه . كما يرى أن مدينة بلخ كانت ميدان نشاطه ، ولغتها لغة تعاليمه وأن الشاه ويشتاسب (گشتاسب - هيستاسپس) الذي آمن بدينه وحماه . . لا وجود له في أي كتاب من كتب التواريخ . . ويجب أن تكون حياته سابقة على حياة كورش بفترة ، كما يجب أن يفرق بينه وبين وهيستاپس والد داريوش . ومن الممكن أن يكون عصره سابقا على ميلاد المسيح بألف سنة (طبقا لقول دونكر[5]) أو بألف وأربعمائة سنة (طبقا لقول گوتشميد) [6].

وطبقا لرأي دارمستتر ، فإن كتب العصر الهخامنشي الزردشتية المقدسة (بفرض وجودها) قد ضاعت جملة بعد حملة الإسكندر . وقد بدأ تدوين الأفستا - ويوجد قسم واحد منها في يدنا للآن - في القرن الأول الميلادي . . في عهد ڤولوجاس[7] أو فولوجاش أو بلاش الأول الأشكاني (٥١ - ٧٨ م) .

[147] وواصل القوم تدوينها في عهد الساسانيين ، في زمن شابور الثاني (٣٠٩ - ٣٧٩ م) ، وخضع القسم الأخير - أكثر من غيره - لتأثير العرفان من جانب أتباع

---

(١) Geldner
(٢) Darmesteter
(٣) Annalesdu Musée Guimet
(٤) Hystaspes
(٥) Duncker
(٦) Gutschmid
(٦) Vologeses

الإسكندر ، أو الفلسفة من جانب الأفلاطونيين الجدد . وقد ولد الدين الزردشتي في ماد فكانت له مهداً ، وكانت الميدية لغة تعاليمه . أما زمن ظهوره ـ كما تصرّح الكتب البهلوية أمثال أرد ويراف نامك وبندهش ـ فيعود إلى ما قبل حملة الإسكندر بثلاثمائة سنة أو أقل ، أو يعود ـ بعبارة أخرى ـ إلى ما قبل بداية الأسرة الهخامنشية بفترة قصيرة .

ورغم أن آراء دارمستتر لم تنل قبول العامة ، فإنها قد غيرّت كثيراً وأثرت في غيرها من الآراء . وكان تغييرها في آراء جلدنر هو السبب في اهتمام أتباع تلك الآراء كثيراً بالروايات الواردة في الكتابات البهلوية والفارسية وفي عصر صدر الاسلام . وفي المقالة الهامة التي كتبها جلدنر حول الأفستا (في كتاب فقه اللغة الايرانية لجايجروكون)[1] لا يوافق هذا العالم على القسم من آراء دارمستتر الثورية الذي يصرّح فيه بأن الأفستا بوضعها الحالي قد نظمت تنظيماً جديداً . ويبدي اهتماماً كبيراً بالروايات الفارسية ، ويقول إن الشاه ويشتاسب مريد زردشت هو والد داريوش ، وأن زردشت كان معاصراً لكورش الأكبر ، وأن أقدم تاريخ للأفستا هو عام ٥٦٠ ق . م . ويوافق على أن أصول الأفستا قد ضاعت في الفترة ما بين حملة الاسكندر وسلطنة بلاش الأول . وقد سبق بلاش الأول غيره إلى إعادة تدوينها ، لكن أردشير ـ مؤسس الأسرة الساسانية ـ هو الذي أكملها وأعادها من جديد ، باذلاً في ذلك غاية قوته . ويؤمن بأنه لا يستبعد أن تكون أقسام أخرى قد أضيفت إليها على مرّ الأيام . . وأن يستمر ذلك حتى عهد شابور الثاني (٣٠٩ ـ ٣٧٩ م) . . لكن المعتقد الآن هو أن الكاتها ليست أقدم أقسام الأفستا فحسب ، بل إنها نفسها التعاليم العملية لزردشت . [148]

ويؤكد جازماً أن زردشت شخصية حقيقية تاريخية ، ويقدّم في سبيل ذلك أسانيد تاريخية جيدة ، مخالفاً رأى دارمستتر الذي قال إن الكاتها ظل من ظلال

(1) Geiger und kuhn. Drundriss der Iranischen philologie (1896).

عرفان اتباع الإسكندر ، وان وهومن[1] (بهمن) - الواردة مرارا في الكاتها - اصلها العبارة الإلهية (خرد مينوى) في اصطلاح فيلوجيوديوس .

ومنذ عهد انكتيل Anquetil عرف أن الأفستا الحالية مجرد قسم من أقسام الأفستا التي كانت موجودة لدى الساسانيين . وبالنسبة للأفستا (التي كانت مكتوبة بمداد الذهب على جلود الثيران ، ومحفوظة في استخر پابكان[2] ، وأتلفها الإسكندر الرومي الملعون) فإن أفستا العهد الساساني ليست اكثر مما يمكن لذهن أحد الموابذة أن يستوعبه ويسهل عليه حفظه .

والونديداد - وهو القسم الهام من أقسام الأفستا الحالية - مجلد متوسط الحجم نسبياً ، كما أنه نسك من النسكات الواحدة والعشرين التي كانت تشكّلها الأفستا الساسانية . وقد وقفنا على محتوياته عن طريق دينكرد البهلوى .

[149] ودينكرد كتاب هام جداً ، قد يكون من كتب القرن التاسع الميلادي . وتقسِّم النسكات الإحدى والعشرين المذكورة - التي نعرف أسماءها البهلوية - إلى[3] ثلاثة أقسام :

گاسانيك[4] ، ويدور في الغالب حول المديح وآداب العبادة ،
داتيك ، وهو في الغالب في القانون ،
هاتك ما نسريك[5] ، وهو يدور حول أمور فلسفية وعلمية .

---

(١) سعى فيلوجيوديوس Philo Judaeus (فيلسوف الإسكندرية اليهودي ، ورئيس الطريقة الأفلاطونية الجديدة في القرن الأول الميلادي) إلى التوفيق بين الدين اليهودي وفلسفة اليونان . وقال إن العقل البشري لا يمكنه إدراك ذات الله ، وأن رابطة الله بالدنيا رابطة غير مباشرة . وقد صدرت عن الله قوى جانبية ، فأوجد الكائنات في الوجود . وأهم القوى «Logus» وهي قوة الله العاقلة . وبواسطة هذه القوة ، صبَّ الله المادة في قالب الدنيا . وكما تسيطر الروح على الجسم فإن الله بدوره يسيطر بالكلمة على الدنيا .

(٢) تعليق المترجم : خزينهٔ شابيگان (گنج شايگان؟).

(٣) أنظر مقالة جلدنر ، المجلد الثاني من فقة اللغة الايراني ص ١٨ - ٢٠ .
Grundriss der Iranischen Philologie

(٤) Gasanik

(٥) Hatak mansorik

وما بقى في يدنا الآن من النسكات السبعة التي تشكّل القسم الأول ـ وهي الخاصة بالموابدة ـ ما هي إلاّ قطعات من نسكات ثلاثة ، هي : اشتاديشت[1] ، وبكو[2] وهاتخت[3] (هادخت) . وما بقى في يدنا من النسكات السبعة الأخرى ـ الخاصة بالعامة ـ ثلاث نسكات هي : الونديداد وأجزاء من هوسپارم[4] وبغان يشت . والواقع أن القسم الثالث الذي يدور فيه الحديث حول مجموعة محدودة من العلماء قد ضاع للأسف كليّة (ربما لهذا السبب نفسه) .

ويعتمد وست على التخمين في القول بأن الإحدى وعشرين نسكا ـ موضوع البحث ـ التي كانت تشكل أفستا العهد الساساني . . كانت تشتمل في مجموعها على ٣٤٧,٠٠٠ كلمة تقريباً . وفي يدنا الآن حوالي ٨٣,٠٠٠ كلمة ، أي الربع تقريباً .

وفيما يتعلق بالتقسيم السابق ، فإن جلدنر يصرّح بأن هذا التقسيم مفتعل وقائم على الاجتهاد . . . فقد أرادوا أن يوجدوا شبهاً دقيقاً بين الأفستا ككل وآية آهون فيريه[5] التي هي جوهر الكلام والمبنى الأصلي العام لمكاشفات الأفستا .

وهـذا البيان يكشف عن النظائر الهامة ذات الوجهين المتصلة بالعهود التالية ، ويوضّح بالتفصيل ما قيل عن ثبات العقائد وتكرّر ظهور الأفكار المتّزنة حول الشرق ، ويوضح ما بحثه الكاتب تفصيلاً في موضع آخر حول هذه الكيفية العجيبة . المثال الأول يتعلق برواية تنسب في مذهب الشيعة إلى علي بن أبي طالب ، وتقترب من المضمون التالي : [150]

« كل ما في القرآن موجود في سورة الفاتحة ، وكل ما في الفاتحة في بسم الله . وتوجد « بسم الله الرحمن الرحيم » في بداية كل سورة إلاّ واحدة . وكل أمر يبدؤه المسلمون ببسم الله ، وكل ما هو في « بسم الله » موجود في بائها ، وكل ما هو في

---

(١) Stöt Yasht
(٢) Bako
(٣) Hätökht
(٤) Hüspäram
(٥) Ahuna-Vairya

بأنها موجود في النقطة التي تحت الباء . . . وأنا هذه النقطة نفسها[1] .

والمثال الثاني يتعلق بالباب مؤسس الحركة المذهبية الكبيرة التي ظهرت في إيران مؤخراً ، والذي قتل في تبريز عام ١٨٥٠ م . وقد توسّع الباب في هذه الفكرة فقال إن القيمة العددية لحروف (بسم الله) ١٩ ، والقيمة العددية لكلمة (واحد) في اللغة العربية ١٩ أيضاً .

وهذه الكلمة هي المظهر الجليّ لذات الله الأوحد الذي لا شبيه له ، وهي المبنى الصحيح للأعداد وكل المحاسبات ، لهذا قسّم كتبه إلى تسعة عشر كتاباً وكل واحد إلى تسعة عشر فصلاً ، وقسّم كل علم إلى تسعة عشر شهراً ، وكل شهر إلى تسعة عشر يوماً (= ٣٦١ يوماً) .

ويقال إن الأفستا الحالية تشتمل على نسك واحد كامل من الواحد والعشرين التي كانت موجودة أيام الساسانيين . . وهو الونديداد . والواقع أن أجزاء من أربع نسكات على الأقل تدخل في تركيب اليسنا . وقد بقيت في نيرنگستان قطعات أخرى . . في بعض الكتب البهلوية خاصة هوسپارم Hûspâram .

[151] والكتب الحالية وتعاليم الأفستا الدينية تنقسم إلى خمسة أقسام رئيسية هي :

١) اليسنا أو القسم الخاص بآداب المديح وعبادة الخالق . وتشتمل على أناشيد تتعلق باحترام الملائكة والاله . ويتركّب اليسنا من ٧٢ بابا (ويدعى الباب هائيتي أوهـا) . والحزام المقدّس يسمى كشتي Kushti ، ويشتمل على ٧٢ خيطاً ، ويشير إلى أبواب اليسنا الإثنين وسبعين[2] .

---

(١) تعليق المترجم : أنظر المجلد الثالث من كتاب الأسفار الأربعة في العلم الإلهي ، تأليف صدر المتألهين محمد بن ابراهيم المشهور بصدر الدين الشيرازي ، صفحة ١٠٥ ، حيث يوجد فصل في تحقيق كلام أمير المؤمنين وإمام الموحدين علي عليه السلام . وقد ورد فيه : إن جميع القرآن في باء بسم الله وأنا نقطة تحت الباء .

(٢) أنظر : هامش آقاي پور داود في المجلد الأول من اليشتها (ص ٢٤٧) ، وانظر كتاب اليسنا (جـ ١) كقسم من كتاب مينوى أفستا ، تفسير وتأليف پورداود ، ضمن سلسلة انتشارات أنجمن زردشتيان إيران في بمباي وإيران .

وحين يؤذن للشباب الزردشتي بدخول المعبد الزردشتي بصفه رسميه (او حين تجب عليهم التكاليف الدينية) يربطون الحزام المذكور مراعاة لآداب الدخول . والكاثات القديمة[1] التي مرّ ذكرها هي الأخرى قسم من هذا الكلّ .

٢) الويسپرد Vispered يشتمل على ٢٣ ـ ٢٧ فصلاً (يسمى كل فصل كرده Karde) وهو من جهة وحدة الموضوع وكل ما يجب أن يستوعبه الكتاب الواحد . . لا يعتبر كتاباً مستقلاً . وهو بصورته الحالية مجموعة من الأدعية والأذكار في حمد الخالق وشكره وهو يشبه اليسنا ويتمّمه ويستفاد منه في الصلاة .

٣) الونديداد أو (الأحكام ضد الشياطين) . هو بناء على قول جلدنر يبلغ [152] عند الپارسيين منزلة (سفر التوراة الثالث) سفر اللاويين Leviticus في التطهير والاستغفار والكفارة . ويتضمن ٢٢ باباً (يسمى كل باب منها فردگرد) الأوّل في وصف الخلق ، والأراضي الطيبة التي خلقها هرمزد (آهورمزدا) أرضاً بعد أرض ، وفي وصف الشرّ الذي أوجده أهريمن (انكر مينيوش) Angra-mainyush في كل موضع . . . في مقابل كل خير .

ولما كان قد ورد ذكر لأشياء مختلفة في هذا الباب فإنه يعتبر أساساً لكل المناقشات المتّصلة بالنقاط التي اطلع عليها أتباع الأفستا أو ورثوها .

٤) اليشتات[2] ، وهي ٢١ فقرة تتلى في مدح الملائكة المختلفين والآلهة الذين وضع كل واحد منهم اسمه على يوم من أيام الشهر الزردشتي . وهو نفسه القسم الذي يعتقد كل پارسي أنه اليشت الخاص به . ويبدو أن ثلث هذا القسم من الأفستا تقريباً قد ضاع . وحين يرد ذكر التقويم الزردشتي يخطر في بال الكاتب مثال آخر يرتبط بترك العقائد والرسوم الدينية القديمة في الشرق ، وقد بحث أمر هذه المقولة من قبل ، فالعلم الزردشتي مركّب من ١٢ شهراً ، وكل شهر مكوّن من

(١) كتاب گاتها ، تأليف پور داود وترجمته ، طبع بمباي ، ١٩٢٧ م .

(٢) تعليق المترجم : أنظر : أدبيات مزديسنا ، تفسير وتأليف پور داود ـ طبع بمباي ١٩٢٨ م في مجلدين .

ثلاثين يوما . . يضاف إليها خمسة تسمى الكاثا(١) .

والسنة الزردشتية ـ بصفة إجمالية ـ سنة شمسية ، وهي مكوّنة ـ كسنتنا من ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً . وقد وضعت الترتيبات المناسبة لاضافة عدة أيام إلى التقويم .

[153] والبابيون (الذين يرجع أصلهم ـ فيما يبدو ـ إلى الاسلام ، وكانوا يقتربون أول أمرهم من التشيّع) قد تركوا العام الهجري القمري ـ وهو الذي يقل أحد عشر يوماً عن السنة الشمسية ـ وجعلوا العدد ١٩ ـ الذي يحبّونه ـ أساس أعدادهم . واختاروا ـ بدلاً من العام الهجري القمري ـ السنة الشمسية المكوّنة من تسعة عشر شهراً ، وأقل شهر يشتمل على تسعة عشر يوماً . . فيصبح مجموع أيام عامهم ٣٦١ يوماً (١٩ × ١٩) ولكي يطابق التقويم الفصل الواقعي ، وللمحافظة على ذلك جزئياً أو كلياً لتكميل أيام السنة . . جعلت تلك الأيام ـ في الكلمات البابية ـ مطابقة لعدد الحرفين (ها) اللذين يبلغان في الحروف العربية العدد (٥) . يضاف إلى ذلك أن كل يوم من أيام الشهر البابي ، وكل شهر من شهور السنة البابية يختص بصفة من صفات ذات الحق أو جلواته . وسرُّ تسمية كل شهر هو أن نفس القسم الذي يشكّله اليوم أو الشهر الزردشتي يتشابه أيضاً مع أحد الملائكة الذين يشكّلون سلسلة المراتب الدينية الزردشتية ، والفرق الوحيد بين طريقتي الزردشتية والبابية هو قِدَم الطريقة وحداثتها ، فالبابيون يرون أن الصفات تحلّ محل الملائكة . والشيء الآخر هو أنه من بين الثلاثين إلهاً ـ الذين يتحكّمون في أيام الشهر ـ يختص إثنا عشر بالشهور ، بينما يستخدم البابية نفس الأسماء التسعة عشر للغرضين معاً . وليس للأسبوع في أي من التقويمين محل من الإعراب . وهناك شهر واحد في كلا التقويمين يتكوّن من يوم واحد وذلك اليوم وذاك الشهر يجمع بينهما اسم واحد ،

(١) تعليق المترجم : الكاثا هي نفسها الخمسة المسترقة المستعملة الرائجة بين مختلف طبقات الشعب في كاشان ونظنز وتوابعها إلى وقتنا هذا . أنظر : الدراسات الدقيقة التي قام بها العالم سيد حسن تقي زاده ، رئيس مجلس الشيوخ ، في كتاب كاهشماري در إيران قديم ، تهران ١٣١٦ هـ . ش . رسالة النوروز ، ١٩ فروردين ١٣٢٨ .

وحين يحدث ذلك يحتفلون في هذا اليوم .

ويُستبعد كثيراً أن يكون الباب قد اطلع اطلاعاً مباشراً على مراسم الدين [154] الزردشتي وآدابه ، أو أن يكون قد تنازل من أجل كسب هذه المعلومات ، لأن الباب كان سيّداً . وقبل أن يدّعي البعثة (١٨٤٤ م) كان يُعدُّ من الشيعة المتحمسّين ، ويرى أن غير المؤمنين أنجاس يجب اجتنابهم تماماً (يصدر أمره في كتابه الفارسي « البيان » بإخراج كل من ينكرون أصول عقائده خارج ولايات إيران الخمسة المهمّة ، إلاّ إذا كانوا يعملون عملاً يفيد المجتمع) . ويصدق هذا المعنى في المواضع التي تتشابه فيها تعاليمه وتعبيراته مع الاسماعيلية وغيرها من الفرق القديمة إلى حد يضطرُنا إلى تقبُّل قسم من العقائد الدينية والأفكار الفلسفية المحلّية والوطنية الإيرانية . . أي يضطرُنا إلى القول بأن العقائد والأفكار المذكورة كانت تدور بصورة مزمنة في دائرة ، وتسري وتنتشر كلما وجدت من يحرّكها . . وسوف نتعرض لهذه النقطة فيما بعد أكثر من مرّة .

٥) الخرده أفستا : كتاب صلاة ودعاء وكلمات دينية مختارة ، وردت للفائدة العامة . دوّن في عهد سابور الثاني (٣١٠ ـ ٣٧٩ م) على يد الموبد آذر باذمهراسپند . ويتكوّن أحد أقسامه من مختارات من كل الأفستا ، كما أن هناك قسما في قواعد البازند (ص ١٢٨ من نفس الكتاب) ، وهو يشتمل أيضا على الأدعية الخمسة (خورشيد نيايش ـ ماه نيايش ـ مهرنيايش ـ اردوى سورنيايش آتش بهرام نيايش) ، وأدعية الأيام الخمسة ، والأيام الثلاثة الكبيرة والأيام الثلاثة الصغيرة والتبريكات الأربعة .

وبإضافة الشذرات المتفرّقة الصغيرة التي حفظتها لنا الكتب البهلوية أمثال نيرنگستان (ومن أبرزها اثوگمه دئجا[١] وهادخت نسك) . . يكون هذا ما بقي لنا من الكتب الزردشتية المقدسة .

---

(١) Aogemadaēca

155 ولأن الأفستا وثيقة قديمة فإنها هامة جداً وتستحق الدراسة . وهي تتضمَّن أصول عقائد شخص شهير كزردشت ، وتحتوي على أحكام الدين في الدنيا القديمة وقد لعب هذا الدين ـ بعض الوقت ـ دوراً هاماً في تاريخ الدنيا . ومع أن عدد أتباعه لا يزيد اليوم في إيران عن عشرة آلاف ، ولا يزيد في الهند عن تسعين ألفاً[1] ، فقد كان له تأثيره العميق في الديانات الأخرى التي كان لها في ذاتها أهمية كبيرة . ونحن حين نصف الأفستا لا يمكننا أن نقول إنها كتاب بهيج أو جذّاب . صحيح أنّ موالاة تفسير عباراتها الشائعة والتي يستدعى فهمها الكثير من المتابعة ربما يكشف عن قيمتها في كل مرّة بصورة تفضل سابقتها ، إلاّ أننا بالنسبة لهذه النقطة يمكننا أن نؤكد أن مداومة قراءة القرآن ودراسته وبذل الجهد لادراك روحه . . تزيدنا كل مرة التفاتاً إلى قدره ومنزلته ، أما دراسة الأفستا فإنها تورث الملل وتزيد الكلل .

وتفيد الأفستا في دراسة تاريخ سير الأفكار الدينية والدراسات القديمة ، وإطلاعنا على اللغة القديمة وفقه اللغة بالقدر الذي يجعلها تجذب إليها العديد من العلماء المتحمّسين ، إلى جانب من يرون أن الأفستا لسان وحي الله وإلهامه وقانونه .

وفي رأيي أنه من الصعب ترجمة قسم من الأفستا على نحو يمكّن القارىء العادي المتوسّط الثقافة والذكاء من قراءته من بدايته إلى نهايته ، إلاّ إذا كان له هدف خاص . وعلى أي حال فإن الترجمات التي صيغت بالإنجليزية والفرنسية والالمانية كثيرة كافية ، وعلى الراغب أن يطلع عليها ، ولهذا نرى أنه لا لزوم لنقل العبارات المختارة .

---

(١) أنظر كتاب (پارسيان) تأليف مادموازيل منان ، ص ٥٢ ـ ٥٦

Mademoiselle D. Menant,
Les Parsis (Paris, 1898).

تتميز أقدم آثار اللغة البهلوية ـ كما ذكرنا آنفاً ـ بصفة تتقدم غيرها من الصفات ، وهي اختلاط اللغات السامية والايرانية نتيجة لاستعمال نظام الهزوارش فيما يبدو . وكما ذكر لوى علم ١٨٦٧ م[١] ، فقد شوهد ذلك على العملة الأشكانية لأول مرة .

ويرجع تاريخ هذه العملات إلى آخر القرن الرابع وبداية الثالث قبل الميلاد أو بعبارة أخرى إلى ما بعد نهاية العصر الهخامنشي بقليل . وكل عملات إيران التي ضربت في عهد البارثيين ، والساسانيين ، وفي بداية العصر الاسلامي ، وكذلك العملات التي ضربها الاسپهباديون المستقلّون في طبرستان وحكام العرب الأوائل . . كل هذه العملات بها كلمات بهلوية . ويتضح من ذلك أن العبارات البهلوية كانت تستخدم في ضرب العملة منذ علم ٣٠٠ ق . م . ـ ٦٩٥ م تقريباً[٢] . وهكذا ظل ذلك متّبعاً إلى أن ألغيت العملة الايرانية المتداولة بناء على أمر الخليفة الأموي عبد الملك ـ في التاريخ المذكور ـ وحلّت محلّها العملات التي تستخدم في ضربها العبارات العربية[٣] .

ويرجع تاريخ النقوش البهلوية إلى بداية العهد الساساني . ويرجع تاريخ 157 أقدم نقشين إلى عهدي أردشير وشابور ـ أول ملك وثاني ملك في تلك الأسرة ـ (٢٢٦ ـ ٢٤١ م ، ٢٤١ ـ ٢٧٢ م)[٤] وكانت النقوش البهلوية تحفر حتى القرن الحادي عشر الميلادي ، فقد وجدت نقوش في كهوف بوذيي كنهري Kanheri في

---

(١) أنظر : مجلة جمعية ألمانيا والشرق ، المجلد ٢١ ، ص ٢١ ، ص ٤٢١ ـ ٤٦٥ .
Levy of Breslau, Z.D.M.G., XXi.

(٢) تعليق المترجم : طبقاً لرأي أقاي تقي زاده « ظلت السكة البهلوية تضرب في طبرستان بعد عام ٦٩٥ لمدة نصف قرن أو يزيد » .

(٣) انظر المؤرخون العرب قبل الدينوى (طبع جرجس Guirgass) عام ١٨٨٨ م ، ص ٣٢٢ .

(٤) تعليق المترجم : فيما يتعلق بالنقوش الهامة التي تمّ اكتشافها بعد تأليف هذا الكتاب ، أنظر الحاشية ، ص ١١١ ، ١١٢ .

سالست Salsette قرب بمباي . . حفرتها يد بعض الپارسيين الذين ذهبوا إلى هذه الكهوف للنزهة عام ١٠٠٩ وعام ١٠٢١ م . وفي الفترة المحصورة بين التاريخين ، وجدت عشر إمضاءات تركها بعض الشهود على لوح من النحاس ، ويدل نص ما وقّعوا عليه على وجود منحة أهديت إلى المسيحيين والسريانيين من سكان سواحل ملبار Malabar (غربي مدرسي في هندوستان) . كما وجدت خمسة ألواح نحاسية حفرت عليها كلمات كتبت بخط مائل قديم . ووجد لوح سادس يشتمل على أسماء ٢٥ شاهداً ، قد كتب أحد عشر من بينها بالخط العربي الكوفي ، وعشرة بالخط البهلوي الساساني ، وأربعة بالخط العبري واللغة الفارسية(١) .

وقد تحدثنا في الصفحتين ١٥ ، ١٦ عن عصر الأدب البهلوي ، ونقصد بالأدب المذكور الأدب الفارسي في العصر الساساني ، ذلك الأدب الذي استمر فترة بالطبع بعد سقوط هذه الأسرة .

وكتاب گجستك أبالش ـ الذي سبق ذكره ـ يعرض محاورة دارت بين موبد كان يشرّع للدين الزردشتي يدعى آتورفرنبگ (آذرفرن بغ)(٢) بن فرخزاد . وبين أحد المشركين أو المبتدعين أو الملحدين الثنويين (قد يكون مانوياً) ، وذلك في حضرة المأمون الخليفة العباسي (٨١٣ ـ ٨٣٣م) . ويرتبط هذا الأثر بالفترة المحصورة ما بين القرنين الثالث والتاسع أو العاشر الميلاديين . وربما كانت البهلوية لا تستعمل في تلك الفترة بصورة طبيعية ، لكن الثابت على أي حال هو أن علماء الزردشتية ـ كانوا دائماً وما زالوا ـ هم وحدهم الذين يستطيعون الكتابة بالبهلوية .

158 والبهلوية المتأخرة تتسّم بالكذب وتسفر عن كذبها ، خاصة أن هناك أخطاء

---

(١) أنظر : رسالة هاوج حول البهلوية ، ص ٨٠ ـ ٨٢ ومقالة وست حول الأدب ـ البهلوي في كتاب فقه اللغة الايراني تأليف جايجر وكون :
Geiger und Kuhn. Grundriss der Iranischen Philologie
المجلد الثاني ، ص ٧٩ ، والمراجع الواردة فيه .

(٢) Atur-Farnbag

في الجزء الأخير من الكلمات . . . الذي يحدد الصفة والموصوف ، فقد استخدم الحرفان (ik) للاسم وكانا يصنعان الصفة ، واستخدم الحرفان (ih) للصفة وكانا خاصين بالاسم ، وأضيف الحرف الجديد (ي) في نهاية الكلمات الفارسية بدلاً من الاثنين . وأقدم وثيقة پهلوية صحيحة مكتوبة هي قطعات پاپيروس المتعلقة بولاية الفيوم بمصر ، ويرجع تاريخها ـ بناء على قول وست ـ إلى القرن الثامن الميلادي . ولا توجد بعدها وثيقة أقدم من نسخة اليسنا الپهلوية الخطيّة المعروفة بـ(J-2) ، التي استكملت في الخامس والعشرين من يناير علم ١٣٢٣م . وما زال الپارسيون ينسخون النسخ الخطية الپهلوية إلى اليوم ، وما زالت الحروف الپهلوية تعدّ للطباعة . وكان البعض قد قام بطبع الكتب الپهلوية الهامة طباعة حجرية ورصاصية ، وشرع في نشرها تدريجياً ، لكنه ما أن أعدت وسائل طبع الكتب الپهلوية حتى توقف عمل محرريها شأنهم في ذلك شأن محرري سائر اللغات الشرقية[١] .

ويعتبر وست أكبر مرجع حي للأدب البهلوي ، وأهم مرشد لنا في بحثنا هذا . وهو يقسّم الأدب الپهلوي إلى ثلاث طبقات هي :

159 ١) الترجمات الپهلوية لمتون الأفستا : وهي عبارة عن ٢٧ كتاباً أو رسالة أو قسماً من رسالة . ويصل مجموع كلماتها إلى ١٤١,٠٠٠ كلمة تقريباً[٢] . ومع أن هذه الآثار لها قيمتها من جهة شرح الأفستا وتفسيرها ، إلاّ أن وست يقول بشأنها : « لا يمكن اعتبارها في الواقع نموذجاً للأدب الپهلوي لأن المترجمين الفرس كانوا مهتمين بالترتيب الأفستي للكلمات » .

٢) متون پهلوية في موضوعات دينية : وهي عبارة عن ٥٥ كتاباً أو رسالة ، يصل

(١) أنظر : العدد السابع من إيران كوده حيث توجد نماذج من نصوص الكتابات الپهلوية بقلم د . صادق كيا ، أستاذ اللغة الپهلوية بجامعة طهران ، وانظر الأعداد ٥ ، ٦ ، ١٦ من إيران كوده أيضاً .

(٢) أثبت وست في مقالته العدد الكامل لهذه الآثار وغيرها مما سيرد ذكره ، وترد مقالته في كتاب أساس فقه اللغة .

بمجموع كلماتها إلى ٤٤٦,٠٠٠ كلمة تقريباً . وبالإضافة إلى التفاسير والأدعية والروايات والنصائح والأوامر والنواهي والأوراد والأذكار ، وغيرها . . تشتمل هذه المتون على آثار هامة ، نخصّ بالذكر من بينها الآثار التالية :
دينكرت (دينكرد) أي الأمور الدينية ـ وهو مجموعة كبيرة من المعلومات المتصلة بقواعد وأصول وتعاليم ورسوم وروايات وتاريخ وأدب دين عبادة مزداً . شرَعَ آتورفرنبگ (آذر فرن بغ) في تدوينه في القرن التاسع الميلادي ، وانتهى في أواخر القرن نفسه[1] . وآذر فرن بغ هو نفس الموبد الذي حضر من لدن الزردشتيين المخلصين مجلس المأمون لمناظرة گجستك أبالش .

160 بندهشن : بمعنى وضع أساس الخلق . وهو كتاب مفصل في علم الدين[2] وأكمل نسخه وأكثرها تنقيحاً تعرف بالنسخة الايرانية ، وقد تمّ تهذيبها نتيجة المقابلة بينها وبين النسخ القديمة . ويشتمل الكتاب على ٤٦ فصلاً ، ويبدو أنه قد تّم إنجازه في القرن الحادي عشر الميلادي أو الثاني عشر ، وأن القسم الرئيسي فيه قد ألفي قبل ذلك بكثير .

داتستان دينيك[3] أو عقائد منوچهر بن يودان يم[4] الدينية . ومنوچهر هو موبد موابدة فارس وكرمان . وألفه في القرن التاسع ليتصدّى فيه لمناقشة اثنين وتسعين موضوعاً . وهو طبقاً لقول وست من أصعب المتون البهلوية ، سواء من حيث فهم الموضوع أو الترجمة .

---

(١) إنتهى على يد آخرين ، وقد حلّل وست محتوياته في كتاب أساس فقه اللغة (ص ٩١ ـ ٩٨) .
أنظر : « المتون البهلوية » ترجمة وست ، في المجلد الخامس من كتب الشرق المقدّسة ، طبع اكسفورد ، ص ١ ـ ٥١ (Sacred Books of the East) وقد قام وست بتحليل محتوياتها في مقالته بكتاب أساس فقه اللغة ، ص ١٠٠ ـ ١٠٢ .

(٢) تعليق المترجم : توجد الآن نسخة أخرى للكتاب في إيران باسم (بندهشن الكبير) ، وهي أكثر تفصيلاً من النسخة المعروفة باسم (بندهشن الهندي) ، وقد طبعت النسخة الأولى في بمباي عام ١٩٠٨ م .

(٣) Datistan-i-Dinik

(٤) Yudan-Yim

شكند گمانيك ويجار[١] أي البيان المزيل للشكوك أو التقرير المزيل للبس .
وهو كتاب جدلي وضع في أواخر القرن التاسع في الدفاع عن الثنوية الزردشتية أمام فروض اليهود والنصارى والمانوية والاسلام المتعلّقة بأصل الشرّ وماهيته . ويقول
161 وست في وصف هذا الكتاب : « هو أقرب خطوة قطعت في طريق الأدب البهلوي نحو رسالة فلسفية . . وبقيت على حالها » .[٢]

مينوى خرد : ديناميبيو[٣] (أومانيوگ) خرد[٤] : أي آراء روح الحكمة .
ويشتمل على إجابات هذه الروح على ٦٢ سؤالاً حول الدين الزردشتي .

وقد نشر اندرياس المتن البهلوي (في كيل Kiel علم ١٨٨٢ م) ، ونشر وست متن الپازند مصحوباً بترجمة وضعها زيوسنگ بالسنسكريتية (اشتوتجارت علم ١٨٧١ م) . وقد سهّل النشرُ وصول مينوى خرد إلى طالبيه اكثر من الآثار البهلوية الأخرى . وقد نشر وست بدوره الترجمة الإنجليزية للنصين معاً (١٨٧١ ـ ١٨٨٥ م) . وبناء على رأي نولدكه الذي ورد في ترجمة كارنامك ارتخشتر بابكان Karnamak-i-Artakhshatr - i-Papakan فإن مينوى خرد واحد من أفضل الكتب للشروع في دراسة البهلوية المكتوبة .

ارد ويراف نامك Arda-Viraf Namak كتاب آخر شهير ، في يدنا أصله
162 وترجمته الانجليزية والفرنسية . وقد تمّ طبع الأصل في بمبلي علم ١٨٧٢ م .
ويوصف بأنه كتاب الجنة والنار الزردشتية المنثور[٥] .

---

(١) Shikand-Gumanik Vijar . وقد قام وست بترجمته في المجلد ٢٤ من مجموعة كتب الشرق المقدسة (طبع اكسفورد ١٨٨٥ م) ص ١١٥ ـ ٢٥١ ، ونشره عام ١٨٨٧ م بخط الپازند بمساعدة هوشنج الفارسي .

(٢) تعليق المترجم : يقول بارشاطر : قام دوميناس بترجمة شكند گمانيك ويجار إلى الفرنسية (Fribourg ١٩٤٥ م) ، وترجمته هذه أكثر إحكاماً ووضوحاً من ترجمة وست غير أنها لا تطابق النص تمام المطابقة .

(٣) تعليق المترجم : يرى شاطر أنها (داناي) وليست (دينا) كما ورد في طبعة سنجانا .

(٤) Dina-i-Mainog-i- Khirad- Dina-i- Mainyo-i-Khirad

(٥) تعليق المترجم : ربما يشير الكاتب بذلك إلى منظومات الشاعر الايطالي الشهير دانته(Dante ١٢٦٥ ـ ١٣٢١) الذي نظم أشعاراً حول مشاهداته وسياحاته في جهنم والبرزخ والجنة ، وأطلق عليها

وتكمن أهميته في أنه يجسد للأنظار ما ساد إيران (إثر حملة الاسكندر الرومي الملعون) من هرج ومرج مادي وديني ، ويجسد عملية إحياء قومية إيران وديانتها في عهد الساسانيين في القرن الثالث الميلادي ، ويجسد عقائد الزردشتية فيما يتعلق بالآخرة . وبالنسبة للآخرة يوجد تشابه بين قنطرة چنفت Chinvat وقنطرة الصراط الاسلامية (التي هي أدق من الشعرة وأحد من السيف) . وإلى قنطرة الصراط يشير بايرون[1] قائلاً :

أقسم بالله أن اجيب بالنفى ولو اضطررت للوقوف على قنطرة الصراط المتأرجحة فوق لهيب ملتهب ونار كالسيل (جهنم) . . حيث يبدو الفردوس الأعلى من بعيد ، وبه حور الجنة يدعون الانسان إليهن مشيرات إليه باليد والرأس » .

والمثل الأعلى لهذه الحوريات . . فتاة جميلة تفضلهن من الناحية الدينية ، تسارع إلى استقبال الروح حين تطير من قفص الجسد ، وحين تُسأل عن هويتها تجيب : نتيجة العمل الطيب والقول الطيب والفكر الطيب الذي صدر عنه في حياته . 163

وقد نشر بارتلمي Barthélemy كتاب گجستك أبالش ـ السالف الذكر ـ عام ١٨٨٧ م مصحوباً بترجمة بلغات البازند والفارسية والفرنسية . ويشتمل جاماسب نامك (الذي تشتهر ترجماته البازندية والفارسية فقط) على خرافات وأساطير هامة تتصل بملوك تاريخ إيران البطولي .

اندرز خسرو كواتان : هي النصائح التي قدمها أنوشيروان (انوشك ربان) Anôshakrubân (٥٣١ ـ ٥٧٨) لشعبه قبل موته . ورغم قلّة هذه النصائح نسبياً إلاّ أنها تستحق الذكر ، لأن زلمن (سلمان Salemann) في رسالته

اسم « العرض الساحر » . ثم زاد عليها أصدقاؤه كلمة « الله » فصارت التسمية « الكوميديا الإلهية الساحرة » Divine Commedia.

(٢) تعليق المترجم : Lord George Noel Gordon Byron واللورد بايرون من مشاهير الشعراء الانجليز (١٧٨٨ ـ ١٨٢٤ م) .

الخاصة بالفارسية الوسيطة[1] (ص ٢٤٢ ـ ٢٥٣) يعتبرها موضوع دراسة هامة للغاية تفيدنا في معرفة طريقة انتقال المتن البهلوي للأذن حال قراءته بصوت عال .

النصوص البهلوية الخاصة بموضوعات غير دينية :

عدد فقراتها إحدى عشر فقرة فقط ، وعدد كلماتها ٤١,٠٠٠ كلمة تقريباً .

وفي الوقت الذي ترجح فيه هذه المجموعة مجموعات الأدب البهلوي غيرها أهمية نجدها تقلّ عنها من جهة الكمية . ولا شك أن قدراً كبيراً من المؤلفات الأدبية غير الدينية قد وجد في عهد الساسانيين ـ وأن أكثره قد ضاع ، (خاصة خداي نامك ، أو الشاهنامة التي سوف نتحدث عنها في القسم التالي) .

164

ونحن نعرف هذه الآثار بالاسم فقط ، ولدينا معلومات إجمالية حولها إلى حدٍ ما . . عرفناها عن طريق كتّاب العرب والفرس المسلمين المتقدّمين .

والسبب في ضياع نسكات الأفستا العلمية والفلسفية (أنظر : هاتك مانسريك Hatak-Mansarik ، ص ١٤٩) هو عدم اهتمام الموابدة الزردشتيين بكل الكتب التي ليس لها صلة مباشرة بمصالحهم . لقد كان هؤلاء ، الموابدة مجرد حرّاس للآثار القديمة بعد سقوط الإمبراطورية الساسانية . وكان إهمالهم هذا سبباً في ضياع القسم الأكبر من الآثار غير الدينية التي ترجع إلى عهد الساسانيين . والموجود من هذه الآثار حالياً قليل إلى حد يسمح لنا بإحصائها :

١) قوانين اجتماعي زردشتيان در روزگار ساسانيان (قوانين الزردشتيين الاجتماعية في عهد الساسانيين) .

٢) ياتكار (يادگار) زريران (ذكرى زرير) ، وتسمى أيضاً شاهنامهٔ گشتاسب وشاهنامهٔ پهلوى . وقد ترجمها جايجر إلى الالمانية[2] ، ونشرت في الصفحات

---

[1] Salemann, Mittelpersische Studien (Mélanges Asiatiques, IX, pp. 242-253, St. Petersburg, 1887).

[2] Sitzungsberichte d. phil. und hist. Classe d. Kais. Bayer Akad. d. Wissenschaften for 1890, ii, pp. 243-84.

من ٣٤٢ إلى ٢٨٤ في تقرير قسم الفلسفة والتاريخ في أكاديمية علوم إمبراطورية باوير عن علم ١٨٩٠ م . وقد قلم نولدكه بعد عامين ببحثها ودراستها في نفس النشرة[1] .

165 ٣) داستان خسرو كواتان وپيشخدمت وي (قصة كسرى أنوشيروان وخادمه) .

٤) كارنامك ارتخشتر پاپكان (كتاب أعمال أردشير بن بابك) . . مؤسس الأسرة الساسانية وهي قصة هامة للغاية ، صُحح متنها البهلوي [2] وأُعد للنشر مصحوباً بقليل من النقد . وقد طبع الكتاب علم ١٨٩٦ م في بمباي على يد كيقباد آذرباد دستور نوشيروان ، ثم نشرت ترجمته الألمانية الرفيعة الأسلوب مصحوبة بتعليقات انتقادية ومقدمة عظيمة بقلم نولدكه المستشرق الالماني المعروف ، في جوتنجن Göttingen علم ١٨٧٨ م . وعندما نبحث في الشاهنامة سوف ندير الحديث تفصيلاً عن هذا الكتاب. وهذا الكتاب (والكتابان اللذان سبقاه) يُعتبر الأثر الوحيد الباقي عن الساسانيين متعلِّقاً بالقصص التاريخي .

ورغم أن الكتّاب العرب (أمثال المسعودي والدينوري ومؤلف «الفهرست» القيّم الهام) قد أطلعونا على محتويات الكتب الأخرى وأسمائها . . فإن نولدكه قد سجّل لنا من جديد مضمون قسم من أحد هذه الكتب هو أعمال وسيره بهرام جوبين . وما بقي من هذا الصنف من الكتب ـ ومعظمها في صورة مختصرة ـ هو:

٥) شهرهاي إيران (مدن إيران) .

---

(١) حدّد نولدكه تاريخ هذا الأثر بعام ٥٠٠ م تقريباً وقال : أتصور أن هذا المؤلَّف أقدم قصص البطولة الصحيحة التي بقيت لنا عن اللغة الايرانية .

تعليق المترجم : يقول شاطر : نشر پالیارو یادگار زریران أيضاً مصحوباً بترجمة إيطالية .
A. Pagliaro, Il testo pahlavico Ayatkari Zareran, Roma, 1925.

ثم طبعها بنڤنيست Benveniste ثانية بعد نظمها وإحداث تغييرات كثيرة لابراز صورتها الشعرية .

(٢) يرى نولدكه أن تأليفها كان في عام ٦٠٠ م تقريباً .
E. Benveniste, Le Memoria de Zarer, Journ. Asiatique, 1932.

٦) شگفتيهاي سگستان (عجائب سجستان) .

٧) درخت آسوريك (آسور) : شجرة آشور .

٨) چترنك نامك (كتاب الشطرنج) .

٩) أشكال نامه نگارى أو الترسُّل .

١٠) شكل قباله‌ٔ زناشوئى أو عقد نامه (كتاب الزواج) .

ويرجع تاريخه إلى ١٦ نوفمبر ١٢٧٨ م .

١١) فرهنگ پهلويك (المعجم البهلوي) ، وهو المعجم المعروف الذي طبعه هوشنج وهاوج بعنوان[١] « فرهنك قديم پهلوى - پازند » في بمباي ولندن ، عام ١٨٧٠[٢] .

وبالإضافة إلى الآثار التي كُتبت باللغة البهلوية توجد آثار متأخرة بالفارسية الحديثة تدور حول الدين الزردشتي ، وهذه أهمها :

زرتشت نامه (رسالة زردشت) : وُضِع منظوماً في القرن الثالث عشر بمدينة الري ؛

صد در (المائة باب أو المائة فصل) : ملخَّص للدين الزردشتي ، مرّ في ثلاث مراحل من النقد والتهذيب والتنقيح (الأولى نثراً والباقيتان شعراً) ؛ علماء الإسلام ، الروايات : مجموعة من الأحاديث الدينية .

قصة سنجان : حكاية هجرة الزردشتيين إلى الهند بعد انتصار المسلمين وفتح إيران ، وعدة تراجم فارسية لمتون پهلوية . وقد أجرى وست بحثاً حول الآثار المذكورة في نهاية المقالة التي نشرها في كتاب أساس فقه اللغة الايرانية (ص ١٢٢ - ١٢٩) .

---

(١) Hoshang and Haug, Pahlavi-Pazend Glossary, Bombay and London, 1870.

(٢) تعليق المترجم : أنظر الصورة الأوضح التي سجّلها بهار ملك الشعراء في المجلد الأول من كتابه (سبك شناسى) عن الكتب والرسائل والمقالات البهلوية . طبقاً لراي الدكتور بارشاطر فإن طبعة يونكر أكثر فائدة :

H.F. Junker, The Frahang-i- Pahlavik, Heidelberg, 1912.

167 ولم تصلني في الفترة الأخيرة أية أخبار عن نشاط الزردشتيين الأدبي في يزد وكرمان . ورغم أنهم يتحدّثون بلهجة خاصة مجوسية فيما بينهم ، إلاّ أنهم حين يختلطون بمواطنيهم المسلمين لا يمكن التفرقة بسهولة بين لغتي الفرقتين . كما أنهم يقلّدون في أبجديتهم الخط المستعمل الآن بصفة عامة[1] .

وجود الشعر في عهد الساسانيين :

بحثنا موضوع وجود الشعر في عهد الساسانيين في الصفحات من ٢٦ إلى ٣٠* ، وخلصنا إلى أنه إن كان للشعر في ذلك العهد وجود فقد ضاع كلية ولم يبق منه شيء في أيدينا[2] . وما ذكر من قبل هو خلاصة قسم من الآثار البهلوية التي ضاعت ، وقد حفظها لنا بعض المؤرخين المسلمين - إلى حد ما - خاصة المتقدمين منهم أصحاب الأقلام العربية كالطبري والمسعودي والدينوري وأمثالهم . (وسبب قولي أن المؤرخين المذكورين أصحاب أقلام عربية . . هو أن أكثرهم كان من أصل إيراني) . لقد كان معظمهم يأخذون أكثر موضوعاتهم من الترجمات العربية للكتب البهلوية ، وكان بعضهم كابن المقفع - الذي كان يجيد اللغتين - يُعدُّ هذه الترجمات . وهناك صورة قدر كبير من هذه الترجمات في كتاب الفهرست . . غير أن

---

(١) تعليق المترجم : انظر كتاب مزديسنا وأثره في الأدب الفارسي للدكتور محمد معين (مزديسنا وتأثير آن در أدبيات فارسي) ، طبع جامعة طهران ١٣٢٦ هـ .

(٢) تعليق المترجم : كتب يار شاطر يقول : من المسلّم به أن الشعر كان له وجود في عصر الساسانيين ، أما الشعر العروضي - على النحو الذي يشاهد في الفارسية بعد الاسلام - فلم يكن له وجود . يمكنك أن تجد نماذج من الشعر البهلوي في كتابي (درخت أسوريك) و (يادگار زريران) ، كما أن هناك بعض المنظومات البهلوية على طريقة البندنامه .
انظر W.B. Henning, Apahlavi Poem, BSoas, 1950.

أما أهم الأشعار البهلوية والبارثية ، وأشعار المناجاة والأناشيد المانوية التي تليت بعد تأليف هذا الكتاب . . فيمكن بصددها الرجوع إلى :
F.C. Andreas and W.B. Henning: Mitteliranische Manichaica, Berlin, 1932-34.

* أنظر الأرقام المدوّنة على يمين المتن بالإفرنجية ، وهي أرقام الكتاب الفارسي الذي قمت بترجمته إلى العربية (المترجم إلى العربية) .

ترجمة ابن المقفع لكليلة ودمنة هي وحدها التي بقيت كاملة تقريباً .

(جلبت كليلة ودمنة ولعبة الشطرنج من الهند في زمن أنوشيروان العادل ، وترجمت إلى البهلوية من أجله) .

168 ومن كتبوا بالعربية قبل الطبري (ت ٩٢٣م) وكانوا أكثر من غيرهم اطلاعاً على أحوال إيران . :

الجاحظ (ت ٨٦٩م) ، الكسروى (ت ٨٧٠م) ، ابن قتيبة (ت ٨٨٩م) ، اليعقوبي (ت ٩٠٠) ، الدينوري (ت ٨٩٥م) ، المسعودي (عاش في أواسط القرن العاشر الميلادي) . . ومن كتبه التي تستحق الاهتمام بصفة خاصة كتابا مروج الذهب والتنبيه والاشراف ، حمزة الأصفهاني (ت ٦٩١م) ، أبوريحان البيروني (في أواخر القرن العاشر وأوائل الحادي عشر) ، البلازري (ت ٨٩٢م) ، محمد بن إسحق (آخر العاشر) ، مؤلف الفهرست ، وغيرهم .

ومن الآثار الفارسية التي ترجح غيرها أهمية في ذلك المجال . . تلك الترجمة التي وضعها البلعمى لتاريخ الطبري (٩٦٣م) ، ومجمل التواريخ الذي نجهل اسم صاحبه ، والحماسة الكبرى للفردوسي ، وهي الشاهنامه التي سوف نتحدث عنها في الحال .

القسم الرابع ـ حماسة إيران القومية

تحدثنا أكثر ما تحدثنا عن تاريخ إيران غير الأسطوري معتمدين على أقدم المصادر وأوثقها ، أمثال النقوش والمسكوكات وكتاب العهد القديم . وعلينا الآن أن نطلع على عقائد الايرانيين أنفسهم فيما يتعلق بأسراتهم الملكية القديمة . . ونقصد بذلك الاطلاع على أساطير إيران القومية التي تسير موازية للتاريخ الحقيقي منذ بداية عهد الساسانيين . وقد نضجت الأسطورة القومية المذكورة حين وضعت في صورة الشاهنامة الحماسية المشهورة .

والشاهنامه منظومة عظيمة مكوّنة من ستين ألف بيت . نظمها الفردوسي
[169] للسلطان محمود الغزنوي ، وقضى في نظمها أربعين سنة تقريباً كلها نصب وتعب ، وأنهاها في عام ١٠١٠ م . وسوف نتحدث عن هذه المنظومة الحماسية الكبرى من الناحية الأدبية بصورة أفضل ، في فصل من فصول كتابنا هذا . ولكن أهمية الشاهنامة ـ كمصدر يستقى منه الايرانيون عقائدهم المتصلة بتاريخ شعبهم القديم ـ تدفعنا إلى استعراض محتوياتها إجمالياً ، ودراستها من زاويتين :

الأولى : من حيث الكيفية والماهية ، والثانية : من حيث كونها جزءاً من مكوّنات الآثار القديمة . وقد بحث نولدكه هذا الموضوع بشمول ودقّة في المقالة التي كتبها للمجلد الثاني من كتاب أساس فقه اللغة الايراني[1] ، وجعلها بعنوان حماسة إيران القومية . ثم طبعت المقالة منفصلة عام ١٨٩٦ م في اشتراسبورج[2] .

وفي شرحنا المختصر هنا حول الأسطورة القومية والقصة البطولية استفدنا كثيراً من تلك المقالة القيّمة التي حوت أكبر قدر ممكن من المعلومات في ذلك الشأن .

وبالنسبة للعصور السابقة على الإسلام ، تصرح الشاهنامة بوجود أربع أسرات ملكية إيرانية هي :

البيشدادية والكيانية والاشكانية (أو البارثية ، ويطلق العرب على حكّامها ملوك الطوائف) والساسانية . والأسرتان البيشدادية والكيانية أسطوريتان من كل الوجوه ، ترتبطان بأساطير الأفستا والخرافات الهند وإيرانية بصفة عامة[3] وتعتبر الأسرة الثالثة ـ نتيجة أحد الاعتبارات ـ أسرة تاريخية إلاّ في الفترة الفاصلة بين
[170] الاسكندر الأكبر وأردشير أول ملك ساساني ، ولا يعلق بالذهن من بين حكّام هذه

---

(١) Pro-Nöldeke, Das Iranische Nationalepos, Geiger und Kuhn Grundriss der Iranishchen.
(٢) Philologie (Strassburg. 1896) Vol. ii.

(٣) تعليق المترجم : فيما يتعلق بتفسير أساطير الشاهنامة يمكن الرجوع إلى « ايندرا » (من نشريات مجلة يغما) .

الفترة سوى عدة أسماء وردت في الشاهنامة دون نظام وبطريقة غير سليمة . والأسرة الرابعة مطابقة للتاريخ تمام المطابقة ، بمعنى أن ملوكها شخصيات تاريخية . وقد ذُكر هؤلاء الملوك بترتيب صحيح ، وإن خالط سيرة حياتهم قدر كبير من الأساطير ، خاصة في القسم المتعلّق بأوائل ذلك العهد .

الأسرة البيشدادية : أول ملوك هذه الأسرة الأسطورية هو گيومرث الذي تسميه الأفستا گيومرتا Gayo Mareta . ويرى الزردشتيون أن گيومرتا أول الآدميين ، وأنه وأفراد رعيته كانوا يلبسون جلود النمور . وقد ساس الوحوش والحيوانات والحشرات ، وألفته كلها ، وحارب الشياطين ، وقُتِل ابنه سيامك في تلك الحرب . وقد مات گيومرتا بعد ثلاثين سنة فحلّ محله هوشنگ بن سيامك (هو شنج) . وحكم هوشنگ ٤٠ سنة . وتصادف أن استخرج النار من الحجر والفولاذ ، فأقرّ عيداً يقلم كل علم إحياء لذكرى هذا الاكتشاف الكبير ، أسماه جشن سده (عيد سده) . وجلس ابنه طهمورث - مقيد الشياطين - على العرش مكانه . وقد أسموه مقيد الشياطين لأنه كان يخضعهم له ويؤمّنهم على أرواحهم بشرط أن يعلّموه فن الكتابة[1] .

- علّموه الكتابة . . . وأضاءوا بالعلم قلبه .

لم يعلّموه لغة بل ثلاثين . . منها الرومية والعربية والفارسية[2] .

[171] وبعد حكم دام ثلاثين سنة ، حلّ ابنه جمشيد مكانه . وتزيد أهمية جمشيد على أهمية من سبقوه من الملوك . . كما تؤكد قصص إيران القديمة .

وقد حاول المؤرخون المتقدّمون الذين كتبوا بالعربية أن يخلطوا الأساطير السامية والكتاب المقدس بالخرافات الإيرانية ، فجعلوا من جمشيد وسليمان شخصاً واحداً . ويرى الايرانيون أن كل ما يوجد في أنحاء پرسپوليس من آثار هخامنشية

---

(١) تعليق المترجم : أنظر : فرهنگ إيران باستان ، القسم الأول ، تأليف پور داود الأستاذ بجامعة طهران ١٣٢٦ شمسي .

(٢) أنظر الشاهنامة ، طبعة ماكان ، ص ١٨ .

خاص بهذا العمل . ولديهم حق في أن يعتبروا بناء هذه الأبنية الضخمة أمر خارج
عن قدرة بشر ذاك الزمان ، وأن أناس ذلك العهد كانوا لا يملكون الوسائل (الحالية) ، وقد فعلوا ما فعلوا بمعونة الشياطين .

ولما كانوا يؤمنون بأن هناك ملكين فقط قد تحكّما في الشياطين ، وهما سليمان وجمشيد ، فقد أقروا أن سليمان وجمشيد هما اللذان أنشأ هذه البنايات . ولهذا يسمون پرسپوليس تخت جمشيد ، ويسمون مقبرة كورش مسجد أم سليمان ، ويسمون بناء الصفة الواقع على جبل قرب آثار دشت مرغاب . . باسم تخت سليمان .

وقد كان الزردشتيون يستحسنون هذا اللون من المطابقات بعد انتصار الاسلام لأن فيه صلاح وضعهم أمام الفاتحين ، كما أنه يوفّر لهم نفس المزايا التي ينادي بها الإسلام باعتبارهم من أهل الكتاب . والمقصود بأهل الكتاب اليهود والنصارى الذين اعترف رسول الإسلام بكتابهم المقدس ، رغم عدم إيمانهم بالقرآن . والمصدر الرئيسي لهذه المطابقات الخاطئة هو اعتبارهم أن زردشت وإبراهيم شخص واحد وأن الأفستا وصُحُف إبراهيم شيء واحد . أما المسلمون فيرون أن الصحف قد نزلت على إبراهيم وأنها إحدى المكاشفات الخمسة التي تبدّت للأنبياء الخمس العظام ، والمكاشفات الأربعة الأخرى هي :

أسفار موسى الخمسة (التوراة) ، الزبور أو مزامير داود ، إنجيل عيسى المسيح ، قرآن محمد بن عبد الله (ﷺ) .

[172] ولا شك أن الكتّاب المطلعين أمثال ابن المقفع كانوا يعرفون أن المطابقات المذكورة غير صحيحة ، ونحن بدورنا نعرف أن مطابقة كيخسرو وشيرويه (؟) مع كوروش وخشايارشا ـ كقول سير ويليم جونز Sir William Jones مطابقة خاطئة . ولهذا ينقل الدينوري (طبع جيرجاس ص ٩) عن ابن المقفع أن الإيرانيين الجهلاء وبعض من لا دراية لهم يظنون أن جم هو نفسه سليمان بن داود . . وهذا خطأ لأن الفارق الزمني بينهما أكثر من ثلاثة آلاف عام . وقد بات

معلوما الآن أن جم هو نفسه يِمه (بفتح الأول Yama،) الوارد في أساطير الهنود ، ويِمه (بكسر الأول Yima) الوارد في الأفستا .

(والجزء الأخير من هذا الاسم) (أي شيد) مجرد لقب كثيراً ما يحذف كما يحدث مع كلمة خورشيد ، لأن خورشيد هي نفسها خشئت Khshaêta في الأفستا بمعنى رئيسي ، جليل ، ملكي ، نوراني) . ويظهر بطل الأساطير الهندية والايرانية هذا في ثلاثة مواضع بأشكال مختلفة ، فيمه لدى الهنود الأوائل هو الوجود الفاني الذي انتقل إلى الدار الآخرة ، وهو بناء على هذا بلاطون Pluto الحاكم على عالم الأموات[1] .

وهو في الأفستا « يمه الجميل ، مالك القطيع الجيد » وابن ڤيڤنگهـا Vivanghoo (رغم أن هذا الاسم لم يرد في الشاهنامة فإنه ورد لدى المؤرخين المسلمين الأوائل أمثال الدينوري والطبري ، وكتبوه (ڤيڤُنجهان Vivanjhan) وقالوا إنه ابن إيران أو ارفخشد Arfakh shad بن سلم بن نوح . وقد كلّف ڤيڤنجها بحمل رسالة آهورا مزدا إلى البشر فلم يقبل ، فصدر له الأمر بأن يخلق حديقة غناء تعرف باسم ور (بفتح الواو والراء) للمحافظة على الناس من بلاء برودة انگر مينيوش (أهريمن) .

[173] . وهو في الشاهنامة جمشيد الملك الكبير الذي حكم ٧٠٠ علم ، ولم يكن أمره نافذاً على الناس فقط بل وعلى الشياطين والطيور والحور . وقد اخترع آلة الحرب والنسيج ، وعلَّم الناس كيفية الاستفادة من الحيوانات ، وقسَّمهم إلى طبقات

[174] أربعة : رجال الدين ، العسكريين ، الفلاحين ، الحرفيين[2] . وسخَّر الشياطين

---

(١) Hades تعليق المترجم : ورد هذا اللفظ احياناً بمعنى الجحيم وهو في اليونانية : دنيا المعرفة ، وفي العربية : الهاوية .

(٢) تعليق المترجم : هكذا يكتبون الطبقات المذكورة : كاتوزيان ، نيساريان بسودى أو نسودى (المزارعون) ، اهنوخوشى أو آهنوخوشي (الحرفيّون أو العمال) .

وقد وردت هذه الأسماء لدى الفردوسي في قصة جمشيد ، ويمكن الاطلاع على ذلك في الأبيات التالية .

زهريشه ور انجمن گرد كرد بدين اندرون نيز پنجاه خورد

النجسين في أعمال البناء . واستفاد من الأحجار الكريمة والفلزّات والعطور . ولجأ إلى استخدام الطب والعلاج والدواء وصناعة السفن . وصنع (كسليمان في الأساطير الإسلامية) عرشاً جوياً كانت تحمله الشياطين بين الأرض والسماء ، يجلس فيه هذا الملك النافذ الأمر فيسبح به في الهواء وكأنه الشمس المشرقة :

که چون خواستی دیو برداشتی	ز هامون بگردون بر افرا اشتی
چو خورشید تابان میان هوا	نشسته براوشاه فرمانروا

وبهذه الوسيلة ، كان يطير بهذا العرش إلى أي مكان يريد . وأتخذ من رأس السنة الجديدة عيداً قومياً عظيماً لإيران . . هو عيد النيروز (النوروز) أي وقت الاعتدال الربيعي حين تدخل الشمس في برج الحمل . وهنا أصابه الغرور فادّعى الألوهية فأسقطه الدهاك (الضحاك) الذي كان يدّعي أحقيته للعرش والتاج ، وانتهى الأمر بأن قتله .

والضحاك هو نفسه الثعبان الذي ورد في الأفستا باسم « ازى دهاك Azhi«

گروهی که کاتوزیان خوانیش	برسم پرستندگان دانیش
جدا کردشان ازمیان گروه	پرستنده راجایگه کرد کوه
صفی بر دگر دست بنشاندند	همی نام نیساریان خواندند
کجاشیر مردان جنگ آورند	فروزندهٔ لشکر وکشورند
نسودی سه دیگر گره راشناس	کجا نیست برکس ازایشان سپاس
بکارند و ورزند وخود بدروند	بگاه خورش سرزنش نشنوند
چهارم که خوانند اهنوخوشی	همان دست ورزان باسرکشی
کجا کارشان همکنان پیشه بود	روانشان همیشه پر اندیشه بود

وقد ضبط د . رضا زاده شفق هذه الأسماء وخلصّها من التحريف والتصحيف وذلك في « فرهنگ شاهنامه » طبع طهران ، شهريور ١٣٢٠ هـ .

كما كتب د . معين شرحاً حول تصحيف هذه الأسماء وتحريفها (مزد يسنا ، ص ٤٠٦ - ٤٠٨ ، تهران ١٣٢٦) .

وفيما يتعلق بالطبقات پيشوايان ورزميان وبرزيگران ، أنظر أدبيات مزديسنا - يشتها (جلددوم) قسمتى از اوستا ، ص ٣٣١ ، تأليف وتفسير آقاي پور داود .

Dahaka [1] ثم صار فيما بعد (اژدهاك أو اژدها) . وهو يشتهر بالحيتين اللتين كانتا تنبتان على كتفيه ، وكانتا تعتمدان في غذائهما اليومي على أمخاخ الآدميين دون غيرها . . وهو بهذه الصورة يماثل التنّين صاحب الرؤوس الثلاثة الذي يشاهد في سائر الأساطير الآرية .

وفي زمن الفردوسي كانت ذكرى الفتح العربي ما زالت حيّة والكراهية العنصرية ما زالت شديدة ، لذا مسخ الفردوسي[2] الدهاك وصوّره في صورة عربي . . ونتيجة لهذا التحوّل أصبح اسمه في الشكل العربي (الضحّاك) . [175] والضحاك ظالم قتل أباه ، وآلة اختارها الشيطان . كان الناس حتى ذلك الوقت لا يأكلون سوى النباتات فيبتعدون بذلك عن الذنوب والمعاصي ، فخدع إبليس الضحاك وأضلّه فأكل لحم الحيوان ثم لحم الآدميين .

ولما كان يحتاج أمخاخ الآدميين لإطعام حيتيه في كل يوم ، فقد ضاق القوم التعساء به ذرعاً ، وثاروا عليه بتحريض من « كاوه » الحداد بعد مرور ألف عام على حكمه لهم . وبعد القضاء عليه ، كانوا بدافع الوطنية ينزلون سترة هذا الحداد الجلديّة منزلة العبادة ، ويتّخذون من العَلَم الكاوياني (نسبة إلى كاوه) علَماً للحرية القومية .

وعاد الشاب فريدون بن آبتين من نسل طهمورث (وهو من أسرة الملوك) من مخبئه . ويدعى فريدون في الأفستا ترئتئونه Thraêtaôna ، ويسمّيه الهنود ترائي تنه Thrâitana . وقد احتل هذا الشاب بعودته عرش الملك ، وهنّأه القوم وامتدحوه ، وهزم الضحاك وأسره حياً ، وقيّده[3] في كهف بقمة جبل دماوند أو

---

(١) تعليق المترجم : أنظر : لغت نامه اقاى دهخدا ، ص ٢٠٠٣ ، ٢٠٠٤ ، ٢٠٠٥ .

(٢) تعليق المترجم : يقول تقي زاده : لم يغيرِّ الفردوسي الدهاك إلى (الضحاك) ، بل فعلت ذلك الكتب والأشعار الإسلامية السابقة على وجود الفردوسي بقرنين ، فقد استخدم الضحاك إسماً هذا الملك نفسه ولا صلة بين ذلك وبين خصومة العرب والايرانيين .

(٣) تعليق المترجم : أنظر : مقالة « نهاوند ودماوند » في مجلة آينده ، المجلد الأول ٣٢٩ ـ ٣٣٠ .

(دنباوند) (بضم الأول) كما حدث بالنسبة لبروميثيوس[1] . وقمّة دماوند العظيمة المخروطية الشكل تقع في الشمال الشرقي من مدينة تهران على وجه الدقّة .

وبين فرح الجميع وسرورهم اعتلى هذا الملك مسند العرش ، وقضى في الحكم خمسمائة عام ، نشر فيها العدل وقضاها بين قومه متّسما بالعظمة والجلال ، 17] ولهذا قيل في حقّه :

- لم يكن فريدون السعيد مَلَكاً ، ولم تكن طينته من مسك وعنبر .

- لقد نال بعدله واحسانه الحُسن والرفعة ، فاعدل وأحسِن تكن مثله وأكثر[2] .

ومع ذلك ، لم يسلم أفريدون من متاعب الزمن ، وكانت أسرته إحدى أسباب بلائه . لقد زوّج أولاده الثلاث من بنات سرو الثلاثة[3] (بفتح السين)[4] ، وقسّم أملاكه الواسعة بينهم مانحاً بلاد إيران (إيرانشهر) لايرج أصغر الثلاثة . وتسبب ذلك في إثارة حقد الأخوين الآخرين : سلم وتور ، إذ كانا يريان في إيران أفضل ميراث يمنحه الأب . وقد عمدا شأن الجبناء إلى الخداع

---

(١) تعليق المترجم : هو في اليونانية مؤسس الحضارة ، وهو في الروايات الكلاسيكية - في العصور التالية - خالق البشر الذي سرق النار من السماء أو الجنة ، وعلمّ الناس طرق الاستفادة منها . ونتيجة لفعلته هذه قُيِّد إلى سرير حجري في جبال القوقاز ورُبط بالسلاسل . وفي كل يوم كان يأتيه عقاب أونسر فيأكل كبده ، فما يكاد يمضي الليل حتى ينبت له كبد آخر . وأخيراً قتل هرقل الطائر ونجّاه .

(٢) النص الفارسي :

فريدون فرخ فرشته نبود ز مشك وز عنبر سرشته نبود
بداد ودهش يافت آن نيكوئي تو داد ودهش كن فريدون توئى

(٣) « سرو » في هذه القصة هو سلطان اليمن .

(٤) بضم السين ، طبقاً لترجمة البنداري النثرية العربية للشاهنامة عام ١٣٢٣ .

انظر : نسخة كمبريدج الخطية تحت رقم Qq ٤٦ وهي نسخة نفيسة ترجع إلى القرن الرابع عشر . لمعرفة شيء عن هذا المؤلف الهام أنظر مقالة نولدكه المتعلقة بالحماسة القومية في ايران (٧٧ ، حاشية رقم (٢) .

Nodlcke. Das Iranische Nationalepos

والحيلة إلى أن تمكّنا من قتل أخيهما الأصغر . وبعد مصرعه بفترة أنجبت زوجته[١] (ماه آفريد) ولدا[٢] ، هاجم عميه حين كبر ، وقتلهما وأحضر رأسيهما إلى جده فريدون . ولم يمض طويل وقت حتى تنازل الجدّ عن العرش والتاج لحفيده منوچهرين إيرج ، وسارع بالانتقال إلى دار الخلود .

[177] ويمكن أن يطابق بين أولاد فريدون الثلاثة ـ الذين وردوا في قصص إيران ـ وبين أولاد نوح : سلم وحلم ويافث . وقد نجم عن مقتل الأخ نشوب الحروب بين أبناء تور (التورانيين أو الأتراك)[٣] بقيادة أفراسياب المخيف وبين أبناء إيرج (الإيرانيين) . واستمر الأمر فترة كما ورد في الأساطير القومية وفي التاريخ الحقيقي لايران ، فهو بدوره حافل بهذه القصص من قصص الحروب . وهنا تبرز سلسلة من الأحداث والبطولات القومية لا وجود لها في الأفستا . . أحداث وبطولات تتصل بمجموعة من الأبطال والمحاربين الذين ينتمون لإحدى الأسر الكبيرة في سيستان وزابلستان . ومن الأسماء التي تلفت الأنظار أكثر من سواها : نريمان وسلم وزال ورستم وسهراب ، وأهم شخص من أصحاب هذه الأسماء : رستم .

مضت قرون على إيران ، لعب فيها رستم دوراً رسمه الله له لينقذ ملوك الكيانيين ـ خاصة كيقباد وكيكاوس وكيخسرو ـ من المشاكل والأخطار . وقد تمكّن بجواده (الرخش) ـ عن طريق سلسلة من البطولات والمعارك ضد الوحوش [178] والشياطين ـ من أن يلعب دوراً هاماً رئيساً في حياتهم . وقد انتهى الأمر بقتله غدراً

---

(١) تعليق المترجم : كانت جاريته وليست زوجته كما يتضح من البيت التالي :

که ایرج بر او مهر بسیار داشت قضارا کنیزك از او بار داشت

(٢) تعليق المترجم : أنجبت ماه آفريد بنتا لا ولداً :

چو هنگامه زادن آمد پدید یکی دختر آمد زماه آفرید

ولكن فريدون أحسن تربيتها وزوّجها لپشنك ابن أخيه ، وبعد تسعة أشهر جاء منوچهر إلى الدنيا .

(٣) تعليق المترجم : فيما يتعلق بالتورانيين الذين ينتمون لأصل إيراني ، أنظر مقالة « توران » ، جلد أول يسنا ، تفسير أوستاي آقاي پور داود ، فرهنگ شاهنامه ، تأليف د . رضا زاده شفق

على يد أخيه بعد أن قتل (رستم) أسفنديار . واسفنديار هو نفسه اسفندياذ أو سپندداد Spandedet بن گشتاسب (ويشتاسب) Vishtaspa حامي زردشت ونصيره . وقد تصور اشبيجل[1] أن اسم رستم لم يذكر عمداً في الأفستا ، وأرجع ذلك إلى أنه كان يعارض الدين ، لكن نولدكه[2] استبعد ذلك ورجّح الرأي القائل بأن أسطورة سيستان ورستم وأجداده لم تكن معروفة لمؤلفي الأفستا ، أو لم تبلغهم أخبارها قط[3] .

وعلى أي حال فإن اسم رستم لم يرد إلاّ في موضع أو موضعين فقط في الآثار البهلوية المكتوبة المتأخرة . ويبدو أن المؤرخ الأرمني الذي ينتمي لأهل خورن - واسمه موسى خورناتسي Moses of Khorene قد اطلع على اعماله البطولية في القرن السابع أو الثامن الميلادي ، في الوقت الذي اكتشف فيه العرب - فاتحي سيستان[4] اسطبل الرخش . يضاف إلى ذلك أن قائد جيوش إيران الذي قتله العرب في حرب القادسية (عام ٦٣٥م) له نفس اسم تهمتن الوارد في الأسطورة القومية الايرانية .

[17 ويصل بنا قتل رستم إلى نهاية عهد الكيانيين تقريباً . . عهد أساطير البطولة القومية الصرف . وقد خلف اسفنديار بن گشتاسب ولده بهمن (فهومن) Vôhumanô وطبقاً للتفسير الذي استقى فيما بعد من الشاهنامه فإن بهمن هو نفسه أردشير درازدست (طويل الذراع) (ارتخشتر)[5] ويطلق أحد المؤرخين

---

(١) Speigel, Arische Studien, P. 12

(٢) أنظر مقالة نولدكه حول الحماسة القومية الايرانية ، ص ٩
Noldeke, Das Iranische Nationalepos.

(٣) وقعت في يدنا أخيراً قطعة هامة تتعلق برستم ، مكتوبة باللغة السغدية تكشف عن انتشار قصة رستم في آسيا الوسطى . أنظر مقالة « رستم در زبان سغدي » في مجلة مهر ، عدد مهرماه ١٣٣١ ، الذي يشتمل على ترجمة هذه القطعة إلى الفارسية .

(٤) أنظر : مقالة نولدكه حول الحماسة القومية الايرانية ، ص ١١ ، العدد ٢ الحاشية .

(٥) Artaxerxes (Artakhshatr, Ardashir) Longimanus

المقالة السابقة ، ص ١٢ - تعليق رقم ٣ من الحاشية .

Noldeke: Das Iranische...: Besonderer Abdruck aus dem Grundriss der Iranischen Philologie (Strassburg, 1896)

السريانيين (ممن اقتبسوا معلوماتهم عن المصادر اليونانية) نفس اللقب على أردشير . وقد تزوج بهمن من أخته خماني (هماي)Khumani ، إذ كانت ديانة المجوس تبيح ذلك[1] . وحين رأى ساسان الطامع في العرش الكياني أن أخته هماي قد صارت ملكة وأن بهمن صار نائب السلطنة في إيران لجأ إلى الجبال[2] ، وخالط الأكراد واتخذ من الرعي حرفة له[3] . ويعتقد الايرانيون أن الملوك [180] الساسانيين ينتمون إلى أسرة ساسان ، وأن الساسانيين خلفاء الكيانيين الشرعيين ، ومجددو مجدهم وعظمتهم . ويرون أن أردشير بن بابك (ارتخشتر بن بابك) - زعيم الأسرة الساسانية - واحد من أحفاد ساسان بن بهمن . . الذي كان ابنا لگشتاسب حامي زردشت ونصيره . وقد استند الساسانيون إلى نسبهم هذا في إثبات أحقيتهم في حكم إيران وحماية الدين الزردشتي ، وجاهدوا - إلا القليل منهم - في سبيل الاحتفاظ بهذه الميزة .

رأينا كيف أغفلت كتب الحماسة القومية - إلى حد كبير - ما يتعلق بالپارثيين (الأشكانيين أو ملوك الطوائف) . ويُتصوَّر - بناء على ذلك - أن عهد الپارثيين كان فترة تحوّل مباشر ، بدأها دارا الثاني وأنهاها الساسانيون . . (دارا الثاني هو ابن دارا الأول السابق الذكر) . وهنا دخل الشاهنامة عنصر أجنبي تماماً ألا وهو قصة الاسكندر . ومصدر هذه القصة متن يوناني مفقود ينسب خطأ إلى كاليستن[1] ، وقد ترجم هذا النص إلى السريانية والمصرية والحبشية[2] والعربية

---

(١) تعليق المترجم : يرد في الشاهنامة ما يفيد أن هماي هي إبنة بهمن ، ويظهر ذلك من هذين البيتين :

يكى دخترش بود نامش هماي   هنرمند وبادانش وپاك راي
بدر در پذيرفتش از نيكوئى   بدان دين كه خوانى ورا پهلوى

(٢) الدينورى ، ص ٢٩ .

(٣) تعليق المترجم : يؤكد الفردوسي أن ساسان توجه إلى نيشابور ،

دمان سوى شهر نشابور شد   پر از درد بود از پدر دور شد
زشاه نشابور بستد گله   كه بودى بكوه وبهامون يله

(٤) تعليق المترجم : كاليستن Callisthenes من فلاسفة اليونان المؤرخين ، عاش بين عامي ٣٦٠ و ٣٢٨ ق . م على الأرجح . أما كاليستن الكاذب Pseudo-Callis فشخص آخر ، يظنون أنه كتب قصة

[18 والفارسية الحديثة ، وبقي لنا . ومصير الاسكندر في الأسطورة الايرانية مصير عجيب وقد لُقِّب في رواية أصلية زردشتية (كما جاء في أرد ويراف نامك Arda Viraf Namak البهلوي)[٢] بلقب الاسكندر الرومي الملعون ، وورد فيها أنه تسبب في مذبحة إيران وسعى في خرابها بناء على رغبة الأرواح النجسة ، وأنه أحرق تخت جمشيد والكتب الزردشتية المقدّسة ، (كانت الكتب الزردشتية المقدّسة مكتوبة بماء الذهب على ١٢ ألف قطعة من جلود الثيران[٣] ، ومحفوظة في خزائن پاپكان)[٤] قبل أن يهلك نفسه بنفسه ويمضي إلى الجحيم .

ثم تضافرت مضامين كاليستن البديعة مع ميل الايرانيين إلى حفظ كرامتهم القومية ورغبتهم في التئام الجراح التي أحدثها الاسكندر بجسد إيران . . فنتج عن هذا التضافر أن اعتبر الايرانيون ـ ومن بينهم الفردوسي ـ الإسكندر واحداً من جملة حكّامهم وملوكهم . وهذه الغيرة الوطنية نفسها هي التي عرفت طريقها إلى قلب مؤلفي تاريخ انجلترا السابقين ، فجعلتهم يعتبرون وليم الفاتح William the Conqueror ملكاً على الإنجليز .

وهذا ما قاله الايرانيون في ذلك الصدد :

[18: تزوّج دارا الأول من ابنة فيليب المقدوني (فيلقوس) ، ثم ضاق بها ذرعاً فطلّقها وأعادها لأبيها ، فلما عادت لليونان وضعت الإسكندر ، فهو بذلك إبن دارا .

الإسكندر الأكبر في الإسكندرية ، في القرن الثاني بعد الميلاد . وقد أعدّت الترجمة اللاتينية للقصة المذكورة في القرن الرابع الميلادي . والمصدر الرئيسي للكتب التي كتبت حول الاسكندر في القرون الوسطى ، تحت عنوان (إسكندر نامه) ، هو كتاب (فرهنگ بزرگ وبستر) أي معجم وبستر الكبير .
Webster's New International Dictionary of the English lang. Sec. ed. Unabridged. 1952, Springfield, Mass. U.S.A.
Budge's Book of Alexander

(١)

(٢) طبع هاوج Haug و وستWest ، ص ٤ و ١٤١ .

(٣) كتاب التنبيه والاشراف للمسعودي ، ص ٩١ .

(٤) تعليق المترجم : خزينة شاپيگان .
أنظر : مزديسنا لمحمد معين ، ١٣٢٦ ، نشر جامعة طهران ، ص ٤ .

ولكي يخفي فيليب إهانة ملك إيران لابنته أعلن أن الوليد الجديد إبنه من إحدى نسائه . وترتب على ذلك أن اعتبر انتزاع الاسكندر إيران من يد أخيه الشاب دارا الثاني بمثابة استرداد لحقّه باعتباره الابن الأكبر لملك إيران .

وعلى هذا النحو ينتهي العهدين الزاهرين : البيشدادي والكياني على يد الإسكندر . وبناء على رواية ثالثة نجد نظامي في كتابه (إسكندرنامه) الذي ألفه في القرن الثاني عشر الميلادي يجعل من الإسكندر والشخصية الرمزية المعروفة بذي القرنين شخصاً واحداً . وذو القرنين ـ الذي ورد ذكره في القرآن ـ كان معاصراً لموسى (ويظنه البعض موسى نفسه) .

ولما كان الاسكندر قد تربى على يد أرسطو (أرسطا طاليس) الحكيم الذي يخشى الله ، فقد أظهره نظامي في صورة ملك موحد ، أخذ على عاتقه مهمة نشر التوحيد وإزالة العقائد الفاسدة لدى الايرانيين الملحدين وعبدة الأوثان .

ويجب الاهتمام بما أثير حول الإسكندر ، والاهتمام بالعقائد المذكورة ، وإدراك أن الفكرة الحقيقية لهذا الموضوع غير عالقة الآن بذهن الشعب الإيراني ، وأن قصته مع داريوش (دارا) نابعة من مصدر أجنبي . والواقع أن ذاكرة القوم لا تساعد على تذكّر العصور السابقة على الساسانيين .

ويجب الاهتمام أيضاً بعهد البارثيين ، ففضلاً عن عدم الاتفاق الديني والروحي ـ كما ذكرنا ـ فإن هناك نقطة عجيبة تسترعي الإلتفات ، وهي :

[183] منذ وفاة الإسكندر حتى تأسيس الدولة الساسانية تكون قد مرّت خمسة قرون ونصف ، ومع ذلك تعوّد المؤرخون الايرانيون والعرب أن يقللوا المدّة المذكورة إلى ٢٦٦ سنة . وقد طعن المسعودي العالِم الشهير في كتابه التنبيه والاشراف في هذا الحساب الخاطىء ، وجاء بالدليل على بطلانه مستخدماً الاستنباط وفقاً للشرح التالي :[1]

(١) أنظر : طبعة دوخويه النفيسة ، المجلد الثامن ، ص ٩ ـ ٩٧ .
(Bibliotheca Geographorum Arabicorum (Leyden, 1893)

حين أسس أردشير[1] بن بابك الدولة الساسانية علم ٢٢٦ م - أي بعد الإسكندر بخمسمائة وخمسين عاماً - شاعت في إيران نبوءة مفادها أنه بعد مرور ألف علم على زردشت سوف يزول دينه وتزول معه الإمبراطورية الإيرانية . ولمّا كان عصر زردشت - وفق علمهم - سابق على الإسكندر بمدة ٢٨٠ أو ٣٠٠ سنة ، فإنه يكون قد مرّ من الأعوام الألف ٨٥٠ عاماً تقريباً .

وخشية أن تتحقق النبوءة ، ولكي تبقى أسرته مدة أطول . . اقتطع أردشير - عن علم وعمد - مدة ثلاثة قرون من المدة المذكورة . (الواقع أنه إذا كان يبغى من وراء خدعته إزالة أثر النبوءة فإنه قد أثبت أنه لم يكن يؤمن بها كثيراً) . وهكذا جعل الأمر يبدو كما لو كان قد مرّ من الألف علم ٥٦٦ عاماً فقط ، وأصبح لديه أمل في أن تبقى أسرته ٤٣٤ سنة أخرى .

والواقع أن هذا مطابق لما حدث ، فقد قتل يزد جرد الثالث - آخر ملوك الساسانيين - علم ٦٥١ - ٦٥٢ م .

ويرى المسعودي أن هذا التزوير التاريخي الخارج على المألوف كان سراً سياسياً من أسرار الجهاز الديني الإيراني . ووقوع مثل هذا التزوير يرينا إلى أي حد كانت شئون ديوان الأوراق وفن القراءة والكتابة كلّها في يد الموابدة والكتبة .

[184] وكما أوضحنا من قبل ، فإن صفحات أساطير إيران القومية كانت مزدانة - في عهد الساسانيين - بالأحداث الوهمية والقصص الخيالية . ومع ذلك فإننا نبلغ هنا مرحلة تاريخية حقيقية ، وكلما توغلنا غلب الجانب التاريخي عليها . ولما كان عهد الساسانيين هو موضوع بحثنا في الفصل التالي ، فسوف نكتفي بما قلناه ونتجاوزه إلى دراسة تاريخ الحماسة القومية الايرانية ومدى قدمها .

---

(١) تعليق المترجم : يرى تقي زاده أن السبب الحقيقي لحساب الـ ٢٦٦ عاماً الأشكانية مخالف لما قاله المسعودي . وموافق لما ذكره لوى الأمريكي في مقاله (The Era of Zoroaster) التي نشرها في المجلة الأسيوية الإنجليزية .

إن الإشارات الواردة في الأفستا حول أبطال الشاهنامة كافية لاثبات وجود أصول للأساطير القومية بصفة إجمالية . . حتى قبل الأفستا . لكن هذه المسألة وحدها لا تحوى في ذاتها الدليل على قدمها ، فقد ذكر نولدكه أن روايات المؤرخين اليونانيين حول ملوك إيران الأقدمين ـ خاصة رواية الطبيب كتزياس Ctesias عن أردشير[1] ـ تكشف عن وجود أوصاف حماسية مميّزة .

ويعترف كتزياس أن مصادر كتابه هي الكتابات الفارسية .

يضاف إلى ذلك أن تلك الأوصاف الحماسية متكررة تنتقل من ملك لآخر ومن أسره لأخرى ، لدرجة أن أصبح هناك تشابها عظيماً بين صراع كورش (أول ملك هخامنشي) مع الميديين وبين حرب أردشير (رأس الأسرة الساسانية) مع البارثيين . كما يلفت النظر ظهور السيمرغ أو الهما (العنقاء) وحماية ذلك الطائر [185] القوى لهخامنش (؟) Achaèmenes وزال وأردشير ، والدور المشابه الذي لعبه شخصان من أسرة قارن الشريفة لانقاذ نوذر الكياني وفيروز الساساني من يد الأعداء التورانيين .

ويمكننا أن نضيف إلى ذلك قصة داريوش مع زوبيروس Zopyrus وبيروز مع اخشنواز (خوشنواز) . وقصة زرير Zaridres أخي گشتاسب Hystaspes والأميرة اداتيس Odatis مأخوذة من تاريخ الإسكندر ، وقد ألفها أحد أهالي ميتيلن واسمه چرس Charas of Mitylene صاحب اتنا اوس Athenaeus وبقيت لنا بفضل اتنا اوس . والحادثة نفسها موضوع أقدم قصة پهلوية تعرف باسم يادگار زريران (ص ١٦٤ من نفس الكتاب) ، وقد كتبت بعد الميلاد بخمسمائة علم تقريباً . وهذا الكتاب الهام الصغير الذي يعتبر أقدم قطعة حماسية فارسية كتاب

---

(١) تعليق المترجم : أطلق اليونانيون على اردشير الثاني لقب أردشير « منمون » إذ يقال إنه كان يتمتع بحافظة قوية . ومنمون باللغة اليونانية بمعنى حافظة (ذاكرة) .
انظر : لغت نامه اقاي دهخدا ، ص ١٧١٧ .

شامل نوعاً ما لعصر إيران الحماسي القومي برمته ، رغم انه لا يبحث إلا في الأحداث القومية الأسطورية .

يقول نولدكه : ما يشاهد في تاريخ الشعوب الحماسي من مبالغة في الوصف يشاهد في هذه القصة أيضاً . وتنعكس مضامين قصة زرير وأصولها ثانية في ترجمة الطبري العربية المختصرة . والترجمة تكاد تطابق ما ورد في الشاهنامة . . ولهذا يجب أن تكون هذه القصّة مقتبسة من الشاهنامة ، وقائمة على رواية قديمة هي أصل حماسة إيران الكبرى[١] .

18]

ومن قصص الحماسة الساسانية ، هناك جزء بالپهلوية في حوزتنا ، هو كارنامك ارتخشتر پاپكان[٢] ، وأصل هذا الكتاب وترجمته الألمانية الآن في يدنا (ص ١٦٥ من هذا الكتاب) . ولو قارناً بين كارنامك ارتخشتر پاپكان وبين القسم المقابل لموضوعه في الشاهنامة (كما سنفعل في الفصل التالي) لا زددنا إيماناً بوفاء الفردوسي وأمانته تجاه مصادره ، لقد كان ما نقله من المصادر مطابقاً لأصل الموضوعات بصورة تسترعي الانتباه . وربما يرجع تاريخ تأليف كارنامك إلى علم ٦٠٠ م . وقد أثبت أجاثياس Agathias (٥٨٠ م) جانباً من أحوال ساسان وبابك وأردشير وأشار إلى تاريخ ملوك الفرس (تحدّث عن الجلود التي كتبوا عليها الموضوعات الملكية ، وتحدّث عن الكتب الفارسية وعن حياة الملوك) . . وهذا في حدّ ذاته يعدّ دليلاً آخر على أن الحديث حول أدب هذا العصر الپهلوي كان يدور ـ على الأقل ـ حول سيرة بعض الأفراد بمعزل عن غيرهم .

18]

طبقاً للمقدمة التي كتبت على شاهنامه الفردوسي (١٤٢٥ ـ ١٤٢٦ م) بأمر بايسنقر حفيد تيمورلنگ ، فإن المتن الكامل المنقّح لقصص الحماسة المدوّن بالبهلوية ـ إبتداء من گيومرث حتى خسرو پرويز (أي حتى علم ٦٢٧ م) قد دون

---

(١) تعليق المترجم : يقول تقي زاده : « كيف يمكن للطبري أن يقتبس من الشاهنامة بينما الشاهنامة المنثورة الأصلية نفسها قد ألفت بعد الطبري بنصف قرن تقريباً ؟ وإذا كان الطبري قد اقتبس عن مصدر الشاهنامة (أي خداي نامك) فإن سير الملوك تكون قطعاً ترجمته العربية .

(٢) Karnamak-i- Artakhshatr-Papakan

أبانَ حكم يزدجرد الثالث آخر ملوك الساسانيين . . على يد الدهقان دانشور . ويقول نولدكه في هذا الصدد :

تتمثل أهمية هذا الكتاب في إثبات مطابقة روايات المؤرخين العرب للشاهنامه حتى موت خسرو پرويز ، ثم ظهور الاختلاف الشديد بعد ذلك . وهذه المسألة في حد ذاتها تؤكد صحتها ، لأن كل موضوع يعكس الوطنية وحقوق الملكية وسلطة الملك . . يثبت وجوده تحت إشراف واهتمام ملكيين .

ويشير الكتّاب العرب أمثال حمزة مؤلف الفهرست وآخرين إلى كتاب خداي نامك (خداي نامه) هذا ، وقد ترجمه ابن المقفع إلى العربية في أواسط القرن الثامن الميلادي فاشتهر في عالم الأدب العربي . ومما يؤسف له أن هذه الترجمة قد ضاعت شأنها شأن الترجمة النثرية الفارسية التي وضعت علم ٩٥٧ ـ ٩٥٨م بأمر من أبي منصور المعمري لأبي منصور بن عبد الرزاق حاكم طوس . . وقد وضعها أربعة من زردشتيي هرات وسيستان وشابور وطوس[١] .

[188] وقد بدأ الدقيقي نظم الشاهنامة الفارسية لنوح بن منصور الساماني (٩٧٦ ـ ٩٩٧م) معتمداً على هذا الكتاب أكثر من غيره . وقد نظم ألف بيت فقط حول سلطنة كشتاسب وظهور زردشت ، قبل أن يُقتل على يد غلام تركي . وبعد سنوات ، قلم الفردوسي بإكمال ما بدأه الدقيقي ، وأكمل هذه الحماسة القومية في ستين ألف بيت (بما فيها الألف التي نظمها الدقيقي) فأخذت صورتها النهائية .

وعندما نتحدث حول الأدب الفارسي الحديث سنتحدث عن الدقيقي والفردوسي لذا نكتفي بما قلناه عنهما في فصلنا هذا . . مؤكدين أن الشاهنامه آخر عمل تفصيلي متكامل لحماسة إيران القومية ظهر حتى الآن[٢] .

---

(١) أنظر : الآثار الباقية للبيروني ، ترجمة زاخو ، حماسه ملي إيران لنولدكه ، ص ١٤ ، ١٥ .

(٢) تعليق المترجم : لدراسة أوسع حول الشاهنامة أنظر للمقالات والخطب التي دبّجها والقاها علماء إيران والمستشرقون في عيد الفردوسي الألفي في مهرماه عام ١٣١٣ ش ، ونشرتها وزارة التربية في دي ماه عام ١٣٢٢ ش في طهران في مجلد واحد ، خلاصة شاهنامه فردوسي ـ اختيار محمد علي فروغي

ذكاء الملك ، طبع طهران في مجلدين عام ١٣١٣ ش ، فرهنگ شاهنامه باشرح حال فردوسي وملاحظاتي درباب شاهنامه لرضا زاده شفق ، شهريور ١٣٢٠ ، فردوسي نامه مهر (عدد مهر وآبان ١٣١٣ - مجلة مهر - إدارة مجيد موقر) ، كتاب حماسه سرائى در إيران لذبيح الله صفا ، تهران ، اسفند ١٣٢٤ ، كتاب فرماند هي خداوند جنگ ، سپهبد فردوسي . . جمع أحمد بهارمست ، كتاب حماسه ملي إيران لتولدكه ترجمة اقاي بزرگ علوى ، نشر جامعة طهران ١٣٢٧ ، فرهنگ شاهنامه فردوسي للعالم الألماني فريتز ولف برلين ١٩٣٥ م .

Fritz Wolff, Glossar Zu Firdosis Schahname, Berlin, 1935.



[18

الباب الثاني

تاريخ إيران من بداية قيام الساسانيين حتى سقوط بني أمية



[190]

الفصل الرابع

العهد الساساني

٢٢٦ ـ ٦٥٢ م



[191 لا يتسع هذا الفصل لاستعراض تاريخ الساسانيين بالتفصيل فليس هذا في حيز الإمكان . ومن جهة أخرى فإن لهذا العصر من الأهمية ما يجعلنا نهتم به ولا نهمله كلية .

إن العصر الساساني عصر تطور . . نهاية عصر قديم وبداية عصر جديد ، وبين العصرين ارتباط . . وإذا كان هذا العصر قد حظي بنصيب كبير من مجد الهخامنشيين وعظمتهم فإنه كان يرجح تاريخهم إشعاعا وإشراقا . ويتبّدى الاشعاع والإشراق في النقوش والمسكوكات والأختام والمؤلفات الخاصة بهم . وقد أثبت المؤرخون وكتّاب التاريخ العربي والفارسي تلك المؤلفات ، كما عاونت الآثار البيزنطية والسريانية والأرمنية واليهودية على بقائه . ويطلق اليونانيون على الملك الساساني لقب خسرو ، أما العرب فيسمونه كسرى Chosroes (وجمعها في العربية أكاسرة ـ وهم الذين أحيوا إمبراطورية إيران القديمة والدين الزردشتي) ويقول المسعودي في حقهم في كتابه التنبيه والاشراف (ص ٦) : « وإنما اقتصرنا في كتابنا هذا على ذكر هذه الممالك لعظم ملك ملوك الفرس وتقادم أمرهم واتصال ملكهم وما كانوا عليه من حسن السياسة وانتظام التدبير وعمارة البلاد والرأفة بالعباد وانقياد كثير من ملوك العالم إلى طاعتهم وحملهم إليهم الأتاوة والخراج ، وأنهم ملكوا الإقليم الرابع وهو إقليم بابل أوسط الأرض وأشرف الأقاليم » .

[19 وقد نظم أحد الشعراء هذا المعنى في نفس الكتاب (ص ٣٧) باللغة العربية ، ومع ذلك أبدى فخره بانتسابه إلى الأسرة الملكية الإيرانية :

وقسمنا ملكنا في دهرنا	قسمة اللحم على ظهر الوضم
فجعلنا الشام والروم إلى	مغرب الشمس إلى الغطريف سلم
ولطوج جعل الترك له	فبلاد الترك يحويها ابن عم
ولإيران جعلنا عنوة	فارس الملك وفزنا بالنعم

رأينا كيف كان ملوك الساسانيين يلقبون أنفسهم بالإله أو الموجودات

السماوية (بالپهلوية بغ ، وبالكلدانية الاها وباليونانية تثوس) . ورأينا كيف كانوا يعتبرون أنفسهم الخلفاء القانونيين للأسرة الكيانية الأسطورية وورثة عظمتهم . وكانوا يضفون على أنفسهم في الواقع مظهرا يسمى في العبرية (شخينه) . . بمعنى أنهم كانوا يرون أنه ما دامت هناك على وجه الأرض مشيئة إلهية وجلال وجبروت فإن مفرق أفراد تلك الأسرة هو وحده الجدير بتاج الامبراطورية الايرانية . وكانوا يحاولون قدر إمكانهم تركيز عظمتهم في أذهان رعاياهم .

وفيما يتعلّق بكيفية وصول الأسرة الساسانية إلى الجلالة الكيانية سوف ننقل عن قرب أسطورة غريبة . وهذا مثال اقتبسناه من سيرة ابن هشام (وستنفلد ص ٤٢) . . كنموذج لتوضيح عظمة ملكهم : « وكان كسرى يجلس في إيران مجلسه الذي فيه تاجه مثل القنقل العظيم فيما يزعمون ، يضرب فيه الياقوت والزبرجد واللؤلؤ بالذهب والفضة معلقاً بسلسلة من ذهب في رأس طاقة في مجلسه ذلك ، فكانت عنقه لا تحمل تاجه إنما يستر بالثياب حتى يجلس في مجلسه ذلك ، ثم يدخل رأسه في تاج ، فإذا استوى في مجلسه كشف عنه الثياب فلا يراه رجل لم يره قبل ذلك إلاّ برك هيبة له » .

[193] ويبدو أنه لم يحظ أي مبدأ بالتبعية في أي مملكة كما حظى مبدأ الحق السماوي للملوك من آل ساسان . يقول نولدكه : إن من لا ينتمي إلى الأسرة الملكية ـ كبهرام چوبين العظيم المتمرد أو شهر براز المغتصب للحكم ـ كان مصيره التكذيب واعتبار تصرفه من قبيل الشر وقلة الحياء . والقصة التالية تعكس بجلاء أحاسيس معظم الناس ، وقد نقلها الدينوري (ص ٩٨) معلّقاً بها على فرار بهرام چوبين بعد هزيمته أمام خسرو پرويز وأعوانه الروميين :

« وفر بهرام على عجل فبلغ قرية وأقام بها . ودخل أتباعه صومعة عجوز وتناولوا ما معهم من طعام وأعطوها ما بقي منه ، ثم أخرجوا الشراب ، وسألها بهرام :

أليس لديك شيئاً نتناول فيه الشراب ؟ قالت : لدي يقطينة صغيرة . وأحضرتها لهم ، فقطعوا رأسها وشربوا فيها خمرهم . عندئذٍ أخرجوا بعض الفواكه المسكَّرة ، وقالوا للعجوز : ألديك شيء نسكب فيه نقلنا ؟ ، فجاءتهم بغربال وضعوه فيه . وأمر بهرام لها بالشراب ، ثم سألها : أيتها العجوز ، أي خبر لديك ؟

19] وأجابت العجوز : سمعنا أن خسرو قد التقى بجيوش الروم وتحارب مع بهرام وهزمه واستردَّ ملكه منه . . . . وسألها بهرام : وما رأيك في بهرام ؟ قالت : جاهل أحمق يدّعي الملك بينما هو لا ينتسب للأسرة الملكية . فقال بهرام : لهذا شرب الخمر من اليقطينة وأكل النقل من الغربال . . فأصبح قول بهرام مضرب المثل في إيران »[1] .

19] وأعتقد أن لگبينو Gobineau الحقّ في قوله إن القوم كانوا يرون الملك حقاً سماوياً أو موهبة إلهية قد أودعت في الأسرة الساسانية . وكان لهذا الاعتقاد أثره الكبير في عصور إيران التاريخية التالية ، كما كان له أثره في تعلّق الايرانيين الشديد بالمذهب الشيعي تأثراً منهم بالعقيدة التي ألصقوها بإحكام بمذهب الشيعة .

كان من الطبيعي جداً لدى العرب الديمقراطيين أن ينتخب خليفة رسول الله ، بينما كان هذا في نظر الشيعة أمراً غير طبيعي يثير النفور . لهذا وجدناهم ينفرون من عمر الخليفة الثاني للسنة والجماعة ، الذي أسقط الامبراطورية الإيرانية . ولا شبهة قط في بغض الايرانيين لعمر وإن تبدّى ذلك في لباس المذهب . ويعتقد الايرانيون أن الحسين بن علي (ع) ـ الإبن الأصغر لفاطمة الزهراء بنت النبي الكريم ـ قد تزوّج من شهربانو إبنة يزدجرد الثالث آخر ملوك

(١) تعليق المترجم : وردت هذه القصة لدى الفردوسي بصورة أخرى . والعبارة التي يقول الدينوري أنها باتت مضرب المثل إشارة إلى آخر بيت أورده الفردوسي حول هذه القصة . انظر الشاهنامة ، طبع بروخيم ، تصحيح سعيد نفيسي ، تهران ١٣١٤ ص ١٧٨٨ ـ ٢٧٨٩ ـ وتبدأ الأشعار بالبيت التالي :

همى راند بيراه ودل پر زبيم   همى برد باخويشتن زر وسيم

وتنتهي بالبيت التالي :

بدو گفت بهرام اگر آرزو   چنين گرادگو مى خورد ازكدو

الساسانيين ، وبناء عليه فإن فرقتي الشيعة الكبيرتين (الإثني عشرية المنتشرة في إيران الآن والإسماعيلية ذات الأئمة السبعة) لا تمثلان حقوق أسرة النبوة وفضائلها فحسب وإنما تحققان حقوق الملكية وفضائلها أيضا ، لأن أرومة كل منهما قد [196] تحققت من ناحيتين : بيت الرسالة والأسرة الملكية الساسانية . ومن هذا المنطلق نشأت العقيدة السياسية التي أشار إليها گبينو في كتابه[1] : « الأديان والفلسفات في آسيا الوسطى » (ص ٢٧٥) ، وهذه ترجمة ما قاله :

« من المبادىء العقائدية السياسية التي يعتنقها الإيرانيون دون مناقشة . . أن أتباع علي بن أبي طالب هم وحدهم أصحاب الحق في التاج والعرش لأن لهم نسبا من جهتين :

من جهة الساسانيين عن طريق أمهم بي بي شهربانو إبنة يزدجرد آخر ملك في هذه الأسرة ، ومن جهة أسرة الإمامة صاحبة الرياسة الدينية الحقة . والملوك الذين لا يتبعون عليا يلقبون فعلا بالملوك ، لكنهم في نظر المتعصبين للأصول مجرد غاصبين جائرين ظالمين ، لا يعترف أحد بهم كأصحاب حق وحكام للدولة الشاهنشاهية . وسوف لا نطيل الحديث حول هذه العقيدة الراسخة القاطعة التي لم يصدع مرور الزمان بنيانها إلى عصرنا هذا . ولنا بحث تفصيلي حولها في كتاب آخر . . . وعلى أساسها بني البابية كل سياستهم » .

والآن وعلى مدى قرون طويلة ـ سواء أكانت هذه الزيجة قد وقعت أم لم تقع ـ فإن هذا الأمر مقبول لدى الشيعة كحقيقة تاريخية . واليعقوبي من أوائل المؤلفين الذين أشاروا إلى ذلك (المجلد الثاني ص ٢٩٣ طبع هوتسمه) . . وهو مؤلف عربي كان يعيش في آخر القرن التاسع الميلادي . وهذا ما قاله هذا المؤلف في شرح فاجعة قتل الامام الحسين :

[197] « وكان للحسين عليه السلام من الولد علي الأكبر لا بقية له قتل بالطف[2] ،

---

(١) Gibineau, Religions et Philosophies dans L'Asie Centrale

(٢) الطف قسم من عربستان يجاور أراضي العراق المزروعة .

وأمه ليلى بنت أبي مرة بن عروة بن مسعود الثقفي ، وعلى الأصغر وأمه حرار[1] بنت يزدجرد وكان حسين سماها غزالة » . وما زالت لشهربانو - وهي أم الأئمة التسعة (من الرابع إلى الثاني عشر) - مكانتها في قلوب مواطنيها . وهناك جبل على بعد فرسخ من جنوب تهران ، إسمه جبل بي بي شهربانو . . لا يسمح للرجال بوطأ حرمه . وتتوجّه النساء إلى هذا الجبل لزيارة بي بي شهربانو للتشفع بها لدى الله لقضاء حاجتهن .

وبي بي بطلة من بطلات مجالس العزاء الايرانية التي تقام سنويا في كل مدن إيران وحيث يسكن المهاجرون الايرانيون . ويشارك الشيعة أفواجا وبعيون دامعة في العزاء .

وفي قسم من قصة وردت على لسان شهربانو في كتاب (تعزيهٔ غائب شدن شهربانو ، طهران ١٣١٤ هـ ، ص ١٩) نجدها ترجع نسلها إلى يزدجرد ، وترجع نسبها إلى أنوشيروان ، وتورد حديثا دار بينها وبين فاطمة الزهراء في المنام حول الحسين تبشّرها فيه بزواجها منه بعد تركها المدائن إلى المدينة ، وبظهور تسعة أئمة من صلبها) :

ز نسل يزدگرد شهريارم ... زنو شيروان بود اصل نزارم
درآن وقتى كه بختم كامران بود ... بدان شهر ريم اندر مكان بود
شبى رفتم بسوى قصر بابم ... بيامد حضرت زهرا بخوابم
بگفت اي شهربانو باصد آئين ... تورا من بر حسين آرم بكابين
بگفتم من نشسته در مدائن ... حسين اندر مدينه هنست ساكن
محال است اين سخن ! فرمود زهرا ... حسن آيد بسردارى در اينجا
تو ميكردى اسير اي بي قرينه ... برندت از مداين در مدينه[2]

---

(١) فضلاً عن شهربانو (التي يسميها الايرانيون الحاليّون بهذا الاسم) هناك أسماء أخرى أثبتها بعض الكتاب من بينها السلافة وشاه زنان .

(٢) المدائن جمع مدينة . حين هاجر النبي إلى يثرب تباهت بقدومه وسميت بمدينة النبي أو المدينة . والمراد

بفرزندانم حسين پيوند سازى | مرا ازنسل خود خرسند سازى
زنسلت نه إمام أيد بدوران | كه نبود مثلشان در دار دوران

[198] وتوضح الأسطر التالية مشاعر كراهية الإيرانيين لعمر وحبهم لعلي إلى حد يكشف عن روحهم بصورة لا يمكن تجاهلها :

[199] ولى چون شد مدينه منزل ما | غم عالم فزون شد بر دل ما
يكى گفتاكه اين دختر كنيز است | يكى گفتا بشهر خود عزيزاست
بمسجد مرد وزن دربام محضر | مرا نزد عمر بردند ، مادر
كلامى گفت كز او در خروشم | بكفت اين بيكسان را ميفروشم !
على جدت چو برآمد خروشان | بگفتا لب ببند اي دون نادان !
نشايد بردن اي ملعون غدار | بزرگان راسر عريان ببازار !
پس از آن خوارى اي نور دو عينم | بيخشيدند بر بابت حسينم
حسين كرده وصيت بر من زار | نمانم در ميان آل اطهار
اگر مانم اسير وخوار گردم | برهنه سر بهر بازار گردم
تو چون هستى إمام وشهريارم | بدست تست ، مادر ، اختيارم
اگر گوئى روم ، دردت بجانم | صلاحم گر نميداني بما نم !

[200] ويتسّد المسيحيون ـ وخاصة السريانيون ـ الساسانيين في صورة بالغة العتمة . ويقول نولدكه أن غالبية المستشرقين لم يستفيدوا من هذا المصدر بالقدر الكافي . . ويوصي بمصدرين يمكن لدارسي تاريخ إيران الرجوع إليهما ، ما دام قد

بالمدائن تيسفون عاصمة الساسانيين القديمة في كلده . ويقول الجغرافيون العرب أنها سميت المدائن لأنها كانت تتشكل من اتحاد سبع مدن . (أنظر : فرهنگ جغرافيائي وتاريخي وأدبي إيران ، تأليف باربيه دومنار ، ص ٥١٩) .
Dictionnaire Géographique, Historique et Literaire de la Perse, Paris, MDccLXi.

وإذا كان قد حدث خلط في هذه التعزية بين مدينة الري القديمة والتيسفون فهذا دليل على أن التعازي أصلاً مستحبة لدى العوام وليس فيها جانب علمي . ولهذا فإنها حين تعبّر عن المشاعر القومية يكون لها معنى أكبر وأهمية أكثر ، لأن الأحاسيس التي تبرز في التعازي أحاسيس الشعب ، وليست أحاسيس من يدّعون العلم .

تعذر عليهم الرجوع للأصل : الأول كتاب يرجع تأليفه إلى علم ٥٠٧ م[١] وهو في وصف فتح اسيا الصغرى على يد قباد ، والمتاعب التي تعرضت لها أدسا[٢] (الرهاء) وامد[٣] (اورفا وديار بكر حالياً) . والثاني وثيقة أو سجل لأحداث تتعلق بشهداء إيران[٤] . . وهذه الوثيقة مستخرجة من عدة نسخ خطية سريانية ترجمها إلى الالمانية وترجم ما عليها من تعليقات وحواش كثيرة . . جورج هوفمن[٥] .

والكتابان يُظهران الايرانيين - لأسباب سياسية ودينية بالطبع - في صورة قتلة مرعبين . وحين نقرأ الكتاب الأول ونوازن بين مسلكي الإيرانيين وأعداء دينهم من [201] المسيحيين نحسّ أن الايرانيين كانوا أقل من أعدائهم ميلاً للظلم والخداع والتزوير . . ولكنّا نعرف أن حرباً مهلكة قد نشبت، خرب منزل المؤلف أثناءها وضاع متاعه، وأنه قد شرح الوقائع بعد عامين أو ثلاثة من انطفاء نار الحرب . . فإذا كانت هذه لهجته في بعض الأحيان فذلك أمر طبيعي ، وليس غريباً أن يقول:

« إن هؤلاء الأشرار لم يرحموا من استسلموا لهم ، وكانوا يجدون في عملهم هذا لذة ومتعة ، لقد كانت عادتهم التلذذ عن طريق الإساءة لأفراد البشر » .

لقد تصاعدت حدة المشاعر المذهبية لدى كل جانب من الجانبين ، ونتيجة للتجاهل لم يرجح الموابدة القساوسة أو العكس . ولكي نعرف إلى أي حد أثر المذهب في آراء المؤرخين حول طباع الرجال ، علينا أن نقارن بين ما وصلنا من

---

(١) The Chronicle of Joshua the Stylête

طُبع متنه وطُبعت ترجمته في كمبريدج ١٨٨٢ م بإشراف الدكتور رايت .

المترجم : هذا الكتاب بالسريانية ، يؤرخ لحرب إيران واليونان بين عامي٥٠٢ ، ٥٠٦ م ، ويبدو أن مؤلفه كان يعيش في ادسا (الرهاء) في فترة الحرب ، وأنه شهد بنفسه الكثير من وقائعها . . (دائرة المعارف البريطانية - المجلد ١٣ - عام ١٩٢٩ م) .

(٢) تعليق المترجم : يرى تقي زاده أن أدسا Edessa هي نفسها الرهاء .

(٣) Amid

(٤) Acts of the persian Martyrs

(٥) Von Georg Hoffmann: Auszüge aus syrischem Akten Persischer Märtyrer (Leipzig, 1880).

مختلف الأقوال حول حياة يزدجرد الأول (٣٩٩ ـ ٤٢٠ م) . لقد كان المؤرخون العرب يستقون معلوماتهم عن الكتاب البهلوي « خداي نامه » المدوّن تحت تأثير الموابدة المجوس ونفوذهم . فلو قارنا بين وصفهم لسيرة هذا الملك وبين الوصف السرياني الذي وضعه كاتب مسيحي معاصر حول سيرة نفس الملك . . لوضح التأثير الديني ، فكتّاب الفريق الأول يسمونه يزدجرد (الأثيم) ، ويصفونه بخبث الطويّة والظلم الصارخ ، بينما يراه السريانيون ملكا طيبا رحيما ويدعون له بالخير ، ويرجون أن يكون مستقبله أسعد من حاضره وأن يدوم إحسانه على المحتاجين[١] .

[202] وقياسا على ما سبق ، حصل خسرو الأول على لقب أنوشيروان (أنوشك روبان = أنوشه روان ، أو صاحب الروح الخالدة) وما زال خسرو الأول (٥٣١ ـ ٥٧٨) يُذكر كممثل حقيقي للتقوى والعدل الملكي . ويرى الموابدة المجوس المتشددين أن مسلك كسرى المتشدّد تجاه مزدك وأتباعه وتجاه بدْعِه التي جاءت عن طريق مسلكهُ الاشتراكي فيه الدليل القوي على خلود روحه وأبديتها . ولعلّ احترام الموابدة لأنوشيروان هو الذي دفع السعدي إلى أن يقول رغم تعصُّبه للاسلام :

ـ ظل اسم أنوشيروان السعيد بالعدل حيا
رغم مرور السنين وموت أنوشيروان[٢] .

ويتضح مما قاله الدينوري (صفحة ٧٢ من كتابه) أن أنوشيروان كان يحتقر المسيحيين ويزدريهم . وحين اعتنق ابنه (نوش زاد) ديانة أمه المسيحية وتمرّد على أبيه ، وراسله نائب السلطنة في تيسفون[٣] ليكل إليه الأمر ، ردّ على خطابه قائلا :

---

(١) نولدكه : تاريخ الساسانيين ، ص ٧٤ ـ الحاشية الثالثة .
Noldeke, Gesch. d. Sassaniden.

(٢) زنده است نام فرخ شيروان بعدل
گرچه بسی گذشت كه شيروان نماند

(٣) المترجم : ورد ذكر حارس المداين في الشاهنامة .

« لا تخش هذه الحشود فهي لا قدرة لها على المقاومة ، ولو لطمت واحدا على خده الأيسر لأدار لك الخد الأيمن طبقا لدين المسيح . . فكيف يمكن لمثلهم ان يهب ريثور » ؟

[203 نعود للهدف من كتابه هذا الفصل . . ما دمنا لا نستطيع شيئا أكثر من استعراض بعض النقاط الخاصة بتاريخ هذه الفترة فلنتحدث عن بدايتها ونهايتها . وترجع أهمية بدايتها إلى اختلاطها في معظم الأحيان بالأساطير والخرافات ، ومطابقة قسم من القصص - كما ورد نظما في شاهنامة الفردوسي - بالأحداث التي وردت في الكتاب البهلوي « كارنامك ارتخشتر بابكان » . أما نهايتها فتكمن أهميتها في ارتباطها المباشر بانتصار العرب المرادف لبداية العصر الحديث أو العصر الإسلامي . ويضاف إلى ذلك ظهور حركتين مذهبيتين هامتين إلى حد ما : حركة مانى[1] وحركة مزدك . وفي الحركتين شاهد صدق على ما يقال عن ولع الايرانيين بالفكر الفلسفي . وكلنا يعرف أن شعب إيران - أكثر من سواه - قد أخرج للوجود رؤساء فرق ذوي خطر كان مسلكهم مثيرا للبدع . وقد ولد مانى - بناء على قوله -[2] إبان حكم اردوان (ارتبانوس) Artabanus آخر ملوك بارث (البارثيين) ، وكان معاصرا لمؤسس الأسرة الساسانية . وفي عام ٥٢٨ م قتل مزدك على يد أنوشيروان . ولم تكن علامات وهن الأسرة الساسانية - حتى ذلك الوقت - مستترة خافية ، لكنه لم يكن هناك من بين ملوكها من له مثل هذه القوة وذاك النفوذ .

وبناء على ما تقدم سوف نقسّم هذا الفصل إلى أربعة أقسام :

الأول : أسطورة أردشير وتأسيس الأسرة الساسانية .

الثاني : مانى وأصول عقائده .

الثالث : أنوشيروان ومزدك .

الرابع : آخر أيام الأسرة الساسانية .

---

(١) تعليق المترجم : لم يظهر مانى في نهاية عهد الساسانيين بل في أوائل عهدهم .

(٢) أنظر : الآثار الباقية للبيروني - ترجمة زاخو ، ص ١٢١ .

تسير أحداث هذه الأسطورة ـ كما وردت في كارنامك وفي الشاهنامة ـ على النحو التالي :[1]

١ ـ ساسان من الظهر الخامس لبهمن درازدست (ص ١٧٩ و ١٨٠ من نفس الكتاب) . يدخل في خدمة پاپك (بابك) حاكم پارس ويعمل لديه راعياً . ويرى بابك في المنام أن ساسان من أسرة ملكية فيرفع منزلته ويبالغ في إعزازه وتكريمه ويزوّجه ابنته فينجب أردشير (كارنامك ص ٣٦ ـ ٣٨ ، الشاهنامة ص ١٣٦٥) .

٢ ـ يتبنى أردشير بابكُ ، وحين يكبر وتصل أخبار شهامتِه وذكائه وتمرّسه بالقتال أذني أردوان ـ آخر الملوك الأشكانيين ـ يدعوه للحضور إلى بلاطه في الري ويستقبله باحترام . وأثناء الصيد يدّعي ولد من أولاد أردوان أنه الذي أطلق من قوسه سهماً عجيباً وليس أردشير ، ويكذّب أردشير ادّعاءه ، فيغضب أردوان من أجل ابنه ، ويعنف أردشير ، ويدفع به إلى الإسطبلات الملكية لخدمة خيله (كارنامك ، ص ٣٨ ـ ٤١ ، الشاهنامة ، ص ١٣٦٦) .

٣ ـ ترقّ جارية جميلة لحال أردشير ، وكانت هذه الجارية موضع ثقة أردوان . تفر [205] الجارية بأردشير إلى بلاد فارس على جوادين لهما سرعة الريح . يسرع أردوان في أعقابهما ثم يعود على عجل لعلمه بأن كبشا جميلاً حربياً أو جبلياً ـ هو دليل العظمة الملكية ويسمى بالوعل الجبلي ـ قد تبع أردشير ولحق به وركب ظهر جواده . (كارنامك ص٤١ ـ ٤٦، الشاهنامة ص ١٣٧٠) .

٤ ـ حروب اردشير مع البارثيين وغيرهم ، وإيقاعه الهزيمة بأردوان وابنه ، وهزيمته هو على يد الأكراد . (كارنامك ص ٤٦ ـ ٤٩ الشاهنامة ص ١٣٧٤) .

---

(١) استفدنا من ترجمة نولدكه لكارنامك ومن مقدمته عليها (ص ٢٢ ـ ٣٤) ، واستفدنا من شاهنامة ماكان ، طبع كلكته ، المجلد الثالث ، ص ١٣٦٥ ـ ١٤١٦ .

٥ ـ قصة هفتان بخت (هفتواد) ودودة[1] كرمان العملاقة ومحاربة سيرك (مهرك) (كارنامك ٤٩ ـ ٥٧ ، الشاهنامة ص ١٣٨١) .

٦ ـ كيف يحكم أردشير نفسه على ابنة أردوان بالموت بعد زواجه منها ، وكيف يخلصها موبد الموابذة (أبرسلم كما يسميه الطبري) Abarsam . كيف تنجب ولدا يدعى شابور (شاهپوهر ـ شاه پور ، پسرشاه : إبن الملك) ، وكيف يتعرف الأب على ابنه (كارنامك ص ٥٧ ـ ٦٣ ، الشاهنامة ص ١٣٩٢) .

٧ ـ يعرف أردشير عن طريق كيت أوكيد[2] ـ ملك الهند ـ إنَّ حكم إيران إما أن يستمرّ في أسرته أو ينتقل إلى أسرة عدوه مهرك ، فيسرف في القضاء على نسل مهرك . إحدى بناته تنجو من القتل العام وتفرّ وتتربى بين القرويين . يراها شابور فيقع في غرامها ويتزوّجها سرا وينجب منها ولده هورمزد (اورمزد) دون أن يعرف أردشير .

[206]

حين يبغ هورمزد السابعة من عمره يبدي في الميدان مهارة في لعب الصولجان مما يجعل جده يتعرّف عليه (كارنامك ص ٦٤ ـ ٦٨ ، الشاهنامة ص ١٣٩٧) . وكل من يقرأ كارنامك والقسم المقابل لما يقرأه في الشاهنامة يتأكد له أن الفردوسي قد نقل هذه الجزئيات الدقيقة من الكارنامك ، وأنّه كان وفيا للأصل إلى أبعد حد . وإنا لنؤيد أنه تبع أصل الأساطير القديمة بكل أمانة . ويمكن التأكد من ذلك أيضا عن طريق المقارنة بين أسطورة زرير البهلوية (يادگار زريران ، ترجمة جايجر

---

(١) أفعى .

(٢) تعليق المترجم : يدعو الفردوسي (كيد) بعالم الهند :

فرستاد نزديك داناي هند — بسي اسب ودينار وچيني برند
بدو گفت رو پيش دانا بگوی — كه اي مردنيك اختر راه جوی
باختر نگه كن كه تامن زجنگ — كی آسايم وكشور آرم بچنگ
فرستاده راگفت كردم شمار — از ايران واز اختر شهريار
گر ازگوهر مهرك نوشزاد — برآميزد اين تخمه باآن نژاد
نشيند بارام بر تخت ناز — نبايد شد اورا سوی جنگ باز

الألمانية) والقسم المقابل لها في الشاهنامة[1] . ويمكننا أن نفترض ذلك أيضاً فيما يتعلق بالأجزاء التي لا نجد وسيلة لاجراء المقابلة والموازنة بخصوصها ، فمن الإنصاف أن نقول إن الفردوسي راعى حتى الجزئيات الواردة في أصل الأسطورة القديمة ، واهتم بالجانب الوجداني (النفسي) . ولضيق المجال نكتفي هنا بإيراد الروايتين الخاصتين بقصة أردشير ، ونبدأ بالحديث عن ولادته :

ترجمة كارنامهٔ أرد شير پاپكان

[207]

بعد موت الإسكندر الرومي ، بلغ عدد الحكام أو ملوك الطوائف ٢٤٠ شخصاً . وكانت سپاهان وپارس (أصفهان وفارس) وما جاورهما في يد قائدهم وزعيمهم أردوان . واختار أردوان لحكم فارس شخصاً يدعى بابك كان يقيم في استخردون ولد من صلبه . وكان ساسان يعمل راعياً لبابك ويعيش مع الخراف ، وهو من نسل دارا بن دارا . وكان قد لجأ إلى الفرار إبان حكم الإسكندر المشئوم واختفى وعاش مع الرعاة الأكراد . ولم يكن بابك يعرف أن ساسان من نسل دارا بن دارا .

وذات ليلة رأى بابك في منامه الشمس تضيء الكون كلّه من فوق رأس ساسان . ورآه في منامه في الليلة التالية يركب فيلا أبيض مدرعاً وقد التف به الأهالي كلهم وهم يحيونه ويمجّدونه . وفي الليلة الثالثة رأى (النار المقدسة) آذر[2] فربا (آذر فرنبگ أو آذر فرنبغ) وآذر گشسب وآذر برزين مهر[3] تشتعل في منزل ساسان وتضيء الدنيا بأسرها .

---

(١) Sitzungsberichte d.k-b Adèdemie d. Wiss. Zu München for 1890, Vol. I. pp. 43-84 Das Yätkär-e-Zariran und sein verhältniss zum shah-näme by Geiger, and Nöldeke's Persische Studien. II: Das Buch Von Zarer. in the Sitzungsberichte d. Phil. hist. Classe der k. Akad. d. Wissensch-aften for 1892 (Vienna) Vol. CXXVI. Abhand-lung 12.

(٢) Frobà

(٣) آذر فرنبغ وآذر گشسب وآذر برزين مهر أسماء ثلاثة نيران مقدسة دينية خلقت لحماية الدنيا ، ومنها تشتق سائر النيران (كارنامهٔ اردشير پابكان ، ترجمة صادق هدايت طبع بمباي ٤/ ٢/ ٣٧ ، هامش ص ٧) .

وتملّكت بابك الحيرة ، فاستدعى العلماء والمفسّرين وقصّ عليهم ما رآه في لياليه الثلاثة ، فقال المفسرون « إن من رأيته في منامك سيصل إلى مُلك الدنيا بنفسه أو يصل إليه أحد أبنائه ، فالشمس والفيل الأبيض المدرع (في تفسير الأحلام) دليلا القوة والقدرة والنصر . وآتش فربا (آذر فرنبَك أو آذر فرنبغ) رمز للعلماء الذين يفوقون أمثالهم وأقرانهم وعظماء قومهم علما وأدبا[1] . وآذر گشسب رمز للمحاربين والقوّاد ، وآذر برزّين (آذر برزين) مهر رمز لمزارعي الدنيا . . وعلى هذا النحو يبلغ المُلك هذا الرجل أو يبلغه أولاده .

208 [

ولما سمع بابك هذا الكلام أذن للجميع بالانصراف (وأرسل شخصا) وطلب ساسان وسأله : من أي أسرة أنت ؟ هل هناك من بين آبائك وأجدادك من تولى الملك أو القيادة ؟ . وطلب ساسان من بابك أن يقطع على نفسه وعدا بألا يؤذيه وأن يمنحه الأمان ، ففعل . . وأطلعه ساسان على سره . وفرح بابك وقال له : سوف أرفع قدرك . وأمر فأحضروا له رداء ملكيا أعطاه له ليرتديه ، ففعل وأخذ يتناول الطعام الجيد ليقوي نفسه . ثم زوّجه بابك من ابنته ، فلما حملت (كما يبدو من تتبّع سيرة حياته) أنجبت أردشير » .

***

---

(١) آذر فرنبَك رمز لعلم الدين الخاص بعظماء الرجال والمجوس .

الشاهنامه(1)

چو دارا برزم اندرون کشته شد
همه دوده را روز برگشته شد
پسر بد مراورا یکی شاد کام
خردمند وجنگی وساسان بنام
پدر را بدان گونه چون کشته دید
سر بخت ایرانیان گشته دید
از آن لشکر روم بگریخت اوی
بدام بلا بر نیاویخت أوی ....
بهندوستان در بزاری بمرد ..
زساسان یکی کودکی ماند خرد
برین همنشان تاچهارم پسر
همی نام ساسانش کردی پدر
شبانان بدندي وگر ساربان
همه ساله با درد ورنج گران
چو نزد شبانان بابك رسید
بدشت آمد وسرشبان را بدید
بدو گفت مزدورت اید بکار
که ایدر گذارد ببد روزگار

(1) نقل براون عن الشاهنامة ، طبع ماكان ـ المجلد الثالث ص ١٣٦٥ ـ ١٣٦٧ والأبيات هنا عن طبعة طهران ـ المجلد السابع ص ١٩٢٣ .

بپذرفت بدبخت را سر شبان
همی داشت بارنج روز وشبان
چو شد کارگر مرد آمد پسند
شبان سرشبان گشت برگوسفند
شبی خفته بد بابك رود بلب
چنان دید روشن روانش بخواب
که ساسان بپیل ژیان برنشست
یکی تیغ هندی گرفته بدست
هر آنکس که آمد بر أو فراز
برو آفرین کرد وبردش غماز
زمین را بخوبی بیاراستی
دل تیره از غم بپیراستی
بد یگر شب اندر چو بابك بخفت
همی بود بامغزش اندیشه جفت
چنین دید در خواب کاتش پرست
سه آتش ببردی فروزان بدست
چو آذر گشسب[1] وچو خرداد ومهر
فروزان بکردار گردان سپر
[همه پیش ساسان فروزان بدی
بهر آتشی عود سوزان بدی
سر بابك از خواب بیدار شد
روان ودلش پر ز بازار شد
هرآن کس که در خواب دانا بدند
بهر دانشی بر توانا بدند

بایوان بابـک شـدنـد انجمـن
بـزرگان وفـرزانـه ورای زن .....
چـو بابـک سخـن برگشـاد ازنهفت
همـه خواب یکسر بدیشـان بگفت
نهـاده بدو گوش پاسـخ سرای
پراندیشـه شد زان سخـن رهنمـای
سر انجـام گفـت ای سر افرازشـاه
بتـأویل این کرد بایـد نگـاه
کسی راکه دیدی تو زینسـان بخـواب
بشاهـی بر آرد سر از آفتاب
ورایدون که این خواب از او بگذرد
پسر باشـدش گر جهـان بر خورد
چو بابـک شنید این سـخن گشـت شاد
بـر انـدازه شان یك بیك هدیه داد
بفـرمـود تـا سر شبـان از رمـه
بـر بابـک آمـد بروز دمه
بیامـد شبـان پیش او با گلیم
پـر از برف پشمـین ودل پر زبیم
بـپردخـت بابـک زبیگانـه جای
بـدر شد پرسـتنـده ورهنمـای
ز ساسـان بـپرسیـد وبنـواختـش
بـر خویش نزدیك بشتاختـش
بپـرسـیدش از گوهـر واز نـژاد
شبـان زو بتـرسید وپاسـخ نداد

وزان پس بدو گفت کاي شهريار

شبان رابجان گردهی زینهار

بگویم زگوهر همه هرچه هست

چو دستم بگیری بپیمان بدست

21] که بامن نسازی بدی در جهان

نه در آشکارا نه اندر نهان

چو بشنید بابك زبان برگشاد

ز یزدان نیکی دهش کرد یاد

که بر تو نسازم بچیزی گزند

بدارمت شادان دل وارجمند

ببابك چنین گفت از آن پس شبان

که من پور ساسانم اي پهلوان

نبیره ٔ جهاندار شاه اردشیر

که بهمنش خوانند همی یادگیر

سر افراز پور یل اسفندیار

زگشتاسب(٢) اندرجهان یادگار

جو بشنید بابك فرو ریخت آب

ازآن چشم روشن که أو دید خواب

بدو گفت بابك بگرمابه شو

همی باش تا خلعت آرند نو

بیاورد پس جامه ٔ خسروی

یکی اسپ با آلت پهلوی

---

(١) فيا يختص بهذه النيران الثلاثة المقدسة غاية التقديس ، أنظر تعليق نولدكه في ترجمته لكارنامك (ص ٣٧ ـ حاشية رقم ٣) .

(٢) إرجاع نسب الساسانيين إلى كشتاسب (ويشتاسب) نصير زرادشت وأول المدافعين عن دينه جزء من مخطط متكامل هدفه جعل الساسانيين الورثة المباشرين القانونيين لملوك إيران وأبطال الدين .

یکی کاخ پرمایه اورا بساخت
از آن سرشبانی سرش برفراخت
جو اورا بدان کاخ درجاي کرد
غلام وپرستنده با پاي کرد
بهر آلتی سر فرازیش داد
هم از خواسته بي نیازیش داد
بدو داد پس دختر خویش را
پسندیده وافسر خویش را
چو نه ماه بگذشت ازآن ماه چهر
یکی کودك آمد چو تابنده مهر
همانندهٔ شهریار اردشیر
فزاینده وفرخ ود لپذیر
همان اردشیرش پدر نام كرد
بدیدار أو رامش وکام کرد

ترجمة كارنامه

[212] « عندئذٍ أعد أردوان جيشاً مكوناً من أربعة آلاف مقاتل ، وسلك طريق پارس وراء أردشير . وبلغ في الظهيرة موضعاً يمر به طريق فارس وسأل السابلة : متى مرّ هذان الفارسان من هنا أثناء اتجاههما إلى تلك الناحية ؟ قال الناس : في الصباح الباكر عند بزوغ الشمس . . مرا وكأنهما الريح العاتية ، وخلفهما يجري كبش عظيم الجثة جميل . . كبش لا يمكن تصوّر جماله ، وإنّا لنعلم أنهما قد قطعا حتى الآن عدة فراسخ ، وأنكما لن تتمكنا من الوصول إليهما . وعجل أردوان بالذهاب . . فلما قطع مرحلة أخرى وبلغ موضعاً آخر سأل الناس : متى مرّ الفارسان من هنا ؟ قالوا : في منتصف النهار . . كالريح العاتية ، وخلفهما كبش يجري .

وعجب أردوان لكلامهم ، وقال : نعرف الفارسين ، فما هو شأن الكَبش ؟ قال الوزير : إنه النور الإلهي (خره خدائـي) Khurra الـذي لم يلحـق به إلى الآن ، فالواجب أن نسرع . . فربما نصل قبل أن يصل إليه .

وسارع أردوان وفرسانه . وفي اليوم التالي قطعوا سبعة فراسخ ، والتقـوا بقافلة ، فسأل أردوان أصحابها : أين رأيتم الفارسين ؟ فأجابوه : على بعد عشرين فرسخاً . . ورأينا أحدهما يركب جواده في مهارة ومعه كبش كبير . وسأل اردوان وزيره : ماذا ينتج عن حمل أردشير الكبش وراءه على ظهر جواده ؟ قال : لك الخلود والبقاء . . لقد اتصل النور الكياني (خـرك كيان Khurrak) بأردشـير . (خرك كيان : يعبر عنه في الشاهنامة بالنور الملكي ، وفي الأفستا بكوئم هورنـو Kawaëm Hwarenô) ولم تعد هناك حيلة تستطيع بها القبض عليهما ، فلا تتعب نفسك وفرسانك وخيولك أكثر من ذلك ولا تهلكها ، وابحث عن وسيلة أخرى تصل بها إلى أردشير .

وحين سمع أردوان ذلك عاد وتوجّه إلى عاصمته .

الشاهنامة

(وقوف أردوان على أمر گلنار وأردشير) [21

(طبعة بروخيم - المجلد السابع ، ص ١٩٣٥ - ١٩٣٧ م)

هم آنـگاه شد شاه را دلپذير	كه گنجـور او رفـت با اردشير
دل مرد جنـگى پر آمـد زجاي	بيـالاي بور انـدر اورد پاي
سواران جنـگى فـراوان ببـرد	تـو گفتـى همـه راه آتش سپرد
بره بر يكى نامـور ديد جاى	بسي انـدرو مردم وچـار پاى
بـپرسيد از ايشـان كه شبـگير هور	شـنيديد آواز نعـل سـتور
دو تن بر گذشتنـد پويـان براه	يكى باره خنـگ وديگر سياه

یکی گفت از ایشان که اید گذشت | دوتن با دو اسپ اندر آمد بدشت
بدم سواران یکی غرم پاك | چوا اسپی همی پر براکنده خاك
بدستور گفت آن زمان اردوان | که این غرم باری چراشد دوان
چنین داد پاسخ که آن فراوست | بشاهی ونیك اختری پر اوست
گر این غرم در یابد اورامتاز | که این کار گردد برما دراز . .
فرود آمد ابن جایگه اردوان | بخورد وبر آسود وآمد دوان
همی تاختند ازپس اردشیر | بپیش اندرون اردوان ووزیر
ید انکه که بگذشت نیمی ز روز | فلك را بپیمود گیتی فروز
یکی شارسان دید بارنگ وبوی | بسی مردم آمد بنزدیك اوی
چنین گفت با موبدان نامدار | که کی بر گذشت آن نبرده سوار
چنین داد پاسخ بدو رهنهای | که اي شاه نیك اختر باکرای
بدانگه که خورشید برگشت زرد | بگسترد چادر شب لا ژورد . .
[214] برین شهر بگذشت پویان دوتن | پراز گرد وبی آب گشته دهن
یکی غرم تازان ز دم سوار | که چون او ندیلم بر ایوان نگار
چنین گفت با اردوان کدخدای | که ایدر مگر باز گردی بجای
سپه سازی وساز جنگ آوری | که اکنون دگر گونه شد داوری
که بختش پس پشت او درنشست | از بن تاختن یاد ماند بدست
یکی نامه بنویس نزد پسر | بنامه بگواین سخن سر بسر
نشانی بیابد مگر ز اردشیر | نبایدکه گردد همان غرم شیر
چو بشنید از او اردوان این سخن | بدانست کآواز او شدکهن
بدان سارشان اندر آمد فرود | همی داد نیکی دهش را درود
چوشب روز شد بامداد پگاه | بفرمود تا باز گردد سپاه
بیامد دو رخساره همرنگ نی | چوشب تیره گشت اندر آمد بری

أسطورة هفتان بخت (بضم الباء) ، وتسمى في الشاهنامة هفتواد ، وكرم كرمان (أي دودة كرمان أو ثعبان كرمان) على درجة من الأهمية تجعلنا لا نغفلها

تماماً . لكن ضيق المجال يدفعنا إلى الاكتفاء بالحديث حول ذلك القسم من الأسطورة المرتبط بهلاك تلك الدودة العملاقة . وهناك رابطة اشتقاق بين كرم ومدينة كرمان . وفي ذلك الدليل على أن من يصرّون على نطق كرمان بفتح الكاف يلفظون لفظاً لم يستخدم في إيران منذ ٩٠٠ سنة . وتستخدم هذه الصنعة اللفظية البديعة في بوستان السعدي[١] .

[213] ولنولدكه رأي هام حول اسم هفتان بخت (انظر : كارنامك ، ترجمة نولدكه ص ٤٩ - هامش رقم ٤) . يقول نولدكه : كثير من الأسماء - خاصة المسيحية - تتركب مع لفظ بخت ، وقد وردت بخت بضم الباء بمعنى (المخلِّص) ، فمثلاً يشوع بخت أو بخت يشوع معناها عيسى المخلِّص . ولفظ سه بخت لدى الزردشتيين معناه ثلاثة أشياء هي أساس النجاة : (الظن الحسن والقول الحسن والعمل الحسن) . ولفظ چهار بخت يشير إلى أربعة أشياء هي أصل النجاة . وكلمة (هفت) وهي جزء من اسم عدوّ أردشير تشير - وفق قول نولدكه - إلى الكواكب السبع التي تتصل بخلق أهريمن .

بناء على ذلك فإن هذا الاسم يناسب بصفة خاصة من يؤمنون بقوة جهنم وسحر الشياطين . وقد اضطر الفردوسي - لضرورة وزن الشعر - أن يبدل هفتان إلى هفتواد ، وقد وردت في قاموس الشاهنامة بمعنى صاحب الأبناء السبعة[٢] . وقد أخذ لفظ هفتواد من البهلوية ، فطرحت الحروف الثلاثة الوسطى من الكلمة البهلوية ، لأن الحروف الثلاثة الأخرى يمكن أن تقرأ (أخت) أو (وات)[٣] .

---

(١) بوستان ، چاپ گراف ، ص ٨٧ سطر ٥٣٥ .

تعليق المترجم : ربما يشير المؤلف إلى قول السعدي:

طبع كرده بودم كه كرمان خورم   كه ناگه بخورند كرمان سرم

(٢) ورد في كارنامك أيضاً أن له سبعة أولاد ، ص ٥١ .

(٣) لكن دارمستتر يرفض رأي نولدكه الذي بناه في براعة واعتمد فيه على نافذ بصيرته . (مطالعات درباره ايران = دراسات حول إيران) = Etudes Iraniennes المجلد الثاني ، ص ٨٢ و ٨٣) .

عندئذٍ أرسل القوم لمقاتلة الدودة . واستدعى برجك[١] وبرجاتر[٢] ، وتشاور معهما . ثم حملوا الكثير من الدراهم والدنانير والملابس . وزيّن أردشير نفسه في لباس خراساني ، وحاصر قلعة كلار[٣] مع برجك وبرجاتر . وقال أردشير (لساكني القلعة) : إني أطالب القادة العظام بأن يسمحوا لي بتقديم المساعدة والالتحاق بخدمة البلاط .

وفتح عَبَدة الأوثان باب القلعة في وجه أردشير والرجلين فاتخذوا طريقهم إلى مقر الدودة . وظل أردشير يخدم الدودة ويعينها ثلاثة أيام ، وأخذ يبدي رغبته في الاتحاد ، وأعطى ما معه من دراهم ودنانير وملابس للحراس . واستمرّ في تصرّفه هذا حتى أصبح موضع ثناء ساكني القلعة كلهم ، وباتوا يمتدحونه بصوت عالٍ . وقال أردشير : إني أفضل أن أُطعم الدودة بيدي مدة ثلاثة أيام .

وقبل الحراس ووافق أولو الأمر وهم راضون ؛ فسمح أردشير للجميع بالانصراف . وأمر أربعمائة رجل من أرجح رجال جيشه عقلاً وأفضلهم خُلقاً وأكثرهم استعداداً للتضحية أن يختفوا في شق بالجبل (أخدود) يواجه القلعة ، وقال لهم : « في اليوم السابع والعشرين من الشهر المسمى بيوم السماء . . إذا رأيتم دخاناً يتصاعد من قلعة الدودة أظهروا شجاعتكم وأعربوا عن رجولتكم وهاجموا القلعة » .

وفي اليوم الموعود أخذ في يده نحاساً مصهوراً . . وأخذ برجك وبرجاتر يقدمان الشكر لإلهها . ولما اقترب موعد إطعام الدودة أصدرت كعادتها زمجرة عالية . وكان أردشير قد سقى حراسها وأعوانها مع الغذاء خمراً صافية أسكرتهم وغيّبتهم عن وعيهم . فتوجّه مع معاونيه إليها حاملين لها دم البقر والخراف كعادتهم [217] في كل يوم . فلما فتحت فمها لتشرب الدم صب فيه النحاس الساخن ، فلما بلغ

(١) تعليق المترجم : Burjak = برز؟

(٢) تعليق المترجم : Burjatur برز آذر ؟

(٣) تعليق المترجم : Gular = كلال ؟

داخل بطنها ، انشقت إلى نصفين ، ثم أصدرت صوتاً سارع سكان القلعة في إثره إلى مكانها وقد ساد الهرج والمرج . . فشدّد أردشير قبضته على ترسه وحمل سيفه ، ووقعت مذبحة كبيرة في تلك القلعة . وهنا أمر باشعال النار بحيث يرى دخانها الفرسان المسلّحون في أماكنهم الجبلية . وفعل الغلمان ما طلب ، وشوهد الدخان ، فسارع المختبئون لمساعدته ، ودخلوا القلعة صائحين : النصر لأردشير ملك الملوك ابن بابك .

الشاهنامة

(قَتْل أردشير دودة (أفعى) هفتواد)

(نقلاً عن طبعة بروخيم ـ تصحيح سعيد نفيسي ـ المجلّد السابع ص ١٩٥٧ ـ ١٩٦٠)

وز آنجايگه شد سوى جنگ كرم — سپاهش همه كرده آهنك كرم

بياورد لشكر ده ودو هزار — جهانديده وكار كرده سوار

پراكنده لشكر چوشد همگروه — بياوردشان تاميان دوكوه

يكى مرد بد نام أو شهر گير — خردمند وسالار شاه اردشير

چنين گفت پس شاه باپهلوان — كه ايدر همى باش روشن روان

شب وروز كرده طلايه بپاي — سواران با دانش ورهنماي

همان ديده بان دار وهم پاسبان — نگهبان لشكر بروز وشبان

من اكنون بسازم يكى كيميا — چو اسفنديار آنكه بودم نيا[1]

[21 اگر ديده بان دود بيند بروز — شب آتش چو خورشيد گيتى فروز

بدانيد كآمد بسر كار كرم — گذشت اختر وروز بازار كرم

---

(١) إشارة إلى فتح القلعة المسماة (روئين دژ) وهي التي دخلها اسفنديار مدعياً أنه تاجر . (الشاهنامة ، ماكان ـ المجلد ٢ ـ ص ١١٤٣ وما بعدها) .

گزین کرداز آن مهتـران هفـت مرد / دلـیران وشـیران روز نبـرد
هر آنـکس که بودی هم آواز اوی / نگفتـی بـبـاد هـوا راز اوی . .
بسی گوهـر از گنـج بگزید نیز / چـو دیبـا ودینـار وهرگونـه چیز

یکی دیگ روئـین بـبـار اندرون / که استـاد بود أو بکار اندرون
چوزآن گونـه نـیر نگهـا کرد راست / زسالار آخر (آخور) خری ده بخواست
چوخـر بنـدگان جامهـاي گلیـم / بپوشید وبـارش همـه زر وسیم
همـی شد خیده دل ورا هجوی / ز لشـکر سوی دژ نهادنـد روی

همان روستائـي دو مرد جوان / که بودنـد روزی ورا میزبان
از آن انجمـن برد باخویشتن / که هم دوسـت بودنـد وهـم رایزن
چو ازراه نزدیك آن دژ شدند / ببودنـد برکوه ودم بر زدند
پرستنـده' کِرم بد شصـت مرد / نـپـرداختي یك تن از کارکرد
نگه کرد یك تن بآواز گفت / که صنـدوق را چیـست انـدر نهفت
چنـین داد پاسـخ بدو شهریار / که هرگونـه اي چیز دارم ببار

زپیرایه وجـامـه وسیم وزر / زدیبـا ودینـار وفـر وگهـر
که بازارگان خراسـانیـم / برنـج انـدرون بي تن آسانیم
بسی خواستـه دارم ازبخـت کرم / کنـون آمـدم شاد تاتخـت کرم

اگر بر پرسـتش فزایم سزاست / که از بخت او کارمن گشـت راست
پرستنـده' کرم بگشـاد راز / هـم آنـگه در دژ گشادنـد باز
خرو بارش آورد انـدر حصار / بیاراسـت دکـان همـی نامدار

سربـار بگشـاد زود اردشیر / ببخشید چیزی که بد نا گزیر
یکی سفـره پیش پرستنـدگان / بگسـتـرد برسـان خر بندگان
ز صنـدوق بگشـاد بنـد وکلید / بـر آورد وپـر کرد جلم نبید
هرآن کس که زي کرم کردی خورش / ز شیروگرنج(یابرنج) آمدش پرورش

[219 بپیچید گردن زجـلم نبیـد | که نوبـت بدش جاي مـتـی ندید
چوبشـنید برپاي جسـت اردشیـر | که بامـن فراوان گرنـج اسـت وشیر
بدستـوری سـر پرسـتـان سه روز | مـر اورا بخـوردن نیم دلفروز
مگر من شوم در جهـان شهـره ای | مـرا باشـد از اخترش بهـره اي
شمامـی گسـارید بامـن سه روز | چهـارم چو خورشید گیتـی فروز
بر آید یکی کلبـه سازم فراخ | سر طاق برتـر زدیوار کاخ
فرو شنـده ام هم خریدار جوی | فـزاید مرا نزد کرم آبروی

بر آمـد همـه کلم او زان سخن | بگفتنـد کورا پرستش توکن
بخوردنـد چیزی ومسـتـان شدند | پرستنـد گان می پرستـان شدند
.چواز جلم می سسـت شدشـان زبان | بیامـد جهانـدار بـا میزیان

بیاورد ار زیز وروئـین لوید | بـر افروخـت آتش بروز سپید
چو آن کرم رابـود گاه خورش | از ار زیز جوشـان بدش پرورش
زبـانش برون کرد همرنـگ صنج | بـرآن سان که ازپیش خوردی گرنج

فرو ریخـت ارزیز مرد جوان | بحـوض انـدرون کرم شد ناتوان
طراقـی بر آمـد ز حلقـوم اوی | که لرزان شد آن کنـده وبـوم اوی
بشـد باجوانـان چو باد اردشیر | ببردنـد شمشـیر وکوپال وتیر
پرستنـدگان آن که بودندمست | یکی زنـده ازدسـت ایشـان بخست
برانگیخـت زین بام دژتـیره دود | دلـبری بسـالار لشـکر نمود
دوان دیده بان شد روی شهرگیر | که پـیروز گر گشـت شاه اردشیر
بیامـد سبـك پهلـوان سپـاه | بیاورد لشـگر بنـزدیك شـاه

[220 ويفهم من أشعار الشاهنامه ومما اقتبسناه من ترجمة كارنامك أن الفـردوسي (رغم جهله بأصل الأسطورة البهلوي ـ على حد زعم نولدكه ـ ورغم نظمه القصة اعتماداً على ترجمتها الفارسية) كان وفياً أميناً في محاكاة الأصل البهلوي للأسطورة .

كما أن القطعات المذكورة تظهر لنا إلى اي حد اختلطت الاساطير والقصص في حياة أردشير بن بابك ملك إيران وغيرها بالحقائق التاريخية . . . بينما تؤكد الآثار التاريخية والمسكوكات ونقوش العصر أنه كان شخصية تاريخية[1] .

وبثورة أردشير تخرج الروايات القومية الايرانية في الحقيقة عن نطاق سطوة الأساطير وتصبح جزءاً من التاريخ الحقيقي (وقد رأينا كيف دخلت أسطورة الإسكندر إلى إيران من خارجها) . وقد أجاد ابن واضح اليعقوبي ـ المؤرخ الذي كان يعيش في أواخر القرن التاسع الميلادي ـ شرح هذه النقطة (طبع هوتسما جـ ١ ، ص ١٧٨ ـ ١٧٩) :

« فارس تدّعي لملوكها أموراً كثيرة مما لا يقبل مثلها من الزيادة في الخلقة حتى يكون للواحد عدة أفواه وعيون ، ويكون للآخر وجه من نحاس[2] ، ويكون على كتفي آخر حيات تطعم أدمغة الرجال[3] ، وطول المدة في العمر ، ودفع الموت عن الناس ، وأشباه ذلك مما يدفعه العقل ويجري فيه مجرى اللعبات والهزل ، ومما لا حقيقة له .

ولم يزل أهل العقول والمعرفة من العجم ومن له الشرف والبيت الرفيع من أبناء ملوكهم ودهاقينهم وذوي الرواية والأدب لا يحققون هذا ولا يصححونه ولا يقولونه ، ووجدناهم إنما يحسبون ملك فارس من لدن أردشير بابكان . . . فتركناها لأن مذهبنا حذف كل مستبشع » .

[221]

وقد نال شابور بن أردشير شهرة كبيرة في ممالك الغرب بسبب حروبه المظفّرة التي خاضها ضد الروم ، وأسْرِه إمبراطورهم ڤاليرين ، وإن نقش رستم وشابور[4]

---

(١) نقش رستم ، أنظر : تاريخ إيران ، تأليف كرپرتر Kerporter المجلّد الأول : تصوير ١٨٢ ص ٥٤٨ ، كتاب فلاندن Flandin المجلد الرابع تصوير ١٨٢ .

(٢) يحتمل أن يكون المقصود هو اسفنديار الذي كان يسمّى رويين تن (الصفري الجسد) .

(٣) يقصد هنا الضحاك .

(٤) انظر : كتاب إيران تأليف اللورد كرزن المجلّد الثاني ص ١٢٠ و ٢١١ .

لتسجيل لذكرى هذه الفتوحات (إضطررنا إلى حذف قصة ولادة شاپور والتعرّف عليه بسبب ضيق المكان ، وهي القصة التي وردت في كارنامك والشاهنامة وكتبها أكثر المؤرخين العرب) .

والنقش البهلوي المختصر الذي يدور حول هذا الملك ، والمسجَّل في نقش رجب بلغتين (وقد كان مفتاح كشف رموز النقوش الساسانية والهخامنشية) له ترجمتان باللغة اليونانية . ويحتمل أن يكون قد نُحت على يد سجين يوناني . ونقش حاجي آباد أكثر طولاً .

ورغم جهود توماس (عام ١٨٦٨ م) ووست (عام ١٨٦٩) وهاوج عام ١٨٧٠) وسائر العلماء ، ورغم الاقتباس والتصوير والنسخ . . ومع أن كل ذلك في يدنا ، فإن النقوش المذكورة ما زالت حافلة بالصعوبات . وقد نشر توماس كل النقوش البهلوية الموجودة فأدى بذلك خدمة جليلة ، لكن التوفيق الذي أحرزه كان في قراءة النقوش أكثر منه في تفسيرها . لقد كانت نتيجة تفاسيره محيّرة إلى حد كبير ، لأنه يرى أن عدة فقرات من هذه الأحكام اعترافات دينية لملوك ساسانيين يؤمنون بإله اليهود والنصارى . ونتيجة لذلك فإن تراجمه تختلف كثيرا عن تراجم بقية العلماء . . . حتى ليقول اللورد كرزن في كتابه الخاص بإيران (المجلد ٢ ص ١١٦ ، ١١٧) :

[222 « لم يتكامل اكتشاف رموز الخط البهلوي بصورة علمية ، وهذه المسألة موضع خلاف ظاهر تسبب في أن يقرأ العلماء سطور نقش حاجي آباد بصور مختلفة . وقبل أن أقرّ بما افترضه مستر توماس وهو افتراض مبني على حبه للمسيحية ، أو أقرّ بما افترضه الدكتور هاوج حول الميدان والقوس ـ رغم تصوري أن معظم العلماء قد أفتوا بأنه على حق ـ أفضّل إقراري بجهلي دون خجل ، وأن أبتعد عن مهاوي الزلل » . وكل من لديه القدرة على تقييم الوثائق المذكورة لا يتردد في الإقرار بصحة ترجمَتَي هاوج ووست بصفة إجمالية . ويتميّز الإثنان على توماس بأنهما كانت لهما دراية بالبهلوية المكتوبة .

ونصُّ النقش البهلوي الساساني مكوّن من ١١٥ كلمة ، لا يشك في أكثر من ست كلمات من بينها من حيث المعنى (ولعلّ هذه الكلمات الستة لها أهميتها في فهم الغرض وإدراك المعنى) . ومعنى السطور الستة الأولى ونصف السابع متفق عليه كل الاتفاق . ويعود أغلب السبب في صعوبة الفهم الكامل لكل النقش إلى عدم وجود معلومات تتصل بكيفية التشريفات وماهية المراسم . فنحن لا نعرف ماذا كان هدف الشاه على وجه التحقيق من هذا الكهف الصغير وقذف السهم من القوس .

ولهذه المسألة ما يناظرها ، إذ يبدو أن التقاليد كانت تقتضي (في عهد الساسانيين) أن يقذفوا سهماً من قوسهم إذا ما أرادوا تعيين موضع ما . . ولم يكن هذا أمراً غريباً . يقول الطبري (ترجمة نولدكه ، ص ٢٦٣ - ٢٦٤) والدينوري (ص ٦٦) أن وهرز القائد الايراني فاتح اليمن وحاكمها حين أحسّ بدنوّ أجله [223] طلب أن يأتوه بقوسه وسهمه ، وأمر غلمانه أن يصعدوا به ، ثم ألقى سهما من قوسه وأمر من كانوا قربه أن يحددوا المكان الذي يهبط فيه السهم ، وأن يدفنوا جسده في تراب هذا الموضع ويمهّدوا البقعة التي حول مدفنه . ويغلب على الظن أن السهم الذي في نقش حاجي آباد قد ألقي لنفس الغرض . ولو كان هذا الموضوع معلوماً لسهل للغاية توضيح النقش برمّته[1] .

ويجب علينا في هذا الموضع أن نشير إلى خطوة أخرى بديعة وذكية للغاية خطاها فريدريك مولر ، فقد نشر ترجمة جديدة لهذا النقش في مجلة ڤينا الأسيوية[2] عام ١٨٩٢ م (المجلد السادس ، ص ٧١ - ٧٥) .

ولكي يفصّل مولر الموضوع ويوازن بين هذه القصة وغيرها من القصص نقل

---

(١) يفهم من كتاب فتوح البلدان للبلاذري (طبع دوخويه ص ٢٧٦) أن طريقة تحديد المكان بواسطة إلقاء السهم من القوس استمرت حتى في عصر الاسلام ، وكان العرب والايرانيون يستخدمون هذه الطريقة . طابق هذا بما ورد في التوراة ، الفصل الثالث عشر ، الآيات ١٤ - ١٩ .

(٢) Vienna Oriental Journal .

عبارة من الإلياد[1] ، وحادثة من أحداث حياة شارل السادس[2] . واعتبر كلمة مينو (التي ترجمها هاوج : « الروح ») لقبا من ألقاب الفخار والتعظيم يطلق على الحاكم في ذلك الزمان (مثل لقب « العالي » في التركية الحديثة وإيران ، ولقب « السماوي » في الصين) . كما استعمل لفظ چتاك بمعنى العمود الذي ينصب ليكون هدفا (چتاك يعادل لفظ چدك[3] البلوچي ومعناه السهم الحجري) .

(استعمل الكلمة اليونانية « ايستوس »[4] والكلمة وياك[5] بمعنى طائر) .
وهذه هي الترجمة التي وضعها لنقش حاجي آباد الغامض :

« هذا أمري ، أنا عابد مزدا ، شاهپور الذي مكانه بين الآلهة ، ملك ملوك إيران وغير إيران ، صاحب الأصل العظيم ، السماوي العنصر عن طريق يزدان ، إبن عابد مزدا ، ارتخشتر ، الذي مكانه بين الآلهة ، ملك ملوك إيران وغير إيران ، صاحب الأصل العظيم ، السماوي العنصر عن طريق يزدان ، حفيد بابك الملك الذي مكانه بين الآلهة .

حين أطلقنا هذا السهم بحضور حكام الأقاليم والأمراء والعظماء والأشراف ، وضعنا قدمنا على هذا الحجر[6] ، وصوبنا السهم إلى أحد هذه الأهداف . وحيث أطلق السهم لم يكن هناك طائر . ولو أنهم نصبوا الأهداف مستقيمة لشوهد السهم بالعين . » ثم أمرنا أن ينصبوا الهدف الخاص بصاحب الجلالة في ذلك المكان معزولا عن غيره . وقد نقشت اليد السماوية (المقصود يد

---

(١) Iliad xxiii. 852

(٢) M. Bermaan's Maria Theresa U. Joseph II. p. 38.

(٣) Chètàk

(٤) Chèdag

(٥) تعليق المترجم : بمعنى سهم أو قائمة .

(٦) Wayàk

(٧) يجب أن تترجم هكذا على الأرجح : « لقد وضعنا قدمنا في هذا المكان » ، لأن نولدكه (أنظر : مقدمة كتاب تخت جمشيد لاشتولتزه Stoltze المجلد الثاني) قد قرأ الكلمة التي كانوا يلفظونها حتى ذلك الوقت (ديگى) أو (ديكى) . قرأها (دوكى) ، وهي تقابل في الآرامية لفظ (دوخا) بمعنى (مكان) .

صاحب الجلالة) هذه الكلمات ، ويجب الا يضع أي شخص قدمه على هذا الحجر أو يلقي سهماً على هذا الهدف . عندئذٍ صوّبنا إلى هذا الهدف السهم الذي كان قد أُعِدّ من أجل الفائدة الملكية .

« وقد كُتِبت هذه الموضوعات بيد الملك » .

[225] القسم الثاني : ماني والمانوية

ورد في الآثار الباقية للبيروني[1] « أوائل القرن الحادي عشر الميلادي) أن ماني ـ مؤسس المذهب المانوي قد ولد في نهاية عهد البارثيين في العام الرابع من حكم أردوان (٢١٥ ـ ٢١٦ م) ورغم تعرُّض أصحاب هذا المذهب ـ منذ ظهوره وحتى سحق طائفة البيژوا[2] في القرن الثالث عشر الميلادي ـ للكثير من الايذاء والتعذيب الوحشي على يد الزردشتيين والمسيحيين في الشرق والغرب . . . . فقد حَظِي المذهب بالعديد من الأتباع على مدى عدة قرون ، وأثّر كثيراً في الأفكار المذهبية في كل من آسيا وأوروبا[3] .

[226] وقد اعتمد ماني في كلامه وطريقته على الطرق والديانات والمصادر المتنوعّة . ورغم أن موضوعات مذهبه مقتبسة عن الدين البابلي القديم والدين البوذي القديم

---

(١) الآثار الباقية ، ص ٢١١ ـ ترجمة زاخو .

(٢) تعليق المترجم : البيژوا Albigeois إسم يطلق على طائفة مذهبية ظهرت في القرن الحادي عشر الميلادي في حدود مدينة البي Albi جنوبي فرنسا ، وثارت على المتدينين . وقد أعلن البابا عليها الحرب عام ١٢٠٩ م ، وأباح القتل العام فقتل العديد من أفرادها .

(٣) تعليق المترجم : نتيجة لاكتشاف آثار ووثائق مانوية اصيلة في أوائل هذا القرن مكتوبة بالپهلوية والپارثية والسغدية والتركية والقبطية والصينية . . تقدّمت الدراسات المتعلقة بالمذهب المانوي والموضّحة لكيفية انتشاره تقدّما كبيراً ، وصارت الكتب التي أُلفت حول ماني قبل هذه الاكتشافات في حكم القديمة الآن . وللاطلاع على الفهرست الذي يحوي الآثار والمصادر الجديدة يمكن الرجوع إلى المقالة التي كتبها پارشاطر حول ماني في دائرة المعارف العالمية الأدبية (لندن ١٩٥٣م) Encyclopaedia of World literature . وللاطلاع على معلومات تتميّز بالاختصار والدقة والاقتران بالأسانيد ، يمكن الرجوع إلى : H.C. Puech: Le Manichèisme (Paris, 1949). وقد جمع تقي زاده كل المتون الفارسية والعربية التي وردت حول ماني في «كتاب ماني» ، (طبع طهران) .

إلاّ أنه قد اختار القسم الرئيسي منها من « أصول عقائد زردشت والمسيح » كما يقول جيبون Gibbon ، ولهذا كان موضع نفور أتباع الدينين بالتساوي وبلا رحمة .

ويجب أن نعتبر طريقته انتصاراً للزردشتية ، وألا نعتبرها تحوّلا من النصرانية إلى الزردشتية ، إذ أنه من المسلَّم به أن مانى من رعايا إيران ، ويحتمل أن يكون نصف إيراني على الأقل . وقد كتب أحد كتبه (شابورقان أو شاهپو هركان) باللغة الفارسية ، وقدّمه لملك إيران على أمل أن يعتنق مذهبه ، لكنه قتل آخر الأمر ظلماً[1] على يد أحد خلفاء شابور[2] . ويقول أبوريحان البيروني المؤرخ المسلم معلّقاً على هذا الكتاب :

« يمكن الاطمئنان إلى هذا الكتاب أكثر من أي كتاب فارسي موجود ، فالكذب في دين مانى حرام ، ولم يكن مانى في حاجة إلى إحلال التزوير في التاريخ » .

[227] وتؤكد كل مصادر دراستنا حول حياة مانى وأصول عقائده وآثاره سواء أكانت المصادر شرقية أم غربية (ونخصّ بالذكر الفهرست لابن النديم وكتب أبي ريحان البيروني وابن الواضح واليعقوبي والشهرستاني[3]) تؤكد هذه المصادر أن ما

---

(١) أثبتت آخر الدراسات أن المتسبب الحقيقي في قتل مانى هو كرتير الموبد الزردشتي المعروف . أنظر : W.B. Henning, Manis' last Journey». (X1942) BSOAS تمّ قتل مانى في عهد بهرام الأول يوم الاثنين ٢٦ فبراير عام ٢٧٧ (طبقاً لما ذكره سيد حسن تقي زاده في « گاه شمارى ايران قديم» واستحسنه الدارسون لأوضاع إيران) ، أنظر مقالتهم في BSOAS

(٢) هرمزد ، بهرام الأول أو بهرام الثاني . أنظر : تاريخ الساسانيين لنولدكه ، ص ٤٧ حاشية رقم ٥ Nöldeke. Gesch. d. sasan. تعليق المترجم : يرى تقي زاده أنه لا صحة لنسبة الأمر لهرمزد أو بهرام الثاني ، والصحيح هو أن ينسب الأمر لبهرام الأول .

(٣) الفهرست (المؤلف عام ١٩٨٧) ، الآثار الباقية للبيروني ترجمة زاخو ص ٢٧ ، ٨٠ ، ١٢١ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢٢٥ ، ٣٢٩ ؛ إبن الواضح ، طبع هوتسما ـ المجلد الأول ص ١٨٠ ، ١٨٢ ؛ الشهرستاني ترجمة هاربروكر الألمانية المجلد الأول ص ٢٨٥ ـ ٢٩١ . بالاضافة إلى Beausobre (١٧٣٤) و Mosheim أنظر: لور Lour وكسلر Kessler وكتاب اشبيجل الخاص بإيران القديمة ، المجلد الثاني ص ١٩٥ ـ ٢٣٢ Speigel. Eränische Alterthumskunde

جاء بها من معلومات يمكن الوثوق به أكثر من وثوقنا بالمعلومات الواردة في مؤلفات سانت آجستين وكتابات ارخلاؤس[1] وآخرين[2] . وقد اعتمد الكتاب الأوربيون القدامى على هذه المصادر في كتابتهم حول هذا الرجل العجيب . ولا يتّسع لنا المجال للحديث في هذا الموضوع ، لهذا سنكتفي بإيراد عدة صفحات ، منبّهين إلى أن هذا الموضوع قد بحث بحثاً وافياً في الكتب التي ذكرناها بالهامش . وسوف نبدأ بترجمة الشرح الذي وضعه اليعقوبي لحياة ماني وأسس عقائده ، كما أننا سنضيف بعض الملاحظات للتوضيح إذا لزم الأمر . (تاريخ اليعقوبي وحده من بين الكتب الأربعة العربية التي ذكرناها . . هو الذي لم يترجم إلى أي لغة اوروبية إلى الآن) . « في عهد شابور والد أردشير ظهر ماني الزنديق ابن حماد (بفتح الحاء وتشديد الميم) ،[3] ودعا شابور إلى الثنوية وعاب دينه (الزردشتية) ، وحاز إعجابه . وقال ماني إن العالم يدبّره اثنان ، فأكّد ثنائية مدبّر العالم . وقال إن الشيئين القديمين : النور والظلمة هما خالقا العالم . . النور خالق الخير والظلمة خالقة الشر .

[229] ولكل منهما - في حد ذاته خمسة معان : اللون والرائحة والطعم واللمس والصوت ، وكلاهما سامع مبصر عالم . وكل خير ونفع في الدنيا من لدن النور وكل ضرر وبلاء من لدن الظلمة . ولم يمتزج النور والظلام بادىء الأمر ثم امتزجا ، والدليل على ذلك أنه لم تكن هناك صورة في البداية ثم ظهرت . وتغلب الظلمة في هذه الممازجة على النور ، لأنهما - شأنهما شأن الظل والشمس - كانا

---

(١) Acts of Arshelaus

(٢) تعليق المترجم : أنظر
F.C. Andreas U.W.B. Henning, Mitteliranische Manichaica (3 Vol. 1932-1933).
Beichtbuch (1937) - Book of the Giants-.

نشرة مدرسة العلوم الشرقية بلندن - السنة التاسعة (١٩٤٣) .
A.V. le Coq, Turkische Manichaica (3 Vol. 1912-1922). E. Chavannes et P. Peliot. Un Traite Manichéen trouvé en Chine (1911).

(٣) تعليق المترجم : ذكرت عدّة أسماء لوالد ماني منها Patig وقد ورد هذا الاسم على النحو المذكور في المؤلفات البهلوية .
(أنظر مقالة W.B. Henning ١٩٤٣ ، في BSOAS) .

متماسين في البداية ، ولا يمكن لشيء أن يولد إلا من شيء آخر . وما يقال من غلبة الظلام على النور في ذلك الامتزاج تفسيره أن اختلاط النور بالظلام يضرّ بالنور ويفسده ، فمن المحال ـ بناء على ذلك ـ أن يتفوّق النور على الظلام. والدليل على أن الخير والشر قديمان هو أن المادة الواحدة لا يصدر عنها فعلان مختلفان . . كالنار المحرقة التي لا يمكنها التبريد ، والشيء الذي في طبيعته التبريد لا يتمكن من التسخين . وما يصدر عنه الخير لا يصدر عنه الشر ، ومصدر الشر لا ينشأ عنه خير . والدليل على حيويتهما وفعاليتهما أن الفعل الطيب يصدر عن أحدهما بينما يصدر الفعل السيء عن ثانيهما .

« وترتب على ذلك أن قبل شاپور هذا القول ، وأصدر أمره لأهل مملكته ليحذو حذوه . ولم يلق هذا الأمر استحساناً لديهم ؛ فاجتمع حكماؤهم ليصرفوه عنه فلم يقبل رجاءهم . وكتب مانى العديد من الكتب في إثبات الثنوية . . من بينها كتاب كنز الأحياء الذي يصف ما يعلق بالنفس بسبب الضياء (أصل الخلاص) وبسبب الظلمة (أصل الفساد) . وهو في هذا الكتاب ينسب الأفعال المذمومة إلى الظلمة .

[23 وله كتاب آخر اسمه شاپوركان (الشابرقان) يصف فيه النفس الناجية والنفس المختلطة بالشياطين والملوّثة بداء الالتواء وآفة النقص . ويرى أن الفلك مسطّح ، وأن العالم مستقر على جبل منحدر ترتفع السماء فوقه .

وله كتاب اسمه الهدى والتدبير والأناجيل الإثني عشر . وقد سمى كل انجيل بحرف من حروف الهجاء ، وبيّن كيفية الصلاة وأوضح ما يجب عمله لخلاص الروح ونجاتها .

وله كتاب آخر أسماه سِفر الأسرار ، وهو يقوم على الطعن في آيات الأنبياء (معجزاتهم) . وله كتاب اسمه سفر الجبابرة ، وغيره كثير من الكتب والرسائل .
« وأصرَّ شاپور على طلبه ما يقرب من العشر سنوات إلى أن جاءه أحد الموابذة ،

وقال له : لقد أفسد هذا الرجل دينك فاسمح لي بمناظرته ومناقشته ؛ فجمع شاپور بينهما وواجههما ببعضهما . وتفوّق الموبد في حديثه على ماني ، فرجع شاپور عن ثنويته وعاد إلى دين المجوس وقرّر قتل ماني ، ففر إلى بلاد الهند وأقام بها إلى أن مات شاپور .

وحلّ هرمز الشجاع مكان أبيه شاپور ، وهو الذي شيّد مدينة (رامهرمز) غير أن الأمر لم يطل به ولم يستمرّ في الحكم أكثر من عام .

ولما اعتلى بهرام بن هرمز مسند الملك وقع في قيد عبيد بلاطه وشغل باللهو واللعب . فكتب تلاميذ ماني إليه رسالة يقولون فيها أن ملكا شابا قد جلس على العرش ، وهو يصرف جلّ اهتمامه إلى اللهو . . فعاد إلى فارس وذاعت شهرته . وعُرِف مقرُّه ، فطلبه بهرام ، وطفق يسأله عن مبادئه وعقائده . . فتحدّث ماني عن نفسه[1] . وواجهه بهرام بالموبد الذي هبّ لمناظرته قائلا : [231]

---

(١) تعليق المترجم : يقول ذبيح بهروز : جاء عام ولادة ماني وبعثته وفقاً للتاريخ الأشكاني الذي يبدأ بعام ٢٧١ قبل الميلاد . وهكذا يواكب عصر ماني زمن اردشير وشاپور الأول والامبراطور جالوس وحوالي قرن تقريباً بعد الامبراطور پيوس انطونيانوس والامپراطور كلوديوس الثاني و بهرام الساساني الذي توفي عام ٥١ . . بعد أردشير . ولو أولينا الوثائق المتداولة والتي وجدت في القرن الماضي في الصين وأفريقيا اهتماما لوصلنا إلى النتيجة التالية : ولد ماني في العام الثاني من حكم الامبراطور جالوس الذي يوافق ـ بموجب الوثائق الشرقية ـ عام ٢٥٦ م . وهو تاريخ يأتي بعد عصر الامبراطور پيوس انطونيانوس بقرن تقريباً (١٣٨ ـ ١٦١ م) . أما بعثته ففي العام الأول من حكم كلوديوس ، الثاني (٢٦٨ م) بعد مرور عامين على حكم أردشير . وكان عمره آنذاك ثلاث عشرة سنة . وقام بدعوته يوم الأحد من شهر الحمل عام ٢٨٠ م الموافق لأول أيام شهر نيسان في العام الرابع والثمانين من الدورة الخامسة الكبيسة ، الموافق ليوم تتويج شاپور الأول الساساني . مات ماني في سجنه في عام الخنزير الموافق ٣١٥ ميلادي ، وكان عند موته قد بلغ الستين ، وكان مصرعه يوم الأحد الرابع من شهر مهر اليزدجردي ، وقد بقي ١٤ يوماً على النيروز . وفي التواريخ الأرمنية يطابق عام ١١٤ الأشكاني السنة الرابعة لامبراطورية دمتريوس (١٥٧ ـ ١٥٨ ق . م) . وهكذا يصبح عام ٢٦٨ م الذي هو أول أعوام حكم الامبراطور كلوديوس الثاني مطابقاً لعام ٥٣٩ بالتاريخ الشمسي الأشكاني . ولو وافقنا على ما سبق لكان عام ٢٧١ قبل الميلاد ـ أي عام ٦٥ من ملك الاسكندر ـ هو البداية التاريخية لمولد ماني وبعثته . للمزيد من الاطلاع أنظر القسم الخامس عشر من إيران كوده . ذ . بهروز .

ليحضر القوم رصاصا سائلا فيصبوه على بطني وبطنك ، فأينا لا يصيبه الضرر فالحقُّ معه[1] . وأجابه ماني : هذا فعل ناجم عن الظُلْمة .

[23 وهنا أمر بهرام بإلقائه في السجن ، وقال له : غداً أريدك ، وعندها سأقتلك بصورة لم يسبقك إليها أحد .

وقضوا تلك الليلة حتى الصباح وهم ينزعون جلده عن جسده إلى أن أسلم الروح ، وفي الصباح أرسل بهرام في طلبه ، فلما عرف أنه فارق الحياة أمر بفصل رأسه عن جسده وأن يحشو جلده قشا . وتعقَّب أتباعه وقتل عدداً كبيراً منهم . واستمر حكم بهرام بن هرمز مدة ثلاث سنوات . وما أورده الفهرست من شرح يتعلق بماني يُعَدُّ أكثر شمولاً ، لكن قدرة من يعرفون الألمانية على الرجوع إلى ترجمة فلوجل تجعلنا نقنع بذكر عدة نقاط هامة :

اسم والده فتق (بضم الأول والثاني وتشديد الثاني) تعريب للإسم الفارسي پاتك Pataka على ما يبدو (بفتح التاء والكاف) . ويضبطه الغربيون پاتكيوس Patckios ، پاتسيوس Patecius ، فاتسيوس Phatecius ، وپاتريسيوس Patricius .

وكان ماني من أهل همدان ، وقد هجرها إلى بابل (بادرايا Badaraya وباكوسيا Bakusaya) ، والتحق بالمغتسلة وهم قوم قريبون من الماندين . وربما كانت صلته بالمغتسلة هي التي دفعته إلى كراهية الدين اليهودي والنفور من عبادة الأوثان . وقد نشأ خلاف حول اسم أمه ، فهو مار مريم Mar-Maryam مرة ، وهو اوتاخيم Utakhim مرة أخرى ، وأحياناً ميس Mays . . غير أنها على أي حال من أصل أشكاني أو من الأسرة المالكة البارثية . وفي هذا بيان آخر لسبب عدم ثقة

(١) ورد ذكر مثل هذا اللون من التعذيب مراراً في المتون البهلوية والعربية . فيما يختص بالمصادر البهلوية ، أنظر : اردويراف نامك ترجمة هاوج ص ١٤٤ ، خاصة ما هو منقول عن دينكرد ، وشكند گمانيك وبجار (طبع وست) ص ١٢ .

وفيما يتعلق بالمصادر العربية ، أنظر : آثار البلاد للقزويني ص ٢٦٧ . وقد ورد في تاريخ گزيده أيضاً أن ماني قد تعرض لهذه التجربة (نسخة كمبريدج الخطية ، تحت رقم (Dd. 3, 23 F. 45 a) .

الملوك من آل ساسان في هذا الرجل .

[233] وطبقاً لتصريحاته التي أوردها بنفسه في كتابه شابورقـان ، وطبقـاً لما نقلـه أبوريحان البيروني . . فقد كان مولده في علم ٢١٥ أو ٢١٦ م[1] ، وكان أعرج . وقد رأت أمه في منامها ـ قبل ولادته ـ ملكاً يدعى توم Tawm أخبرها أن ولدهـا سوف يحمل الرسالة .

أما بداية نزول الوحي على مانى فكانت في سن الثانية عشر أو الثالثة عشر (علم ٢٢٧ م أو ٢٢٨ م) وفق قول البيروني ، ولم يؤمر بإبلاغ عقائده قبل بلوغه الرابعة والعشرين . ويقال إنه أعلن دعوته يوم تتـويج شابـور (في العشرين من مارس علم ٢٤٢ م) في أبهة فائقة وجلال ووقار ومراسم خاصة ، وذلك في حضرة الشاه . وربما ساعده في ذلك پيروز شقيق الشاه الذي كان قد اعتنق دينه . وقد عرف طريقه إلى البلاط في تلك الفترة الهامة من حياته ، فلما غضب عليه الملك سافر وطالت غيبته في الهند والشرق . ثم عاد إلى إيران إبان حكم بهرلم الأول (٢٧٣ ـ ٢٧٦ م) ـ حيث أعلم بصورة وحشية . وقد شرح أبوريحان البيروني واليعقوبي والطبري ما حدث فقال البيروني[2] :

قوي نفوذ المانوية في عهد اردشير وابنه شاپور وهرمز بن شابور . . واستمر في التزايد تدريجياً إلى أن جلس بهرام بن هرمز على العرش ، وأمر بإحضار مانى ، فلما حضر قال :

[234] «جاء هذا الشخص يدعو الناس إلى تخريب الدنيا ، ويجب أن يهلك أولاً قبل تنفيذ خططه». ومعروف أن بهرلم قد قتل مانى ونزع جلده عن جسده ، ثم حشاه (تبنا) وعلّقه على باب جندي شابور ، ولذا تسمى هذه البوابة الآن بوابة مانى . كما أمر هرمزد بقتل عدد من المانوية .

---

(١) تعليق المترجم : تاريخ ولادة مانى ـ بناء على التعديل الذي أدخله تقي زاده على التقويم الايراني القديم هو ١٤ إبريل سنة ٢١٦ م (أنظر مقاله في BSOAS المجلد السادس عام ١٩٤٣ م) .

(٢) الآثار الباقية ، ترجمة زاخو ، ص ١٩١ .

وقد سمعت من الاسپهبد مرزبان بن رستم أن شابور قد نفى مانى إكراماً لدين زردشت ، لأن زردشت كان يأمر بنفي من يدّعون النبوة من البلاد . وقد ألزمه شاپور بألا يعود إلى البلاد مطلقاً فسافر إلى الهند والصين والتبت . (فلما عاد لإيران) قبض عليه بهرام وقتله بتهمة نقضه العهد ، ففاضت روحه هذا السبب » . والآن نرى كيف كانت تسير دعوة مانى ، ولماذا أثارت عداوة الزردشتيين . ولو اكتفينا بالحديث عن مسيرة هذه الدعوة في الشرق وتلمّسنا مدى انتشارها لكفانا أن نقول إنه حتى في أواخر القرن الثامن الميلادي كان نشاط المانويين ما زال سارياً على نحو جعل المهدي الخليفة العباسي يختار محققاً خاصاً - يدعى صاحب الزنادقة أو عارف الزنادقة - ليكتشف أتباع الديانة المانوية أو الزنادقة - ممن كانوا يتزيّون بزي الإسلام - كي يوقّع عليهم العقاب .

ما هو المعنى الدقيق الصحيح للفظ زنديق ؟

عرفنا أن لفظ زنديق كان يطلق أصلاً على أتباع مانى ، ثم بات يطلق في الممالك الإسلامية تدريجياً على كل الملاحدة وأتباع الفرق الضالة كما يسمون إلى الآن . ولتوضيح الأمر ببساطة نقول إن لفظ (زنديك) صفة فارسية معناها « پير وزند » . والزند (كما ورد في ص ١٢٣) هو الشرح والتأويل الذي يعتمد على الأقوال والأحاديث والروايات المأخوذة من متن كتاب زردشت المقدّس . وكانت أفكار المانويين تتجه إلى تفسير كتب الديانات الأخرى المقدّسة طبقاً لعقيدتهم ، وهذا يناظر أقوال عرفاء المسيحيين وتأويلات الإسماعيلية المتأخرين[1] . [23

وللبروفسور بقان Pro. Bevan رأي آخر توضيحي في ذلك الشأن . . أقرب إلى الاحتمال .

فقد قال ابن النديم[2] والبيروني[3] أن لفظ سمّاعين (بتشديد الميم) يطلق

(١) ورد لفظ زنديكيه في كتاب مينوخرد (طبع وست عام ١٨٧١ م الفصل ٣٦ ص ٣٧) ، وفسّر على النحو التالي : « الشخص الذي يذكر الشياطين بالخير » .

(٢) الفهرست - ترجمة فلوجل - ص ٦٤ .

(٣) الآثار الباقية - ترجمة زاخو - ص ١٩٠ .

على الطبقات الدنيا من المانويين . . وهم الذين كانوا لا يرغبون في أن يُكلَّفوا بالفرائض المرتبطة بالفقر والعزوبية والرياضة وهي أسس دين مانى . والمعروف أنه كان قد فرض على القديسين والزهاد ترجيح الفقر على الغنى ، ونبذ الحرص والشهوة ، وترك الدنيا واللجوء إلى الزهد . كما فرض عليهم الصوم والصدقة قدر إمكانهم ، وسمى طبقتهم هذه بالصدّيقين . والصدّيق لفظ عربي ، أصله الآرامي على الأرجح هو صدّيقاي (بفتح الأول وتشديد الثاني) وهو الذي صار في الفارسية زنديك . فكما يقولون عن السبت في الفارسية شنباذ (وفي الفارسية الحديثة شنبه) ، ويقولون عن الكلمة السانسكريتية سدهانته Siddhanta سندهند ، فإن زنديك (ومعرّبها زنديق) - طبقاً لهذه النظرية - لفظة آرامية بحتة أخذت صورة فارسية ، وأُطلقت على هذا الفريق من أصحاب مانى الذين قبلوا الانخراط التام في سلك المانوية . وكانت الكلمة تطلق أصلاً على أتباع هذه الفرقة وحدهم فيقال : الزنادكة أو الزنادقة ، ثم اتّسع مفهومها وصارت تطلق بصفة عامة على من يضلّون ويتّبعون الكفر والإلحاد ، ويؤمنون بالعقائد السخيفة .

[236] وقد ذكر بفان شيئاً آخر له أهمية وهو أن كلمة « كتزر » Ketzer الألمانية ومعناها زنديق مشتقة من الكلمة اليونانية Kaθapoi التي وردت بمعنى طاهر[1] .

وكما رأينا فإن أتباع مانى - مثلهم مثل أتباع مرقيون Marcion وابن ديصان (الديصانية) Bardesanes - يعتبرون في نظر مؤرخي الإسلام من جملة الثنويين . ولكن . . إذا كان الدين الزردشتي ينادي هو الآخر بالثنوية . . فمن أين نشأت كل هذه العداوة ؟ . .

إجابة على هذا السؤال نقول إن خلق الدنيا : طيّبها وخبيثها رهن في الدين الزردشتي بنفوذي اهورا مزدا وانگر مينيوش (اهريمن) ، وهو يتركب من قسمين روحاني ومادي . وليس الإنس والملائكة وحدهم الذين يحاربون إلى جوار

(١) أنظر كتاب :
C. Sehmidt, Hist. et doctrine de la secte de Cathares ou Albigeois (Paris, 1849).

اهورامزدا ضد الشياطين والأرواح الخبيثة (دروجان) Druge والكائنات الضارة (خرفستران) Khrafstar والسحرة والكفّار والزنادقة الذين يشكّلون جنود اهريمن . . بل يشاركهم في هذه الحرب كل العناصر الماديّة والكائنات الحية والأعشاب النافعة للإنسان ومن آمنوا بماني من بين البشر .

والدين الزردشتي بصفة إجمالية ـ بما فيه من سلسلة درجات تشتمل على نفوذ الموابدة وأسلوبٍ دقيقٍ وطرازٍ كاملٍ جامعٍ ينظّم الدرجات الدينيّة ويرتّبها ، وتشجيعٍ لأتباعه على استغلال وجودهم واستنبات الأرض والتوسّع في منحها الخصوبةَ ، ونثر البذور وجني المحصول ، وبذل الجهد والتعب في سبيل ذلك ـ دينٌ مادي[1] .

[237] وطبقاً لرأي المانويين ، فإن امتزاج النور بالظلام ـ وهو ما نجمت عنه دنيا المادة ـ كان في الأصل شراً . وقد حدث هذا الامتزاج نتيجة لنشاط قوى الشر ، وكان حسناً إلى حد ما لأنه كان يتيح وسيلة الفرار والعودة لذلك القسم من النور الذي كان أسير الظلمة (« عيسى المعذب »)[2] . وحين فرّ النور من قيد الظلمة كانت الملائكة التي ترعى السماوات والأرض تخلّص الجميع ، وكانت الدنيا الماديّة بأسرها تتحطم ، وكان الحريق النهائي هو محرر النور ومخلّصه من الظلمة التي لا خلاص لها من قيد المعصية ولا تقبل الفناء[3]

---

(١) أنظر : الترجمة الانجليزية التي وضعها دارمستتر للأفستا في .S.B.E الجزء الأول ص ٤٦ ، والتعليق الأول في أسفل الصفحة المذكورة يدور حول (فرگرد چهارم) ، الآية ٤٧ .

(٢) أنظر : إيرانشناسى باستان لفردريك اشبيجل ، المجلد الثاني ص ٢٢٦ . تعليق المترجم يطابق المانوية بين النور (الذي يتعذب ويتألم في هذا العالم نتيجة أسره في قبضة الظلام) وبين عيسى باعتباره ممن عذبهم وآلمهم الظلم والشر في هذه الدنيا . ويعبر عن هذا المعنى في الكتب المسيحية بعيسى المعذب Jesus Patibilis . ويمكن الرجوع فيما يتعلق بهذا الموضوع وفيما يتعلق باسم الآلهة التي شاركت في خلق العالم . . إلى مقالة «أسطورة الخلق في نظر المانويين (افسانه' خلقت در نظر مانويان) مجله' يغما مرداد ١٣٣٠ .

(٣) انظر الفهرست ترجمة فلوجل ، القسم الخاص بماني ص ٢٣١ ، ايرانشناسى باستان ، جـ ٢ ص ٢١٧ .

وفي هذه الاثناء - استناداً إلى متون الحمد والثناء (الشكر وطيب الاعمال التي يقوم بها المؤمنون الذين يصعدون إلى الجنة ويُرون فيها كالثريات) ترتفع ذرّات النور الفارّة من قيد الظلمة فتنقلها الشمس وينقلها القمر إلى الجنة المضيئة مأواها الأصلي . وكل شيء يتسبب عنه إطالة أمد امتزاج النور بالظلام - كالزواج [238] والتناسل - يُعدّ في نظر ماني وأتباعه شراً وشيئاً مذموماً .

وهنا نفهم ما كان يقصده هرمز بقوله : لقد جاء هذا الرجل يدعو الناس إلى فناء الدنيا . فالمذهب الزردشتي مذهب قومي مكاني مادي دنيوي ، أما المذهب المانوي فينظر إلى كل العالم نظرة عكسية مختلفة ، ويوجب وجود نوع من التفكير العرفاني يؤدي إلى السمو بالنفس والروح ، ويهتمّ بالزهد والرياضة والانزواء والانقطاع عن أمور الدنيا والمعاش . وبين المسلكين ولا شكّ تفاوت ذاتي واضح . ورغم التشابه الخارجي (الذي أوضحه اشبيجل في كتاب « إيرانشناسي باستان » جـ ٢ص ١٩٥ - ٢٣٢) شوهدت بين المسلكين عداوة صارخة لا يمكن تجنّبها ، وخلافات كليّة أساسية . وهناك عداوة أيضاً بنفس الدرجة بين اليهود والنصارى والمسلمين . وإذا كان المانويون قد اصطدموا باليهود بنسبة أقل من اصطدامهم بأتباع الديانات الثلاثة الأخرى . . فإن السبب لم يكن ناجماً عن عزوف اليهود عن إيذائهم : بل كان ناجماً عن عجز اليهود عن إيذائهم . وإلا فإن ماني - كما رأينا - كان يخصّ الدين اليهودي بالكراهية .

ونحن لا يمكننا هنا أن نبحث جزئيات أسس العقائد المانوية ، وعلل امتزاج الظلمة والنور ، والفروض المتعلّقة بملك جنان النور والانسان الأول والشيطان وبناء الدنيا المادية . . وسيلة تحرر النور من أسر الظلام . ولا يمكننا أن نبحث تفاصيل معتقداتهم العجيبة غير المتناسبة بل والمضحكة حول آدم وحواء وقابيل وهابيل وحكيمة الدهر وابنة الحرص وشاثل وغيرها .

وإذا كان المانوية قد رفضوا الاعتراف بالرسل العبرانيين فإنهم لم يعترفوا بزردشت وبوذا فحسب بل واعترفوا كذلك بالمسيح . والمسيح الحقيقي في رأيهم

[239] جلوة من جلوات عالم النور دخلت دخولاً صرفاً إلى فكر البشر وخيالهم[1] ، وقد فرّقوا بينه وبين شبيهه وخصمه ابن الأيّم المصلوب . والعجيب أن عقيدة المانويين قد لقيت قبولاً لدى رسول الإسلام ، أنظر السورة الرابعة ، الآية ١٥٦ :

---

(١) تعليق المترجم : يقول بارشاطر : تصوُّر المانويون المسيح في صورتين : الأولى ، المسيح الذي يدعى « المسيح المشرق » وهو من آلهتهم التي بعثت في الدورة الثالثة للخليقة كي تنقذ الآدميين ، بعثه الإله الأول ملك جنان النور . والثانية ، المسيح بن مريم الذي قتله اليهود . ووفاته دلالة على وفاة الأرواح الطاهرة التي تتألم في دنيا الظلام وتقاسي في دار المادة . وكثيراً ما تشاهد في كتب المانويين مظاهر العزاء وبكاء المسيح . . بهذا التعبير المجازي . وبعبارة أخرى فإن المانوية يرون عيسى في صورتين : فهو مرة عيسى بن مريم ، ومرة أحد آلهتهم . وتفسير ذلك أنه في البعث الرابع للآلهة يبْعث ملكُ النور (الذي تُبعث كل الآلهة من تجليّه) ثلاثة آلهة ، أولهم عيسى مخلّص البشر طبقاً للمتون المانوية . . وهو يفوق الآدمي ، ويوقظه من غفلته ويكشف له خبيثة نفسه ويريه كيفية الخلق . وهو نفسه الله الذي يفترض أحياناً أنه والنور شيء واحد ، مسكنه القمر ، وذرات وجوده متناثرة في أرجاء العالم . وهو الذي يتألم من أسره في مخالب ظلمة المادة ، ولهذا فإنه وعيسى المعذّب - نبي المسيحيين سواء . وماني - طبقاً لبعض المتون - يعتبر عيسى بن مريم الذي قتله اليهود تجلية وظهوراً لعيسى الحقيقي ، ويعتبر الحياة الدنيا من حقه وحق العيسويين فقط . وقد ذكر المسيح كما كان في نظر المسيحيين وذلك في بعض المتون الأخرى . . ومنها على سبيل المثال قطعة بالبارثية هي القطعة M 104 أنظر : F.C. Andreas and W.B. Henning Mitteliranische Manichaica aus Chinesisch-Turkestan.

وارجع إلى الصفحتين ٣٧ ، ٣٨ حيث يدور الحديث عن شنق عيسى .

وانظر نفس الكتاب ، صفحة ٣٥ ، القطعة M42 حيث يدور الحديث عن خيانة يهوذا . وقد جمع راولدشميت ولنتز المتون المتصلة بعيسى في كتاب عنوانه Distellung Jesu (برلين ١٩٢٦) . وفيما يتعلق بالمانوية يمكن الرجوع كذلك إلى المصادر التالية :

جاكسون ، دراسات في المانوية (نيويورك ١٩٣٢ م) ص ١٢ ، ١٣٤ ، ٢٥١ - ٢٧٨ .
A.V. Wiliams Jackson Research in Manichaeism

اندره باس وهنينج (برلين ١٩٣٢) الجزء الثاني ، القطعات V7129 IV 112-300 V5, 38-36 ، الجزء الثالث (المتون البارثية) القطعات a105 - k22-166 دراسات حول المانوية ونظرية الخلق أو تكوين العالم ، تأليف كومون (بروكسل ١٩٠٨) ص ٤٥ - ٤٧ .
F. Cumont, Recherches sur le manichéisme I, La cosmogonie maninchéenne

مذهب المانويين تأليف بركيت (كمبريدج ١٩٢٥ م) ص ٣١ ، ٣٧ ، ٤٣ .
F.C. Burkitt, The Religion of the Manichees

المانوية تأليف بوش (باريس ١٩٤٩ م) ص ٨١ - ٨٣ الحواشي رقم ٣٣٥ - ٣٣٦ - ٣٤٢ .
H. Ch. Puech, Le manicheisme

[240] وقولهم إنَّا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبِّه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلاّ اتبّاع الظن وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً[1] .

وحول تاريخ المانويين في الشرق ، ذكرنا أنه في خلافة المهدي والد هارون الرشيد (٧٧٥ ـ ٧٨٥) زاد عددهم إلى حد جعل الخليفة يلجأ إلى تنصيب قاض أو [241] محقق خاص لكشفهم وإعدامهم . وكان مؤلف الفهرست (٩٨٨م) يعرف ٣٠٠ من أتباع ماني يعيشون في بغداد وحدها . وقد وصف أبوريحان الكتب المانوية ، وخاصة شابورقان (وهو الكتاب الوحيد الذي وضعه ماني بالفارسية أي البهلوية لأن له ستة كتب باللغة السريانية) . وقد نقل أبوريحان عدة فقرات من شابورقان ، ومن بينها كلمات الافتتاحية (أنظر : ترجمة زاخو ، ص ١٩٠) :

« جاء الأنبياء والرسل على الدوام بالأفكار الطيّبة والأعمال الخيّرة من أجل البشر . ففي أحد العصور كان بوذا رسول الله ، وقد حمل الرسالة إلى أرمغان . وفي عصر آخر بعث زرادشت إلى إيران . وفي عصر ثالث ظهر عيسى غربي الأرض ، ثم نزل الوحي وها أنذا في عصرنا هذا . . أنا مانى رسول الله حقاً وصدقاً . . أرسلت إلى بابل بالرسالة والنبوة » .

ويقول صاحب الفهرست معلّقاً على هجرة المانويين :

« كانت المانوية أول فرقة دينية غير سامانية Shamanists تدخل بلاد ما وراء النهر . وعلة ذلك الأمر أن كسرى بهرام بعد أن قتل ماني وعلّقه وحرّم الجدال الديني في بلاده أخذ يقتل أصحاب ماني أينما وجدوا . . فكانوا يفرّون من مخالبه ،

---

(١) تعليق المترجم : في الرد على ما نسب إلى القرآن الكريم من أقوال لا تجوز ، هناك عدة رسائل لفقيد الشريعة سنگلجى رحمه الله ، منها رسالة محو الموهوم التي نشرها في اردى بهشت ١٣٢٣ في مدينة طهران وعلى من يريد أن يقف بدلالة القرآن على موت الرسل اوالأنبياء جميعاً ، ويقف على الأيات الدالة في القرآن الكريم على وفاة عيسى ، ويعرف معنى الرفع في القرآن . . ان يرجع إلى رسالة هذا الرجل .

ويعبرون مجرى نهر بلخ ويدخلون مملكة الخاقان (أو الخان) ويبقون فيها . والخاقان أو الخان لقب يطلق في لغتهم على ملوك الترك . وهكذا اختار المانوية بلاد ما وراء النهر لإقامتهم إلى أن دالت قوة الإيرانيين وقوي نفوذ العرب . . فعادوا إلى بلاد العراق وبابل ، خاصة عندما تحطّمت سلطة إيران في عهد الملوك الأمويين .

242] وقد بسط خالد بن عبد الله القسري[1] حمايته على المانوية ولكن رئاسة هذه الفرقة لم تتحقق في أي دار من الديار إلاّ في بابل . وكان رئيسها يذهب إلى البلد التي يجدها أكثر أمناً من غيرها . وكانت آخر هجرة لأفرادها في عهد المقتدر (٩٠٨ - ٩٣٢م) . وقد توجهوا إلى خراسان خوفاً على حياتهم ، وأخفى من بقي منهم أنه تابع للمانوية وكانوا يتنقلون في البلاد التي هاجروا إليها حتى بلغ عددهم في سمرقند خمسمائة تقريباً . وذاع الخبر ، وقرر والي خراسان أن يقتلهم غير أن ملك الصين (لعله الحاكم طغزغز أو تغزغز)[2] أرسل إليه يقول :

المسلمون في بلادي ضعف المانويين الذين في بلادك ممن يدينون بديني ، وأقسم أن أقتل المسلمين في دياري إذا قتل حاكم خراسان مانوياً ، وسوف أخرّب مساجدهم ، وأتعقب المقيمين منهم في سائر البلاد التابعة لي وأقتلهم . . لذا يجب على حاكم خراسان أن يترك المانويين في حالهم وأن يقنع بالجزية .

وهكذا قلّ عدد أتباع ماني في الممالك الإسلامية ، غير أني كنت أعرف منهم ٣٠٠ شخص في دار السلام (بغداد) على زمن معز الدولة (٩٤٦ - ٩٦٧م) . أما 24] الآن فلم يعد هناك منهم سوى خمسة في العاصمة وهم يسمون بالأجراء ، ويقيمون في ضواحي سمرقند وسغد وفي بنكث[3] بصفة خاصة .

---

(١) كان القسري يدافع عنهم بقوة وقد قتله خالد بن الوليد عام ٧٤٣ م (ترجمة فلوجل ص ٣٢٠ - ٣٢٢) تعليق المترجم : نسبة القتل لخالد خطأ عجيب فقد قتله يوسف بن عمر الثقفي ، وكان خالد قد مات قبل ذلك بمائة عام تقريباً .

(٢) ضبط المؤلف تغزغز (طغزغز) بفتح الأول والثاني والرابع Taghazghaz ولكن تقي زادة يرى أن الصحيح هو ضم الأول والثاني والرابع Toghozghoz

(٣) سجّلها المؤلف نويك Nuwikath ، لكن [illegible] يرى أن صحتها بنكث Benkath .

وقد رسم مؤلف الفهرست صورة سامية لمن كانوا يتظاهرون بالإسلام ويبطنون تبعيتهم للمانوية ومن بينهم الجعد بن درهم الذي قتل بأمر هشام الخليفة الأموي (٧٢٤ - ٧٤٣م) ، وبشار بن برد الشاعر الذي قتل عام ٧٨٤م ، وكل البرامكة تقريباً باستثناء محمد بن خالد بن برمك والخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣م) - غير أن صاحب الفهرست لا يثق في هذا القول - ومحمد بن الزيات وزير المعتصم الذي أعدم في عام ٨٤٧م ، وغيرهم .

وينقسم المانوية إلى خمس درجات :

المعلمون أو أبناء الحلم والعطف ؛ والمشمسون أو أبناء العلم الذين أضاءت شمس العلم روحهم وأذهانهم[١] ؛ والقسيسون (رجال الدين القساوسة) أو أبناء العقل ؛ والصديقون أو أبناء الغيب ، والسماعون ، أبناء الفطنة (الأذكياء) .

وقد فرض ماني على أتباعه :

تأدية أربع صلوات أو سبع ، ترك عبادة الأصنام ، ترك الكذب ، ترك البخل والطمع ، ترك قتل الآدمي ، ترك الزنا ، ترك السرقة ، ترك تعلم السحر وكل فنون الخداع ، ترك اللمز والشك في الدين ، ترك الوهن والضعف في العمل .

[244] وقد زيدت الأحكام التالية على الأحكام العشرة المذكورة :

الاعتقاد بالجواهر الأربعة السامية التالية : الله (ملك جنة النور أو ملك جنان النور) ونور الله ، وقوة الله ، وعقل الله ، صيام سبعة أيام في الشهر ، قبول الأختام الثلاثة التي قال بها سانت اجستين وبقية الكتّاب المسيحيين : ختم الفم ، وختم اليد ، وختم الصدر[٢] . وهذه الأختام تشير إلى وجوب ترك القول السيء

---

(١) أنظر : ترجمة فلوجل - القسم الخاص بماني ص ٢٩٤ - ٢٩٩ . هذا المعنى غير مسلّم به .

(٢) تعليق المترجم : Signacula Oris, Mannum et sinûs هذا هو مفهوم العبارة اللاتينية : الأول : الختم الذي على الفم (حتى لا يتفوّه إلاّ بالصالح) ، والثاني : الختم الذي على اليدين (حتى لا =

والعمل السيء والظن السيء أو الفكر السيء . ويطابق ذلك في الدين الزردشتي الكلمات : هوخت Hükht وهوورشت Hüwarsht وهومت Hûmat (القول الطيب والعمل الطيب والفكر الطيب أو الظن الطيب) .

وقد شرح الفهرست تفاصيل الصوم والصلاة وما يقال عند الصلاة . وبالرجوع إليه نلحظ الانقسامات التي ظهرت بعد ماني بين أتباعه بقصد السمو الروحي . ومن الفرق التي نشأت نتيجة هذه الإنقسامات فرقتان هامتان هما : المهربة والمقلاصية . ومن الكتب السبعة التي كتبها ماني ستة كتب بالسريانية وواحد فقط بالپهلوية (شابورقان) . وقد كتبت بخط ذي أسلوب خاص اخترعه مؤلّفها ، ويمكن رؤية تصاويره في الفهرست . (يظهر هذا الخط في النسخ الموجودة في حالة سيئة جداً) .

ويلاحظ أن البابليين قد اخترعوا لهم في العصر الحديث خطاً خاصاً بهم أسموه الخط البديع . وقد اهتم المانويون بخطّهم المخترع وبفن تحسين الخط إلى حد بعيد .

[245] ويشيع في إيران أن ماني كان رسّاماً ماهراً . ومنشأ هذه الفكرة وفق ظن بفان الاهتمام الكبير الذي كان يبديه هذا الرسّام البارع نحو خطّه . ويؤمن القوم في إيران بصفة عامة أن ماني قد أنشأ معرضاً للصور أسماه ارژنگ أو ارتنگ ليبرهن به على قدرته الخارقة ورسالته السماوية[1] (كما جاء رسول الإسلام بالقرآن) .[2]

= تقومان بعمل غير صالح) ، والثالث : الختم الذي على الصدر (حتى لا يعرف الفكر النجس طريقه إلى صفحة الضمير) .

(١) أنظر : الشاهنامة طبع ما كان ـ المجلّد الثالث ـ ص ١٤٥٣ ـ ١٤٥٤ .

(٢) تعليق المترجم : وضعت كتب ورسالات حول ماني يمكن للقرّاء الاستفادة منها ، من بينها : مقالة الصفوي في نوبهار ، مقالة طاهر زاده بهزاد في رسالة سر آمدان هنر (١٩٢٣) ، خطاب ملك الشعراء بهار في كلية المعقول والمنقول (١٣١٣) ، كتاب جاكسون الأمريكي :
Jackson, Researches in Manichaeism 1932.

ورسالة علي زاده ، كارنامهٔ اردشير بابكان المشتمل على نص پهلوي وقاموس وترجمة فارسية وحواشي=

روي عن رسول الإسلام قوله : « ولدت في زمن الملك العادل » ، وهو يقصد خسرو أنوشك روبان (الخالد الروح) . وما زال الإيرانيون يسمونه أنوشيروان العادل ، ويرون فيه نموذجاً كاملا للتقوى والفضيلة الملكية .

[246] وكما قلنا فإننا لا يمكننا قبول هذه الفتوى دون قيد أو شرط ، لأن العدل وفق مفهومنا الحالي لم يكن سبب شهرته هذه ، لقد كانت تصرفاته القاسية تجاه الزنادقة سبباً في رضاء الموابذة المجوس عنه ومدحهم له بما أثر عنه ، وهؤلاء الموابذة هم أنفسهم واضعو التواريخ القوميّة . لقد أطلق على يزدجرد لقب الأثيم وجلّل اسمه بالعار لتغاضيه عن سائر الأديان وعدم اهتمامه بالموابذة من الزردشتيين ، لا لأنه ارتكب شراً معيناً في حياته . لقد كان نشاط الزنادقة يهدّد البلاد في خيراتها وصلاحها ورفاهيتها لهذا سلك معهم أنوشيروان ذلك المسلك القاسي ، لكنه لم يكن مع ذلك متعصبا بأي حال ، بل إن الأمر كان على العكس من ذلك . . فقد اشتهر بحبّه للأديان والمذاهب الفلسفية الأجنبية . وخِلّة أنوشيروان هذه تذكّرنا بالخليفة المأمون وبأكبر إمبراطور الهند ، فقد كانا يجدان لذة شأنهما شأن أنوشيروان ـ في المجادلات والأفكار الفلسفية .

ورغم نظرة نولدكه[1] غير الطيبة إلى الايرانيين فإنه ما ان يصل إلى أوصاف أنوشيروان الخلقية حتى يتحدث عنه بلهجة معتدلة جداً ومختصرة . وهذا ما قاله عنه في نهاية الأمر :

= وتعليقات بقلم محمد جواد مشكور المدرس بجامعة تبريز ،طبع طهران ١٣٢٩ ش » ومقالة يارشاطر حول أسطورة الخلق في الكتب المانوية ـ مجلة يغما ، مرداد وشهريور ١٣٣٠ .

وفيما يتعلق بعصر ماني يوجد خلاف يصل إلى اربعين سنة تقريباً ولهذا أهميته القصوى في حساب السنوات . ولمن يهتمون بهذه الاختلافات أن يرجعوا إلى الكتب المذكورة وإلى الحساب الذي نقله بهروز في « تقويم وتاريخ » ، وفي هامش نفس الكتاب ص ٢٣٠ ، ٣٣١ .

(١) أنظر : تاريخ الساسانيين لنولدكه ، ص ١٥٠ ـ هامش رقم ٣ .

[24 ومن المسلَّم به بصفة عامة أن خسرو (أنو شيروان) ـ من أكبر ملوك إيران وأفضلهم وأنه كان لا يميل إلى الظلم والجور . وكان شأنه شأن أفضل أفراد شعبه (ممن لا يهتمون عادة بالحقيقة) لا يهتم بالحقيقة أكثر مما يهتم بها سواه .

إن سيطرة أنوشيروان على قلاع المزدكيين وقمعهم وتحطيمهم ، وحروبه المظفَّرة مع الروم (أهالي بيزانس) ، والقوانين المعقولة التي وضعها ، والاهتمام بالدفاع القومي ، وما نعمت به البلاد في عهده من تقدم وازدهار . . كل هذا تسبَّب في شهرته المدوية وسمعته الطيّبة في الشرق ، حتى أنهم ما زالوا يرون فيه إلى الآن المثل الأعلى ، وأفضل درجات الكمال الملكي المطلوبة .

لقد كان استقباله للحكماء السبعة اليونانيين الذين نفوا من بلادهم نتيجة تعصّب الامبراطور جستيان وعدم قدرتهم على تحمله ، وكانت المادة التي وضعها خصيصاً لصالحهم في معاهدة الصلح بعد انتهاء حربه المظفرة مع البيزنطيين (والتي ضمن لهم فيها حريتهم وألا يتعرض لهم أحد بعد عودتهم لوطنهم فيصادر أفكارهم وعقائدهم أو يتدخل في شئونهم) . . . ،

وكان إشرافه على العلماء ، وتأسيسه مدرسة الطب في جندي شابور ، والتراجم الكثيرة التي وضعت بناء على أمره نقلاً عن اليونانية والسنسكريتية إلى اللغة البهلوية . . كان كل هذا مظهراً من مظاهر حبِّه للعلم وتعلُّقه به ، وكان سبباً في أن ساد الاعتقاد حتى في الغرب بأن « أحد تلامذة أفلاطون قد جلس على عرش إيران »[1] .

[24 وأظن أن موضوع أهمية سفر الفلاسفة الأفلاطونيين الجدد إلى بلاط إيران ـ بالصورة التي ذُكر بها ـ لم يحظ بالنصيب الكافي من الاهتمام ، فقد كان التصوُّف الذي ظهر فيما بعد في إيران ، وأصول عقائد الصوفية التي سوف نبحثها في أحد

---

(١) أنظر : الشرح الممتاز الذي كتبه جيبون عن أنوشيروان في كتابه : « إنحطاط إمبراطورية الروم وسقوطها » ، المجلد السابع طبع ١٨١٣ م ، ص ٢٩٨ ـ ٣٠٧ .

الفصول التالية بالتفصيل . . كان هذا وذاك مدينا لمذهب الأفلاطونيين الجدد .وقد أجاد نيكلسون صديقي وتلميذي السابق ـ شرح تلك النقطة في كتاب منتخبات من ديوان شمس تبريزي (طبع كمبريدج ١٨٩٨م).

وقد بدأ سير العقائد العلمية والأفكار الفلسفية من اليونان إلى المشرق ، وهذه إحدى الأحداث الكبرى في أوائل العصر العباسي ، خاصة في عهد المأمون بن هارون الرشيد (٨١٣ ـ ٨٣٣) . غير أنه من المحتمل جدا أن يكون دخول هذه العقائد إلى إيران قد بدأ في القرن السادس الميلادي . . في عهد أنوشيروان (وإن كان ضياع قدر كبير من الآثار البهلوية غير الدينية على الأخص لا يمكننا من إثبات هذا الأمر) . لقد كان دخول العقائد الصوفية وكثير من العقائد الأخرى إلى إيران في الواقع في الفترة السابقة على الإسلام . . أي في عهد الساسانيين . لقد كان أنوشيروان ينظر بعين الاحتقار إلى أفكار المصلحين المسيحيين . وقد آلمه تمرُّد ولده أنوشه زاد (الذي اعتنق دين أمه المسيحية ـ أنظر ص ٢٠٢) ، ولكن هذا لم يمنعه [249] من منح المزايا لفرقة خاصة من الفرق المسيحية[1] ، ونعني بها الفرقة التي كانت تعتقد بأن حضرة المسيح كانت له طبيعة واحدة هي نفس الطبيعة الإلهية ، وأن الطبيعتين لم تتحدا ولم تتمايزا . كما أن هذه المسألة لم تمنعه من أن يقبل شروطاً عديدة في معاهداته[2] . . وضعت لصالح الكاثوليك . وقد صرح يواگريوس Eugrius وسبئوس Sebêos [3] أن أنوشيروان كان قد أقرّ سراً غُسل التعميد قبل موته . وحتى لو كان هذا القول من جانبهما كذباً صريحاً فإنه يدل على تعاطفه مع المسيحيين بصفة عامة ومساعدتهم ومسايرتهم . ويقول نولدكه أن المسيحيين قد

---

(١) نولدكه : تاريخ الساسانيين ، ص ١٦٢ ـ الهامش .

تعليق المترجم : انتشر نفوذ هذه الفرقة صاحبة الطبيعة الواحدة أو (مونو فيزيتي)Mono Physites في القرن الخامس الميلادي ، وناصرها الأقباط والأحباش واليعاقبة السريانيون وبعض الأرمن .

(٢) جيبون : تاريخ انحطاط روما وسقوطها ص ٣٠٥ العدد ٥٢ ـ الهامش
E. Gibbon, The History of the Decline and fall of Rome Empire.

(٣) تاريخ الساسانيين ، ص ١٦٢ ـ هامش الصفحة .

اعترفوا بفضل أنوشيروان حتى بعد مرور قرن على وفاته ، وذلك بسبب ما كان يبديه نحوهم من حب وعرفوا له حقّه فلم يجيزوا بقاء جسد يزدجرد الثالث ـ آخر ملوك الأسرة الساسانية ـ في العراء وقاموا بدفنه في باطن الثرى .

ومما يجدر بنا قوله أن تاريخ أنوشيروان مع الأديان كان مرتبطاً بأمن البلاد ونظام الحياة الاجتماعية ، وأن الأمن والنظام الاجتماعي كانا موضع تهديد من قبل مزدك ونظامه الاشتراكي ، وسوف نتحدث في ذلك الآن .

[250] والوثائق التي في يدنا عن هذا الرجل العجيب قد جاءتنا عن طريق نولدكه[1] وقد جُمعت بدقّة متناهية[2] . ويمكنك الرجوع إلى المقالة الرابعة التي ألحقها بكتابه

(١) Uber Mazdak und die Mazdakiten

(٢) أنظر الشرح الذي يستحسنه العوام ، والذي كتبه العالم نفسه في :

Deutsche Rundschau في شهر فبراير من عام ١٨٧٩ م ص ٢٨٤ وما بعدها . وأقدم الأراء التي أثيرت حول مزدك وأهم الاشارات التي قيلت حوله هي :

أ) في البهلوية :

جاءت الكلمات التالية في متن الأفستا في تفسير معنى الروح النجسة ، ويمكن الرجوع إليها في ترجمة الونديداد إلى البهلوية ، الفركرد الرابع والخامس الآية ٤٩ . ويقال إنها إشارة إلى مزدك بامدادان: «إنه الرجل الذي يستطيع أن يقاوم اشمئوغ Ashemaogha (الروح النجسة أو الشيطان أو الزنديق) الذي لا يعرف الله الذي لا يأكل شيئاً» .

ووردت في بهمن يشت إشارات أخرى إلى «مزدك الملعون» . وبهمن يشت أثر من أكثر الآثار البهلوية تأخراً . وهو بوضعه الحالي ـ كما يرى وست ـ من آثار القرن الثاني عشر الميلادي تقريباً . وكان في البهلوية كتاب اسمه «مزدك نامه» ضمن مجموعة أخرى قام ابن المقفع بترجمتها إلى العربية . وقد ضاعت الترجمة لسوء الحظ، لكن محتويات الترجمة تقريباً مثبتة في مؤلفات عربية وضعها كتّاب آخرون .

ب) في اليونانية :

توجد في آثار پروكوپيوس Procopius وثيوفانس Theophanes ويوحنا ملالاس Iohn Malalas

جـ) في السريانية :

في الفقرة رقم ٢٠ من الكتاب الخاص بتاريخ حملة إيران على آسيا الصغرى طبع رايت ، (The Chronicle of Joshua the stylite) يدور البحث حول المسلك السيء الذي يسلكه كواد (قباد) ملك إيران ، وحول تأسيس فرقة المجوس الملعونة من جديد (وهي فرقة تسمى «زراد شتگان» ، ومن تعليماتها أن النساء يجب أن يكنّ ملكاً للجميع) .

د) في العربية :

ممن كتبوا كثيراً بالعربية حول أحوال مزدك :

تحت عنوان « الملحق » ، والكتاب خاص بتاريخ الساسانيين وقد أشرنا إليه مراراً ، [251] والمقالة في مزدك والمزدكيين (ص ٤٥٥ ـ ٤٦٧) . ويجب الانتباه إلى أن هذه المصادر تعتمد على آراء معارضي تعاليم مزدك ومعظمهم من الزردشتيين أو المسيحيين . فإذا ما دافعوا عن شيء عنده فإنما لأنه يتفق مع وجهة نظرهم ويتلاءم مع مصلحتهم ، أو قد يكون هذا الشيء ثانوياً لا نعرف عنه الآن شيئاً .

ويمكننا أن نضرب المثل على ما نقول بوضع البابيين في الآونة الأخيرة . إن ما جاء في التواريخ الرسمية كناسخ التواريخ للسان الملك مؤرخ البلاط ، وفي التاريخ الملحق بروضة الصفا للكاتب العبقري رضا قليخان خاصاً بأصول عقائدهم وأعمالهم وأفعالهم قد كان بدافع العداوة والبغضاء والنفاق .

[252] ولو قررنا الاعتماد على هذا اللون من المصادر دون غيره ، ووثقنا بأقوال الأوروبيين الذين يبدون منزّهين عن الأغراض . . وقد حصلوا على معلوماتهم من دوائر البلاط . . فأي حكم هذا الذي سنصدره بخصوصهم يا ترى ؟

ويجب أن نلاحظ أيضاً أنه قد أثيرت اتهامات حول كيفية تطبيق الاشتراكية وحول الانحلال وتضارب القوانين . . خاصة فيما يتعلق بموضوع العلاقة

= اليعقوبي (عام ٢٦٠هـ تقريباً ـ طبع هوتسما المجلد الأول ص ١٨٦) . يقول اليعقوبي أن أنوشيروان قتل مزدك وأستاذه زرادشت خرگان ، ابن قتيبة (ت ٢٧٠ ـ ٢٧٦هـ) كتاب المعارف وستنفلد ١٨٥٠ م ص ٣٢٨ ؛ الدينوري (ت ٢٨٢ هـ ٢٩٠ هـ) طبع جرجاس ص ٦٩ ؛
الطبري (ت ٣١٠ هـ) طبع دوخوية الفترة الأولى ـ المجلد الثاني ص ٨٨٥ ـ ٨٨٦ ترجمة نولدكه ص ١٤٠ ـ ١٤٤ ، ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ؛ حمزة الأصفهاني «أوائل الرابع الهجري » ، يوتيكيوس Eutychius (ت ٣٢٨ هـ) ، المسعودي (ت ٣٤٦ هـ) مروج الذهب ، طبع دومينار ، المجلد الثاني ص ١٩٥ ـ ١٩٦ ؛ البيروني (ت ٤٤٠ هـ) ترجمة زاخو ص ١٩٢ ؛ الشهرستاني (ت ٥٤٨ هـ) الملل والنحل طبع كورتن ص ١٩٢ ـ ١٩٤ ترجمة هاربروكر ص ٢٩١ ـ ٢٩٣ إبن الأثير (ت ٣٦٠ هـ) أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ) طبع فلايشر Fleischer ص ٨٨ ـ ٩١ ، وغيرهم من المؤرخين .
هـ) في الفارسية :

يجدر بنا الاشارة بصفة خاصة إلى قصص شاهنامة الفردوسي (طبع ماكان المجلد الثالث ص ١٦١١ ـ ١٦١٦)، وسياست نامه لنظام الملك (طبع شيفر ص ١٦٦ ـ ١٨١).

الجنسية . وقد كانت اتهامات المعارضين والاعداء تصدر في القرن السادس على المزدكيين وفي القرن التاسع عشر على البابيين . وقد اتهم البابيون بأنهم كانوا يدينون بادىء ذي بدء بالمذهب الاشتراكي ، ونحن نعرف الآن أن هذا كان أمراً عارضاً طارئاً تماماً ، وقد حدث نظيره بالنسبة للمسيحيين الأوائل . وهذا المعنى لا يصدق على عقائدهم بحال من الأحوال وليس من خصائصها . وقد يصدق هذا على مزدك وأعوانه ، أما أن يكون هو نفسه منشىء العقائد التي عُرفت بإسمه فهذه مسألة تثير الشك . . لأن زردشت من أهل خرگان فسا الواقعة في بلاد فارس ـ كما ورد في بعض المصادر ـ وهو يُعتبر المبتكر الحقيقي لهذه الأصول وتلك القواعد . ومعلوماتنا حول أسس آراء مزدك وعقائده من الناحية النظرية أقل بكثير مما لدينا من معلومات عن نتائجها العملية . غير أن نولدكه يستغل قوة بيانه ويقول في هذا الصدد : أن ما يمتاز به مذهب مزدك عن المذاهب الجديدة الشيوعية والاشتراكية ، وما يفرق بوضوح بينه وبينها هو الجانب الديني (لا يقصد بالشيوعية هنا تخيّلات الأفراد في عالم الخيال بل الإيجابيات التي تشاهد في الأحزاب الآن) .

وطبقاً لعقيدة مزدك يجب أن تنسب كل الشرور إلى شياطين الحسد والغضب والايذاء ، لأن هذه الشياطين قد قضت على المساواة بين البشر ، تلك المساواة التي فرضها الله وارتضاها . . وكان مزدك يؤكد أن هدفه هو إعادة المساواة وإقرارها مرة أخرى .

[253] وكان الزهد المطلق ـ كما رأينا في صفحة ٢٣٨* ـ أحد الصفات المميزة للمانونيين ، بينما كان الزردشتيون يعترضون عليه بشدة . وقد وضحت تلك الصفات في دين مزدك في صورة تحريم سفك الدم وأكل اللحم . والحق أن مزدك في نظر الموابدة الزردشتيين هو النموذج الكامل (للملحد الذي لا يخشى الله ولا يقبل شيئاً) .

ولأسباب سياسية وافق كواد (قباد) ملك إيران على العقيدة الجديدة وآمن

* أنظر الأرقام الافرنجية على يمين المتن ، وهي أرقام الكتاب الفارسي الذي قمت بترجمته ، وهذا الرقم من بينها . (المترجم إلى العربية) .

بها . ويُرجع نولدكه السبب الرئيسي في ذلك إلى رغبته في الحدّ من نفوذ الموابدة وسطوة الأشراف والأعيان التي فاقت الحد .

وقد تسببت مؤازرة قباد لدين مزدك في إبعاده فترة عن العرش وجلوس أخيه جاماسب مكانه . ولعلّ تغيرات هامة قد خالطت مشاعره نحو هذه الفرقة الجديدة إثر وقوع هذا الحادث الذي أثار قلقه ؛ فوجدنا المزدكية يتعرضون في السنوات الأخيرة من حكمه للقتل العام . ويرجع الفضل في وقوع هذه المذبحة (طبقاً للأسطورة القومية) إلى خسرو الأول الذي لقب لهذا بأنوشيروان (أنوشك روبان = صاحب الروح الخالدة) . وطبقاً لرواية نظام الملك التفصيلية التي جاءت في كتابه سياست نامه . (طبع شيفر ، ص ١٦٦ ـ ١٨١ من المتن و٢٤٥ ـ ٢٧٧ من الترجمة) فإن أنو شيروان ـ ولي عهد إيران ـ حين اكتشف نوايا مزدك السيئة وخدعه السحرية وتدجيله عند أبيه الملك كواد (قباد) تظاهر بإطاعة ذلك الزنديق ، وحددً يوماً يعتنق فيه دينه رسمياً بحضور كل المزدكيين . وأرسلت الدعوة إلى المزدكيين للمشاركة في حضور الوليمة الكبيرة التي سوف يقيمها الأمير في إحدى حدائق المملكة . وبمجرد دخول المزدكية إلى الحديقة على هيئة جماعات . . كان الجنود المختبئون يقبضون عليهم ويقتلونهم ويضعونهم في التراب بحيث تكون أرجلهم إلى أعلى . وحين هلك الجميع على هذا النحو دعا أنو شيروان ضيفه مزدك للنزهة في الحديقة ليشاهد ثمارها قبل إجراء مراسم الاحتفال . ولما دخلا الحديقة أراه الأمير أقدام الزنادقة القتلى وهي خارجة من التراب ، وقال له : [254]

« هذه ثمرة عقائدك السيئة » .

ثم أشار بيده آمراً ، فقبضوا عليه على الفور وقيدوا يديه وقدميه ، وفي حفرة في تل عظيم من التراب ـ كانوا قد أعدوه خصيصاً من أجله ـ وضعوه مقلوباً . وكان راوية خبر هذا القتل العام يعيش في تلك الفترة ، وقد شاهد هذه الواقعة بعيني

رأسه . ويدعى هذا الرجل تيموثيوسTimotheus ، أما ناقلا الخبر فهما ثيوفانس ويوحنا ملاله . وممن شاهدوا هذا المشهد المخيف وحضروه مطران مسيحي يدعى بزانس Bezanes كان طبيباً للشاه . والغريب أن يقع حادث مشابه في الآونة الأخيرة ، فقد حضر بولاك Polak طبيب بلاط ناصر الدين شاه الإعدام الظالم الذي نُفّذ في قرّة العين بطل البابية الجميل علم ١٨٥٢ م .

[259] وقد راح ضحية هذا القتل العلم (أواخر ٥٢٨ م أو أوائل ٥٢٩ م) عدد كبير من المزدكية ، ومع ذلك لا يمكن القول بأن هذه الفرقة قد انتهت عن بكرة أبيها في يوم واحد واجتثت جذورها ، لأن هناك أدلّة يُعتقد معها أن المزدكيين تعرضوا للإيذاء بعد وصول أنوشيروان إلى سرير الحكم (٥٣١ م) . ومع أنه يبدو ظاهرياً أن هذه الفرقة قد اندثرت إلاّ أنه من المحتمل أن يكون لها إلى الآن وجود . . . . ولكن في الخفاء . ويرى بعض كتّاب المسلمين ـ وليس ذلك ببعيد ـ أن عقائد المزدكيين قد واصلت مسيرتها شأنها شأن عقائد المانوية في العصور الإسلامية ، وقد اتخذت مسيرتها مع الزمن في صورة أخرى تناقض القوانين والشرائع . . متّبعة سبيل الانحلال . . وسوف نهتّم ببيان ذلك في الفصول التالية . وقد أبدى نظام الملك رأيه بكل ما أوتي من قوة ، وسعى في كتابه سياست نامه في إثبات أن الإسماعيلية والحشاشين (أو الحشيشيون) كانوا من نسل مزدك مباشرة . وقد أبدى نفوره الكبير من هذه الطائفة . ويؤكّد قتله على يد أفرادها في (١٤ أكتوبر ١٠٩٢ م) أنه كان محقاً في هذا النفور[1] .

---

(١) تعليق المترجم : للاطلاع على دراسات أكثر جدة وأحدث تاريخاً حول المزدكيين ارجع إلى رسالة كريستنسن حول قباد واشتراكية مزدك ، طبع كوبنهاجن ١٩٢٥
A. Christensen, Kawadh et le Communisme Mazdakite.

القسم الرابع

انحطاط الأسرة الساسانية وسقوطها

في فترة حكم أنوشيروان الطويلة الزاخرة بالعظمة (٥٣١ ـ ٥٧٨) لا يوجد عام يماثل العام الثاني والأربعين من حكمه أهمية (وهو يوافق عام ٥٧٢ ـ ٥٧٣) أو يحفل مثله بالأحداث ذات الأثر .

[256] ويسمي العرب هذا العام لأهميته بعام الفيل . وقد حدثت فيه سلسلة طويلة من الحروب المظفرة انتهت بضم اليمن الغنّية العريقة في القدم إلى إيران ، وقوّت في عقول الفاتحين فكرة السيطرة على البلاد ، وأثارت في نفوسهم حب الفتح .

ومن جهة أخرى ظهر على مسرح الوجود في مكّة (المعظمة) شخص أدّت دعوته في المستقبل إلى انهيار الدولة الساسانية والدين الزردشتي . . هذا الشخص هو رسول الله محمد بن عبد الله (ﷺ) . وطبقا للروايات التي تشيع بين المسلمين الزاهدين ، فقد تزلزل قصر الملك ليلة مولده بتأثير زلزال انهارت على إثره ١٤ شرفة من شرفات القصر ، وأنطفأت النار المقدسة التي لم تخمد شعلتها على مدى ألف عام ، وغاضت بحيرة ساوة فجأة ، ورأى موبد الموابدة الزردشتي فيما يراه النائم أن جهات إيران الغربية قد باتت ميدانا لكرّ خيول العرب وجمالهم وفرّها متّجهة نحو دجلة .

وقد اضطرب انوشيروان لذلك حتى أن الخطاب الذي أحضره رسوله عبد المسيح لم يهدىء من ثائرته ولم يقلل حدّة اضطرابه . وكان عبد المسيح عربياً من

قبيلة غسّان وكان أنوشيروان قد أرسله إلى عمّه الطاعن في السن ـ سطيح (بتشديد ثانيها) الذي كان يتحدث في الغيبيات ويسكن حدود صحراء سوريا ـ يسأله تفسيرا لتلك الأحداث .

وهذا محتوى جواب سطيح ، وقد نظمه كهّان العرب في بحر الرجز :

« عبد المسيح يسارع إلى سطيح الذي يكاد يضع قدمه في القبر . . يسارع إليه على جمله ، ويبلغه أمر الملك الساساني . لقد تعرّض القصر للتزلزل وانطفأت النار ورأى موبد الموابذة في منامه الجمال الغاضبة المفترسة الضامرة وجنود العرب على ظهور جيادهم قد قدموا من جهة دجلة قاصدين الحدود ، وتفرّقوا في نواحيها .

257] يا عبد المسيح ، حين تعم القراءة (قراءة القرآن) ويظهر صاحب العصا[1] ، ويدخل الجند سماوة[2] محدثين ضجيجا وصخبا ، وتجفّ بحيرة ساوة وتخمد نار إيران المقدّسة » لن تفيد سورية سطيحاً ، غير أنه سوف يجلس على كرسي العرش عدد من ملوك إيران وملكاتها بعدد شرفات القصر[3] . وما هو واقع لا بدّ أن يقع فلا تأخير ولا حيلة » . إن ما قيل يعتبر في حكم الإحساس الخفي بما يمكن أن يقع ، أو التنبؤ استناداً إلى الشواهد والعلامات التي جاءت بها

---

(١) المقصود هو عمر الذي فتحت معظم إيران في عهده (٦٣٤ ـ ٦٤٤ م) .

(٢) سماوة مكان قريب من الحيرة ، وقد وقعت معركة القادسية في أرجائه .

(٣) إشارة إلى شرفات قصر أنوشيروان الأربعة عشر التي انهارت في المنام . وخلفاء أنوشيروان الأربعة عشر هم : ـ

١ ـ هرمزد الرابع — ٢ ـ خسرو پرويز
٣ ـ شيرويه — ٤ ـ اردشير الثالث
٥ ـ شهربراز — ٦ ـ پوراندخت
٧ ـ گشنسب ده — ٨ ـ آزرميدخت
٩ ـ خسرو بن مهر گشنسب — ١٠ ـ خرزاد خسرو
١١ ـ بيروز بن گشنسب ده — ١٢ ـ فرخ زاد خسرو
١٣ ـ هرمزد الخامس — ١٤ ـ يزدجرد الثالث

الأحداث . ويجب اعتبار هذه القصص مجرد خيالات نشأت بعد وقوع تلك الوقائع ، ويجب ألاّ يُنظر إليها على أنها حقائق تاريخية .

علاقات العرب السياسية في القرن السادس :

في أوائل القرن السادس الميلادي كان وضع العرب السياسي على النحو التالي : في الغرب كانت تحكم دولة الغساسنة ، وفي الشرق تحكم دولة الحيرة . وكانت الأولى تعترف بسيادة البيزنطيين (الرومان) بينما تعترف الثانية بسيادة إيران . وكان السواد الأعظم من طوائف العرب في بلاد العرب الوسطى يسكنون صحاريهم الخاصة بهم ، ويعيشون في أمان واطمئنان . كما كانوا ينقسمون إلى عدة قبائل تسود بينهم العداوة بصورة ما . وكانت هذه القبائل تتحارب فيما بينها [258] شأنها شأن البدو من الأعراب اليوم ، وتنشد الشعر ، وتلجأ للغزو والغارة والسلب والنهب ، ولا تهتم كثيرا بالدول المجاورة لها . وفي الجنوب كانت هناك دولة اليمن الثرية القديمة العهد ، وكان سكّانها يعيشون في ثراء ورفاهية وينعمون بحضارة كبيرة في ظلّ نفوذ ملوكها الذين يسمون التابعة (جمع تُبّع) . وقد لقي لخيع أو (ذو شناتر) - الرجل الغاصب سيء السمعة الملطّخ بالعار ، الذي سطا على ملك اليمن - مصيره الذي يستحقه على يد الملك الشاب (ذي نواس) .

ومنذ عهد بلقيس ملكة سبأ كان كل شخص في بلاد العرب الجنوبية يُقْدِم على قتل الملوك يبدو للعيان أكثر أحقية بعرش البلاد من غيره . . لهذا اختير ذو نواس للحكم بين فرح الشعب وسروره ومدحه وثنائه . وكان ذو نواس هذا آخر سلاطين الأسرة الحميرية . وقد اعتنق دين اليهود . ولجأ بكل حماس - شأنه شأن كل مريد جديد - إلى إيذاء مسيحيي نجران . وقام بقتل من رفضوا اعتناق الدين اليهودي مستخدماً السيف أو الحرق في أخاديد أعدها لهذا الغرض . بل لقد كان يلجأ في التعذيب إلى وسائل أخرى تفوق ما ذكرناه قسوة . ويشير القرآن الكريم إلى هذه الواقعة في السورة ٨٥ في الآيات التالية : « والسماء ذات البروج ، واليوم

الموعود ، وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلاّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » .

وقد ذكر الطبري أن عدد من هلكوا من المسيحيين في تلك الواقعة (٥٢٣ م) ٢٠ ألفاً ، وهذا أمر لا يمكن تصديقه ؛ إذ قد لا يزيد عدد الشهداء الحقيقي كثيراً عن ١ ٪ من العدد المذكور . . لكن أحد الفارّين حين حمل الخبر المروع إلى مسيحيي الحبشة عمد إلى المبالغة ليشعل نار غضبهم . وقد تمّ له ما أراد ، إذ أعدّ النجاشي (أو نكَوش) سلطان الحبشة جيشاً أوفده إلى اليمن ليثأر لأتباع دينه من ذي نواس . وقد تمكّن قائدا الجيش (ارباط وأبرهه) من تحطيم جند اليمن تحطيماً تاماً . ولما أدرك ذو نواس أنه لا طاقة له بجنود الحبشة امتطى جواده ، وفر صوب البحر وغاص في مياهه فاختفى ولم يظهر ، وودّع الدار الفانية إلى الأبد .

ويشير الشاعر الحميري (ذوجدن) إلى هذه الواقعة في أشعاره ، فيقول :

هونك ليس يردّ الدمعُ ما فاتا ... لا تهلكي أسفا في ذكر من ماتا
أبعد بينون[1] لا عين ولا اثر ... وبعد سلحين[2] يبنى الناس أبياتاً ؟

ويقول أيضاً :

دعيني لا أبالك لن تطيقي ... لحاك الله قد أنزفت ريقي
لدى عزف القيان إذا انتشينا ... وإذ نسقي من الخمر الرحيق
وشرب الخمر ليس علي عارا ... إذا لم يشكني فيها رفيقي
فإن الموت لا ينهاه ناه ... ولو شرب السقاء مع النشوق
ولا مترهب في اسطوان ... يناطح جدره بيض الأنوق

---

(١) (٢) بينون وسلحين قصران قديمان ، يقال إن سليمان قد أمر الجن ببنائهما لبلقيس .

وغمدان[1] الذي حدثت منه بنوه ممسكا في رأس نيق
بمنهمة وأسفله جروب وحر الموحل اللثق الزليق
مصابيح السليط تلوح فيه إذا يمسي كتوماض البروق
[260] ونخلته التي غرست إليه يكاد البسر يهرز بالعذوق
فأصبح بعد جدته رمادا وغير حسنه لهب الحريق
وأسلم ذو نواس مستميتا وحذر قومه ضنك المضيق[2]

ولم يطل العمر بارباط الحبشي فاتح اليمن لينعم بثمرة فتحه فقد قتله اثناء المعركة نائبه الطامع في الحكم « أبرهه » . كما جُرح أبرهه بدوره في المعركة ، وشُقَّت شفته العليا فسمي لذلك بالأشرم .

وقد أراد أبرهه أن ينشيء في مدينة صنعاء ـ عاصمة اليمن ـ كنيسة كبيرة جليلة وبذلك يحول اتجاه العرب زوار معبد مكة المربع نحو صنعاء . وبدا العرب في الاعراب عن استيائهم وإظهار عداوتهم ، فدخل شخص يدّعي معرفة الغيب إلى الكنيسة سرا ولوَّثها . وهنا غضب أبرهه غاية الغضب ، وأقسم أن يحطم معبد مكة . ولكي ينفّذ تهديده ويبرَّ بقسمه تحرك نحو مكة بفيلة حربية وحشدٍ كبيرٍ من الأحباش .

وبينما هو مقيم في معسكره على مشارف مدينة مكّة توجَّه عبد المطلب ـ جد الرسول الكريم وأحد كبار رجال قريش ـ لمقابلته . وكانت قريش آنذاك قبيلة ذات خطر ، تأخذ على عاتقها مهمة المحافظة على حرم بيت الله .

واستحسن أبرهة كلام عبد المطلب وأعجبه حسن تصرُّفه واستملح

(١) غمدان : بناء آخر مشهور أنشأه سنمار ، وحين انتهى من بنائه قتله صاحب العمل ، فقد خشي أن يقوم هذا الأستاذ الفنان ببناء آخر لغيره . . يفوق ذلك البناء غرابة وروعة .

(٢) تعليق المترجم : نقلت هذه الأشعار عن تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، الجزء الأول ص ٥٤٧ القاهرة ١٩٣٩ م = ١٣٥٧ هـ . وقد ترجم براون هذه الأشعار إلى الانجليزية نظماً ، وأحدث تصرفات في العبارات والكلمات اقتضتها الضرورة الشعرية ، ولم يذكر المصدر .

أسلوبه ، فأمره ـ عن طريق ترجمانه ـ أن يسأله حاجته التي قدم من أجلها . فقال
26] عبد المطلب : ما أطلبه من الملك هو أن يردَّ علي مائتي جمل قد سلبت مني . فقال أبرهة : أتتحدث عن مائتي جمل قد أخذتها منك ولا تتحدث قط عن المعبد الذي هو مكان عبادتك وعبادة آبائك . . ذلك المعبد الذي أتيت إلى هنا لأهدمه ؟؟ وردّ عبد المطلب على أبرهه رداً لا يصدر إلاّ عن عربي : « إني أنا ربُّ الإبل ، وإن للبيت رباً سيمنعه » . وقال أبرهـه : « لا يستـطيع أن يردّنـي » . فأجابـه عبـد المطلب : « أنت وذاك » . ولما استرد عبد المطلب جمالـه صعـد إلى جبـل برفقـة أصحابه ينتظرون الواقعة . لكنه قبل أن يخـرج من مكّة توجـه إلى بيت الكعبـة وأمسـك بالحلقة الكبيرة في يده وقال :

لاهم إن العبد يمنع رحله فامنع حلالك ،
لا يغلبنّ صليبهم ومحالهم غدواً محالك

وفي اليوم التالي استعد أبرهه للحملة وتوجّه على رأس جيشه إلى مكة . وكان فيله الضخم « محمود » يتقدم الجيش ، فتقدّم منه عربي يدعى (نفيل) وأمسك بأذنه وصاح فيها : « يا محمود ، خرّ على ركبتيك ، ثم عد مباشرة من حيث جئت ، فقد وطئت بقدمك أرض الله المقدّسة » .

فخرّ الفيل على ركبتيه ، ولم يخط بعدها خطوة واحدة رغم الضربات التي انهالت عليه . وكان راغباً في الاتجاه إلى أية جهة يشاءون إلاّ جهة مكة .

عندئذٍ أرسل الله أسراباً من الطير الصغير أشبه بالعصافير تسمى أبابيل . . لمحاربة الأحباش ، وقد ذُكِر هذا الطير في القرآن .

كان الطائر الواحد يحمل ثلاثة أحجار أو رصاصات طينية[1] . . إحداها في
262] منقاره واثنتان في مخلبه ، ويسقطها على رؤوس الأحباش فيهلك من يصاب منهم على الفور . وهكذا هلك الجيش الكبير برمّته ولحقت به الهزيمة . ويقال إن واحداً

(١) عبّر القرآن الكريم عنها بكلمة (سجّيل) .

قد تمكن من الفرار والعودة إلى الحبشة ، وأخذ يروي لهم ما حدث ، وسألوه : ما شكل هذه الطيور ؟ فأشار بيده إلى أعلى مبيناً أن أحدها ما زال يطير . وهنا أفلت الطائر حجراً ، فأسلم الفار الروح لخالق الروح كغيره . ولهذا سمي العلم بعلم الفيل . وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في سورة الفيل :

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم في تضليل . وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجّيل . فجعلهم كعصف مأكول .

ويعتقد علماء أوروبا الآن بصفة عامة أن هذه القصة صحيحة في مضمونها ومطابقة للحقيقة . . بمعنى أن مرض الجدري قد تفشى فجأة وبصورة عنيفة فأهلك عدداً كبيراً من المعتدين الجسورين . أما العرب فإنهم لا يعجبون لقدرة الله التي تبدّت في هذه الواقعة لأنهم يؤمنون بأن بيت الكعبة محفوظ بطريقة معجزة من شر العدو ولما كانت حياة العرب القومية قد نضجت في ذلك العلم فقد اعتبر (علم الفيل) أحد العصور التاريخية .

[263] أما اليمن فكانت ما تزال تئن تحت نير الحبشة ، وقد احتلّ يكسوم ومسروق ـ إبنا أبرهة الأشرم ـ مكان أبيهما . . على التوالي وعاملا الحميريين بقسوة ، مما دفع سيف بن ذي يزن للجوء إلى الروم الشرقية وإلى إيران للتوسّط لديهما لجلب مساعدة إحدى الإمبراطوريتين الكبيرتين اللتين كانتا تقتسمان الدنيا بينهما آنذاك . ولم ترحب الروم الشرقية بالسفير ، فلجأ إلى المنذر سلطان عرب الحيرة وطلب منه أن يقدّمه لبلاط إيران . واستقبل أنوشيروان السفير في إحدى قاعات بلاطه .

جلس الملك على عرشه في جلال ، يعلو رأسه تاج في لون الخمر . . تاج عظيم يتدلّ من سقف القاعة بسلسلة . . وكانت يتلألأ على مفرقه الياقوت والزمرد واللؤلؤ والأحجار الكريمة الأخرى . وكان هذا التاج اللامع المشرق يعكس ـ إلى جوار جلال الملوك الساسانيين وجبروتهم ـ ظلمهم وجورهم .

ولما دخل سيف بن ذي يزن القاعة قبّل الأرض تأدُّبا ، وقال للملك المهيب العظيم :

« أحاطت الغربان والحدآت ببلادنا » . وسأله أنوشيروان : من تقصد بالغراب والحدأة ؟ الحبشة أم الهند ؟ وأجاب سيف : « أقصد الحبشة ، وقد جئت إلى الشاه طالباً عونه لدفعهم ، وسوف تكون بلادي بعد إجلائهم تحت نفوذه ورهن أوامره ، فنحن نفضّله عليهم » .

وأجاب أنوشيروان : « إن مملكتك تبعد عنا كثيراً وهي فقيرة للغاية . . ليس بها سوى الخراف والجمال ، وليست لنا بذلك حاجة ، ولا يمكننا أن نسيّر حملة إلى بلاد العرب » .

[264] وانتهى الأمر بأن خلع عليه أنوشيروان فأعطاه عشرة آلاف درهم ، وسمح له بالانصراف . وأثناء انصراف الرسول الحميري تعمّد أن يملأ قبضته مراراً بالدراهم الذهبية وأن ينثرها على ملازمي أعتاب الملك وغلمانه وجواريه الواقفين على مقربة من المكان من باب الرحمة والإحسان ، فكانوا يتلقّفونها في عجلة ولهفة .

ولما علم الملك بذلك طلب السفير ثانية وسأله : كيف واتتك الجرأة على التصرُّف بعطيتي الملكية على هذا النحو ؟ .

فأجاب السفير : « وماذا كنت أفعل غير هذا ؟ إن جبال مملكتنا ليس بها سوى الذهب والفضة » .

ولما سمع الملك كلامه ، اختطف لؤلؤة كان ذلك السفير الحميري قد وضعها أمامه بذكاء ومهارة ، وسقط كالطير في الفخ . ثم أمر سفير اليمن بالبقاء ريثما يطرح الأمر على مستشاريه . ولما شاورهم في الأمر قال أحدهم : « ألا تستطيع أن تمدّ هذا الرجل بمن تقرَّر إعدامهم ومن هم الآن في السجن يرسفون في الأغلال والسلاسل ؟ إنهم إن يهلكوا يتحقق مرادك ، وإن يحتلوا تلك البلاد يتّسع سلطانك ونفوذك » .

وقوبلت تلك الخطّة الذكية ـ التي تؤدي إلى الفتح والاقتصاد في النفقات في عين الوقت ـ بالموافقة والتقريظ . ودُرِست حالة السجون ، وأُعِدَّ في الحال عدد من المذنبين المحكوم عليهم بالموت وعددهم ثمانمائة ، وخصّص لقيادتهم قائد كبير السن متقاعد يدعى وهرز . ويقول رواة القصة أنه كان شيخاً مضعضعاً إلى حد أنَّ

جفني عينيه كانا مغلقين لا يمكنه رفعهما مهما حاول . وكان عليهم - إذا ما أراد أن يُلقي سهماً - أن يرفعوا جفنيه إلى أعلى ، كما كان عليهم أن يغلقوهما إذا لاحظوا أنهما ليسا فوق عينيه[1] . وسافرت الحملة المذكورة برفقة سيف تحملها ثماني سفن .

[265] وفي الطريق ، غرقت سفينتان ، ووصلت ست سفن سالمة إلى ساحل حضرموت ، وبقي من جيش إيران الصغير ٦٠٠ جندي . وهبّت جيوش اليمن بدورها لمساعدة هذه القوة . وبلغ خبر هذه الحملة الجريئة أذني مسروق ، فتحرك بجيشه بعد أن أعد للأمر عدّته .

وأعدّ وهرز لمرافقيه وليمة عظيمة . وبينما هم مشغولون بالحفل يحتسون شرابهم أمر باشعال النار في سفنهم فهلكت مؤونتهم من الأغذية . عندئذ خاطب جنده بقوله : لا شيء هناك سوى الحرب ، فلندخل المعركة في رجولة وشهامة . . . فإما الموت أو النصر .

ولما كانوا قد عدموا الوسيلة فقد أطاعوا أمره ، وبدأت المعركة . وطلب وهرز ممن حوله بالإشارة أن يحددوا له ملك الحبشة . وكانت في جبهة الملك ياقوتة ضخمة لامعة في حجم بيضة الطائر ، وكانت تتلألأ أمام عينيه . فاختار وهرز موقعاً مناسباً وأخذ من جعبته سهماً وصوبه نحو الياقوتة وأطلقه . . . وكان الملك مسروق على دابته فأصاب السهم وسط الياقوتة تماما فتفتتت ، وشقّت جبهته . وكان موته علامة هزيمة الأحباش .

ولجأ الايرانيون الفاتحون إلى القتل العام ، فقتلوا الأحباش دون رحمة ، غير أنهم لم يتعرضوا لحلفائهم من العرب والحميريين . وصارت اليمن جزءا من ولايات إيران يحكمها وهرز فاتحها . . . الذي يعدّ أول حاكم إيراني لها . (وقد حكمها سيف بن ذي يزن فترة أيضا) ، ثم حكمها ابن وهرز وأحفاده ونسله ،

---

(١) للتحقيق في أصل هذه التفصيلات العجيبة التي وردت كذلك في موضع آخر ومناسبة أخرى . . . أنظر : تاريخ الساسانيين لنولدكه ، ص ٢٢٦ - حاشية رقم ١ .

وباتوا هم أصحاب الشأن فيها إلى أن جاء عهد محمد المصطفى عليه السلام فحكمها إيراني آخر اسمه بلدان . . وهو من أسرة غير هذه الأسرة . وحتى أوائل عصر الإسلام كنا نسمع كلاما حول بني الأحرار ، والمقصود بهم سكان اليمن الذين هم من أصل إيراني ، والذين كان يسميهم العرب بني الأحرار .

[266] ولم يمض طويل وقت حتى أسلم أنوشيروان الروح لخالق الروح (٥٧٨م)[1] ، وبدأت الإمبراطورية الساسانية في الانحطاط . وفي القرن التالي حين أغار مقاتلو الإسلام على قوات إيران ، كان الإيرانيون يظهرون غرورهم وبطشهم ويبطنون فسادهم وانهيارهم . وكانت الدسائس ومشاعر السخط تسود كافة الأمكنة ، وخرّبت الحروبُ الدموية وكثّرةُ قتلِ الأشقاء بلادَ إيران .

وثار أنوشه زاد بن أنوشيروان ـ الذي اعتنق المسيحية ـ وتمرّد على أبيه كما ذكرنا من قبل . وقد تسبب خليفته هرمزد الرابع نتيجة جنونه (ونكرانه للجميل) في ثورة انتقامية مخيفة قام بها بهرام چوبين . وكان عصيان بهرام سببا في القطيعة التي وقعت بين هرمز وابنه خسرو پرويز ، كما كان العصيان سبب فرار خسرو پرويز وعميه بسطام Bistam وبندوي Bendué لاجئين إلى الروم ، وهلاكه هو بطريقة قاسية . كما قتل پرويز بناء على أمر ابنه « شيرويه » بعد حكم طويل اقترن في بدايته بالدسائس والمذابح (٥٩٠ م ـ ٦٢٧م) . وقبل قتله عقدت له محاكمة تثير السخرية ، جرّدوه فيها من حقوقه المدنية ثم حكموا عليه بالموت . وهكذا أهانوا مقام الملك عن طريق عدم مراعاة شعوره ، كما ظلموه وقسوا عليه بصورة لا إنسانية . ولم يحكم قاتل أبيه أكثر من بضعة أشهر . وقد قام في بداية أمره بقتل ثمانية عشر أخا من إخوته . وبعد مرضه وموته خرّب الطاعون مملكة إيران بصورة تدلّ على غضب الله على هذا الملك الخبيث .

وقد حلّ مكانه ابنه الصغير « أردشير » وكان في السابعة من عمره ، فحاصره شهربراز (شهربرز) في تيسفون العاصمة وقتله واستولى على العرش . ثم قتل [267

(١) تعليق المترجم : يرى تقي زاده أن عام ٥٧٩ م هو الأصح .

شهربراز بعد ٤٠ يوما على يد ثلاثة من حراسه (التاسع من يونيو ٦٣٠م) . وجلست « پوراندخت » إبنة خسرو پرويز على العرش الملكي المحفوف بالمخاطر . . . ولما كانت تتحلى بزينة العقل وحسن النوايا فقد صار من المتوقع لعهدها أن يكون أكثر ازدهاراً . لكنها بعد أن أعادت الصليب الحقيقي[1] لإمبراطور الروم ودّعت الحياة هي الأخرى بعد حكم دام ستة عشر شهراً . وحلّ محلها أحد بني أعمام والدها پيروز - الذي يمت لها بصلة قرابة بعيدة - واستمرّ في الحكم مدة تقل عن الشهر ، إلى أن احتلّت أخته الجميلة « آزرميدخت » عرش البلاد ، فانتقمت من « فرخ هرمزد » اسپهبد خراسان الذي كان قد أهانها ، وسعت في قتله . وبعد ستة أشهر من حكمها قتلت بيد القائد « رستم بن فرخ هرمزد » . كما قُتل رستم بعد أربع سنوات (٦٣٥م) إبان هزيمة القادسية المشئومة . ثم حكم البلاد أربعة حكام أو خمسة آخرين ولم يدم حكم أي واحد منهم أكثر من عدة أيام . وقد قُتل بعضهم وخُلع البعض إلى أن جلس يزدجرد [268]

(١) تعليق المترجم : المقصود هو نفس الصليب الذي يعتقد الروم أن عيسى قد صلب عليه . ويقال إن جند إيران سرقوه من أورشليم ، واحتفظت به شيرين ملكة إيران وطلبه قيصر الروم من خسرو پرويز فلم يردّه إليه . وقد بيّن الفردوسي كيف رجاه القيصر وكيف أوضح له أهمية الصليب :

يكى آرزو خواهم ازشهريار ... كه أن آرزو نزد اوهست خوار
كه دارا مسيحا بگنج شماست ... جزبينيد دانيد گفتار راست
بر امد بر آن ساليان دراز ... سزد گر فرستند بما شاه باز
بگيتي بروكنند آفرين ... كه بى او مبادا زمان وزمين

وفي العام التالي توجّه هرقل لزيارة أورشليم (بيت المقدس) ، وأعاده ثانية إلى المكان الذي نزع منه . وقد نظم الفردوسي أبياتا في بيان رفض خسرو پرويز طلب القيصر ، هذا نصها :

دگركت زدار مسيحا سخن ... بياد آمد از روزكار كهن
كسى راكه باشد همى سوگوار ... كه كردند پيغمبرش را بدار
كه گويدكه فرزند يزدان بداوى ... بر آن دار بركشته خندان شداوى
چو فرزند يد رفت سوى بدر ... توانددوه آن جوب پوده مخور
همان دار عيسى نيرزد برنج ... كه شاهان نهادند آنرا بگنج
از ايران جوبجوبي فرستم بروم ... بخندد برما همه مرزوبوم
بموبد نمايد كه ترسا شدم ... كه از بهر مريم سكوبا شدم
دگر آرزو هرچه آيد بخواه ... شمارا سوى ما گشادست راه . .

الثالث على العرش وهو آخر الملوك التعساء في الأسرة الساسانية العظيمة . وقد لقي هو الأخر مصيراً أسود ، وتعرَّض للتشرّد والضياع ، وقُتِل ذليلاً محتاجاً على يد دهقان نجس وضيع ، طمع فيما كان يحمله من جواهر . وقد سلب صياد الدهر جوهرة حياته التي بقيت له من كل ذلك الجاه وتلك الثروة .

وحين فسّر عبد المسيح رؤيا أنوشيروان ، سَرَّ الملك أن يحكم أربعة عشر شخصا من الأسرة الساسانية قبل وقوع الكارثة المدمّرة .

لقد حكمت المجموعة الأولى من هذه الأسرة أكثر من قرنين ، وكان عدد ملوكها أربعة عشر ملكا . . فمن كان يتصوَّر ألاّ يستمر حكم أحد عشر ملكاً ـ هم الذين حكموا في الفترة ما بين عهد خسرو پرويز وعهد يزدجرد الثالث ـ أكثر من خمس سنوات[1] . وطوال هذه الفترة كان العدو وراء بوابات المملكة يهدّد الأسرة الساسانية بالفناء ، ويزيد إصراراً على إهلاكها يوما بعد يوم .

[269] ويرى الطبري[2] ـ المؤرخ المسلم ـ أن ما حدث كان بمثابة إنذار إلهي ، حذَّر الله به خسرو پرويز من عواقب رفضه رسالة الرسول العربي . ويقال إن مضمون خطاب رسول الله كان على النحو التالي[3] :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى كسرى بن هرمزد . أما بعد ، فإني أحمد لك الله الذي لا إله إلا هو ، وهو الذي آواني وكنت يتيما وأغناني وكنت عائلا وهداني وكنت ضالا . ولن يدع ما أرسلت به إلا من سلب معقوله والبلاء غالب عليه . أما بعد يا كسرى فاسلم تسلم أو ائذن بحرب من الله ورسوله

(١) جلس شيرويه على العرش في ٢٥ فبراير سنة ٦٢٨م ، وجلس يزدجرد الثالث على العرش في نهاية عام ٦٣٢م أو بداية عام ٦٣٣م .

تعليق المترجم : يرى تقي زاده أن عبارة (أو بداية علم ٦٣٣م) عبارة بعيدة عن الصواب .

(٢) نولدكه : تاريخ الساسانيين ، ص ٣٠٣ ـ ٣٤٥ .

(٣) أخذ متن الخطاب من « نهاية الأرب » النادر الوجود .

أنظر : نسخة كبريدج الخطية ، ومجلة الجمعية الأسيوية الملكية ، إبريل ١٩٠٠ ـ ص٢٥١ .

ولن يعجزهما ، والسلام»[1] .

(١) تعليق المترجم : نقل متن الرسالة من صورة نسخة كبريدج الخطية (ص٢٠٠ - ١٠٧) والنسخة المصوّرة المذكورة موجودة في مكتبة إيران الوطنية ، واسم الكتاب سير الملوك المسمّى بنهاية الأرب في أخبار الفرس والعرب ، ويرجع تاريخ كتابته إلى علم ١٠٢٤هـ . وقد تعرّض الخطاب للتحريف مع مرور الزمن ، ودوّنه المؤرخون بمضامين مختلفة . وتسهيلا على الدارسين ننقل متن الطبري أولا باعتباره أقدم النصوص وأدقها (الجزء الثالث ص٩٠) ، ثم ننقل عن المصادر الأخرى . وهذا متن الطبري : «كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وبعث بالكتاب مع عبد الله بن حذافة السهمي فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس : سلام على من اتّبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا . أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس .

فمزّق كتاب رسول الله ﷺ فقال رسول الله مزّق ملكه . حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة عن محمد بن إسحق عن يزيد بن حبيب قال : وبعث عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم إلى كسرى بن هرمز ملك فارس وكتب معه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتّبع الهدى وآمن بالله ورسوله . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاء الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، فأسلم تسلم ، فإن أبيت فإنّ إثم المجوس عليك .

فلما قرأه مزّقه ، وقال : يكتب إلى هذا وهو عبدي ؟

حدّثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة عن محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن الزهري عن أبي سلمة عبد الرحمن بن عوف أن عبد الله بن حذافة قدم بكتاب رسول الله ﷺ على كسرى ، فلما قرأه شقّه فقال رسول الله : «مُزّق ملكُه» حين بلغه أنه شق كتابه .

وهذا عن ترجمة أبو علي البلعمي (طبع الهند - ص٣٦١) .

بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله ﷺ إلى پرويز بن هرمز . أما بعد ، فإني أحمد إليك الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، الذي أرسلني بالحق بشيرا ونذيرا إلى قوم غلبهم السفهاء وسلب عقولهم ، ومن يهدي الله فلا مضل له ، ومن يضلله فلا هادي له ، إن الله بصير بالعباد . ليس كمثله شيء وهو السميع العليم البصير . أما بعد ، فأسلم تسلم أو ائذن بحرب الله .

وهذا عن كتاب الكامل لابن الأثير (المجلد الثاني ، طبع ليدن ١٨٦٧م) . بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتّبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وإني أدعوك بدعاء الله ، وإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين - فأسلم تسلم ، وإن توليت فإن إثم المجوس عليك . وهذا عن إعجاز القرآن (طبع القاهرة ١٣٤٩ ، ص١١٣ - تأليف الباقلاني) كتاب النبي ﷺ إلى ملك فارس : من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس : سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاء =

[2 وفي إحدى الروايات، يرد أن خسرو پرويز قد مزّق الرسالة إربا إربا فقال له

= الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا و يحق القول على الكافرين . فأسلم تسلم .
وهذا عن تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (طبع مصر عام ١٣٤٩هـ ١٩٣١م ص١٣٢) :
كتاب رسول الله إلى كسرى :
أخبرنا محمد بن الحسين القطّان أنبأنا أحمد بن كامل القاضي قال حدّثني داود بن محمد بن أبي معشر قال نبأنا أبي قال نبأنا أبو معشر عن بعض المشيخة قال : كتب رسول الله ﷺ مع عبد الله بن حذافة إلى كسرى :
« من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، أن اسلم تسلم ، من شهد شهادتنا واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا فله ذمّة الله وذمّة رسوله » . فلما قرأ الكتاب قال : عجز صاحبكم أن يكتب إلي إلا في كراع . قال : فدعا بالجلمين فقطعه ، ثم دعا بالنار فأحرقه ، ثم ندم ، فقال : لا بد أن أهدي له هدية ، قال فكلّمه عبد الله بن حذافة كلاما شديدا . قال فأدرج له شقفا من ديباج وحرير ، فأهداها لرسول الله ﷺ . قال فبلغنا أن رسول الله ﷺ ، قال : « مزّق كسرى كتابي ليمزّقن الله ملكه (كل ممزق) ، ثم ليهلكنّ كسرى ثم لا يكون كسرى بعده ، وليهلكّن قيصر ثم لا يكون قيصر بعده ، ولتنفقنّ كنوزهما في سبيل الله عز وجل» .
عن كتاب جمهرة رسائل العرب في عصوره العربية الزاهرة ، الجزء الأول ، تأليف أحمد زكي صفوت طبع مصر ١٣٥٦هـ = ١٩٣٧ مص٣٦ :
« كتابه ﷺ إلى كسرى ملك الفرس . بعث ﷺ عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى أبرويز ملك الفرس سنة ست ، وبعث معه كتابا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتّبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله وأن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله عز وجل ، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ، ويحقّ القول على الكافرين ، أسلم تسلم ، فإن أبيت فعليك إثم المجوس » . فلما قرأ كسرى الكتاب غضب ومزّقه ، وقال : يكتب إلي هذا وهو عبدي ، فقال ﷺ حين بلغه ذلك : مزّق ملكه .
(السيرة الحلبية ٢/ ٣٦٨، صبح الأعشى ٦/ ٣٧٧ ، تاريخ الطبري ٣/ ٩٠ ، تاريخ الكامل لابن الأثير ٢/ ٨١ ، وإعجاز القرآن ص١١٣ ، والمواهب اللدنية للقسطلاني «شرح الزرقاني» ٣/ ٣٨٩) . والكتاب المذكور مثبت في المجلد الأول من الكتاب الثاني ناسخ التواريخ في وقائع الأقاليم السبعة من بعد هجرة رسول الله إلى زماننا هذا تأليف لسان الملك سپهر ، وكذلك في كتاب الوسيط في الأدب العربي وتاريخه تأليف الشيخ أحمد الإسكندري والشيخ مصطفى العناني ، طبع مصر ، ١٩٣١ ص١٢٨ . وفيما يتعلق بتاريخ هذا الكتاب يقول كوسن دو پرسوال أستاذ الجامعة الفرنسية ومؤلف تاريخ العرب طبع باريس ١٨٤٨م .
A.P. Coussin dl Perceval, Essai Sur L'Histoire des Arabes (Paris, 1848).
في المجلد الثالث من كتاب عنوانه «سفراء الرسول» (ص ١٨٨ - ١٩٠) : «وكان أول ملك أرسل إليه =

رسولُ رسولِ الله : « أيها الملك الذي لا يستحي ، فرّق الله ملكك قطعة قطعة وأزال حكمك وشتّت جندك »

[271] وفي رواية أخرى أن ملك إيران كتب إلى باذان والي اليمن أو مرزبانها
[272] (ص٢٦٥) ، وأمره بالتحرّك نحو المدينة ، والقبض على الرسول ، وإحضاره أسيرا إلى تيسفون (أنظر الفصل السابع) .

[273] كانت العلامات (الإرهاصات طبقا لتسمية الكتب الإسلامية) التي تدلّ على مصير الدولة الشاهنشاهية ، وانقراض الدولة الساسانية القريب الوقوع . . . كانت هذه العلامات مقسّمة إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ الرؤيا ٢ ـ آثار وعلامات أخرى ٣ ـ حوادث ووقائع تاريخية .

ومن الرؤى التي دونت : الملك الذي يظهر لخسرو پرويز ويحطّم عصاه التي كانت تعبّر في إيران عن نفوذه واقتداره . والعبارة التي يراها مكتوبة على الحائط وقد ورد مفادها في نهاية الأرب ، بما هو قريب من المضمون التالي : « أيها الرجل الضعيف ، الحقّ أن الله قد أرسل رسولاً إلى خلقه ، وأنزل عليه كتابا . . . فعليك ـ بناء على ذلك ـ أن تبايع الرسول وأن تؤمن به وسوف يضمن لك الخير والصلاح في الدارين . . . فإن لم تفعل فسوف تهلك عاجلاً وسوف ينقرض ملكك كذلك وتفرّ من يدك قوّتك وقدرتك » .

= رسول الإسلام خطابا هو خسرو پرويز ، والثاني هو النجاشي ملك الحبشة والثالث هو المقوقس عظيم مصر » .

« وطبقاً لخطاب الإمبراطور هرقل الرسمي الذي أثبت في Chranique Pashcale (ص٣٩٨ ـ ٤٠٢) قتل شيرويه أباه خسرو في أواخر فبراير من علم ٦٢٨م ، وعلى خلاف ذلك يجب أن يكون النبي قد بعث سفيره إلى خسرو قبل سفر الحديبية . وقد كان سفر الحديبية في النصف الثاني من فبراير علم ٦٢٨م الموافق شهر ذي القعدة علم ٦هـ . صحيح أن المؤلفين العرب قد ذكروا أن تاريخ الثورة التي أودت بحياة خسرو هو شهر جمادى الأولى من العلم السابع الهجري (تاريخ الخميسي ، ص٢٢٩ و٥٥٢) الموافق ما بين ٨ أغسطس و٧ سبتمبر علم ٦٢٨ م تقريبا ، لكن تاريخ خطاب هرقل يدعو للاطمئنان بصورة أكبر » .

274]

ومن العلامات التي تروى عن انقراض الدولة الساسانية ذلك السد الذي بنوه على دجلة العوراء مرارا بأمر الملك ، فكان في كل مرة يتحطم بعد الانتهاء من بنائه (دجلة العوراء فرع من فروع دجلة يمر بجوار البصرة) .

والعلامة الأخرى هي انهيار السقف الذي كان يتدلى منه تاج خسرو العظيم الخمري اللون . أي أن هذا التاج كان يتدلىّ من السقف بسلسلة ويستقر على العرش . ومن العلامات كذلك البروق التي كانت تقفز من سماء الحجاز وتلتفّ حول الشرق .

ومن العلامات أيضا أحداث موقعة ذي قار التاريخية (بين عامي ٦٠٤ و٦١٠م) التي أثبتت للعرب ـ رغم قلة أهميتها نسبيا ـ أن الايرانيين رغم حضارتهم العريقة وثروتهم العظيمة وشهرتهم العريضة قابلون للهزيمة . وحين سمع الرسول هذه الرواية قال : هذا أول يوم يأخذ فيه العرب من الايرانيين ما يعوّضهم عن الماضي ، وسوف يتحقق التوفيق والسرور على يدي » .



الفصل الخامس

حَملة العَربْ



[275 يقول دوزي[1] Dozy. R.P.A. في كتابه القيّم الذي كتبه عن الإسلام[2] ما يلي :

« في النصف الأول من القرن السابع الميلادي كان كل شيء في ممالك الروم الشرقية وممالك الإمبراطورية الشرقية الايرانية يسير في مجراه الطبيعي ، وكانت المملكتان دائمتا النزاع بغية السيطرة على آسيا الغربية ، وكانتا تسيران من حيث الظاهر في طريق الرقي والتقدّم والعمران ، وتدخل خزائن سلاطينهما مبالغُ طائلة تؤمّنها الضرائب . . . وكانت كثرة الكرّ والفر وما تحفل به عاصمتاها من جِمال وأبهة مضرب المثل . . . غير أن حمل الاستبداد الثقيل كان يثقل كاهلهما ، وتاريخ أسرات سلاطينهما حافل بسلسلة من الكوارث المروعة ، مشحون بالقسوة والرغبة في إيذاء الخلائق . وكان مبعث هذا السلوك الظالم انخراط الشعب في المسائل المذهبية وشقاقه من أجلها .

وفي غمرة تلك الأحداث ، ظهر فجأة في صحراء مجهولة قومٌ جدد . . . قبائلُ لا حصر لها ، كانوا إلى هذا الوقت متفرّقين مبعثرين دائمي العراك ، ثم التحموا للمرة الأولى واتحدوا واتفقوا في الرأي . كانوا مولعين بحريتهم ، يرتدون [276 البسيط من الثياب ويتناولون القليل من الغذاء ، ويتميزون بالذكاء والكرم والمرح والفطنة والدهاء . قوم ممازحون لكنهم في عين الوقت مغرورون سريعو الغضب ، وإذا ما غضبوا سعوا إلى الانتقام ، لا يقبلون صلحا بل ويظلمون .

---

(١) تعليق المترجم : هو أحد المستشرقين المعروفين الذين كتبوا كتابا باللغة الهولندية حول تاريخ الإسلام .

(٢) قام فيكتور شوفن بترجمة هذا الكتاب تحت عنوان Essi Sur L'Histoire de l'Islamisme ونشر في ليدن وباريس عام ١٨٧٩م .

هؤلاء هم القوم الذين اسقطوا - في لحظة واحدة[1] - الإمبراطوريه الإيرانيه العريقة العزيزة - الفاسدة رغم هذا - واختطفوا أجمل الولايات من يد خلفاء قسطنطين ، ووطئوا بأقدامهم ألمانيا . . تلك السلطنة الفتية ، وهدّدوا بقية ممالك أوروبا . كما سلكت جيوشهم الظافرة طريقها في شرق العالم ، واخترقت جبال الهيمالايا . إلا أن هؤلاء القوم كانوا يختلفون عن غيرهم من الفاتحين ، فقد كانوا حَمَلة دين جديد يبلغونه لسائر الأقوام ويدعونها إليه .

وعلى خلاف ثنائية الإيرانيين ودين المسيح الذي كان قد اعتراه الضعف . . . كان هؤلاء القوم يدعون إلى التوحيد الطاهر الخالص ، فآمن به ملايين الناس . . حتى لقد صار دين الإسلام في عصرنا هذا دين $\frac{1}{10}$ السلالات البشرية » .

ولقد لمسنا قوّة العرب وفرط حيويتهم وقدرتهم الكبيرة على التحمّل في معركة ذي قار . . . ورأينا أن تلك القوة - التي كانت تقابل من جانب جيرانها حتى هذا الوقت بالاستهانة والاستهتار - كانت قوة متكاملة ذات خطر حتى قبل الفتح وانتصار الإسلام . لهذا فإن الدور الجليل الذي قدّر للعرب أن يلعبوه في تاريخ التمدّن مدين بوجوده للإسلام ولا شك . . . فقد كانت شريعة الإسلام إلى جانب بساطتها تتّسم بالسماحة والجلال . ولا يمكن لأي محقق منصف أن ينكر عظمة الإسلام. إن نقّاد الغرب حين قالوا رأيهم في النبي العربي لم ينتبهوا في الغالب إلى الأوضاع التي كانت تسود بلاد العرب قبل ظهوره . . . تلك الأوضاع التي قام هو بإصلاحها ، لقد نسوا أن معظم النقاط التي اعترضوا عليها كالرق وتعدد الزوجات [277] لم يكن من ابتكار الإسلام ، لقد كان موجودا قبل الإسلام فتحمّله ولم يتشدد بشأنه[2] . وكان مسلمو الصدر الأول يقفون تمام الوقوف على الخلافات العظيمة التي نجمت عن تعاليم الرسول فيما يتعلق بشئون حياتهم .

---

(١) تعليق المترجم : لا شك أنه لا يمكن تصوّر هذا الأمر ، فلقد تحققت هذه الانتصارات في مدة قرن تقريبا .

(٢) باب الرق لا وجود له في الفقه الإسلامي، بل هناك باب خاص بالعتق وهو تحرير العبيد ، وفيه بحث مفصل .

وأقدم شرح يتعلق بسيرة الرسول نجده في سيرة ابن هشام (ت٢١٣هـ ـ =٨٢٨ ـ ٨٢٩م)، ومن العبارة التالية المنقولة عن هذا الكتاب ـ تتّضح لنا هذه الإصلاحات[1] :

كيف أحضر النجاشي المهاجرين[2] وسألهم عن دينهم ، وإجابتهم عليه :

« . . . عندئذ طلب النجاشي حاكم الحبشة أن يمثل أصحاب الرسول بين يديه ، فلما جاءهم رسوله التقوا ببعضهم يتساءلون : ماذا نقول له حين نلقاه ؟

وكان الجواب : نقسم بالله أننا سنقول له كل ما نعلم وكل ما طلبه منا نبينا الكريم . . وليحدث ما يحدث .

ولما دخلوا عليه كان القساوسة في حضرته وقد تناثرت كتبهم حوله ، وسألهم : أي دين ذاك الذي عزلكم عن قومكم وجعلكم تمتنعون عن الدخول في ديني أو سواه ؟ فأجاب جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه : « أيها الملك ، كنا همجا نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي بأمور مشينة وأعمال قبيحة . . لا نصل [278] الرحم وننقض وشائج القربى ، ونسلك سلوكا سيئا تجاه جيراننا ، ويهلك قوينا ضعيفنا . . كانت حياتنا تمضي على هذا النسق حتى اختار الله من بيننا رسولا بعثه إلينا ، نعرف نسبه وأمانته وصدقه وإيمانه وطهارته ، فدعانا إلى الله لنهدي غيرنا بدورنا إلى التوحيد وعبادة الحق وحده ، ولنلقي بعيدا بالحجارة والأصنام التي كنا نعبدها نحن وآباؤنا من دون الله ، وأمرنا أن نقول الصدق ونرّد الأمانة ونصل الرحم ونرعى حقوق الجوار ، وننتهي عن النواهي ونكفّ عن سفك الدماء . ونهانا عن فعل ما ينافي الخُلقُ وعن قول الكذب وعن الخداع وأكل مال اليتامى وتحقير

(١) سيرة ابن هشام ، طبع ووستنفلد علم ١٨٥٩م ـ الترجمة الألمانية لويل Wail ، طبع اشتوتجارت علم ١٨٦٤م .

(٢) المهاجرون هم أصحاب رسول الله الذين اضطروا إلى الفرار من مكة إثر التعذيب ولجأوا إلى الحبشة وغيرها .

العفيفات من نسائنا . وأمرناها نعبد الله الواحد ولا نشرك به شيئا . إن الحرام ما نهانا عنه والحلال ما هدانا إليه .

ثم تصدّى لنا قومنا وآذونا ، وحاولوا غوايتنا وإبعادنا عن طريق الإيمان لنعود إلى عبادة الأصنام بدلا من عبادة الله ، ونرتدّ فنفعل ما كنا نفعل من أعمال سيئة كانت مشروعة . لقد حاولوا إجبارنا والضغط علينا ، وظلمونا ليحولوا بيننا وبين ديننا ، لهذا جئنا ديارك وفضلناك على سواك أملا في حمايتك . والآن أيها الملك نطالب بألا يحيق بنا ظلم في مجلسكم » .

وسأله النجاشي : ألديك شيء مما أنزله الله على نبيك ؟ قال جعفر : نعم . . قال : اقرأ . . فقرأ جعفر الآيات الأولى من سورة مريم ، وهي السورة التاسعة عشر من القرآن[1] ، وتبدأ بالحروف : كهيعص . . . فبكى النجاشي حتى ابتلت [279] لحيته ، وبكى القساوسة حين سمعوا كلمات القرآن فابتلت كتبهم من دمع أعينهم ، وهنا قال النجاشي :

الحق أن هذه الكلمات وما جاء به موسى من منبع واحد . . اذهبوا فقد أقسمت ألا يضايقكم أحد أو يفكر حتى في مضايقتكم» .

ولو شئنا أن نبحث في أوصاف الرسول وأهدافه لبعدنا كثيرا عن طريقنا المرسوم ، خاصة وأن هذه الموضوعات ـ مضافا إليها تاريخ الرسول وأصول عقيدته ودينه ، تلك التي سرت في أناة أول الأمر ثم في سرعة البرق ـ قد بُحِثت بدقة وتكامل في رسالات سيل Sale واشپرنجر Sprenger وموير Muir وكرل Krehl ونولدكه Noldeke وبوس ول سميث Boswell Smith وسيد أمير علي . وتفضل آثار الأخير غيرها ، خاصة لدى الدارسين ممن يريدون أن يعرفوا مدى تأثير الإسلام ورسوله في المسلمين الحاليين . . لا سيما الخاضعين للثقافة والعلوم الأوروبية .

---

(١) فيما يتعلق بهذه الحروف الغامضة في أول هذه السورة وفي ثمانية وعشرين غيرها أنظر :
Sale's Preliminary Discourse, iii

وقد احترنا سيد امير علي لانه مسلم عارف بمقتضيات العصر ، قارئ للعديد من الكتب ، واسع الأفق بعيد النظر ، ذو دراية كبيرة بالأفكار الشرقية وله صلة كبيرة بالأفكار الغربية .

إن قوة الإسلام وعظمته تكمن في سهولة تطبيق شريعته على الأوضاع الجديدة ، وتكمن أيضا في الموازين الخلقية الإسلامية السامية . وفي الإسلام ، يمكن كسب الفضائل والمكارم الإسلامية كاملة . . . لكنا يجب أن نقرّ أن موازين الديانة المسيحية الخلقية ـ العالية السامية[1] ـ ليست في مقدور البشر ولا الدول .

[280

أما الدولة التي تنشد كمال الإسلام فإنها ميسورة متوفرة يمكن تحقيقها . لقد أوجد الخلفاء الراشدون الأربعة ـ الذين خلفوا الرسول مباشرة ـ مثل هذه الدولة بصفة عمليّة . وقد ترجمنا هذه القصة عن الفخري ، وهي تتصل بنفوذهم وحكمهم[2] : « اعلم أن دولة الإسلام لم تتكون على غرار هذا العالم ، وأنها كانت تقوم غالبا على الأمور النبوية والأحوال الأخروية . وحقيقة الأمر أنها كانت تدار بطريقة الأنبياء ، وسلوك حكامها سلوك الأولياء ، وفتوحاتهم على غرار فتوحات الملوك العظماء ، ومنهجهم تحمّل المشاق والبساطة والإمساك في الطعام واللباس ، فكان أحد الخلفاء يسير راجلا في الطريق والسوق ، لابساً قميصاً ممزقا لا يستر أكثر من ركبتيه ، في قدمه نعل وفي يده سوط ينهال به على من يستحق العقاب .

وكان علي بن أبي طالب عليه السلام يعتبر العسل والخبز الطريّ لونا من الترف ،فقد كان يقول :«ولو شئت لاهتديت إلى مصفى هذا العسل بلباب هذا البر » .

---

(١) تصرفت في العبارة التي قالها المؤلف متأثراً بمعتقداته .

(٢) تعليق المترجم : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية تأليف محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي ، طبع جامعة جرايفسوالد Greifswald علم ١٨٥٨م ، ط ٢ من الكتاب طبعة مصر ، مراجعة محمد عوض ابراهيم وعلي الجارم .

واعلم أيضا أن إمساك الخلفاء عن الطعام وتركهم فاخر اللباس لم يكن ناجما عن فقر وحاجة ، فقد كان يمكنهم إعداد أفخر الألبسة وألذ الأغذية ، لكنهم لم يفعلوا ليكونوا متساوين مع أفراد رعيتهم من المعوزين . هكذا فعلوا ليحرّروا النفس من قيد الشهوات ، ويصلوا بها إلى أفضل حالاتها بالرياضات ، وإلا فإن كل الخلفاء كانوا أصحاب ثروات طائلة . . . يمتلكون الحدائق ومزارع النخيل والمتاع الدنيوي ، وكان معظمهم يسد حاجة المحتاجين والمعوزين[1] . لقد كانت أرباح حضرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام من أملاكه أرباحا طائلة[2] ، وكان ينفقها كلها في مساعدة الفقراء والضعفاء ، قانعا هو وأسرته بلباس من الكرباس (القطن المفتول باليد) ورغيف من الشعير .

أما فيما يتعلق بالحروب التي خاضها الخلفاء والانتصارات التي حققوها ، فقد بلغ فرسانهم أفريقيا وأقصى نقاط خراسان وعبروا كذلك نهر جيحون» .

ولم يكن ما قام به محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) أمراً سهلاً ، ففي خلال الأعوام الثمانية أو العشرة الأولى من بعثته لم يكن هناك أمل في تقدّمه ونجاحه إلا في نفوس المؤمنين المخلصين وحدهم . . . وقد استمر هذا الوضع إلى أن هاجر من مكة إلى المدينة علم ٦٢٢م ، فكانت هذه الهجرة بمثابة البداية لتاريخ المسلمين . ولم تقتصر الصعوبة على ما ذكرنا ، فقد كان العرب من سكان البادية خاصة يأنفون من هجر آلهتهم القديمة وترك عاداتهم التليدة . ولم يكن البدو ولا شك يميلون إلى الورع والتقوى والفضائل التي وضعها الإسلام نصب عينيه ، كما لم يكونوا يعتقدون في الوعد والوعيد ولذّات ما بعد الموت وآلام ما بعد البعث . وكان يضجرهم ما في الشريعة الإسلامية من قيود انضباطية نظامية . والبدوي القحّ شخص عادي شكّاك منكر للمكاشفات الإلهية ، وهو ذكي ضيق الأفق يقظ في حدود إمكانياته ، ومثله لا يهتم بغير الماديات ولا يتجنّب المحسوسات والشهوات .

(١) تعليق المترجم : لا يصدق هذا القول على كل الخلفاء .

(٢) تعليق المترجم : هناك مبالغة في القول بأن حضرة الأمير كان يحصل على أرباح طائلة من أملاكه .

[282] وهو لم يكن يحفل بما يتعلق بالشهوة من ماديات ، ولم يكن متفحّصا ولا سريع التصديق . وكان كبره وعناده واعتاده على نفسه يدفعه إلى إنكار وجود خالق قوي أبدي ، وتجعله يحسّ بأنه في غير حاجة إلى هذا الخالق لأنه في مقابل قدرته على حفظه وحراسته يفرض عليه الطاعة والتقوى والعبادة .

شيء آخر ، هو أن وجود الله تبارك وتعالى ليس كشفا جديدا اكتشفه الإسلام . فإذا كان قدامى العرب في الجاهلية قد قلّ اهتمامهم بربّ العالمين ، وكانت قرابينهم لله العظيم أتفه من قرابينهم لآلهتهم الصغيرة . . . فمرجع ذلك إلى اعتقادهم بأن الآلهة الصغيرة تختصّ بنفس القبيلة ، وهي ملك لها ، ويتوقّع منها في الغالب أن ترعى شئون القبيلة وتسهر على مصلحتها . ومع ذلك فإن إجلالهم لها كان يتمّ عندما تجري الأمور وفق هوى عُبّادها .

يقول دوزي[1] : « كلما سنحت الفرصة أبدى العرب غضبهم على آلهتهم ، وأسمعوهم رأيهم في حقيقة كنههم ، وسبوهم بما لا يليق» . وكان من لا يجيب من الكهنة بما يتفق ومزاج العرب يتعرّض للاحتقار والسخط . وكانت الأصنام التي لا تقبل القرابين ترجم ويوجه اليها أفحش السباب . وكان أقل ما يغضب العربي كافيا لجعله يلفظ إلها ويختار غيره لتأليهه . وهكذا كانت صفاته تجعله غير مستعد للمضي تحت ثِقَل الديانات الجديدة التي تفرض عليه فرائض ثقيلة وتحمله تكاليف شاقة .

وإذا كانت الآلهة القديمة عديمة الأثر فان لها وجودا على الأقل ، كما أنها لا تجرّ إلى مشاق ومتاعب . وإذا كانت الآلهة قليلة الفائدة هزيلة الثمرة فمطالبها أيضا قليلة . [283] أضف إلى ذلك أن الإسلام يطالبهم بسلوكٍ لا يتفق مع طبيعتهم ولا يناسبهم ، وبتغييرٍ لا يستحسنونه ولا يستسيغونه . فطبقاً لتعاليم الإسلام ، يكون مآل الأوثان وآلهة العرب وعبدة الأوثان ومن أرشدوهم حتى قبل ظهور النبوة . .

---

(١) Dozy

نار جهنم ،ومهما كان قدر ما يُعيد مما له صلة بعبدة الأصنام فإنه لا يملك الصمود في مواجهة انفعال محطّمي الأصنام في الشريعة الجديدة .

وقد أضاف الدكتور زيهر[1] إلى ذلك ما ألقى الضوء على كثير من الموضوعات . ففي الفصل الأول من كتابه الخاصّ بالدراسات الإسلامية ، أجرى بحثا عنوانه (الدين والمروءة) ، تحدث فيه عن تناقض الآمال وتضارب الرغبات الجاهلية مع الغاية السامية من التعاليم الإسلامية . وأثبت ثبوتا قاطعا أن الجاهلية والإسلام كان لهما هدفان مختلفان ، وكانا متناقضين تماما من كل الوجوه . فالفضائل الأصيلة لدى العرب القدامى في زمن الجاهلية هي :

الشجاعة والشهامة ، والجود والسخاء بلا تردد ، وإكرام الضيف إلى حد الإسراف والتبذير ، والتعصب للقومية ، والقسوة في الانتقام ممن لا يحترمون العرب أو أفراد قبيلتهم أو أقربائهم أو ممن يرتكبون خطأ في حقهم .

بينما تختلف الفضيلة في الشريعة الإسلامية ، فهي تتجلى في :

التسليم والرضا ، والصبر والجلد ، وخضوع مصالح الفرد لمصالح الجماعة ، وتقديم ضروريات الدين على غيرها ، وعدم الاهتمام بنفائس الدنيا ، واجتناب التظاهر والتفاخر ، واتباع أحكام عديدة أخرى .

وكان عرب الجاهلية ينظرون إلى هذه الفضائل وتلك الكمالات نظرة هزء واستخفاف . ولكي يتضح التضادّ بجلاء ، نوازن بين روحي موضوعين على سبيل المثال . . . الموضوع الأول : ما جاء في الآية ١٧٨[2] من السورة الثانية في القرآن والتي تسمى سورة البقرة[3] .

---

(١) Dr. Goldziher; Muhammedanische Studien

(٢) المترجم : الآية ١٧٢ طبعة بصير الملك ، ١٧٦ طبعة اخگر أو منتخب التفسير لآقاى حاج مهدي إلهي قمشه اى (١٣٦٨) .

(٣) السورة الأولى بالمصحف الشريف ، والآية رقم ١٧٧ (المترجم) .

[28· والموضوع الثاني : ما جاء في أشعار المطرب المتجوّل قاطع الطـريق تأبـط شرا . والإسم في حد ذاته يدل على ماهية صاحبه ، لأن معناه (يحمل الشرّ تحت إبطه) .

وهذه هي الآية : ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابـرين في البأسـاء والضراء وحـين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون[1] .

ويقال إن الأشعار التي سنوازن بينها وبين الآية المذكورة من انتحال عالم شديد الذكاء مفرط الدقة اسمه خلف الأحمر . . . غير أن المرحوم ر برتسون اسميث يرى - محقاً - أن روح الإلحاد تغلّف كل المنظومة حتى ليشتم منها رائحة الكفر ، ولا يمكن أن تكون منتحلة . ومهما تكن حقيقة الأمر فقد تمّ عرضهـا بمهـارة بحيث تعكس روح العرب عبدة الأوثان إلى حد كبير[2] .

[28: وقد أنشد المطرب المذكور قصيدته هذه مطالبا بالثأر لعمّه الذي قُتل على يد قبيلة هديل ، وجعل مطلعها في وصف مناقب المقتول[3] :

---

(١) نقلا عن كتاب (اقتباسات من القرآن) لسير وبليم موير ، لندن ١٨٨٠م .

Sir William Muir, Extracts From the Coran, (London, 1880) Professor Roberstson Smith

(٢) متن هذه المنظومة في الصفحتين ١٨٧ ، ١٨٨ ، من كتاب القراءة العربية لرايت ، لندن ١٨٧٠م :

Wright's Arabic Readingbook, London, 1870

ترجمة منظومته ترجمة بالمعنى (غير حرفية) ، وقد أثبتها باور في مقالته حول هذا الشاعر .
أنظر المجلد العاشر (سنة ١٨٥٦ ، ص ٧٤ -١٠٩) .

Zeitschrift d. Deutschen Morgenlandischen Gesallschaft.

(٣) تعليق المترجم : لم يكن كتاب رايت في متناول يدي ، فاستفدت من ذاكرة بديع الزمان فروز انفر رئيس كلية المعقول والمنقول ، وحصلت بفضل توجيهه وبمساعدة دانش پژوه وايرج أفشار مشرفي مكتبة كلية الحقوق على المرجع ، فنسخت متن أشعار تأبط شرا من شرح ديوان الحماسة - الذي جمعه أبو تمام العربي (ت٢٣١هـ) - تأليف أبي زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي (ت٥٠٢هـ)، جـ٢ ، طبع القاهرة ص٣١٤ - ٣١٨ .

إن بالشعب الذي دون سلع لقتيلا دمه ما يطل
خلف العبء علي وولى أنا بالعبء له مستقل
ووراء الثأر مني ابن أخت مصع عقدته ما تحل
مطرق يرشح سماً كما أطـ رق أفعى ينفث السم صل
خبر ما نابنا مصمئل جل حتى دق فيه الأجل
بزني الدهر وكان غشوما يأبى جاره ما يذل
شامس في القر حتى إذا ما ذكت الشعرى فبرد وظل
يابس الجنبين من غير بؤس وندى الكفين شهم مدل
ظاعن بالحزم حتى إذا ما حل حلّ الحزم حيث يحل
[286] غيث مزن غامر حيث يجدي وإذا يسطو فليث ابل
مسبل في الحي احوى رفل وإذا يغزو فسمع أزل
وله طعمان اري وشرى وكلا الطعمين قد ذاق كل
يركب الهول وحيدا ولا يصـ حبه إلاّ اليماني الأفل
وفتو هجر وإثم أسروا ليلهم حتى إذا انجاب حلوا
كل ماض قد تردّى بماض لِسَنا البرق إذا ما يسل
فادركنا الثأر منهم ولما ينج ملحيين إلا الأقل
[287] فاحتسوا أنفاس نوم فلما هوموا رعتهم فاشمعلوا
فلئن فلت هذيل شباه لبما كان هذيلا يفل
وبما أبركها في مناخ جعجع ينقب فيه الأظل
وبما صبحها في ذراها منه بعد القتل نهب وشل
صليت مني هذيل بحرق لا يمل الشر حتى يملوا
ينهل الصعدة حتى إذا ما نهلت كان لها منه عل
حلّت الخمر وكانت حراماً وبلأى ما ألمت تحل
فاسقنيها يا سواد بن عمرو إن جسمي بعد خالي لخل
تضحك الضبع لقتلى هذيل وترى الذئب لها يستهل

وعنـــاق الطـــير تغـــدو بطانـاً   تتخطـــاهـــم فمـــا تستقـــل[1]

وما أجمل ما قاله موير Sir William Muir في هذا الشأن :

المثل الأعلى للمروءة في قاموس عرب الجاهلية يتلخّص في هاتين الكلمتين : « الشرف والثـــأر » .

---

(١) تعليق المترجم : لما كانت هذه الأشعار العربية لا تخلو من ألفاظ غريبة وأخطاء في ترجمة المؤلف فقد أصلحها عباس خليلي المستعرب المعروف والدكتور حسين علي محفوظ ، وهذا مدلولها : في الوادي الواقع أسفل سلع ، هناك قتيل لن يضيع دمه هدرا . ـ لقد ألقى على عاتقي حمل الانتقام الثقيل ومضى ، وقبلت العبء الذي حمّلني إياه ـ ولي ابن أخت يزاملني ثأري . . صلب الإرادة يجيد استعمال السيف ، كالأفعى السامة ينفث السّم حوله ـ وصلنا الخبر مؤلما صغيرا ثم تدرّج في الكبر وعظم شأنه فصارت أكبر الأحداث بالنسبة له تافهة ـ لقد اختطف الزمن الغادر منا شخصا لم يذلّ جاره قط . فلتكن يا أبي فداءه . كان في الشتاء موضع الدفء وكان في الصيف ـ عندما يطلع الشعري اليماني ـ مكانا ظليلا باردا عليل الهواء ـ لم تكن نحافته عن عوز وفاقة ، بل إنه كان كريم الكف شهما يختال بنفسه ويعتز بها ويعتمد عليها ـ كان يخطو في حزم وحذر فإذا ما ألقى عصا التسيار كان الحزم له رفيقا والتدبير صديقا ـ كان في السخاء سحابا ينثر الجوهر وعند الغزو أسدا هصورا ـ قميصه طويل وجسده نحيل وقوته البدنية خارقة ، وهو كالذئب سرعة حين تنشب المعركة ـ وهو في حلق الأصحاب شهد وعسل وفي حلق الأعداء سم وحنظل ، وقد ذاق الفريقان عسله وحنظله ـ يسلك سبيل الصحراء المخيف وحيدا لا يرافقه إلا سيفه اليماني البتار ـ وكم من شجاع طوى الطريق من الصباح إلى المساء . . في حرقة شمس منتصف النهار وفي ظلمة الليل ، فلما انقشعت الظلمة حطّ رحاله ـ كانوا يمضون وقد علّقوا في خاصراتهم سيوفا ماضية . . . إذا ما أخرجوها من غمدها لمعت كالبرق ـ فانتقمنا منهم وأدركنا ثأرنا ولم ينج منهم إلا القليل . وهذه القلّة قد انخرطت بدورها في نوم متقطّع مضطرب ـ فإن تك هذيل قد أضاعته فكم من صدمات ألحقها بهذيل وما أكثر ما جعلهم يجثون على ركبهم في مكان وعر وأدمى أقدامهم وما أكثر ما أغار على ديارهم صبحا وما أكثر ما سلب بعد أن قتل العديد منهم ـ لقد احترقت هذيل في نار شجاع مثلي ، شجاع لا يملّ الشر ولا يتعب من الحرب . . . إلا إذا ملّوا وتعبوا ـ ورمحي يرتوي من دم الأعداء ، وكلما اجترع جرعة أعطيته غيرها ـ كنت قد حرّمت الخمر على نفسي ، والآن باتت حلالا ـ فاسقني الخمر يا سواد بن عمرو فقد أضحى جسمي بعد فراق خالي (عمي) خلا ـ تضحك الضباع لرؤيتها قتلى قبيلة هذيل ويكشر الذئب عن أنيابه لدى رؤيتهم ـ والطيور التي تطعم الجيفة تملأ بطونها من جيفهم صباحا وتحاول الطيران بعيدا فلا يمكنها تخطيهم لامتلاء بطونها .

إن كل ما يؤثره العربي الوثني في الجاهلية هو الحرية ، الشجاعة ، الكرم والايثار ، مقابلة السيئة بالسيئة والحسنة بالحسنة ، تقدير الشراب والمرأة والحرب حبّ الحياة إلى أبعد حد ، عدم الخوف من الموت ، الاستقلال والاعتماد على النفس ، التفاخر والسلب والنهب ، حماية الأقارب والدفاع عنهم بحق وبغير حق ، تحرير عصبية الدم وعرق القومية من كل القيود . ومن هذا تتضح طباع العربي الوثني في الجاهلية وهي نفسها طباع العربي الذي يسكن البادية اليوم . . [288] المسلم إسما فقط . لقد كان هذا نفس مسلك عم النبي بالنسبة لابن أخيه . إن سلوكه في الواقع يثير المشاعر الرقيقة ويمس القلب والروح ، وهذه رواية نرويها على سبيل المثال :

حين دعا الرسول أبا طالب الى الإسلام بصفة جديّة أجابه قائلا :

يا ابن أخي : لا يمكنني أن أتخلى عن دين آبائي[1] ، لكنني أقسم بالله أني لن أسمح لشيء بإيذاء خاطرك ما دمت حيا[2]. وسواء آمن أبو طالب بدعوة الرسول أم لم يؤمن فقد فضّل نار جهنم في صحبة أجداده على جنة الإسلام الموعودة ، ولم يسمح بأن يكون ابن أخيه هدفا للأغراب .

ويبدأ العصر الذهبي للإسلام من هجرة الرسول (يونيو ٦٢٢م)[3] حتى وفاة عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين (٦٤٤م) . ونقصد بالعصر الذهبي عصر التقوى والتوحيد . . . . في مقابل عصر الإسلام الفلسفي ، لأن الحكم

---

(١) تعليق المترجم : إسلام أبي طالب أمر مسلّم به لدى الشيعة ، وقد نقلت هذه الرواية عن أهل السنة .

(٢) سيرة ابن هشام (طبعة ووستنفلد) ص١٦٠ .

(٣) تعليق المترجم : كانت هجرة الرسول ـ بناء على رأي تقي زادة ـ بالحساب المعروف ، في ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة ، وهذا يوافق النصف الثاني من سبتمبر وليس يونيو . كما كان أول المحرم في السنة الأولى للهجرة أيضا موافقا السادس عشر من يوليو.

[289 الثاني لرجال الدين ـ الذي بينة الفخري ونقلناه هنا ـ قد استمر حتى شهادة علي (عليه السلام) عام ٦٦١م ، الذي يعدّ في نظر قسم أساسي من أقسام العالم الإسلامي أشرف وأكفأ وأفضل خليفة لرسول الله . وقد بدأ الشقاق والقتال والحروب الداخلية والعداوات الدموية بين الشعوب والقبائل في خلافة عثمان ـ الخليفة الثالث ـ الحافلة بالبلايا والمصائب .

لقد كانت بلاد العرب كلها في حياة الرسول ـ على ما يبدو ـ مطيعة له منقادة لشريعته . فلما توفيّ شبت على الفور نيران الثورات المتتالية بين طوائف العرب وصد الإسلام . ولم يكن في استطاعة أبي بكر أن يولي الفتوحات اهتمامه الكامل ويدعو الممالك غير العربية للإسلام طالما النيران مشتعلة لم يطفئها الدم ، والخونة والمرتدّون لم يقبلوا أو يجبروا على الطاعة والخضوع ، وتهمّنا إيران وحدها من بين كل هذه الممالك ، لذا يحسن بنا أن نعود إلى الفخري المؤلف المشهور[1] الذي يجسّم الوقائع ويجسّد الأحداث في ذهن القارىء لنجده يبين بالتفصيل علامات الخطر التي أقلقت أنوشيروان وخسرو برويز وبلبلت فكريهما . . . يقول المؤلف :

لقد كانت هذه الإنذارات وأشباهها تلوح متتابعة إلى أن حدث ما حدث .
ثم يتابع سلسلة كلامه بما مضمونه :

يقال إن رستم قبل أن يتوجّه لقتال سعد بن أبي وقاص رأى في منامه ملكا قد هبط من السماء فجمع أقواس الإيرانيين وحملها معه إلى السماء . يضاف إلى ذلك ما كان يلاحظ على العرب دائما من الميل إلى القول الجازم والثقة بالنفس والصبر وقوة التحمل الهائلة عند الشدائد . وبعد موت شهريار وجلوس يزدجرد ـ الشاب [290 الضعيف ـ على العرش ، بدأت النغمات غير المتّسقة بين الإيرانيين ، وأصيبوا بنكبة عظيمة . ففي حرب القادسيّة هبت رياح عكسية وأظلم الغبار عيونهم وأعماها ، وهبّت الزوابع شديدة فشملت كل شيء وأهلكت الجميع . . وقتل رستم وانهزمت

---

(١) اسم الكتاب الفخري واسم المؤرخ ابن الطقطقي .

جيوشه ، فتأمل هذه الآيات ، واعلم إلى أي مدى تنفذ مشيئة الله وتتحقق إرادته البالغة .

كانت حدود إيران تبدو صعبة في نظر العرب وخطرة رهيبة في أعينهم ، وكانت تثير في قلوبهم أكبر قدر من الاحترام . . . لهذا أقدموا مكرهين على مهاجمة تلك الحدود . لقد كانوا يتجنّبون تجاوزها احتراما لملوك إيران لاعتقادهم بأنهم على قدر من القوة يكفل لهم إدخال شعوب سائر الدول في ربقة طاعتهم . وظل هذا التفكير مسيطرا عليهم إلى أن كانت الفترة الأخيرة من خلافة أبي بكر . حين ثار المثنى بن حارثة ، وسهّل الموضوع وبسّطه وشجع الناس وحرّضهم على محاربة الايرانيين .

وقد استجاب البعض لدعوته ، وتذكّروا وعد الرسول (صلوات الله عليه) الذي كان قد ذكر لهم أنهم سيضعون يدهم على خزائن ملوك إيران ، ويملكون كنوز الأكاسرة . ولم يقدم العرب على أي عمل إبان خلافة أبي بكر . فلما كان عهد عمر بن الخطاب كتب إليه المثنى رسالة أطلعه فيها على وضع إيران المضطرب ووصول يزدجرد بن شهريار - الشاب الصغير - إلى سرير السلطنة . وقد كان جلوسه على العرش في سن الحادية والعشرين ، فقويت رغبة العرب في مهاجمة إيران . وخرج عمر بجنده من المدينة دون أن يعرف القوم وجهته أو يجرؤوا حتى على سؤاله . وقد سأله أحدهم أثناء تحرك الجيش عن وجهته فكان نصيبه التقريع واللوم .

[291] وكانت عادة العرب إذا ما استبد بهم القلق أن يلجأوا إلى عثمان بن عفان أو عبد الرحمن بن عوف ، وقد يضيفون إليهما العباس[1] . ونتيجة للجوئهم سأل عثمان عمر بن الخطاب قائلا : يا أمير المؤمنين . . . ما الذي أسمعه ، وماذا تزمع ؟ ودعا عمر الناس لصلاة الجماعة ، فلما تجمّعوا ذكر لهم هدفه ، وحرّضهم على قتال الايرانيين وهوّن عليهم الأمر ، فأطاعوه ولبّوا دعوته وطلبوا منه أن يرافقهم

(١) تعليق المترجم : يرى بديع الزمان فروزانفر أن الشخص المقصود هو عباس بن عبد المطلب .

في سفرتهم هذه ، فقال : سأفعل ، إلا إذا رأيت خطة أفضل . ثم اجتمع بالعقلاء وذوي الرأي ووجهاء القوم وشاورهم في الأمر . ففضّلوا بقاءه وإيفاد واحد من كبار الصحابة ، وإرسال المدد من ورائه . . . فإن تمكن من الفتح فنعم ما فعل ، وإن هلك قائد الجيش استطاع عمر إيفاد غيره .

ولما استقر الرأي على ما رأوه ، اعتلى عمر المنبر لإبلاغ الأمر إلى مسامع العامة كعادة القوم في تلك الأيام . وقال عمر من فوق منبره :

أيها الناس ، أقسم أني كنت أبغي مرافقتكم في سفركم هذا لولا أن حكماء القوم صرفوني عما اعتزمت ، ورأوا الصواب في بقائي وإيفاد أحد الأصحاب لقيادة الحملة . ثم طلب رأيهم فيمن يفضلْ غيره لهذا الغرض ، فرشّحوا له سعد بن أبي وقاص ، وكان مكلفا آنذاك بعمل خارج البلاد استدعى غيابه ذلك اليوم . وشهد الجميع بكفاءته وقالوا إنه عند الحرب والنزال يهجم كالأسد الهصور ، وأمّن عمر على قولهم وأيد اقتراحهم ، واستدعى سعد بن أبي وقاص ، وأسند إليه القيادة العامة لحملة العراق وإمارة جيش العرب .

وعلى رأس جيش العرب ، ولىّ سعد وجهه شطر إيران ، ورافقه عمر بن الخطاب بضع فراسخ مشيّعا . وأخذ يحرِّض المهاجرين على الجهاد بالوعظ والخطابة ويدعو لهم بالنصر ، ثم ودعهم وعاد إلى المدينة . وسلك سعد سبيل الصحراء الواقعة بين الحجاز والكوفة ، وكان يتلقّى المعلومات بصفة دائمة ، وتصله رسائل عمر مشتملة على خطط حربية يتوصّل إليها بالمشورة وتقليب وجوه الرأي مرّة بعد أخرى . كما كانت القوات الجديدة تفد إليه تباعا لمساعدته . وأخيرا استقر رأيه على مهاجمة القادسية . . . بوابة مملكة إيران .

وحين وصل سعد إلى القادسية لم يكن قد بقي معه ومع مرافقيه القوت الضروري ، فأمر أن يحضروا له بقرة وخروفا من أي مكان . وكان أهل السواد يخشون تقدُّم العرب ، فلما قابل العرب أحدهم وسألوه عن مكان يحصلون منه على ما يبتغون ، أبدى جهله بمثل ذلك المكان . والواقع أنه كان أحد رعاة البقر ، وقد

أخفى قطيعه في مكان آمن في تلك الحدود . ويقال إن ثوراً علا خواره آنذاك فكشف كذبه، واكتشفوا أنهم قرب الحظيرة ، فدخلوها ، وأخرجوا الأبقار وساقوها إلى سعد ، واعتبروا هذه الحادثة فألا طيبا ، واعتبروها إشارة إلى نصر الله تعالى وتأييده . فرغم أن الثور لم يتكلّم إلا أن صوته أرشد العرب إلى مكان البقر وكشف كذب الراعي . وتعدّ هذه الحادثة من المصادفات العظيمة التي بشّرت بفتح العرب . . . وظفرهم ، وكان لهم الحق في أن يتفاءلوا خيرا .

ولما نمى خبر تقدّم سعد وعساكره إلى مسامع الإيرانيين أرسلوا القائد رستم للقائه مع ثلاثين ألف مقاتل . وكان الجيش العربي لا يزيد عن سبعة آلاف أو ثمانية آلاف مقاتل ، لكن بعض القوات غير المتعبة لحقت بهذا الجيش فيما بعد للمساعدة .

[293] ولما تلاقى الجيشان سخر الإيرانيون من حراب العرب ورماحهم وشبّهوها بالمغازل[1] ولا ضير في أن تُذكر هنا قصة تضارع هذه الحادثة ؛ فقد حكى لي فلك الدين محمد بن أيدمر الحكاية التالية :

« عندما توجه دويدار الصغير[2] جهة الغرب قاصدا مدينة السلام (بغداد) لخوض معركة ضد التتار[3] وحين تعرضت تلك المدينة لتلك النكبة العظيمة (عام ٦٥٦هـ = ١٢٥٨م) كنت في جيش دويدار الصغير . وتلاقينا وجها لوجه عند نهر بشير وهو شعبة من شعاب دجلة الصغيرة (دجيل) . فدخل من بيننا فارس إلى

(١) يحكي البلاذري طبع دوخويه (de Goeje ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠) الحكاية التالية : يقول أحد المحاربين الإيرانيين الذين شاركوا في موقعة القادسية أن الايرانيين كانوا يسخرون من رماح العرب وحرابهم ويسمونها المغازل .

(٢) دويدار لقب إيراني معناه حارس المحبرة أو المحبرة ، ويدعونه دواتدار وبعبارة أخرى مهردار أي حامل الختم . كتب ابن الطقطقي تاريخه الرائع في بداية القرن الرابع عشر الميلادي ؛ بينما كانت أحداث فتنة المغول ما زالت ماثلة في الأذهان .

(٣) يطلق المؤرخون العرب على المغول عموما إسم التاتار. ولفظ التاتار يكتب إملاء في اللغات الأوربية تارتاروس ، وهذا ناجم عن كونهم أرادوا من حيث الاشتقاق أن يربطوا بين هؤلاء القوم المرعبين وبين تارتاروس التي تعني (الجحيم) في علم الأساطير .

الميدان وقد غرق في درعه وغاص في الحديد والفولاذ وكان يمتطي جوادا ويبدو لصلابته كالجبل العظيم . . . وطلب أن يبارزه أحد الخصوم . فتقدم من بين المغول فارس يركب حمارا ، ويقبض بيده على حربة أشبه بالمغزل ، ولا يحمل سلاحا أو درعا . . مما أثار ضحك المشاهدين . غير أنه لم ينته اليوم حتى كان الفتح من نصيب المغول والهزيمة المؤلمة المروعة من نصيبنا . وكانت هذه الهزيمة بداية مصائبنا ومفتاح نوائبنا ، وحدث ما حدث .

[29 وتبادل سعد ورستم السفراء ، فلما وصل السفير البدوي إلى بلاط رستم رآه جالسا على عرش ذهبي تناثرت عليه الوسائد والمخدّات الموشّاة بالذهب وقد غطيت أرض القاعة بالبسط المزركشة المزدانة بالورد . وكان الإيرانيون يلبسون التيجان على رؤوسهم ويضعون الزينات على أجسادهم ، وقد وقفت الفيلة المحاربة في أرجاء المكان . واقترب البدوي ممسكا حربته في يده واضعا سيفه في خاصرته ، حاملا قوسه على كتفه . . . وربط جواده بجوار عرش رستم .

وخاف الإيرانيون ، وحاولوا منعه ، فطلب منهم رستم ألا يفعلوا ذلك . وكان العربي يتوكأ على عصاه ويتّجه نحو رستم فيغوص طرف رمحه في السجاد والوسائد والمخدّات ، بينما الإيرانيون ينظرون . ولما بلغ العربي رستم شرع في الكلام فكان في إجابته الحاسمة وكلماته الحكيمة ما أوقع رستم في الحيرة وملأ نفسه بالرعب .

وكان سعد يرسل كل مرة سفيرا غير الذي أرسله في المرة السابقة ، فلما سأل رستم السفير الجديد : لماذا لم يرسل إلي سفير الأمس ؟ أجابه : إن أميرنا يسير فينا دائما سيرة عادلة . وفي اليوم التالي سأل رستم السفير قائلا : أي مغزل هذا الذي بيدك ؟ ، وكان يعني حربته ، فأجابه الأعرابي : الشرارة حارقة رغم صغرها .

ومرة أخرى قال رستم للأعرابي : ما العيب الذي أصاب سيفك وجعله يبدو هكذا تالفا مضعضعا ؟ وقال العربي : لم يلحق التلف إلا بغمده . . . أما

السيف فحاد قاطع بتار . . . فألقى ذلك وأمثاله الرهبة في قلب رستم ، مما جعله يلتفت إلى أعوانه ويقول :

إن هؤلاء القوم لا يعدون كونهم متلوّنين ، لا يعرف أحد ما إذا كانوا صادقين أم كاذبين ، فإن كانوا كاذبين فإنهم يحفظون سرّهم ولا يختلفون فيما بينهم ، ويمعنون في الإخفاء والتزام السرية . . . ومما لا شك فيه أنهم قوم أولو قوة وأولو بأس شديد . وإن كانوا صادقين فلا طاقة لإنسان بمواجهتهم والوقوف في وجههم .

[295] وصاح أتباع رستم وأعوانه : أقسمنا عليك باسم الله ألا تتخلّ عما اعتزمته بسبب ما رأيته من هؤلاء الكلاب ، وأن تستمر على إصرارك على محاربتهم . وقال رستم : كان هذا رأيي . . . ولكن ماذا أفعل ؟ إنها إرادتكم . . وأنا معكم (في معركتكم) .

وبعد أيام من الحرب ، هبت رياح معاكسة ، أعمى غبارها أعين الإيرانيين ، وقُتل رستم وهزم جيشه . وغنم العرب ما كان يملكه الإيرانيون الذين ألقوا بأنفسهم في دجلة خوفا ووجلا ـ محاولين الوصول إلى الساحل الشرقي . وتبع سعد الفارّين ، وعبر الماء ، وأعمل فيهم القتل في جلولاء وغنم أموالهم ، وأسر واحدة من بنات مَلِكهم[1] .

وكتب سعد رسالة إلى عمر يخبره فيها بفتح العرب . وكان عمر في تلك الآونة قلقا غاية القلق ، ينتظر أخبار جيوشه بصبر نافذ ، وكان يخرج كل يوم من المدينة راجلا يتلمّس الأخبار . وتصادف أن وصل شخص ما ، وأخذ يتحدث عن أخبار الحرب ويزّف بشرى فتح سعد بوصفه رسولا من قبله .

---

(١) أنظر صفحة ١٩٥ وما بعدها من هذا الكتاب (فيما يتعلق بشهربانو إبنة يزدجرد) . . . وننبّه القارىء إلى أن الرقم المذكور من الأرقام الواردة على يمين المتن بالإفرنجية ، وهذه الأرقام تشير إلى صفحات الكتاب الفارسي الذي قمت بترجمته إلى العربية (المترجم إلى العربية) .

وسأل عمر الرسول : من أين ؟ فأجابه : من العراق ، وقال عمر : ما أخبار سعد وجيشه ؟ . وأجاب الرسول : لقد نصرهم الله على الجميع . وكان الرسول يتحدّث راكبا جمله بينما عمر يسير إلى جواره ، فلمّا تجمّع الناس واشتد زحامهم ، وألقوا عليه السلام ونادوه بأمير المؤمنين ، عرفه الأعرابي ، فقال : لماذا لم تخبرني ـ رحمك الله ـ أنك أمير المؤمنين ؟ فقال عمر : هوّن عليك يا أخي ، فإنك لم تأت شيئا نكرا .

[296] وكتب عمر إلى سعد : إبق حيث أنت ، ولا تقف أثرهم أكثر مما فعلت ، ووفّر لهم الأمان وشيّد لسكناهم مدينة ، ولا تجعل بيني وبينهم نهرا . وبنى سعد الكوفة وخطّط لإقامة مسجد بها وخطّط للناس منازلهم ، وجعل منها عاصمة ومقرا تحكم منه الولاية ، فبزّت المدائن[1](تيسفون) ، واستولى على خزائنها وذخائرها .

ومن جملة ما وقع من غرائب أن وجد أعرابي كيسا مملوءا بالكافور فحمله لأصدقائه فوضعوه فيما كانوا يطبخونه من طعام ظناً منهم بأنه ملح[2] ، خاصة وأن الكافور عديم الطعم . وكان أحد الحاضرين يعرفه فاشتراه بقميص ممزق لا يساوي أكثر من درهمين .

ومن الغرائب أيضا أن بدويا وجد ياقوتة غالية الثمن ، لم يكن يعرف قدرها وقيمتها ، فاشتراها من كان يعرف عظيم قدرها بألف درهم . ولما عرف البدوي قيمتها ووبّخه رفقاؤه بقولهم : لماذا لم تطلب مبلغا أكبر ؟ ، أجابهم : لو كنت أعرف عددا أكبر من الألف لذكرته[3] .

[297] « وفضل يزدرجرد الفرار سالكا طريق خراسان،وآلت قوته إلى ضعف ، إلى أن قُتِل في عام ٣١هـ (٦٥١ ـ ٦٥٢م) ، وهو آخر ملوك الأكاسرة » .

***

(١) أنظر التعليق الأول (هامش ص ١٩٨ من كتابنا هذا) لتعرف ما يتعلق بالمدينة والمدائن .

(٢) البلاذري ، ص ٢٦٤ .

(٣) وردت قصة تشبه هذه في كتاب فتوح البلدان للبلاذري . (طبع دوخويه de Goeje ص ٢٤٤) .

ترجمت هذا الشرح المسهب من كتاب الفخري لانه يجسد بوضوح إلى حد ما أبرز النقاط المتّصلة باستيلاء العرب على إيران ، وإن فعل ذلك بصورة مختصرة .

ولا يمكننا اعتبار حرب القادسية المميتة أول الحروب ولا آخرها. فقبل النصر هُزم المسلمون في قس الناطف هزيمة منكرة على يد مردانشاه وأربعة آلاف من الإيرانيين (نوفمبر ٦٣٤م) . وبعد حرب القادسية بسبع سنوات، نشبت معركة أخرى في نهاوند ، غير أنها لم تكن بدورها نهاية مقاومة الإيرانيين ، فقد واصلوا دفاعهم عن أنفسهم ـ بعناد وصلابة ـ في أكثر من موضع . وبلغت مقاومتهم عنفوان شدّتها في ولاية فارس مركز إيران ومهد عظمتها . أما طبرستان ، فقد كانت الغابات والمستنقعات تردّ عنها هجوم الأعداء وتحفظها من عدوانهم ، وتحتضن هذه الولاية سلسلة من الجبال ، تفرض عليها حصارا وتعزلها عن فلاة إيران الوسطى الكبيرة . وكان حاكم هذه الولاية من قِبَل الساسانيين يختص بلقب (اسپهبد) ، وكان يحكم مستقلا في ولايته . . وقد استمرّ ذلك حتى علم ٧٦٠م .

والتحقيق حول انتصار الدين الإسلامي على دين زردشت بمرور الوقت أصعب من التحقيق حول استيلاء العرب على ملك الساسانيين . فكثيرا ما يتصور البعض أن مقاتلي المسلمين قد خيّروا شعوب الممالك المفتوحة بين أمرين : القرآن والسيف . . . لكن هذا تصور خاطيء ، فقد كان مسموحا للمجوس والمسيحيين واليهود بالاحتفاظ بدينهم مقابل دفع الجزية ، وكان هذا النظام عادلا تماما . لأن رعايا الخلفاء من غير المسلمين كانوا يعفون من الاشتراك في الغزوات ودفع الخمس والزكاة . . . مما كان مفروضا على أمة الرسول . وقد ورد في فتوح البلدان للبلاذري[1] (ص٦٦) أنه حين بايعت اليمن الرسول ، أرسل إليها فريقا ليعرّف الناس بأحكام الشريعة الإسلامية وآدابها ، ويطالب من أسلموا بالخمس وبالزكاة المقررة على المسلم ، وليأخذوا الجزية ممن ظلوا على الديانات : المسيحية والمجوسية واليهودية . وبالنسبة لعمان ، أمر الرسول أبا زيد بأخذ ضريبة الأرض من [298]

---

(١) تاريخ وفاة البلاذري (٢٧٩هـ = ٨٩٢م) ، وقد طبع دوخويه كتابه في ليدن علم ١٨٦٦م .

المسلمين ، وأخذ الجزية من المجوس (ص٧٧) .

وفي البحرين ، اعتنق حاكم الحدود الإيراني الإسلام كما اعتنقه بعض مواطنيه ، وظلّ الباقون على دين زردشت . فكان كل بالغ رشيد يدفع دينارا بمثابة ضريبة على شخصه . ويقول في صفحة ٧٩ : « كان المجوس واليهود يخالفون الإسلام ، ويفضّلون دفع الضرائب التي تدفع على الرأس (الفرد) . وكان المنافقون من الأعراب يقولون إن الرسول يدّعي أن الجزية لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب وحدهم بينما قبلت الجزية من مجوس هجر . . . وهم ليسوا من أهل الكتاب . وهنا نزلت الآية : إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شيء شهيد[1] » .

وكان مضمون عهد حبيب بن مسلمة لأهالي دبيل الواقعة في أرمنستان ما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من حبيب بن مسلمة إلى أهالي دبيل النصارى والمجوس واليهود ، الحاضر منهم والغائب .

29 [أقسم صادقا أني سأحافظ على أرواحكم وأموالكم ومعابدكم وكنائسكم وأسوار مدنكم . أنتم في أمان ، ولزام علينا أن نوفي بعهدنا ـ وفاء منا وإيمانا ـ ما دمتم توفون بعهدكم وتؤدون الجزية وضريبة الأرض ، وكفى بالله شاهدا» .

ويبدو من كتاب البلاذري (ص٢٦٧) أن عمر بن الخطاب كان مترددا في اختيار الطريقة التي يعامل بها المجوس إلى أن نهض عبد الرحمن بن عوف وصرخ قائلا : أشهد أن رسول الله قال : « تصرفوا معهم كتصرفكم مع أهل الكتاب : سنوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحي نسائهم ولا آكلي ذبائحهم » .

---

(١) فيما يتعلق بقبول الجزية من المجوس واليهود والنصارى ، إرجع إلى القرآن الكريم (سورة الحج ، آية ١٦) ، وقارن بين ما جاء فيه وما جاء في تاريخ التمدّن في الشرق ، تأليف فن كرومر ، جـ١ ص٥٩ .
(Von Kremer, Culturgeschichte de Orients.)

ولم يستطع سكان المدن التي قاومت المسلمين الفرار بسهولة ، خاصة من خضعوا أول الأمر ثم عمدوا إلى الثورة والتمرّد . ولم يسلم من حد السيف أي ثائر مسلّح على الأخص ، ووقعت نساء الثوار ووقع أطفالهم في أسر المسلمين . غير أن الزردشتية - فيما يبدو - لم يعذّبوا ، كما أن الدين الإسلامي لم يُفرض بالقوة على إيران . وقد برهن البروفسور أرنولد - الأستاذ بدار الفنون بعليكره - بطريقة مقنعة على صحّة ذلك في كتابه القيّم الذي يدور حول تعاليم الإسلام (طبع لندن عام ١٨٩٦م ، الصفحات ١٧٧ - ١٨٤)[1] .

ويشير أرنولد إلى الموابدة الزردشتيين ويقول إن موابدتهم يتعصّبون ضد علماء سائر الأديان ، بل وضدّ كل الفرق التي تعادي الإيرانيين، ويخالفون عقيدة المانويين والمزدكيين وعرفاء المسيحيين (جنوستيك)[2] وأمثالها - لهذا تعرّضوا لكراهية العديد من الجماعات . « إن سلوك الموابدة الظالم تجاه الشيوخ والأتباع في [300] سائر المذاهب والأديان كان سببا في إثارة البغضاء والحقد في قلوب الكثير من الإيرانيين ضد الديانة الزردشتية والملوك الذين يحمون مظالم الموابدة . وكان انتصار العرب بمثابة تحرير لإيران من مخالب الظلم وبراثنه» .

ويضيف أرنولد إلى ذلك أن البساطة والتراحم في الإسلام ، والكثير من العقائد المرتبطة بالموت والخلود والآخرة مقتبسة من الدين الزردشتي ، وأن الدين الإسلامي قد أزال الضعف والوهن والتكاليف الشاقة والطقوس الدقيقة والطهارة المبالغ فيها مما كان الدين الزردشتي قد فرضه على أتباعه ، فتبدّى للناس الفرج بعد الشدة . ومن المسلّم به أن السواد الأعظم ممن غيّروا دينهم قد فعلوا ذلك عن طيب خاطر وبمحض اختيارهم وكامل إرادتهم ، فبعد هزيمة الإيرانيين - على سبيل المثال - في القادسية ، قرر أربعة آلاف جندي ديلمي (قرب بحر الخزر) - بعد المشورة وبكامل رضاهم - أن يدخلوا في دين الإسلام وينخرطوا في زمرة العرب ،

---

(١) T.W. Arnold, Preaching of Islam, London 1896

(٢) Gnostics

وقد قدّموا العون للعرب أثناء فتحهم جلولاء ، ثم فضلوا السكنى مع المسلمين بالكوفة[1] .

وقد دخل الإسلام آخرون غير هؤلاء بكامل رضاهم . وقد أقلق عمر بن الخطاب تدفّق سيل الإيرانيين ـ ممن دخلوا الإسلام حديثا ـ والأسرى الإيرانيين على بلاد العرب . . . وفي هذا يقول الدينوري (ص١٣٦ من كتابه) : لما رأى عمر أن الأحوال تمضي على هذا المنوال ، قال : إلهي جل شأنك . . . إني أعوذ بك من شر أبناء أسرى جلولاء .

وقد ثبت فيما بعد أن قلقه كان له ما يبرره ، فقد قتل بخنجر أبي لؤلؤة . . . أحد هؤلاء الأسرى . وما زال متعصبو الشيعة في إيران يظهرون غبطتهم لدى ذكر هذا الحادث . بل أنهم كانوا إلى عهد قريب يقيمون حفلا في ذكرى مصرع عمر (الاحتفال بيوم قتل عمر) ، ويسمون اليوم (عمر كشان) . وهذا يشبه الاحتفال في انجلترا بيوم قتل گاي فاكز[2] Guy Fawkes .

[301] وكان سلمان أول من أسلم من الإيرانيين ، وأكثر من حظي بالاحترام من بين أصحاب الرسول . وقد ذكرت الفرقة النصيرية السورية اسمه في تثليثها العرفاني . ويدل على ذلك استخدامهم حروف العين والميم والسين (حيث يرمز بالعين إلى علي باعتباره مظهر العقل والفكر ، ويرمز بالميم إلى محمد ، ويرمز بالسين الى سلمان الذي يعتبر باب الله)[3] وقد دخل سلمان الإسلام قبل أن تبدأ الغزوات

---

(١) البلاذري ، ص ٢٨٠ .
تاريخ التمدّن في الشرق تأليف فون كرمر ، جـ١ ص ٢٠٧ .
Z. Von Kremer, Culturgeschichte d. Orients.

(٢) تعليق المترجم : جاي فاكز هو الشخص الذي تآمر مع جماعة لقتل جيمس الأول ملك انجلترا وأعضاء مجلس الأعيان . ودلف عن طريق المنزل المجاور إلى سرداب يقع تحت المجلس حيث وضع ثلاثة أحمال من البارود تحت الحطب والفحم مستهدفا نسف البناء يوم افتتاح المجلس في الخامس من نوفمبر علم ١٦٠٥م. لكن المؤامرة كشفت وأعلنت . وما زالوا يحتفلون بذكرى هذا اليوم إلى الآن في انجلترا ، ويشعلون النار ويعرضون الألعاب النارية وغير ذلك .

(٣) أنظر: اعترافات أحد النصيريين المرتدين المسماة (الباكورات السليمانية) طبع بيروت، وقد نشرت =

الإسلامية . ولما كان متبحرًا في شئون الهندسة العسكرية فقد قدم للرسول خدمات جليلة أثناء الدفاع عن المدينة . وقد أورد ابن هشام شرحا هاما مسهبا لتاريخ حياة سلمان (ص١٣٦ - ١٤٣ من سيرة ابن هشام) .

وقد قادته روحه المتطلّعة وأفكاره الثائرة الدائمة التفكير في المسائل المذهبية الإيرانية إلى غشيان كنائس أصفهان في شبابه ، مما تسبّب عنه طرده من بيت أبيه الفخم الزاخر بالرفاهية . وانتهى به الأمر إلى ترك دين المجوس - دين أبيه وأمه - واعتناق الدين المسيحي ثم الدين الإسلامي .

[302] وقد فاز وحده من بين الإيرانيين بإعزاز جميع الصحابة واحترامهم . وينحدر كثير من كبار علماء الإسلام - الذين اشتهروا في صدر الإسلام - من أصل إيراني . كما أن عددا من أسرى الحرب وأولادهم - أمثال أبناء شيرين (سيرين) الأربعة الذين أسروا في جلولاء - قد بلغوا فيما بعد أعلى المراتب في العالم الإسلامي . وبناء عليه فإن من يؤكدون أن الإيرانيين فقدوا حياتهم العلمية والمعنوية مدة قرنين أو ثلاثة بعد استيلاء العرب على إيران ، ليسوا على حق بأية حال (يعتبر معظم الأشخاص الذين يفهمون تاريخ إيران الأدبي بالمفهوم المحدود للكلمة أن صفحة مسيرة إيران العلمية والمعنوية كانت - لمدة قرنين أو ثلاثة - صفحة بيضاء ، وقد تلافيت منذ البداية الوقوع في مثل هذا الخطأ) .

والحق أن الأمر على العكس من ذلك ، فالفترة المذكورة فترة هامة لا نظير لها إذ امتزجت فيها العصور القديمة والجديدة ، وتطورت فيها الآداب والتقاليد وتحولت مسيرة العقائد والأفكار . . . لكنّها على أي حال ليست فترة موات . صحيح أن إيران لم تستفد سياسيا من وجودها القومي المستقل ، وصحيح أنها غرقت في خضم إمبراطورية الإسلام العظيمة الممتدة من جبل طارق إلى نهر

= بدون تاريخ . وانظر ترجمتها الانجليزية التي نشرها سليزبوري E. Salisbury في مجلة الجمعية الأسيوية الأمريكية عام ١٨٦٦م (جـ٨ ص ٢٢٧ - ٣٠٨)، والمجلة الأسيوية عام ١٨٧٩ م ص ١٩٢ وما بعدها.

سيحون ، لكنّها سرعان ماأثبتت سيادتها في فروع العلم وتفوّقها في دروب المعرفة . وعلينا أن ندرك أن شعب إيران كان جديرا بالرفعة بسبب ما اجتمع له من كفاءة ومهارة وظرف وخفة روح[1] .

[30 لو جزّأنا علوم العربية إلى تفسير وحديث وإلهيات وفلسفة وطب ولغة وتاريخ وسير ، بل وإلى صرف اللغة العربية ونحوها ، لوجدنا أن الايرانيين هم كاتبو أفضل ما كتب في هذه الموضوعات . لقد قلّد العرب الايرانيين في معظم تشكيلاتهم الادارية ، حتى ليقول صاحب الفخري فيما يتعلق بجهاز الديوان (طبعة الوارث Ahlwardt ص ۳۰۱)[2]

(۱) تعليق المترجم : أنظر: چشم انداز تربيت در إيران پيش از اسلام، تهران ١٣١٥ ، سيرتمدن وتربيت درايران باستان، طهران ١٣١٦ش ، تأليف الدكتور أسد الله بيژن الأستاذ بجامعة طهران؛ تجليات روح إيران تأليف اقاى كاظم زاده إيرانشهر، طبع طهران مع مقدمة للدكتور رضا زاده شفق عام ١٣٢٠ ، سلسلة مقالات بالانجليزية حول الحضارة واللغة الايرانية القديمة ، للدكتور رضا زاده شفق الأستاذ بجامعة طهران ، نشر مجلة إيران وأمريكا، خطاب علي أصغر حكمت في المجمع اللغوي الايراني، حول إيران وموقفها من الثقافة العالمية ، عام ١٣٢٦هـ ؛ وخطاب اقاي دكتور عيسى صديق في الجمعية الايرانية بلندن ، حول العلاقات الثقافية بين إيران والغرب .

Persian Cultural Relations with the West. The Iran Society London 1947.

مختصري از طب إسلام بخصوص خدمات إيرانيان) ونفوذ آن برطب اروبا بقلم الدكتور محمود نجم ابادي ، تهران ١٣٢٤ ؛ تاريخ مختصر تعليم وتربيت ، طهران ١٣١٦ ؛ سيرفرهنگ در إيران تأليف الدكتور عيسى صديق الأستاذ بجامعة طهران ، طبع طهران ١٣٣٢ ؛ مؤلفي البرفسور پوپ حول صناعات إيران .

Arzhur Upham Pope, Survey of Persian Art.

محاضرات البرفسور انسميان حول نفوذ إيران في الحضارة الأوروبية ، ترجمة آقاي دكتور لطفي علي صورتگر الأستاذ بجامعة طهران .

The Iranian Influence on the Mediaeval Culture of Europe Tehran, 1944

(۲) يقول دوزي في كتابة (الاسلام) ص ١٥٦ . (Dozy, L'Islamisme) « كان الايرانيون أهم شعب طوّر الدين، فهُم الذين ساندوا الاسلام وأحكموا بنيانه وليس العرب ، ومن بينهم نشأت أهم الفرق الاسلامية .

« كان جند الإسلام هم أنفسهم المسلمون الذين حاربوا لأجل رفعة دينهم لا لغرض دنيوي أو نفع مادي . وكانت الشهامة تسود مجتمعهم ، فهم على استعداد دائم لتقديم جانب كبير نسبيا من ممتلكاتهم للإنفاق على وجوه البر والخير . وكانوا لا يبغون أجرا لقاء اعتناقهم الإسلام ومساندتهم لرسول الله (صلوات الله عليه وسلامه) غير بلوغ أعتاب الحق (تبارك وتعالى) . ولم يطلبوا من النبي عليه السلام ولا من أبي بكر (رضي الله عنه) راتبا (مخصصات مقررة) ، بل كانوا يتقاضون نصيبهم من غنائم الحرب ، وفقا لقانون الشرع . وعندما كانت الأموال تجلب من [304] بعض البلاد ، كانت تحمل إلى مسجد الرسول (صلوات الله عليه وسلامه) ، فيقسمها وفق ما يراه مناسبا . وهذا نفس ما كان يحدث في خلافة أبي بكر (رضي الله عنه) . ولكن في عام ١٥هـ (٦٣٦م) - في خلافة عمر رضي الله عنه - حين رأى الخليفة انتصارات المسلمين المتوالية واستيلائهم على خزائن ملوك إيران وعلى أحمال الذهب والفضّة ونفيس الجواهر والأردية الفاخرة ، رأى من المصلحة أن تقسم هذه الأموال بين المسلمين . . . وكان عليه أن يبحث عن الطريقة المثلى التي يقضي بها هذا الأمر .

وكان في المدينة آنذاك حاكم من حكام حدود إيران ، فلما أحسّ حيرة عمر قال له : يا أمير المؤمنين ، كان لملوك إيران جهاز يسمّونه الديوان ، وكان الدخل والمنصرف يدوّن ويثبت في هذا الديوان دون استثناء ، وكانت لموّظفيه مراتب ودرجات . . . تلافيا للخلل .

واهتم عمر بالأمر وسأله شرحا ووصفا للديوان ، فأجاب سؤله . واهتم عمر بما قال فأنشأ الديوان(١) .

وظلت اللغة الفارسية وظل الترقيم الفارسي يستعملان في إدارة شئون الخلافة المالية حتى زمن الحجاج بن يوسف (حوالي عام ٧٠٠م) . يقول البلاذري (ص٣٠٠-٣٠١) :

---

(١) تعليق المترجم : الفخري ، طبع مصر ١٩٣٨م .

دخل صالح الكاتب ـ إبن أحد أسرى سيستان ـ على زادان بن فرّخ الايراني رئيس مكتب حسابات إدارة السواد (كلده) ، وافتخر بكونه يستطيع كتابة الحساب كاملا باللغة العربية ، فلما أخبروا الحجاج بذلك أمره أن يفعل ، فدعا عليه مردانشاه بن زادان بقوله : «ها قد قطعت جذر اللغة الفارسية قطع الله نسلك في هذا العالم» . وأُعطي صالح مائة ألف درهم ليقول إنه لا يستطيع التعهّد بذلك . . لكنه لم يقبل .

[309] وبذل عبد الملك جهدا كبيرا ـ بمعاونة عامله القاسي الجبار . . الحجاج ـ لينهي النفوذ الأجنبي (الايراني أو البيزنطي) بعد أن قوي واستحكم ، ويخرج غير العرب من دوائر الدولة . . وقد وُفّق في ذلك إلى حد ما . . . ولكن بصفة مؤقتة[1] .

ولم يكن الدين الزردشتي قد اختفى آنذاك من إيران . . وإن يكن قد فقد منزلته السابقة ولم يعد الدين الرسمي للبلاد . وقد فرّت جماعات الايرانيين تباعا من وجه الهجوم العربي إلى جزر الخليج أول الأمر ثم إلى بلاد الهند فاستوطنوها ، وما زال الفرس يسكنون بمباي وسورت[2] ونواحيها ، وهم يعيرون في حياتهم بصورة مرضية .

وكان المهاجرون هم الأقلية ، وبقي في إيران أغلب الزردشتيين . . . ممن كانوا يفضّلون زردشت على محمد بن عبد الله والأفستا على القرآن . وكان الأدب البهلوي ـ كما رأينا ـ يسير جنبا إلى جنب مع الأدب العربي الجديد الذي أوجده من أسلموا حديثا من بين الايرانيين .

وحتى هذا الوقت كانت أهمية موابدة المجوس ما زالت قائمة ، وكانوا على اتصال دائم بموظفي الدولة ولهم نفوذهم الكبير بين الزردشتيين الذين يخضعون

---

(١) تاريخ فرهنگ شرق . تأليف فن كرمر ، جـ ١ ص ١٦٦ تا ١٨٣ .
A. Von Krmer, Culturgeschichte d'Orients.

(٢) Surat.

لإشرافهم خضوعا كبيرا[١] . حتى أنه وقت أن وَضع قانون يقضي بهدم بيوت النار ، كان من النادر أن يحاول شخص ذلك ، وكان من يلحقون الضرر بمعابد النار - بدافع الاستهتار أو التعصب الديني - يتعرّضون أحيانا للعقاب الشديد[٢] . . من جانب السلطات الإسلامية . وبعد ثلاثة قرون تقريبا من [306] استيلاء العرب على إيران كان في كل ولاية من ولايات إيران معبد للنار . . أما الآن فإن مجمل عدد عبدة النار - طبقا لإحصائية توم شيندلر الدقيقة - هو ٨,٥٠٠ فقط[٣] .

يقول خانيكوف[٤] . في نهاية القرن الثامن عشر ، حين كان السيد محمد خان مؤسس السلسلة القاجارية يحاصر كرمان ، كان يسكن هذا الإقليم وحده ١٢,٠٠٠ أسرة زردشتية . لهذا يجب أن يعتبر النقص السريع في عدد الزردشتية من الظواهر العجيبة . وإن بدا في الأونة الأخيرة أنهم اكتشفوا موقعا أفضل . . . مما يجعلنا نطمئن إلى الأرقام التي أعطاها المختصون في الفترة الأخيرة ونقلها هوتوم شيندلر[٥] .

يقول أرنولد[٦] : إزاء هذه الحقائق ، لا يمكن أن يعزى انقراض الدين الزردشتي إلى الحركات العنيفة التي قام بها الفاتحون العرب لتغيير دين الإيرانيين . وربما كان عدد من قبلوا الإسلام من الإيرانيين - في أوائل حكم العرب كبيرا جدا ، بسبب ما ذكرناه من أسباب ، لكن بقاء الدين الزردشتي وإقرار الوثائق بأن

---

(١) أنظر كتاب فن كرمر ، جـ١ ص١٨٣ .

(٢) طبقا لما ورد في كتاب أرنولد حول تعاليم الاسلام ، ص ١٧٩ .

Arnold, Preaching of Islam.

(٣) الفرس في إيران ، المجلة الألمانية المختصة بمسائل الشرق عام ١٨٨٦م جـ٣٦ ص ٥٤ - ٨٨ .

Houtum- Shindler, Die Parsen in Persien. Z.D.M.G.

وهو يقول إن عدد معابد النار حاليا ٢٣ معبدا .

(٤) خانيكوف : مذكرة حول القسم الجنوبي من آسيا الوسطى ، ص ١٩٣ .

Khanikof, Mémoire Sur La Partie Méridionale de l'Asie Centrale

(٥) Houtum- Schindler

(٦) كتاب أرنولد ، ص ١٨٠ - ١٨١ .

الزردشتيين كانوا خلال القرون المتعاقبة يسلمون بين الحين والحين . . . يدلّ على احتمال إسلامهم بكامل رغبتهم ورضاهم . ففي نهاية القرن الثامن الميلادي تقريبا ترك سامان ـ أحد عظماء بلخ ـ دين زردشت ، واعتنق الدين الإسلامي بسبب ما لقيه على يد أسد بن عبد الله ـ والي خراسان ـ من حماية ومؤازرة ، وسمى ابنه أسدا اعترافا منه بالجميل .

[307] وترجع تسمية الأسرة التي حكمت من ٨٧٤ ـ ٩٩٩م بالسامانية نسبة إلى هذا الشخص نفسه . . . وكان قد أسلم حديثا .

وفي بداية القرن التاسع الميلادي تقريبا أسلم كريم بن شهريار فكان أول ملك من ملوك السلسلة القابوسية يدخل الإسلام . وفي عام ٨٧٣م أسلم عدد كبير من عبدة النار في إقليم الديلم بسبب ما كان ينعم به ناصر الحق أبو محمد هناك من نفوذ وقوة .

وفي القرن التالي (عام ٩١٢م تقريبا) دعا حسن بن علي أهالي طبرستان والديلم إلى الدخول في الإسلام ، وكان فريق منهم يعبد الأصنام والآخر مجوسياً . وكان حسن بن علي هذا من السلسلة العلوية المقيمة في الساحل الجنوبي لبحر الخزر . ويقال إنه كان عالما ذا فراسة ، وله دراية كبيرة بالعقائد المذهبية للفرق المختلفة ، وقد لبّى الكثيرون دعوته وبقي الباقون على دياناتهم .

وفي عام ٣٩٤هـ (١٠٠٣ ـ ١٠٠٤م) ، أسلم شاعر شهير اسمه أبو الحسن مهيار ، من أهالي الديلم كان يعبد النار قبل أن يهديه للإسلام شاعرٌ أكثر شهرة هو شريف الرضى ، الذي كان بمثابة أستاذ له في فن الشعر[١] . ورغم قلّة الأخبار

---

(١) غيرّ مهيار دينه شأنه شأن العالم الشهير ابن المقفع . . . وكان مثله مسلما سيئا . وكان الخليفة المهدي يقول في شأن هذا الرجل : لم أر كتابا قط في الزندقة لا يرتد أصله إلى ابن المقفع (خاصة الكتب التي تنقل الأفكار المانوية) . وحين سمع أبو القاسم بن برهان أن (مهيار) قد غيرّ دينه قال : اعتناقك الإسلام لا يعدو مجرد ترك لزاوية من زوايا جهنم إلى زاوية أخرى .

أنظر : ابن خلكان ، ترجمة De Slane ، جـ ١ ص ٤٣٢ ، جـ ٣ ص ٥١٧ .

عمّن غيّروا دينهم ، فقد أثبتت تلك الأخبار حقيقة تتصل بتلك المدة التي تبلغ ثلاثة قرون ونصف . . . وهي أن الإيرانيين قد استفادوا من تساهل الفاتحين وتسامحهم . وهذا الأمر في حدّ ذاته يدل على أنهم قد غيّروا دينهم دون ضغط ، أو أنهم على الأقل قد غيّروه تدريجيا .

وجاءت فترة كانت فيها حياتا إيران وبلاد العرب ممتزجتين علميا ومعنوياً وسياسيا إلى حد ما ، بل كانتا بمثابة توأمين ، مما يضطرنا أن نتحدّث عنهما معا في الفصول القادمة .

هذا وسوف نثير في تلك الفصول الموضوعات المرتبطة بنشأة الإسلام وتطوّره وارتقائه ، ونتعرض لمبادىء الفرق والمذاهب الرئيسية في الإسلام . . في زمن الخلفاء الأمويين والعباسيين ، ونبحث في مسائل تتصل ببلاد العرب أكثر من اتّصالها بإيران .

الفصل السادس

العصر الأموي

٦٦١ - ٧٤٩م



[308 بدأ عهد الخلافة يوم أن خلف أبو بكر رسول الله صاحب الرسالة (يونيو عام ٦٣٢م) ، وانتهى عهدها حين اجتاح هولاكوخان بغداد (عام ١٣٥٨م) على رأس قبائل المغول ، وسلب ونهب وقتل المستعصم بالله آخر خلفاء الإسلام .

ويقول سيرادوارد كريزي [1] أن لقب الخلافة كان يطلق في القرون الثلاثة التالية على فتح بغداد ، وبصفة دائمة ـ على ثمانية عشر شخصا ينتمون إلى الأسرة العباسيّة . وكان هؤلاء الخلفاء يعيشيون في مصر متمتعين بإجلال ونفوذ إسميين . فالحقّ أن الخلفاء العباسيين ـ شأنهم شأن أعقاب المغول العظماء في الهند الإنجليزية ـ كانوا حتى عام ١٥١٧م يعيشون في مصر في عهد المماليك ، ملقّبين بالخلفاء ، دون أن تكون لهم أية قوة فعلية أو نفوذ واقعي .

وفي عام ١٥١٧م أسقط السلطان سليم الأول العثماني سلسلة المماليك وأبطل عمل الخليفة ، واختص هو بلقب الخلافة واستحوز على علاماتها الظاهرية . . . فامتلك اللواء المقدس وسيف الرسول وعباءته . ومنذ هذا التاريخ والسلاطين العثمانيون يدّعون لأنفسهم مقام خلافة رسول الله وإمارة المؤمنين وإمامة الإسلام الجليلة .

ومهما كانت المزايا التي عادت عليهم من تلك الألقاب السامية ، فإن الواقع [309 التاريخي يؤكد أن الخلافة ـ بعد مرور ٦٢٦ عاما من عمرها ـ لم يعد لها (أي في عام ١٢٤٨م)[2] وجود خارجي .

---

(١) Sir. Edward Creasy, History of the Ottoman Turks, London 1877.

تاريخ الأتراك العثمانيين ، لندن ١٨٧٧ ، ص١٥٠ .

(٢) قارن هذا بتصريحات سير ويليم موير العادلة Sir William Muir صفحة ٥٩٤ من كتابه حول الخلافة وانحطاطها وسقوطها .

وتنقسم هذه الفترة إلى ثلاثة أقسام مميزة غير متساوية ، تسير على النحو التالي :

١) عهد الخلفاء الراشدين ، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي (٦٣٢ - ٦٦١م) ، ويمكننا أن نسميه عهد حكم رجال الدين الإسلامي .

٢) عهد الخلفاء الأمويين (أو السلاطين الأمويين ، لأن مؤرخي الإسلام المحدثين ينكرون عليهم في الغالب هذا المقام الروحي) . وعدد خلفاء بني أمية أربعة عشر خليفة ، امتد حكمهم من ٦٦١ إلى ٧٤٩م . ويمكن اعتبار هذه الفترة فترة الفتح العربي واندحار الوثنية .

٣) عهد الخلفاء العباسيين أو عهد بني العباس ، وعددهم ٣٧ شخصا ، حكموا عام ٧٤٩م ، فقد أعلنت خلافة أبي العباس عبد الله (الملقّب بالسفاح) في الكوفة في الثلاثين من أكتوبر عام ٧٤٩م . وقد استمرت خلافة بني العباس إلى أن تعرضت بغداد للنهب والسلب ، وقتل المستعصم على يد هولاكو وجنوده من المغول عام ١٢٥٨م . ويعتبر هذا العهد عهد رفعة إيران وسيادتها ، ونشر لواء الفلسفة الإسلامية ، وحبّ العالم للإسلام .

[310] وقبل حلول النكبة بفترة كانت قوة الخلافة آخذة في الاضمحلال مؤذنة بالزوال ، ولم يبق من عصر هارون الرشيد أكثر من شبح وخيال ، حتى ليقول تنيسون[1] :

إن العصر الذهبي وبسطة القوة والنفوذ وكمال الخلافة ورونقها في عهد هارون الرشيد .

ورغم أن امبراطورية الخلفاء كانت مقسمة بين الملوك والحكام . . . فإن وفاء هؤلاء وخضوعهم كان إسميا ، وكانت مظاهر طاعتهم لا تعدو حدود الكلام . ومع ذلك نجد أن بغداد كانت إلى يوم الحادث المشئوم عاصمة الإسلام

Lord Alfred Tennyson. (١)

ومركز العلم والمعرفة . وقد حفظت اللغة العربية لهذه المدينة مكانتها ، إذ كانت لغة السياسة والعلم والأدب .

وفي السنوات التالية لفتنة المغول ، قلّ أن كانت تشاهد تلك الروح العلمية التقدمّية التي تميَّز بها الكتّاب المسلمون قبل حملة المغول . . . تلك الروح التي تحظى بمدحنا وثنائنا . . . بل إنها كانت آخذة في التناقص بسرعة ، ولهذا فإن الأدب الفارسي في معظمه ـ رغم جماله ولطفه ـ لا يمكن مقارنته من حيث القيمة والأهمية ـ بالآداب العربية التي كتبت باللغة العربية في أواخر الخلافة وبعد سقوطها . . (وإن كان القسم الرئيسي فيها من بنات أفكار غير العرب . . خاصة الإيرانيين) .

وكان هجوم المغول نكبة سياسية وعلمية ومعنوية . . . فالمصائب التي واجهتها إيران من النواحي العلمية والمعنوية لم تكن تقل بحال من الأحوال عن تلك التي واجهتها من الناحية السياسية . وهناك فرق ملحوظ بين كتابات الإيرانين وأفكارهم قبل حملة المغول وبعدها كماً وكيفاً .

وكتابة تاريخ الخلفاء بالتفصيل أمر يتعارض مع خطة كتابنا هذا ، خاصة وأن الدكتور جوستاف وايل[1] (١٨٤٦ ـ ١٨٦٢م) قد كتب في هذا الموضوع باللغة الألمانية ، كما كتب فيه سير ويليم موير[2] باللغة الإنجليزية ، وكانوا موفقين فيما كتبا .

[311] لكنّ هذه الآثار القيّمة لم تدخل ضمن مصادر بحثي الأوروبية ، ولم أستفد منها ـ كمصادر أساسية ـ في رسم الخطوط البارزة لميزات العصور التي

---

(١) Dr. Gustav Weil

(٢) تاريخ الخلافة المبكّرة (١٨٨٣م) ، الخلافة : صعودها وانحطاطها وسقوطها (١٨٩١ و١٨٩٢م)؛ حياة محمد ﷺ ؛ محمد ﷺ والإسلام ، وغير ذلك .

Sir. William Muir, Annals of the early caliphate, the caliphate, its Rise, Decline and fall (1891 and 1892) the life of Mahomet, Mahomet and Islam, itc...

ذكرناها وتجلية سماتها الإيرانية المرتبطة بالدراسات المذهبية والفلسفية واللغوية والسياسية والعلمية . لهذا فإن أهم الكتب الأوروبية وأجدرها بالذكر هي مؤلفات فن كرمر ودوزي (ترجمة فيكتور شوفن إلى الفرنسية) وجلد زيهر وفون فلوتن وآرنولد وكوسن دو پرسوال واشمولدرز ودوجات وغيرهم[1] .

[312] والكتابان اللذان يتناولان تاريخ إيران ويعرفها الإنجليز أكثر من غيرها هما كتاب سيرجان ملكلم وكتاب كليمنتز ماركهم[2] وقد بحثت فيها بسطحية وعجلة لمعرفة شيء عن فترة التحوّل الواقعة بين الفتح العربي في القرن السابع الميلادي وبين تشكيل أول سلسلة مستقلة أو شبه مستقلة إيرانية بعد الإسلام . . . في القرن التاسع الميلادي .

---

(١) آثار فن كرومر الخاصة بتاريخ العقائد والحضارة الإسلامية .

A. Von Kremer, Geschichte der herrschenden Ideen des Islam (1868): Culturgeschichtliche streifzuge auf dem Gebiete des Islams (1973).

فن كرمر ، تاريخ حضارة الشرق في عهد الخلفاء ، في مجلدين (١٨٧٥ - ١٨٧٧م) .

Culturgeschichte des Orients unter dem Chalifan: 1875- 1877.

الإسلام ، تأليف دوزي (١٨٦٣م) :

Duzy's Het Islam (1863).

(٢) Clements Markham

ترجمته الفرنسية بقلم ڤيكتور شوڤن ، بعنوان :

Victor Chaubin, Essai su l'Histoire de L'Islamisme (1879)

تاريخ مسلمي اسبانيا ، لنفس المؤلف :

Histoire des Musulmans d'Espagne

دراسات إسلامية ، في جزءين (١٨٨٩ - ١٨٩٠م) تأليف جلدزيهر .

Godziher: Muhammdanische Studien (2,015, 1889, 1890)

دراسات حول سيطرة العرب ، تأليف ڤون ڤلوتن :

Van Vloten, Techerches sur la Domination Arabe.
Le Chutisme et Les Croyances Messianiques sours, Les Khalifat des Omayades (1894);
Idem, Opkomst der Abbasiden, T.W. Arnold.
Preaching of Islam (1894).

انتشار الإسلام ، تأليف أرنولد ، ومؤلفات أخرى مشابهة بقلم كوسن دوپرسڤال Caussin de Perceval واشمولدرز Schmolders ودوجات Dugat وغيرهم .

وهناك رسالات أو مقالات أخرى متعدّدة أمثال رسالة بروناو Brunnow التي تدور حول الخوارج ، ـ

وهي فترة شبيهة بتلك التي تفصل بين سقوط الأسرة الهخامنشية وظهور السلسلة الساسانية . . (٣٣٠ق . م - ٢٢٦م) . فهي أيضا فترة انقطاع تام وعزلة كاملة عن الحياة القومية . . بينما هي في الحقيقة تستحق الاهتمام أكثر من غيرها لأكثر من سبب ، فهي من الجهتين العلميّة والمعنويّة أكثر الفترات إخصابا في تاريخ إيران . . لهذا سوف تكون هذه الفترة موضوع بحثنا هنا بصورة أقرب إلى التكامل ، وسوف يدور حديثنا بصفة خاصة حول الأقسام المرتبطة بأصل الفرق الأولى ونشأتها ونقصد بذلك المذاهب المختلفة التي انعزلت في الإسلام .

وإذا أردنا الدقة فقد بدأت الخلافة الأموية مع استشهاد علي بن أبي طالب وبلوغ معاوية كرسي الخلافة عام ٦٦١م . . لكن المحاولات التي أدت إلى استقرار الخلافة لبني أمية ترجع إلى خلافة عثمان بن عفان (٦٤٤ - ٦٥٦م) الخليفة الثالث من بين الخلفاء الراشدين .

ومن أعظم ما نتج عن رسالة الرسول عليه السلام إيجاد شعور قومي مشترك بين العرب ، بل وإيجاد شعور ديني مشترك بين كافة المسلمين ، حل محل قصر النظر والتعصُّب القبلي العربي .

[313] وكان التقيّد بمثل هذه التعاليم التي تهدف إلى بلوغ الكمال أمرا صعبا في بادىء الأمر ، لتعارضها التام مع الغرائز القوميّة المتأصلة ذات الجذور العميقة ، حتى لقد كان تحيّز الرسول لمكّة - مكان ولادته - ولقريش قبيلته[1] في أكثر من موقف سببا في عدم ارتياح أتباعه في المدينة (الأنصار) ، وسببا في تهامسهم فيما بينهم . وكلنا يعرف إلى أي مدى ساهم الأنصار في إعلاء الشريعة الإسلامية ، ومع ذلك فإن المساواة التي يطالب بها الإسلام جميع المسلمين قد ظلت سائدة إلى حد ما . . إلى أن مات عمر عام ٦٤٤م . ومن آيات القرآن العديدة ومن الأحاديث الصحيحة

ورسالة جلدزيهر التي تدور حول الظاهرين ورسالة دوخويه الخاصة بالقرامطة ، ورسالة شتاينر Steiner حول المعتزلة ، ورسالة اشبيتا Spitta حول الطريقة الأشعرية ، ورسالات أخرى كثيرة .

(١) تعليق المترجم : يرى بديع الزمان فروزانفر أن المقصود هو تقسيم الغنائم في جعرانه ، فقد أعطى معظمها لأكابر قريش مثل أبي سفيان وأولاده ، وقد اشتكى الأنصار من هذا الموضوع .

يتضح أن مبدأ المساواة هو غاية شريعة الإسلام .

من هذه الآيات :

إن أكرمكم عند الله أتقاكم (سورة ٤٩ ـ الحجرات ـ آية ١٣) ، إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم (سورة ٤٩ ـ الحجرات ـ الآية ١٠) .

وفي الحديث : إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء[1] ، ليس لعربي على عجمي فضل إلّا بالتقوى[2] ، أنتم بنو آدم وآدم من تراب[3] . [314]

صحيح أن من كانوا قد اعتنقوا الاسلام إلى ذلك الوقت من غير العرب أو من البربر . . . كانوا قلة . . . وهذه مسألة محيرة ، لأن الرسول كان يرى في منامه أحيانا ـ وهو صادق الرؤيا تماما ـ أن دينه يخرج من شبه الجزيرة العربية وينتشر إلى حد كبير فيما وراء حدودها . غير أن هذه المسألة تكشف بجلاء ـ على الأقل ـ عن أن المساواة قد فرضت على المسلمين فرضا ، وأن شرف الإنسان في الإسلام يقاس بإيمانه لا بأصله ونسبه .

ولما تولى عثمان الخلافة عادت تقاليد العصبيات الأسرية والقبلية والعشائرية إلى الظهور ، وبات خطب الفتن والشقاق على الأبواب بسبب الحقد والحسد : فقد كانت مكة تحسد المدينة ، والأنصار يحسدون المهاجرين[4] ، والتنافس محتدم

(١) تعليق المترجم : نقلا عن جـ٢ ، سنن أبي داود ، ص ٣٣٢ ، طبع مصر عام١٣٤٨هـ . . إن الله عز وجل قد أذهب عنكم حميّة الجاهلية وفخرها بالآباء . . . مؤمن تقي وفاجر شقي ، أنتم بنو آدم وآدم من تراب . ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم ، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن . .

(٢) تعليق المترجم : نقلا عن المجلد الثاني للبيان والتبيين للجاحظ طبع مصر ١٩٢٦م ص٣٩ : أيها الناس ربكم واحد وإن أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم . وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى (من خطبة حجة الوداع) .

(٣) فُن كرومر ، ص ٢٢ Von Kremer, Streifzüge

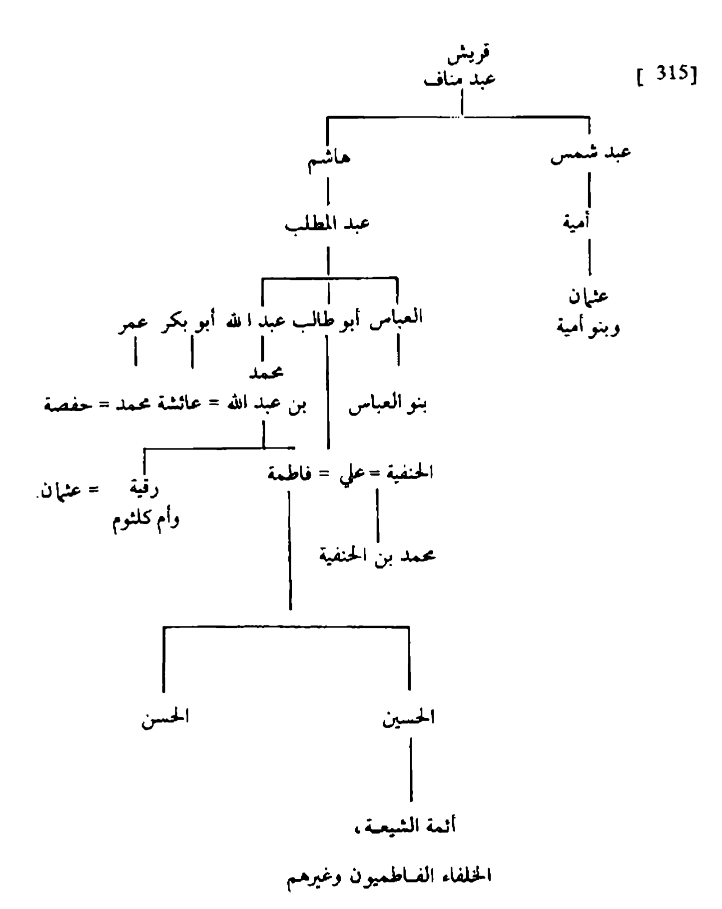
(٤) تعليق المترجم : لأن الخلفاء كانوا يختارون من بين المهاجرين .

بين بني هاشم وبني أمية ، وهما طائفتان من طوائف قريش .

وكان الرسول من قريش ، لكن العرب الذين لا ينتمون إليها كانوا لا يرتضون سيادتها وتفوقها ، ولم يكن باستطاعتهم اخفاء سخطهم وحقدهم عليها . ونتيجة لضعف الخليفة الجديد ، وانحيازه لبني أمية وأقربائهم ، وتفضيله مصالحهم على مصالح أبناء طائفته هو - رغم ما يشوب علاقة بني أمية بالإسلام من شكوك - بلغ الخطر المذكور ذروته . ولكي يتضح الموضوع بصورة أكبر ننقل هنا عن كتاب استانلي لين بول[1] جدولين يوضحان سلسلة نسب الرسول :

---

(1) Stanley Lane- Poole, Mohammedan Dynasties, 1894.


قريش
عبد مناف
هاشم
عبد شمس
عبد المطلب
أمية
عثمان
وبنو أمية
العباس
أبو طالب
عبد الله
أبو بكر
عمر
محمد
بنو العباس
بن عبد الله = عائشة محمد = حفصة
الحنفية = علي = فاطمة
رقية = عثمان.
وأم كلثوم
محمد بن الحنفية
الحسين
الحسن
أئمة الشيعة،
الخلفاء الفاطميون وغيرهم

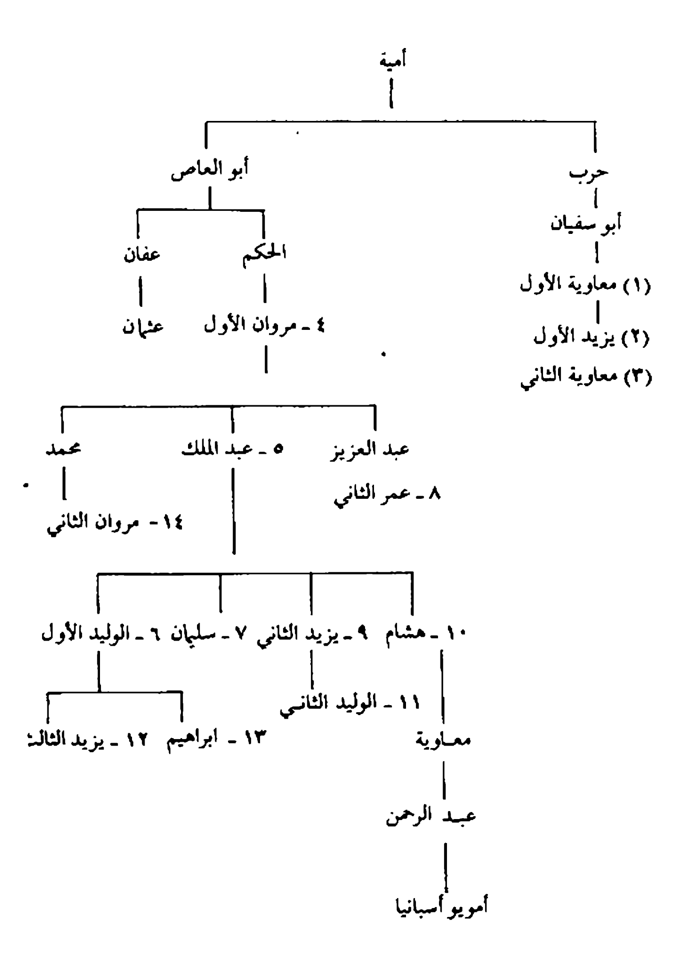
كما يلاحظ من الجدول السابق ، فإن اثنين من أول الخلفاء الراشدين (أبي بكر وعمر) كانا والدين لزوجتين من زوجات الرسول ، كما كان الإثنان التاليان هما (عثمان وعلي) صهرين للرسول .

وكانت بين الرسول وعلي وحده صلة قرابة وثيقة ، فقد كان ابن عمه من والدين شقيقين . وقد نال مكانة رفيعة بمبايعته له للوهلة الأولى وتضحيته من أجله .

[31 وكما نرى فإن لفظ هاشمي أو بني هاشم تطلق على أئمة الهدى من ذريّة علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله ، كما تطلق على الخلفاء العباسيين ولا تطلق على بني أمية[1] (وسوف تبدو أهمية هذه المسألة في الفصل التالي) .

---

(١) تعليق المترجم : ليكن معلوماً أن هذا الكتاب قد كتب للأجانب ، وبعض ما يرد فيه من مسائل يعتبر من الأوليات ، وما يبدو لنا واضحا يبدو لهؤلاء الأجانب غامضا . . . وإلا فإنه من الأمور المسلّم بها أن لفظ هاشمي لا يطلق قط على أسرة بني أمية باعتبارها من فرع آخر من أبناء عبد مناف .



أمية
حرب
أبو العاص
أبو سفيان
الحكم
عفان
(١) معاوية الأول
٤ ـ مروان الأول
عثمان
(٢) يزيد الأول
(٣) معاوية الثاني
عبد العزيز
٥ ـ عبد الملك
محمد
٨ ـ عمر الثاني
١٤ - مروان الثاني
١٠ ـ هشام
٩ ـ يزيد الثاني
٧ ـ سليمان
٦ ـ الوليد الأول
١١ ـ الوليد الثاني
معاوية
١٣ ـ ابراهيم
١٢ ـ يزيد الثالث
عبد الرحمن
أمويو أسبانيا

317 [هذا الجدول (الثاني) يبيّن انتساب بني أمية إلى بعضهم البعض وإلى عثمان . وكان عثمان منذ بدء خلافته يعمل لصالح أحبّائه وأقاربه ويميل إلى التفرقة وهذا ما جعله ينحرف عن طريق العدل والإنصاف ، وهما الغاية المنشودة في الإسلام والكمال المطلوب في هذا الدين .

كان من الضروري أن يلقى أبو لؤلؤ العبد الايراني جزاءه ، وأن يُقتل لقاء قتله عمر بن الخطاب ، فهذا قصاص عادل . . . . لكن عبد الله بن عمر لم يكتف بقتله وإنما قتل هرمزان أحد نجباء إيران . . . لمجرد الشك في أنه قد اشترك في قتل عمر . . . ولم يكن هناك أي دليل على اشتراكه . وهرمزان هو أحد الأسرى الذين أسلموا . وحكم عَلِيٌّ ـ الغيور على الشريعة الإسلامية ـ بقتل عبد الله لأنه قتل مؤمنا بغير حق ، لكن عثمان لم يقبل حكمه ، ودفع الدية من ماله الخاص[١] . وحين عاب زياد بن لبيد (أحد الأنصار) على عثمان تساهله في قطعة شعرية[٢] ، أسكت الخليفة هذا الشاعر الجسور وأبعده .

وهكذا فُهم منذ اللحظة الأولى لتوليته الخلافة أنه مستعد للتأثر بالملاحظات الشخصية ، وتأكدت هذه المسألة بمرور الوقت .

318 [وكان العرب بصفة عامة يضمرون الحقد في قلوبهم لقبيلة قريش بسبب سيادتها ورياستها . وكان الفرع الأموي القرشي يتشدد في معاداة الرسول قدر الإمكان عن عمد ، فلما طال الأمد ولم يعد هذا الفرع يستطيع المقاومة عمد إلى البيعة التي لا تقوم على حب أو رضا .

وكان عثمان يحابي هذا الفرع علنا ويستبعد الهاشميين تماما ، مما أوجد الفرقة

---

(١) إرجع إلى كتاب الخلافة تأليف موير Muir صفحة ٢٠٥ .

(٢) تعليق المترجم : هذه قطعة زياد بن لبيد :

أبا عمرو عبيد الله رهن فلا تشكك بقتل الهرمزان
فإنك إن غفرت الجرم عنه وأسباب الخطا فرسا رهان
أتعفو إذ عفوت بغير حق فما لك . بالذي تحكي يدان

وقد وردت هذه الأشعار في الجزء الخامس من تاريخ الطبري ، طبع دوخويه ، ص ٢٧٩٦ .

بين القرشيين أنفسهم . وقد اختار أفرادا من ألد أعداء الرسول ـ أمثال أخيه في الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، وهو الشخص الذي أراد الرسول قتله بعد فتح مكة وتوسّط له عثمان فعفا عنه ـ وأسند إليهم أعلى المناصب القيادية ، وأخذ يدفع لهم مرتبات ضخمة فجعل منهم أصحاب ضياع وعقار .

وبلغ منصب الولاية واحتلّ مراكز القوى رجالٌ عرفوا بالتهاون في تأدية الفرائض ، أمثال الوليد بن عقبة الذي قضي الرسول على أبيه بعد معركة بدر ، وبشّره بالعذاب في نار جهنم ، وسعيد بن العاص الذي كان أبوه يحارب إلى جانب الكفار وكان مصرعه في نفس المعركة . لقد دخل الوليد ـ والي الكوفة ـ المسجد مخمورا ثملا ، فارتكب سهوا في صلاته ، ثم التفت إلى الحاضرين قائلا : إذا لم يكن هذا كافيا قرأت لكم ثانية(1) .

وكان عزله وتنفيذ عقوبة الشرع فيه بإصرار من علي، وعلي غير رغبة من عثمان، وآلت ولاية البصرة إلى عبد الله بن عامر « ابن عم الخليفة الشاب » . فلما سمع أبو موسى ـ والي البصرة السابق ـ هذا الخبر قال : « يأتيكم غلام خراج ولاج كريم الجدات والخالات والعمّات يجمع له الجندان»(2) .

وكان سعيد بن العاص ـ والي الكوفة الجديد ـ سيئا كسلفه .

[319] وتناقل أهالي الكوفة الحديث فيما بينهم ، وقالوا إن حاكما من قريش قد حلّ

---

(1) تعليق المترجم : حقيقة الأمر أنه صلى الصبح أربع ركعات بدلاً من اثنتين ، ثم قال لمن معه : إذا كانت الركعات الأربعة قليلة صليت بكم أكثر .

(2) كتاب الخلافة لموير Muir ، ص ٢١٧ .

تعليق المترجم : لا شكّ أن المؤلف لم يطّلع على النص العربي وأن كتاب الخلافة لم يكن في يده ليعرف المصدر الذي لجأ إليه . وقد نقل النص عن الطبري كما لاحظ بديع الزمان فروزانفر. ويبدو أن المؤلف قد قرأ العبارة (خراج ولاج) دون تشديد الكلمة الثانية . والكلمتان في منتهى الأرب في لغات العرب تردان بمعنى الرجل الماهر الواسع الحيلة. وقد ترجم المؤلف بقية العبارة على النحو التالي : «يأتي الآن موظف لتوصيل الضرائب يكون على هواكم، له عم وخالة وأبناء عم كثيرون، فيجعل سيل النهابين ينهال عليكم». بينما المقصود أنه شاب ذكي واسع الحيلة من اب وام عظيمين، يسند إليه أمر الجندين (إمارة الكوفة والبصرة) .

مكان اخر من نفس القبيلة وليس احدهما بافضل من الاخر ، فكأنما خرجنا من المقلاة ليلقى بنا في النار .

ومن الأسباب الأخرى التي زادت الناس سخطا أنه تسبب في طرد العديد من أصحاب الرسول القدامى ممن اشتهروا بالزهد والورع والتقوى . وقد تضايق ابن مسعود كثيرا ـ وهو أحد كبار علماء نص القرآن ـ لتشدّد عثمان وإصراره في عناد[1] على احداث تغييرات في القرآن الكريم ، خاصة وأنه قام باعدام كل النسخ التي كانت ـ وفق ظنه ـ غير مجازة . وقد كان جزاء أبي ذر النفي من البلاد وهو المحب للمساواة بين كل المؤمنين . . لأنه كان لا يجيز انغماس الخليفة في النعم ، ويرى أنه بذلك يستوجب الذم والتوبيخ والعقاب . وقد مات أبو ذر أثناء نفيه[2] .

[320] وقد زادت البدع من نفور الناس واستيائهم ، فقد اعتبروها ناجمة عن تساهل الخليفة ، وهاجت مشاعرهم ، وانتهى الأمر بقتله وهو الطاعن في السنّ على يد فريق ساخط هاجم منزله في ١٧ يونيو ٦٥٦م بالمدينة المقدّسة وأراق دمه . وحاولت «نائلة» ـ زوجة الخليفة الوفية ـ أن تمنع ضربة سيف كان أحد القتلة يوجهها إليه . . فقطعت بعض أصابعها . ولكي يثير معاوية غضب أهالي الشام ضد القتلة أحضر أصابعها المقطوعة وقميص الخليفة الشيخ الملطّخ بالدم ـ فيما بعد ـ إلى مسجد . . . دمشق[3] .

وبموت عثمان زالت صورة الاتحاد الظاهرية إلى الأبد ، وكانت موجودة في الإسلام حتى هذا التاريخ ، ونشبت الحروب واستلّ المسلمون سيوفهم لقتل بعضهم البعض لأول مرة .

واختير علي للخلافة آخر الأمر ، وكان الكثيرون يعتقدون في أحقيته لهذا المنصب ، ويرون أنه لم ينل حقّه في وقته ، وأنه كان من المفروض أن يعترف على

(١) تعليق المترجم : يقول فروزا نفر: الحقّ أن عثمان كان لا يقرّ قراءة ابن مسعود .

(٢) لقراءة الشرح الكامل لهذه المعاملة ، أنظر : مروج الذهب للمسعودي ، طبع باربيه دومينار ، المجلد الرابع (الجزء الثاني) ، الصفحات ٢٦٨ ـ ٢٧٤ .

(٣) أنظر : الفخري ، طبع الوارث ، ص ١١٠ .

الفور بصدق دعواه حين قال إن هذا المقام السامي من حقه هو .

وثار طلحة والزبير على الخليفة الجديد بتحريض من عائشة بنت أبي بكر وزوجة الرسول ، ففقدا حياتهما في موقعة الجمل نتيجة تطاولها ووقاحتهما . [321] وهلك في هذه المعركة (التي وقعت في ديسمبر عام ٦٥٦م) عشرة آلاف مسلم . وقد حاول علي بن أبي طالب جاهداً منع هذه المذبحة ، لكنّه كان كلما أوشك أن يعقد صلحا . . . سارع قتلة عثمان وكانوا يكوّنون جزءا من جيشه - إلى إشعال نار الحرب ، خشية أن يؤدي حلول السلام إلى معاقبتهم جزاء ما فعلوا .

وكان معاوية - وهو من قوم عثمان - يحكم الشام آنذاك ، وقد بلغ نفوذ بني أمية على يديه في هذه البلاد الأوج . وكانت الشواهد تنذر بقرب حدوث فتنة من جانبه ، فنصح البعض علياً . توخياً للمصلحة- ألاّ يتدخل في شئون هذا الحاكم القوي المكّار ، لكن عليا لم يعر الناصحين سمعا ، وأرسل إليه يستدعيه ، فرفض الحضور ، واتّهم عليا صراحة بأنه قد اشترك سرا في قتل عثمان . وكان الوليد بن عقبة (الذي تعرض للعقاب على يد علي) قد صرّح بذلك الاتهام من قبل ، وأدرجه في ثنايا عدة أبيات[1] وجّهها لبني هاشم بوجه عام . . وهذا بيت المقطع فيها :

غدرتم به كيما تكونوا مكانه   كما غدرت يوما بكسرى مرازبة

ولم يكتف معاوية كمنتقم لعثمان بعصيان أمر علي ، بل إنه لم يعترف بخلافته وادّعى هذه المكانة لنفسه . وهبّ عمرو بن العاص الذكي الداهية إلى مساندة معاوية في ادّعائه مستغلا مهارته وحنكته ، فوعده معاوية بحكم مصر لقاء خدماته .

[322] وفشلت المفاوضات ، فأعلن عليٌ الحرب على معاوية وأهل الشام . وتحرّك

(١) مروج الذهب للمسعودي ، جـ ٤ ص ٢٨٦ ، طبع باربيه دومينار .

تعليق المترجم : نقلا عن مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تصنيف العلامة الرحالة أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي طبع بغداد جـ٢ ص٢٣٥ .

من المدينة إلى الكوفة ، وسارع إلى قتاله وكان تعداد جيشه خمسين ألفا . والتقى الجيشان في صفين بين حلب وحمص في سوريا .وانقضت عدة أسابيع في كر وفر ومفاوضات عقيمة إلى أن كانت الأيام الأخيرة من شهر يوليو عام ٦٥٧م ، حيث دارت معركة قوية منظمة ، أسفرت في اليوم الثالث عن علامات تؤكد أن النصر القاطع سيكون من نصيب علي وأصحابه . وهنا نصح عمرو بن العاص ـ مدبّر الخطط الحربية ومخطط المكائد ـ معاويةَ برفع أوراق القرآن على أسنّة رماح الجنود ، وطلب من الجنود أن يصيحوا قائلين : حكم الله . . . حكم الله . . . يجب أن يكون حكم الله هو الفيصل بيننا وبينكم . وحاول عليٌّ أن ينبّه أصحابه إلى تلك الحيلة ليتابعوا انتصارهم ، لكنّ مساعيه ذهبت هباء .

والحقّ أن عدداً من المتعصّبين المتمسكين بالشرع كانوا يشكّلون العمود الفقري لجيش علي ، وكانوا لا يقرّون بحال محاربة من يلجأون إلى القرآن حكَما ، فامتنعوا عن القتال ، مما نتج عنه إعلان الهدنة . وقبل الطرفان مبدأ التحكيم ، واضطر علي إلى قبول أبي موسى الأشعري ممثلا له ، وكان ضعيفا واهن العزم ، قد عزل من حكم الكوفة لاستهتاره وفتوره . بينما كلّف عمرو بن العاص الداهيَة الأريب بنقل وجهة نظر معاوية وعرضها . ولجأ عمرو إلى خدعة أخرى مكشوفة[1] استطاع بواسطتها أن ينحّي عليا ويعلن خلافة معاوية . . . وذلك في فبراير من عام ٦٥٨م ، في مكان يعرف بدومة الجندل بصحراء سوريا ، جنوبي خط عرض ٣٠° . والمسافة الفاصلة بين هذا المكان وبين دمشق يعادل نفس المسافة الفاصلة بين المكان نفسه وبين البصرة تقريبا .

[323] ولا لزوم للحديث حول خيبة أمل علي وأتباعه وإظهار مدى نفورهم . يكفي أن العرب الأوفياء لعلي كانوا في كل يوم يلعنون معاوية وأعوانه في مساجد العراق ويسبّونهم . وكان معاوية وأتباعه يفعلون نفس الشيء في دمشق ، وينسبون إلى علي وأولاده وأتباعه ما لا يليق التفوّه به . . وقد ظل ذلك متّبعا مدة طويلة إلى

---

(١) أنظر : كتاب الخلافة لموير ، ص ٢٨٠ ـ ٢٨٢ ؛ الفخري ، ص١١١ ـ ١١٤ .

أن ألغاه عمر بن عبد العزيز الذي يعدّ الحاكم الوحيد تقريبا في سلسلة الأمويين الذي يمكن وصفه بأنه كان يخشى الله . ولم يكن علي يكتفي باللعن ، بل كان يُعدّ نفسه لقتال منافسه لولا وقوع أحداث خطيرة قرب موطنه تطلبت عودته .

وكان في صفوف أتباع علي عدد من المدبّرين السياسيين المصلحين ، كما كان سكان البصرة والكوفة من بين مريديه لكنهم كانوا يميلون إلى الفُرقة وعدم الثبات . وكانت أفكار كل طائفة من الطائفتين تتعارض مع الأخرى تمام التعارض ، لأنهما كانتا تتكونان من أقدم الفرق الإسلامية : الشيعة والخوارج[1] . والشيعة هم الموالون لعلي وأسرته الأوفياء المتحمّسون لهم . وكانوا دائمي الدفاع عنهم يقولون إن الولاية السامية والرياسة الروحية الفائقة في العالم الإسلامي حق سماوي لأولاد النبي وأقرب أفراد أسرة النبوّة . وسوف نتحدّث حول ذلك الأمر ،وحول أصول عقائد الغلاة وما فيها من عجائب في الصفحات التالية . ونشير هنا فقط إلى أن هذه [324] العقائد التي تتسّم بالمغالاة وتقديس علي بل وتأليهه في حياته رغم معارضته الشديدة ، كان ينشرها في مصر بإصرار وجديّة يهودي حديث الإسلام اسمه عبدالله بن سبأ،[2] وذلك في خلافة عثمان عام ٦٥٣م.

وكان الخوارج هم حماة الرأي الديمقراطي المتّسم بالمغالاة . وهم يقولون أن كل عربي حر له الحق في أن يُنتخب للخلافة ، وأن كل خليفة لا يتمكن من كسب رضاء جمهور المؤمنين يمكن خلعه من الخلافة[3]. وقد سمى موير[4] هذه الجماعة

---

(١) تعليق المترجم : يقول فروزانفر : لا يصدق هذا القول بالنسبة لعهد حضرة الأمير عليه السلام لأن الخوارج ظهروا في أواخر عهده .

(٢) الخلافة ، ص٢٢٥ - ٢٢٦ ، الملل والنحل للشهرستاني ، طبع كورتن (Cureton) ص ١٣٢ - ١٣٣ . .

(٣) يرى برونو في رسالته عن الخوارج (ص ٢٨) أن الفرقة قد اختارت اسمها بنفسها ولم يضعه لها أعداؤها ، وأن الاسم لا يعني التمرد والانسلاخ . وشأن الاسم شأن لفظ (المهاجرين) الذي يراد به الأشخاص الذين جلوا عن وطنهم وابتعدوا عن ديارهم ومتاعهم في سبيل الله . ويستشهد برونو بالآية ١٠١ من السورة الرابعة من سور القرآن. تعليق المترجم: أمر الله تعالى في سورة النساء بالهجرة من دار الجهل والكفر إلى دار العلم والإيمان جهادا في سبيل الله وخلاصا من دار الكفر . لا =

325] باسم « الذين يبغون حكما إلهيا » . وهو يقصد بذلك أنهم قد انفصلوا من أجل حكم الله . ومعظم أفراد هذه الجماعة من عرب البادية الأصليين (ينحدرون من فروع قبائل أصيلة كتميم) ، ومن أبطال القادسية وغيرها من الأماكن التي شهدت حروبا قاسية . ويحشر في زمرة الخوارج . . أهل الشرع ومن يقول عنهم الشهرستاني أنهم كانوا يُصلّون ويصومون ، ويرون أن وحدة الإسلام في خطر نتيجة رغبة الأفراد في الرفعة ، ويرون أن مصالح الدين مرتبطة بمصالح البعض .

وقد أطلق الخوارج على أنفسهم لقب « الشراة » (بمعنى البائعين) إشارة إلى أنهم يبيعون أرواحهم لقاء أجر سماوي ، مستندين في ذلك إلى الآية ٢٠٧ من السورة الثانية من سورة القرآن ، والآية ١١١ من السورة التاسعة[1] .

وقد غلبت الشهامة على هذه الفرقة إلى حد كبير ، وبلغوا في العناد شأواً بعيداً ووصلوا في التعصُّب إلى مرحلة التوحّش ، واعتبروا أنفسهم وحدهم التابعين لله .

والأوصاف التي تميزت بها هذه الفرقة تجعل ذهننا ينصرف إلى فرق أخرى

= من أجل التفرقة وتشتّت المسلمين. لهذا فإن الإستناد إلى الآية الشريفة لتبرير عمل الخوارج لا يقوم على أساس سليم.

يقول الله تعالى: ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً.

(٤) توَسع المتعصّبون من الخوارج فيما بعد في هذين المعتقدين الأساسيين ووضعوا لفظ (المسلم المخلص في عمله) بدلا من (العربي الحر). وأضافوا بعدَ عبارةِ (يمكن خلعه من الخلافة) عبارةً أخرى تشمل على معاقبته وهي: (ويقتل إذا لزم الأمر).

إرجع فيما يتعلق بالخوارج إلى رسالة برونو القيّمة، طبع ليدن ١٨٨٤م .

Brunnoow: Die cheridschiten, Leyden, 1884.

وإلى كتاب فُن كرومر (ص٣٦٠ ـ ٣٩٥) .

Von Kremer, Heer schenden I deen

وإلى كتاب دوزي ، تاريخ الإسلام (ص٢١١ ـ ٢١٩)

Dozy, Histoire ee L'Islamisme

(١) أنظر رسالة برونو (ص٢٩) .

غيرها ، كالفرقة الوهّابية التي ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، والفرقة التي عرفت في اسكتلندا باسم المتعاهدين[1] ، والفرقة التي عرفت في انجلترا باسم التصفويين[2] .

[326] وقد نظمت كثير من منظومات الخوارج بألفاظ وعبارات كانت موضع استفادة بالفور[3] غالبا ، مع تغيير ما يلزم تغييره[4] .

وكان نفور هذه الفرقة الديمقراطية من طبقة أكابر وأشراف المسلمين ممثلة في علي والهاشميين القرشيين - أقل من نفورها من عظماء الجاهلية ممثلين في معاوية وبني أمية .

ومع أن الخوارج كانوا في موقعة صفين يشكلون قسما من أنصار علي إلا أن اتحادهم - كما لاحظنا - لم يكن يخلو من الشوائب . . فبعد الهزيمة المنكرة التي

---

(١) تعليق المترجم : في عام ١٦٤٣م عقدت اتفاقية بين مجالس انجلترا واسكتلندا تعهد فيها الاسكتلنديون بإرسال مساعدات ضد شارلز الأول ، بشرط أن تُقبل طريقة البرزبيترين Presbyterianism في كنيسة انجلترا . وفي السنوات ما بين ١٦٣٨ ، ١٦٤٣ م تعاهد الاسكتلنديون أتباع الطريقة المذكورة فيما بينهم على إصلاح مذهبهم والدفاع عنه ، ولهذا أطلق عليهم Covenantors ومعناها المتعاهدون .

(٢) تعليق المترجم : التصفويون (Puritans) : اسم لفرقة من فرق البروتستانت الإنجليزية ، كانت تعارض الآداب والتقاليد والعادات الدينية القديمة . . في عهد اليزابيث ملكة انجلترا ، وكانت تعتقد أن العبادة يجب أن تؤدي بصورة أبسط . وقد هاجر عدد من أفراد هذه الفرقة إلى نيوانجلاند (New England) في أمريكا . ولم يكن مفهوم هذا اللفظ حسنا في بادىء الأمر ، بل إنه كان يستخدم على سبيل الذم واللوم ، أما الآن فإنه يُطلق على من يتعصّبون في حياتهم الدينية ويدققون ، ويعيشون حياة نقية طاهرة خالية من الشوائب .

(٣) Balfour of Burleigh

(٤) توجد أفضل مجموعة من هذه الأشعار في الكامل للمبرد ، ويرجع تدوينها إلى القرن التاسع الميلادي . وقد طبعها رايت في الفترة ما بين ١٨٦٤ - ١٨٨٢م . أنظر الفصول ٤٩ و٥١ و٥٤ . وقد جمع نولدكه مختارات منها ، أنظر الصفحات ٨٨ ، ٩٤ .

Noldeke, Delectus Vet. Carm. Arab. (Berlin 1890).

وأنظر كذلك المجلّد الثاني من تاريخ تمدّن الشرق ، تأليف فن كرمر ، ص ٣٦٠ - ٣٦٢ .

Von Kremer, Culturgeschichte

نجمت عن التحكيم الذي تمّ نتيجة إصرارهم هم أنفسهم . . . دخلوا على علي[1] وقالوا له :

لا حكم إلا الله ، فكيف سمحت لخلق الله بالحكم ؟

327 [فأجاب علي : أنتم الذين طلبتم ذلك ، وقد حذرتكم من كيد الشاميين ، وأمرتكم أن تحاربوا عدوكم ، فرفضتم الحرب وطلبتم التحكيم ووطئتم فتواي بأقدامكم . ولما لم يعد أمامي سوى التحكيم اشترطت أن يكون وفقا لكلام الله المجيد (القرآن) . . . لكنهم تصرفوا بطريقة مخالفة ، وساروا وفق ميولهم وأهوائهم . لهذا فإننا ما زلنا على رأينا الأول وهو أن من الواجب علينا أن نحاربهم . فقال الخوارج : لا ننكر أننا رضينا في البداية بالتحكيم . . . لكننا تبنا . . ونعترف أننا كنا مخطئين . فلو أنك أقررت الآن بكفرك ، ودعوت الله أن يغفر لك وسألته العفو عنك لأنك سمحت لخلق الله بالتحكيم . . . فسوف نعود إلى صفوفك ونحارب معك عدوك وعدونا ، فإن لم تفعل انفصلنا عنك .

وغضب عليّ أشدّ الغضب لمسلكهم غير المعقول ، ونصحهم ولامهم فلم يؤثر ذلك في نفوسهم . وقبل أن يصل جنوده إلى الكوفة في طريق عودتهم . . كان قد اعتزله ١٢ ألف رجل من هؤلاء الساخطين بعد أن هددوه وضربوا خيمة لهم في حروراء . واتخذ هذا الفريق من عبارة (لا حكم إلا لله) شعاراً حربياً . وتقدّموا نحو المدائن (تيسفون) بهدف إثارة فتنة بها . . تكون قدوة لبلاد الكفر والإلحاد في كل مكان[2] . لكن حاكم المدائن استطاع ببعد نظره أن يمنع هذا الأمر .

وواصل الفريق تقدّمه إلى النهروان قرب حدود إيران ، واختاروا لهم (في ٢٢ مارس ٦٥٨م) خليفة من قبيلة راسب ، يدعى عبد الله بن وهب[3]، وقتلوا

---

(١) نقل هذا الشرح وفق قول الفخري (أنظر : طبعة الوارث ، ص ١١٤ وما بعدها) .

(٢) كتاب الخلافة ، ص ٢٨٤ .

Caliphate, its Rise, Decline and Fall (London, 1892).

(٣) رسالة برونو الخاصة بالخوارج ، ص ١٨ .

المسلمين الذين يخالفونهم التفكير ، والذين لم يعترفوا بخليفتهم ولم يرضوا بلعن عثمان وعلي باعتبارهما كافرين.

[328] وبينما كانت أعمال الخوارج وتصرّفاتهم تتّسم بالحزم والحيطة والدقة والوسوسة الزائدة ، كانوا يلجأون إلى تصرفات وحشيّة عجيبة مجهولة السبب :

التقط أحد الخوارجْ تمرة سقطت عن شجرتها ووضعها في فمه ، فلما صاح بعض مرافقيه : « لقد أكلت التمرة غصبا ولم تؤد ثمنها » . . . لفظها على الفور

ضرب أحدهم بسيفه خنزيراً ـ تصادف مروره بجواره ـ فشلّ حركته ، فقال أحدهم : « هذا فساد في الأرض » . . فأخذ يبحث عن صاحب الخنزير ، ودفع له تعويضا(١) وإلى جانب هذه التصرفات نجدهم يعمدون إلى قتل المسافرين دون أن يشعروا بالألم لما يفعلون ، ويمزّقون أحشاء الحاملات من النساء . ولم يكن المتعصبون يعتذرون عن مثل هذه المظالم بأي صورة من الصور . . . بل إن العكس هو الصحيح ، فحين كان علي بن أبي طالب يطالبهم بتسليم القتلة وسلوك سبيل السلم والسلام . . كانوا يصيحون : « لقد اشتركنا كلنا في قتل الكفار .

وفي ظل هذا الخطر الذي تتعرّض له البلاد ، لم يكن أحد يتوقّع أن يكون جيش علي مستعداً مرة أخرى للإغارة على الشام . . إلا إذا انتهى هذا الانقسام وذاك الشقاق المذهبي .

وبدافع الرأفة ، سمح علي لمن رغبوا في الخروج من خيمة الخوارج بالخروج . وقد قَبِل نصفُهم هذا الاقتراح ، أما من بقوا منهم ـ ويبلغون الألفين ـ فقد رفضوا جميع المقترحات باستخفاف وسخرية وأصروا على موقفهم إلى أن هلكوا جميعاً . أما أتباع علي ـ وعددهم ستون ألفاً ـ فلم يهلك منهم سوى سبعة فقط وقد وقعت هذه المعركة في شهر مايو أو يونيو من علم ٦٥٨م . . ونجم عنها ازدياد

(١) الفخري ، ص ١١٥ .

عداوة بقية الخوارج لعلي بحيث بات الصلح مستحيلا ، وأصبحوا يبغضونه أكثر من بغضهم لمعاوية .

[329] ولم يكن جند علي مستعدين للهجوم على خصمهم قبل أن يزول تعبهم وإرهاقهم ويزيد عددهم إلى حد كبير . وكانوا دائما ما يرددون :

لقد ثلمت سيوفنا ونفذت رماحنا وضقنا بالحرب ذرعا ، فاتركونا لحالنا حتى ننظم أمورنا ، وبعدها سوف نتحرك[1] .

لكنهم لم يفعلوا ، وكانوا يبتعدون عن المكان ببطء كلما سنحت لهم الفرصة ، وأخيراً خلا المعسكر . ولما رأى معاوية تفاقم مشكلات خصمه وازديادها يوما بعد يوم ازداد جسارة وجرأة ، واستولى على مصر ، وحرّض البصريين على الثورة والعصيان .

وثار الخوارج بدورهم مرة أخرى في جنوبي ايران ، وشملت ثورتهم سائر أنحاء الجنوب . وخدع أهالي تلك البلاد بالعبارات النارية التي تعكس الصلاح في ظاهرها . والتي تصدر عن قوم يرون أن دفع الضرائب للخليفة يشكل في الحقيقة حماية له وتأييداً ، ويرون أن هذا أمر لا يمكن تحمّله[2] .

ودارت سلسلة من المعارك المؤلمة المملّة عقب فتنة الخوارج بصورة أدت إلى تحطيم نفسيّة علي . واضطرّته مكرها (عام ٦٦٠م) إلى أن يبدي استعداده لعقد معاهدة مع معاوية . ونتيجة لذلك باتت مصر والشام تحت حكم معاوية دون منازع .

وبعد عام واحد ، قُتِل علي في مسجد الكوفة (في يناير من عام ٦٦١م) على يد ابن ملجم واثنين من الخوارج المتعصّبين . وهكذا توفي ابن عم الرسول وصهره ورابع الخلفاء الراشدين ـ في نظر أهل السنة والجماعة ـ وأول أئمة أهل الشيعة . .

---

(١) النحري ، ص ١١٧ .

(٢) الخلافة ، ص ٢٩٢ .

في سن الستين ، وخلفه ابنه الأرشد الحسن . (أنجب علي من فاطمة ـ إبنة الرسول ـ ثلاثة أبناء)[1] .

[330] وقد عُزل الحسن في العاشر من أغسطس علم ٦٦١م ، وأصبح معاوية حاكم الامبراطورية الإسلامية العظيمة بلا معارض ، وازداد نفوذ بني أمية رسوخا ، واعترف بهم رسمياً في كل أنحاء الممالك . وما أفضل ما قاله دوزي في هذا الصدد ، فهو القائل :

إن انتصار بني أمية كان في حقيقة الأمر نصراً لفرقة تعادي الإسلام من كل قلبها . وبسبب هذا الانتصار أصبح أولاد أقدم أعداء الرسول وأشدّهم كراهية له ـ دون أن تتغير قلوبهم ـ يدعون خلافة الرسول والنيابة عنه ـ وباتوا يسكتون بسيوفهم من يجرأون على معارضة بدعهم . ولن نذهب بعيداً للبحث عن أسباب المعارضة والاستياء ، حتى في خلافة معاوية . . فقد أنشأ معاوية بلاطا فخما في دمشق وخلق حاجزاً بينه وبين الطبقات الفقيرة . وبدلاً من أن يقتدي بنّواب الرسول الأول (الخلفاء الراشدين) اتخّذ من بلاط أباطرة الروم الشرقية وملوك إيران قدوة يحتذي بها . وبنفس الروح ، اختار ابنه يزيد للخلافة . وقد فرض هذا الاختيار البغيض بالقوة على أهالي المدينتين المقدّستين : مكّة والمدينة .

وبموت معاوية (٦٨٠م) وجلوس يزيد على العرش ساءت الأوضاع بصورة أكبر. وليس هناك اسم في العالم الإسلامي ، وفي إيران يثير النفور كما يثيره اسم يزيد هذا . قد تسبُّ أحد الايرانيين بقولك : أنت (كاذب) ، (رذل) ، (سارق) فلا يتأثر ، أما إذا قلت له : أنت (يزيد) أو (شمر) أو (ابن زياد) فإنه يشتعل غضبا . وقد لاموا شاعراً إيرانياً لأنه لعن (يزيد) فقال لهم :

[331] لو عفا الله الكريم عن يزيد ، فإنه بالتأكيد سيعفو عنا نحن الذين لعنّاه .

---

(١) توفيّ أحدهم في طفولته (يقصد المؤلف « محسن» ـ المترجم) ، والآخر هو الحسين .

ولاموا حافظا الشيرازي لأنه بدأ الغزل الأول في ديوانه[1] بالمصراع الثاني من البيت التالي : وهو من أبيات هذا الخليفة غير العفيف :

أنـا المسمـوم ما عنـدي بتـرياق ولا راقـي
ادر كأسـا وناولهـا ألا يا أيهـا الساقي[2]

ويدافع أهلي الشيرازي عن لسان الغيب (لقب أطلقه محبو حافظ عليه) بقوله : رأيت (حافظا) في المنام ذات ليلة فقلت له : يا فريدا في فضلك وعلمك، كيف استحللت شعر يزيد وأبحت لنفسك استخدامه مع ما لك من فضل وكمال لا حدّ لهما ؟ قال : ألم تعرف السرّ بعد . . أليس مال الكافر حلالا للمسلم ؟[3]

لكن هذا العذر لم يُقبل وتلك الحجة لم تكن مقنعة ، ولهذا قال الكاتبي النيشابوري : إني لأعجب كثيراً من تصرّف خواجه حافظ ويعجز عقلي عن فهمه . . إذ ما هي الحكمة التي رآها في شعر يزيد فأوردها في ديوانه الأول . وحتى لو فرضنا أن مال الكافر حلال للمسلم ، ولم نعارض في ذلك الشأن . . فإنه يعد عيبا كبيرا من الأسد أن يخطف اللقمة من فم الكلب[4] .

---

(1) تعليق المترجم : من أين لهم أن يدركوا أن مطلع هذا الغزل نفسه هو أول بيت لحافظ؟ ولو ثبت لهم أنه قد رتّب غزلياته وفق حروف الهجاء معتمداً على القافية . . فأي سند سيبقى في يدهم لإثبات خيالهم هذا؟ شيء آخر، هو أنه ليس هناك ما يؤكد أن هذا البيت ليزيد .

(2) بيت حافظ هو :

الا يا أيهـا الساقـي ادر كأسـا وناولها
كه عشـق آسـان نمـود أول ولى افتـاد مشكلها

(3) نص الأبيات :

خواجـه حافـظ راشبـي ديلم بخواب — گفتـم اى در فضـل ودانش بي مثال
ازچـه برخـود بستـى اين شعـر يزيد — باوجـود اينهمـه فضـل وكمال
گفـت تو واقف نه اى زين مسأله — مـال كافـر نيسـت بر مؤمـن حلال؟

(4) نص الأبيات :

بسى در حيرتـم ازخـواجه حافظ — بنـوعي كش خرد زان عاجـز آيد
چه حكمـت ديد در شعـر يزيد او — كه در ديوان نخسـت از وى سرايد =

[332] ولا حاجة بنا إلى القول بأن (يزيداً) قد وجد من بين المؤرخين الأوروبيين من يدافع عنه . وفي رأي بعض المؤرخين أن الخروج على تقاليد المجتمع وآراء العامة هدف محبوب مضلل . . . والواقع أن شخصية يزيد ليست منفرة إلى هذا الحد . لقد كانت أمّه بدوية[1] ، فتربى في جو الصحراء الطلق الحر ، يطرب للصيد ويفرح ، ينشد الأشعار اللطيفة[2] يلعب نرد العشق ، يعشق الشراب والموسيقى ويميل إلى اللهو واللعب ، ولا يعير الدين اهتماما .

ورغم ما اتّسم به من إعراض عن ربّه ونزق وطيش وإسراف وتبذير . . . فإنه لو لم تكن الوصمة السوداء التي اقترنت باسمه ـ ونعني بها فاجعة كربلاء ـ لجاز لنا بسبب جمال محيّاه[3] وأشعاره العذبة وصفاته الملكية واللذة التي كان ينالها من سعيه وراء مباهج الحياة . . أن نعدل عن رأينا الذي كوّناه عنه ونخفف من حكمنا عليه .

يقول الفخري : « استمرّ حكمه ـ على أصح الأقوال ـ ثلاث سنوات ونصف . في السنة الأولى قتل الحسين بن علي (عليهما السلام) ، وفي الثانية هاجم المدينة وسلب كل ما بها في ثلاثة أيام ، وفي الثالثة هاجم الكعبة» .

= اگرچه مال كافر بر مسلمان حلال است ودر او فيلى نشايد
ولى از شير عيسى بس عظيم است كه لقمه ازدهان سگ ربايد

تعليق المترجم : لم يرد أصل هذه الأشعار في كتاب براون ، ولم يورد المصدر حتى بالهامش وإنما اكتفى بالترجمة . وقد بحثت عن الأشعار فترة وأخيرا توصّلت إلى الأشعار بمساعدة فروزانفر رئيس كلية المعقول والمنقول ، والسيد علي أصغر حكمت الأستاذ الجامعي .

فقد سافر حكمت في شهريور علم ١٣٣٠ إلى اسنانبول للاشتراك في مؤتمر المستشرقين فوجد المرجع المطلوب ، وهو شرح كتبه ـ سودي حول حافظ باللغة التركية الإسلامبولية ، وطبع علم ١٢٨٨م ، والأشعار مدرجة في حاشية الكتاب . وفي مكتبة مدرسة سپهسالار ، توجد نسخة خطية تجمع بين نظم حافظ ورباعيات الخيام ـ تحت رقم ١٩٩ ، وقد شهد فيها فروزانفر أشعار أهلي .

(١) الخلافة ، ص ٣١٦ .

(٢) ينقل الفخري في كتابه أشعاراً ليزيد غاية في الجمال (ص١٣٧ ـ ١٣٨) .

(٣) كتاب الفخري ، ص ٦٧ .

[333 ونتيجة لهذه المصائب الثلاثة ـ خاصة قتل الحسين ـ تملكت العالم الإسلامي بأسره رعدة الخوف والنفور والبغض . إن من أوتي ولو قدراً ضئيلاً من الإحساس لا بد وأن يتأثر لدى سماعه تلك القصّة المحزنة . إن حادثة كربلاء ليست جريمة فحسب بل هي خطأ جسيم . فيزيد والسفلة الملعونون من أتباعه ـ أمثال ابن زياد وشمر وغيرهما ـ قد تسببوا بفعلتهم هذه ـ في أن يتخلى أحباب الرسول وأتباع دينه تماما عن تغافلهم وإغضائهم الضمني عن تصرفات الأسرة الأموية .

والكلام هنا يدور حول الإغضاء والتغافل والتجاوز لا عن الحب والوفاء والإخلاص ، لأنه لم يكن هناك ما يشير إلى وجود الحب والوفاء والإخلاص . فالشيعة كانوا حتى وقوع تلك الأحداث ـ كما رأينا ـ يفتقرون (لسوء الحظ) إلى الحماس اللازم والغيرة والفداء والتضحية والإيثار . . لكن الأمر تغيّر بعد ذلك كليّة ، فصار مجرد تذكّر صحراء كربلاء الملطّخة بالدماء ـ حيث هلك حفيد الرسول عطشا ووجد جسده بين أجساد القتلى ـ كافياً لإثارة مرجل الغضب والهياج في قلب أبرد الناس وأقلهم اهتماما . وسيطر الحزن والهمّ على النفوس ، وعرّجا بالروح في مدارج الكمال ، فصار التعب والألم والخطر والموت بالنسبة لها أمراً تافها .

ما أن يأتي العاشر من شهر المحرم من كل عام حتى يتذكّر الشيعة أينما كانوا ـ في إيران والهند وتركيا ومصر ـ مصيبة كربلاء . ومن الذي يستطيع أن يرى طقوس العزاء الشيعية ـ ولو كان ينتمي لمذهب آخر ـ ولا تؤثر في وجدانه على نحو ما . . مع صدق ما تعبر عنه هذه الطقوس من مشاعر مذهبية جياشة سامية ؟ أي قلب لا تؤثر فيه عبارات التعازي الشيعية ؟ والآن وقد قمت بشرح تلك القصة ، تتجسّد أمام [334 عيني تلك الأفكار والخواطر ، وأسمع أشعار العزاء والبكاء والنحيب ، وأرى مواكب المعزّين والأكفان البيضاء التي يصبغها الشيعة باللون الأحمر من دمهم ، وحالة السكر التي تتملكهم نتيجة غرقهم في الهموم والأحزان .

وها هو الفخري[1] يبدع في هذا الموقف فيقول : لا أريد أن أسترسل في

---

(١) كتاب الفخري ، ص ١٣٨ وما بعدها .

الكلام حول تلك الفاجعة فهي مثيرة للهم والغم إلى حد كبير ، مولدة للخوف والنفور . فالواقع أنه لا توجد في الإسلام فاجعة تجلب العار كما تجلبه هذه الفاجعة . لقد كان مصرع أمير المؤمنين (ع) طامة كبرى ولا شك ، لكن هذه الواقعة كانت أشد وأقسى . فقد ارتكبت فيها مذبحة شنيعة ، وقتل فيها عدد من الأسرى وعذبوا وأوذوا إلى حد يبعث الرعدة في أوصال السامعين . لكنني أفضّل القول لسبب آخر ، وهو أن يقف كل شخص وقوفاً تاماً على أخبار تلك البلية الكبرى والمصيبة العظمى . إن كل من شارك في هذا العمل أو أمر به أو سرّته نتيجته بأية صورة يلعنه الله ولا يقبل توبته ولا فديته[1] ، ويحشره في زمرة أشد الناس إضراراً بالناس ، وهم الذين يفنون عمرهم سعياً وراء الحياة الدنيا الفانية . . ظنا منهم أنهم يحسنون بذلك صنعا[2] .

أما سير ويليم موير فيقول[3] : لم تحدّد فاجعة كربلاء مقدّرات الخلافة ومصيرها فحسب ، بل حدّدت مقدّرات ممالك الإمبراطورية الإسلامية ومصيرها لفترة طويلة بعد انقراض الخلافة وزوالها . من الذي يرى مراسم العزاء وما يسودها من صخب وضجيج ، ويعلم أن مسلمي العالم يدقّون صدورهم كل عام [335] ويصرخون في حزن وجنون ، ويرددون كلاما موزونا ويقولون دون كلل أو ملل : الحسن . . . الحسين ، الحسن . . . الحسين . . من الذي يرى ذلك ويعلم كل هذا ولا يتخيّل الحربة المشرعة والسيف البتار اللذين وضعهما الأمويون في يد أعدائهم؟

إن الانتصارات التي أحرزها عبد الله بن الزبير بعد تمرّده وعصيانه ، والسنوات الثلاثة التي شغل فيها منصب الخلافة مستقلا في المدن المقدّسة - شأنها شأن ثورة المختار الخطيرة المخيفة (٦٨٣ - ٦٨٧م) - كانت تستند إلى الانتقام العلم

(١) تعليق المترجم : إشارة إلى الحديث : لا يقبل منه صرف ولا عدل (منتهى الأدب)
(٢) تعليق المترجم : إشارة للآية الشريفة في سورة الكهف (آية ١٠٤) :
(الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) .
(٣) أنظر كتاب سير ويليم موير ، ص ٣٢٤ .

من قتلة الحسين وآله . ولم تكن فرقة الشيعة وحدها المساهمة في طلب الثأر بل ساهم معها حتى الكثير من الخوارج[1] .

حين أغار جند يزيد على المدينة (٦٨٢م) قتلوا ثمانية عشر رجلاً من أصحاب الرسول وأكثر من سبعمائة من حفظة القرآن . فزاد قتلهم وعدم احترام مكّة نار الغضب والحقد اشتعالا ، وتصاعدت فكرة الانتقام ، فانتقم المختار انتقاما هائلاً من أجل كربلاء (٦٨٦م) ، وعذّب وقتل ابن زياد وشمر وعمرو بن سعد والمئات ممن يقلّون عنهم شأنا . . لأنهم شاركوا في هذا الأمر . ثم قُتل مع سبعة آلاف أو ثمانية آلاف من مرافقيه ـ في خلال أقل من عام ـ على يد مصعب (أخي ابن الزبير) .

وفي شهر يونيو من عام ٦٨٨م تصاعدت خلافات العالم الإسلامي بصورة ملحوظة . . . حين شارك أربعة من الرؤساء المتناحرين في أداء شعائر الحج كلٌ على رأس طائفته ، وهم : عبد الملك الخليفة الأموي ، ومحمد بن علي (المعروف بابن الحنفيّة) ، وابن الزبير ، ونجدة من الخوارج .

[33 وحركة المختار ـ كما رأينا ـ هي في الأساس حركة شيعية ، تصاعدت فيها الصرخات مطالبة بالانتقام للحسين وأصحابه ، واستهدف المنادون بها الحصول على حق ابن الحنفيّة[2] . وهي تختلف عن حركات الشيعة التي تلتها في كونها لم تكن تهتم (أي حركة المختار) بموضوع الانتماء والنسبة المباشرة إلى أسر النبوّة وإلى فاطمة ابنة الرسول أو إلى الأسرة الملكية الساسانية . (فاطمة الزهراء هي بالطبع أم الحسن والحسين وليست أم ابن الحنفية) . وأول من انطبقت عليه الصفتان هو علي بن الحسين المعروف بالسجّاد أو بزين العابدين . . لأن أمه كانت ابنة ليزدجرد[3] .

---

(١) نفس المرجع ، ص ٣٣٢ .

(٢) أنظر : تاريخ اليعقوبي ، طبع هوتسما Houtsma جـ٢ ص٣٠٨ .

(٣) أنظر صفحة ١٩٥ وما بعدها من هذه الترجمة ، وانظر تاريخ اليعقوبي ، جـ٢ ص٣٦٣ ، ٣٩٣ . يقول المؤلف (المتوفي في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي) : كان اسم أمه حرار ، وكانت =

وكان زين العابدين (ع) وخلفاؤه يمثلون منتهى آمال الفرعين اللذين تفرّعا عن مذهب الشيعة (الإمامية الإثني عشريّة ، والإمامية السبعيّة) .

وكان بين أتباع المختار عدد كبير من أصل غير عربي يطلق عليهم الموالي ، ومعظمهم من الإيرانيين . وكان بين جنوده البالغ عددهم ثمانية آلاف ـ وهم الذين سلّموا لمصعب بن الزبير ـ أقل من العشر (حوالي ٧٠٠ جندي) من أصل عربي[1] .

[337] وفي الدراسات الممتازة التي قام بها فن فلوتن حول سيطرة العرب[2] ، وردت معلومات دقيقة للغاية توضح أسباب اشتراك المسلمين من غير العرب في جيش المختار .

وقد بلغ نفوذ بني أمية الأوج في عهد عبد الملك (٦٨٥ ـ ٧٠٥م) ، وبلغ العرب في تلك الفترة ذروة قوتهم في الشئون الدنيوية غير الدينية ، فضُربت العملة العربية لأول مرة ، وباتت محاسبات الدولة تتم باللغة العربية بدلاً من الفارسية التي كانت مستخدمة في ذلك المجال . وعادت النعرة العربية القديمة إلى السيطرة ، وتعرض الموالي (المسلمون من غير العرب) للنفور والظلم ، وجرحت مشاعر المسلمين الأتقياء المتدينين خاصة أنصار المدينة ، ولم تراع أحاسيس محبّي الأسرة النبوية الأوفياء . . وتكرّر الأمر أكثر من مرة دون شفقة أو رحمة .

وقد تأمّر الحجاج بن يوسف نيابة عن الوالي الظالم عبد الملك فترة تزيد على

= ابنة يزدجرد ملك إيران . (لا يوجد ما يؤكد أن اسمها حرار) .
حين أحضر عمر بن الخطاب ابنتي يزدجرد أعطى إحداهما للحسين بن علي فأطلق عليها اسم غزالة .
وحين يرد ذكر علي بن الحسين (وذكر هذه السيدة الأميرة الإيرانية) يقول بعض الأشراف : «إن الناس ليعمّهم الفخر والسرور لأن مثل هذه الجارية أمهم» .

(١) أنظر كتاب موير ، ص ٣٣٦ يقول المؤرخ المذكور : لتوضيح الفكرة في الأذهان يهمّنا أن نعرف أن دم العرب كان آنذاك مميزاً ، فقد اقترح في جو هادىء أن يحرّر أسرى العرب وأن يقتل الموالي الذين تجري في عروقهم دماء أجنبية . ولكن بعد مناقشات طويلة قتل الجميع . ويقول الدينوري هو الآخر (ص ٢٩٦) : كان بين أتباع المختار كثير من الإيرانيين .

(٢) Van Volten, Recherches Sur La Domination Arabe, etc.

٢٢ سنة (٦٩١ ـ ٧١٣م). عمد فيها إلى القسوة وسفك الدماء ، وكانت إمارته بالنسبة للعالم الإسلامي بمثابة سوط العذاب (ولا تقلّ كراهيتهم له عن كراهيتهم ليزيد وابن زياد وشمر) .

وقد لفت الحجاج إليه انتباه عبد الملك ـ لأول مرّة ـ حين استعدّ لحصار مكّة[1] وحدد ميدان الهجوم ، وألحق الهزيمة بابن الزبير الذي كان قد أبدى تمرّده . وقد قدِّر عدد من قتلهم ـ دون اعتبار لمن قتلوا في الحرب ـ بمائة وعشرين ألف شخص .

[338] وقد استُهلّت خطبته المخيفة التي خطبها في الكوفيين[2] بهذه العبارة : إني والله لأرى أبصارا طامحة ، وأعناقا متطاولة ،ورؤوساً قد أينعت وحان قطافها . . وإني (أنا) صاحبها .

وتبرِزُ هذه العبارةُ (التي وردت كنموذج) مزاجَه القاسي وطبعَه الوحشي .

ويقال إنه حين سمع خبر إمارته قال بضع كلمات لا تزيد عن كلمات رئيسه عبد الملك ولا تنقص[3] . فحين جاءه الرسول كان مشغولاً بتلاوة القرآن ، فأغلق المصحف وقال : هذا فراق بيني وبينك[4] . إذا كانت الملاحظات السياسية تستوجب قتل الأشخاص وهدم الأمكنة المقدسة ومحوها من الوجود ، فقد كان يقدم على ذلك دون تأثر، ولم يكن أهل الشام يتأخرون عن إطاعة أوامره .

ووفقا لقول اليعقوبي[5] فقد اصطدم شعور الاحترام بشعور الوفاء ، وكان النصر في هذا الصراع للوفاء .

---

(١) اليعقوبي ، جـ٢ ص٣١٨ .

(٢) مروج الذهب ، جـ٥ ص٢٩٤ ـ ٣٠٠ .

(٣) كتاب الفخري : ص١٤٦ ـ ١٤٧ .

(٤) قرآن كريم ، سورة ١٨ ، آية ٧٨ .

المترجم : الآية وتتمتها من سورة الكهف : هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا .

(٥) جـ٢ ص ٣٠٠ .

وما أفضل ما قاله دوزي[1] في هذا الصدد ، إذ يقول :

لم يهدأ بال أعداء الإسلام إلاّ بعد أن سيطروا على المدينتين المقدستين وحوّلوا مسجد مكة إلى اسطبل ، وأشعلوا النار في الكعبة ، ووجّهوا الإهانات الشديدة لنسل مسلمي صدر الإسلام ، وجوّزوا في حقّهم التحقير والازدراء .

وقد كلّف ذلك النصر أعداء الإسلام غاليا ، فقد أحدثت بهم قبائل العرب خسائر فادحة ، ونعني بذلك القبائل المتمرّدة التي اضطرت لاعتناق الإسلام . ولم يكن العصر الأموي بأسره سوى ارتداد ورجعية ونصر لعبادة الأوثان والإلحاد . [339] وكان الخلفاء بدورهم ـ باستثناء عدة أشخاص ـ إما مستهترين أو ملحدين وكافرين . فكان أحد الخلفاء وهو الوليد الثاني (٧٤٣ ـ ٧٤٤م) يرسل النساء بدلاً منه إلى صلاة الجماعة ، ويجعل القرآن هدفا لسهام قوسه[2] .

وتقودنا الصراحة التامة إلى القول بأن سياسة بني أمية قد أبعدت طبقات أربعة إبعادا تاماً عن الأسرة الأموية ، وجعلت تلك الأسرة غريبة عن أتباعها ورعاياها . والطبقات الأربعة هي :

١ ـ المسلمون المتّقون المتدينون الذين كانوا يقابلون أعمال حكامهم القبيحة المستهجنة وخلافاتهم الدينية وحياتهم التي يختلط فيها الكفر بالإلحاد وعبادة الدنيا . . . يقابلونها بالنفور والاستنكار . ويعتبر سائر الصحابة والأنصار ومن تناسلو عنهم جزءا من هذه الطبقة . وكان ابن الزبير يستمدّ قوته للاستمرار في ثورته من هذه العناصر نفسها .

٢ ـ شيعة علي : أحلّت أسرةُ بني أمية الظلم البيّن في حق الشيعة . وبلغت خطيئتهم منتهى شدّتها في فاجعة كربلاء التي ذكرناها . وكان المختار يعتمد في ثورته اعتماداً رئيسياً على فاجعة كربلاء هذه .

---

(١) كتاب الإسلام ، ترجمة شوفن Chauvin ، ص ١٧٩ .

(٢) كتاب الفخري ، ص ١٥٩ .

٣ ـ الخوارج أو المشرّعون الذين كانوا يؤيدون حكم الله . وهي فرقة كانت تضايق حكومة بني أمية بشدة وبصفة دائمة . . . حتى عام ٧٠٠م تقريباً ، مستعينة في ذلك بالساخطين وقاطعي الطريق(١) .

٤ ـ الموالي أو المسلمون غير العرب : لم يكن مسلك الدولة بالنسبة لهؤلاء الأشخاص نفس مسلكها بالنسبة للمسلمين العرب ، فهي لم تكن تقرّ مبدأ المساواة بين الطائفتين ، وكانت تعتبر المسلمين غير العرب مجرد شعوب تابعة ، [340 وترى أن الحكام يجب أن يجيزوا معاملتهم باحتقار وظلم ، وأن يستفيدوا من وجودهم .

والآن نقصر الحديث على الطبقة الأخيرة مستعينين بدراسات فَن ڤلوتن . ويعلل هذا العالم سقوط الدولة الأموية وانتصار الدولة العباسية بثلاث علل ، وهي :

١ ـ نفور العنصر التابع ، وعناده الشديد قِبلَ الحكام الدخلاء الظالمين .
٢ ـ حركة الشيعة أو مذهب ذرّية الرسول .
٣ ـ انتظار ظهور المخلّص .

ويأتي تنافس القبائل العربية في الشمال والجنوب في المرتبة الثانية من الأهمية . وكان هذا التنافس يبدو واضحاً في البلاد المحتلّة النائية ، وقد ظل خالداً في أشعار نصر بن سيار المعروفة ، وسوف نشير في سرعة إلى تلك الأشعار .

وقد سلك نصر طريق المبالغة في حديثه حول تنافس العرب وإثباته أن هذا التنافس نفسه هو علّة سقوط الخلافة الأموية .

وإذا كان وضع الشعوب المغلوبة . . قبل بني أمية ـ سواء منها من دخلت الإسلام ومن بقيت على دياناتها اليهودية أو النصرانية أو المجوسية ـ وضعاً لا تحسد

---

(١) يرى برونو في كتابه (ص٤٩) أن موت شبيب بن يزيد الشيباني عام ٦٩٩م تقريبا يمثّل نهاية أشد مراحل تمرّد الخوارج وعصيانهم .

عليه . . فإنه كان وضعاً يمكن تحمّله[1] .

وقد تجاوزت العنصرية وتجاوز العدوان حدّهما في عهد الخلافة الأموية ، وصارت الغزوات والحروب ـ التي كان هدفها الأساسي نشر الإسلام ـ تأخذ طابع العدوان الخالص والنهب والسلب[2] .

وإذا لم نقل إن الغنائم الحربية كانت وحدها هدف المهاجمين ، فإن علينا أن نقول إن الغنائم كانت غايتهم الأصلية من الهجوم .

[341] غير أن غنائم الغزوات لم تكن تكفي لتغطية النفقات المتزايدة وإسراف الطبقة الحاكمة ، فكانت الضرائب الثقيلة تفرض على الشعوب التابعة بصفة دائمة ، بصورة ترهقهم ماديا . . . وهم الذين قبلوا الإسلام لإراحة أنفسهم . وكثر اختلاس الحكّام وأتباعهم[3] ، وامتدت أيديهم إلى ما في بيت المال ، وعمد معظمهم إلى كافة الوسائل لجمع ما يستطيعون . . . طالما السلطة في يدهم .

ووصل سلب بيت المال في النهاية حدّ أن بات لكل حاكم جديد الحق ـ رسمياً ـ في أن يأخذ من الحاكم المعزول مبلغاً بالقوة والضغط يسمونه (استخراج) . . . وللحاكم الجديد الحقّ في أخذ هذا المال من الحاكم المعزول لقاء مبلغ يدفعه للحكومة المركزية ومقرّها دمشق .

وكانت الأموال التي يوفرها الحكّام الجائرون الجبابرة عن هذا الطريق أموالاً طائلة . فيوسف بن عمر حاكم العراق ـ على سبيل المثال ـ قد أخذ من سلفه خالد القسري وأتباعه سبعين مليون درهماً (حوالي مليونين وثمانمائة ألف ليرة إنجليزية) .

وكانت نتيجة السلب تقع على عاتق القرويين البسطاء . ولم يكن القروي المسكين يملك وسيلة للشكوى ، وإذا ما اشتكى لم يجد لشكواه صدى .

---

(١) أنظر دراسات ڤن ڤلوتن حول سيطرة العرب ، ص٣ ، ١٤ ، ١٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤ ـ ٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٩ ـ ١١ .

وكانت الطريقة المرهقة التي تتبع في جمع الضرائب[1] علة سوء الأحوال والأوضاع . صحيح أن القدامى من أغنياء إيران وأشرافها ودهاقنتها قد نجحوا في الاحتفاظ بقسط كبير من قوتهم ونفوذهم نتيجة قبولهم الإسلام واستسلامهم للفاتحين الذين كانوا في حاجة إلى خدماتهم ، ولا يستغنون عن نفوذهم المحليّ ودرايتهم وخبرتهم . لكن الأمر كان مختلفا بالنسبة لمن هم أقلّ من هؤلاء شأنا ، والسبب كما يقول ڤن ڤلوتن هو أن « حبّ التوسع والجاه ، والغرور الناجم عن العنصرية العربية ، بالإضافة إلى الحرص والطمع ، كانت عائقا وعقبة في طريق تحسين أوضاع تلك الطبقات » .

وكان العرب ينظرون إلى الموالي على أنهم حقراء يفضلون العبيد قليلا . ويقول الطبري المؤرخ معلّقا على ثورة المختار :

لم يغضب عرب الكوفة من شيء قدر غضبهم من مطالبة المختار بسهم من الغنائم للموالي (وقد رأينا أن عدداً كبيراً من أتباع المختار كانوا من المسلمين غير العرب أي الموالي) . وقد احتجّ أهل الكوفة قائلين : لقد أخذتم الموالي منا ، بينما أعطاهم الله لنا غنيمة مع هذه الولاية بأسرها ، وقد حرّرناهم ابتغاء ثواب الله ، فلا تتعبوا أنفسكم ثانية وتسعوا في أن يكون لهم نصيب في غنائمنا[2] .

وفي عهد الحجاج بن يوسف الحاكم الجبار الذي لا يعرف الله كان حتى من قبلوا الإسلام يدفعون الجزية وهم صاغرون ، بينما هي فرض على غير المسلم فقط ، والواجب أن يعفى منها المسلمون . وكان هذا الأمر مبعث سخطهم وسبب انضمام عدد كبير منهم إلى ثورة عبد الرحمن بن أشعث . ولكن نار الثورة أخمدها الدم ، وتراجع الموالي إلى قراهم ، وقد وسم على يد كل منهم اسم قريته[3] .

وكما قال ڤن كرمر ، فإن أمل الموالي والمسلمين الجدد في أن تتحقق المساواة

(١) المرجع السابق ، ص ١١ -١٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٢٦ - ٢٧ .

[343] بينهم وبين الفاتحين المنتصرين قد تبدّل إلى يأس إثر تصرّف الحجاج على هذا النحو واستمرّ سخطهم . وكانت هذه المسألة في حد ذاتها أقوى عامل من عوامل سقوط الدولة الأموية[1] .

ويقول دوزي[2]: إن الأمير التقى المؤمن بحق من بين أمراء بني أمية هو عمر الثاني (٧١٧- ٧٢٠م) . وقد اشتهر من بينهم بعدم خضوعه للمؤثـرات الماديّة ، واهتمامه بنشر الإسلام أكثر من اهتمامه بأي شيء آخر . وقد صعب على عمّالـه أن يألفوا المبادىء الجديدة لأنها كانت تتعارض تماماً مع ما كان متّبعا إلى هذا الوقت ؛ فقد كتب أحد الموظفين إلى الخليفة قائلاً : لو سارت الأحوال في مصر على هذا المنوال فسوف يدخل المسيحيون كلهم في الإسلام ، وتضيع من يدنا عوائد الدولة .

فأجابه عمر بن عبد العزيز : لو اسلم جميع المسيحيين لاعتبرت إسلامهم نعمة عظيمة مباركة سارة . فقد أرسل الله رسوله للرسالة لا لجباية الضرائب .

واشتكى والي خراسان من امتناع الكثير من الايرانيين عن الختان في ولايته هذه ، وقال إنهم قد قبلوا الإسلام لسبب واحد فقط . . . هو أن يعفو من الجزية . فردّ عليه عمر بن عبد العزيز قائلاً: لقد أرسل الله محمداً المصطفى ليهدي الخلق إلى الايمان الحقيقي لا ليجبرهم على الختان[3] .

وبناء على هذه النظرة ، أُثِر عن عمر بن عبد العزيز أنه لم يكن يتشدّد في تفسير أحكام الشرع وتأويله . لقد كان يعرف أن عدداً كبيراً ممن اعتنقوا الإسلام لم [344] يعتنقوه مخلصين ، ولم يتركوا دينهم صادقين ، لكنه كان يؤمن وقتها بأن أبناء هؤلاء القوم وأحفادهم قد تربوا تربية إسلامية ، وأنهم متساوون مع العرب في الايمان بل ويفوقونهم إيماناً .

---

(١) أنظر تحقيقات فن كرمر حول تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ٢٤ .

Von K., Culturgeschichtische streifzüge auf dem Gebiete des Islams.

(٢) كتاب الإسلام ، ص ١٨٠ ، ١٨١ .

(٣) كتاب فن فلوتن ، ص ٢٢ -٢٣ .

وهو الوحيد من بين حكام بني أمية العاصين الأنانيين الطامعين الذي كان يتحلّى بالشرف ويتميّز بالنجابة . ونتيجة لتطلّعه إلى الدار الآخرة في تصريفه لشئون الملك حدثت نكسة خطيرة في العوائد وما تحصّله الدولة من أموال . والحقّ أنه كان في تصرّفاته يترسّم خطى سميّه الشهير عمر بن الخطاب إلى حد إقرار الرجعية مما جعل التقدّم أمراً صعباً . ولكي يقرّ العدل ويحقّق للشعوب التابعة أمانيها بذل جهداً كبيراً ، فبذر بذور الأمل ثانية في قلوب المؤمّلين ، وتسبّب في تقوية ردّ الفعل الذي كان قد تزايد ضد الفتوحات العربية وسارع به .

ولو أردنا أن نحكم من وجهة النظر الدنيوية ، لقلنا بأن عمر الثاني قد وجّه ضربة مهلكة إلى سيادة الأسرة الأموية وإلى رفعة قومه وأفضليتهم . لكننا إذا حكمنا وفقا للمقاييس الدينية لوجدناه قد قام بما يجب على كل مسلم أن يقوم به ، فقد أصدر أمره بألا يُسَبَّ علي في المساجد . . . مما أكسبه رضاء المسلمين الاتقياء وحبّبه إلى قلوب الشيعة إلى حد ما، وأطلق ألسنة شعراء عصره[1] بالعديد من المدائح ، هذا مطلع إحداها :

وليّت فلم تشتم عليا ولم تخف بريًاً ولم تتبع مقالة مجرم . .
وقلت فصدّقت الذي قلت بالذي فعلت ، فأضحى راضياً كل مسلم

[345 وكان موته في آخر القرن الأول الإسلامي تقريبا . وفي هذا التاريخ ، كانت الأمم التابعة ساخطة في الغالب ، مؤمنة بأن ثورة كبرى توشك أن تقع .

يقول الدينوري[2] :

في هذا العلم (١٠١هـ = ٧١٩ ـ ٧٢٠م) أرسل الشيعة رسلهم إلى الإمام محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم[3] ، وكان يعيش في سورية بمكان يسمى الحميمة . فكان ممن لقيه منهم قبل غيرهم : ميسرة العبدي أبو

(١) كتاب الفخري ، ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .
(٢) طبع كَيرگاس Guirgass ص ٣٣٤ وما بعدها .
(٣) نفس المرجع ، جدول ص ٣١٥ .

عكرمة السراج ومحمد بن خنيس وحيّان الصيدلي . لقد حضر هؤلاء مجلسه ، وأقسموا له على الوفاء قائلين : أمدد يدك لنقسم على الوفاء لك ، ونسعى جاهدين للحصول على السلطة من أجلك ، فربما عجّل الله بتحقيق العدل على يديك واقتلع جذور الجور والظلم ، فاليوم أنسب الأوقات في الحقيقة لمثل هذا الأمر، وتلك هي الوديعة التي أودعنا إياها أعلم حكمائك .

وأجابهم محمد بن علي قائلاً : اليوم يوم تحقيق آمالنا ، فقد انقضت مائة سنة كاملة على تقويمنا ، والثابت أنه لا ينقضي على قوم مائة علم إلا ويبعث الله فيهم من يدافع عن الحق، ولا تمرّ هذه الأعوام المائة إلا ويضع الله رؤوس المخطئين المغرورين في التراب ويلبسهم لباس الذل والهوان . وفي كلام الله تعالى جل اسمه ما يؤكد هذا المعنى ، فهو القائل :

أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة علم ثم بعثه[1] ، لهذا ، علينا بالحيطة والحزم والسريّة في دعوتنا ، ونسأل الله أن يحقق آمالنا ويثمر غصن دعوتنا . . فلا قدرة سوى قدرته .

[346] وقد استفاد العباسيون في دعوتهم من العوامل العديدة التي نجم عنها رضا الناس وسرورهم ، وقوّضوا صرح قدرة بني أمية وقلبوا قصر أسرتهم ـ خلال ثلاثين عاما ـ رأسا على عقب . وكان دعاة هذه الدعوة يتميزون بالكفاءة والفدائية ، ويبعدون عن الثورات الطائشة التي لا ثمرة لها ، ولكي ينجحوا في مسعاهم عمدوا إلى التضحيات ، واستفادوا ـ بصورة خاصة ـ من غليان مشاعر الخراسانيين وسخطهم .

يقول الدينوري (ص٣٣٥) : « دعوا الناس ليقسموا يمين الوفاء لمحمد بن علي ، وحاولوا إثارة اشمئزاز الخلق من سلوك الخلفاء المنفرّ ومظالمهم الموجعة

---

(١) السورة الثانية ، البقرة ، آية ٢٥٩ .

المؤلمة . ولقد لبى الكثيرون في خراسان دعوتهم ، ولكن أمرهم اكتشف بعد فترة ، ووصلت أخبارهم مسامع سعيد بن عبد العزيز بن الحكم بن أبي العاص . والي خراسان[1] ـ فأمر بإحضارهم ، ولما مثلوا بين يديه قال لهم : من أنتم ؟ قالوا : تجّار . فسألهم : ولم يقولون ما يقولون بشأنكم ؟ قالوا : وماذا يقولون ؟ قال سعيد : أخبرونا أنكم أتيتم كدعاة للأسرة العباسية . قالوا : أيها الأمير ، نحن عبيدك وغلمان تجارتك ، ولا يمكننا والحال هذه أن نبلغ هذا المبلغ . فأمر الأمير بانصرافهم . وخرج الدعاة من مرو فبدّلوا لباسهم في خراسان وبعض الأماكن القروية ، وسافروا في زيّ التجار ، وأخذوا يدعون الناس إلى اتّباع الإمام محمد بن علي . واستغرق ذلك عامين من جانبهم ، فلما عادوا إلى سوريا والتقوا بالإمام أخبروه بأنهم قد غرسوا غصنا في خراسان ، وأنهم يأملون أن يثمر الغرس في موسمه . وكان الله قد منّ على الإمام بولد أسماه (أبا العباس)[2] فأمر بإحضاره ، ونظر إليهم وأشار إلى ولده قائلاً . . . هذا مولاكم . فما كان منهم إلا أن قبلوا يده وقدمه . وقد استغل الدعاة المذكورون فرصة تعرّض الإيرانيين للمهانة والظلم فاستظهروا بهم واستفادوا من عقليتهم ودراستهم التي تأصلت فيهم بفضل ماضيهم المجيد . لكن الشعب المقاتل الذي يقل عن الشعب الإيراني من كافة الوجوه ـ باستثناء الشجاعة وعشق الحرية والاستقلال ـ قد سوّد يوم شعب إيران وأهانه واستخف به وسخر منه .

[347

وقد أثبت المختار وقائد جيشه « إبراهيم بن الأشتر » كفاءة الإيرانيين وعظيم قدرهم . وقد رأينا أن صفوف جيش المختار كانت مشكّلة في معظمها من الإيرانيين[3] وكان فرات وعمير من أصحاب المناصب في جيش الشام ، وقد أوفدهما عبد الملك لمحاربة المختار . فتوجّها لزيارة ابن الأشتر في معسكره ، ولما فرغا من ذلك صرّحا بأنهما منذ دخولهما معسكره حتى مقابلتهما للمختار لم يسمعا

---

(١) يسمونه خزينة لسلوكه وسيرته التي تشبه سيرة النساء . (كتاب موير ، ص٣٨٤ ، ٣٨٦) .

(٢) سُمي فيما بعد بالسفاح ، وهو أول خلفاء الدولة العباسية .

(٣) كتاب الدينوري ، ص ٣٠٠ ـ ٣٠٢ ـ ٣٠٦ ـ ٣١٠ ـ ٣١٥ .

كلمة عربية واحدة . . وسألاه : كيف يمكن لمثل هذا الجيش أن يقاوم جنود الشام؟ فأجابهم ابن الأشتر : أقسم بالله أني إذا لم أجد سوى النمل مساعدا . . .
[348] لسارعت به لمحاربة أهل الشام دون تردد . . وليس هناك من يفضلون الإيرانيين في قوة الفهم والإدراك لتوجيههم لمحاربة أهل الشام . وهؤلاء الجنود الذين ترونهم معي هم أولاد حكام إيران وشجعانها .

وقد منح المختار القيادة والأفضلية والهدايا والعطايا لكل من ينحدرون من أصل إيراني ، وتجنب العرب وأبعد الإيرانيين عنهم . وغضب العرب ، وتجمع كبارهم وذهبوا إليه ولاموه وعنّفوه . فقال لهم : لا أبعدني الله عن أحد سواكم ، احترمتكم فما اهتممتم وأعطيتكم المهايا فسلبتم العوائد . أمّا هؤلاء الإيرانيون فإنهم أكثر منكم طاعة ووفاء ومهارة . وأقدر على تعمير ممتلكاتي .

والجماعة الأخرى التي كان وجودها لازما لحماية الدعوة العباسية ومساندتها هي جماعة الشيعة . وكان لهذه الجماعة آراء متّفق عليها فيما بين أفرادها ، وهي آراء تتصل بحقوق أسرة النبوة . وإلى جانب هذا ، كانت تختلف آراؤهم وتتعدد بالنسبة لمن يستحق الخلافة من بين من يطالبون بها من أفراد هذه الأسرة . وقد انقسمت الشيعة بعد استشهاد الحسين ـ بصفة إجمالية ـ إلى فرقتين . فرقة تساند الأخ الأصغر للحسين أي محمد بن الحنفية ، والأخرى تبدي حبها لابن الحسين الملقّب بعلي بن الحسين والمشهور بزين العابدين .

ولما مات محمد بن الحنفية ، بايعت الفرقة الأولى ابنه أبا الهاشم (لهذا سميت الهاشمية) . ويعد أبو هاشم ـ وفق رأي ڤلوتن أيضا[١] أول من كوّن التشكيلات للدعاية ، وصعّد مشاعر التكريم والمديح والحب التي كان يكنّها الشيعة ـ منذ
[249] البداية ـ للأئمة . وقد شجعه على ذلك اعتقاده الباطني بأن مفتاح الأمور قد أودع في يده .

(١) أنظر كتابه حول سيطرة العرب ، ص ٤٤ ، ٤٥.

وقد مات أبو هاشم علم ٩٨هـ (٧١٦ـ٧١٧م) ، (ويقال إن سليان الخليفة الأموي قد دس له السم)[1] ، وآل حقه إلى محمد بن علي رئيس الأسرة العبّاسية . ومنذ هذا التاريخ صار الهاشمية ودعاتهم ـ بكامل رضاهم ـ وسيلة النجاح للعباسيين .

أما الفرقة الثانية من فرق الشيعة (أو الفرقة الإمامية) فلم تكن تتبع العباسيين بنفس السهولة ، لأن الشيعة يرون أن الإمام يجب أن يكون من أحفاد علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء . وكان إمامهم الفعلي في ذلك الوقت هو علي بن الحسين زين العابدين الذي مات علم ٩٩ أو ١٠٠هـ (٧١٨م)[2] وكان العباسيون ـ رغبة منهم في الحصول على مساعدة الإمامية ـ يجعلون دعايتهم باسم هاشم الجد المشترك للعباسيين والعلويين . فلما نجحوا وانتهى الأمر عرف أتباع علي اليائسين الكادحين أنه قد آن للأسرة العباسية أن تجني ثمرة كفاحها وأن تنحّي بيت علي من الطريق .

وهكذا استمرت دعوة العباسيين في صمت وجدّية . وكانت الدولة تقتل دعاتها في بعض الأحيان ، كما فعلت مع أبي عكرمة وحيّان ، وإن كانت قد أرسلت بدلهم خمسة دعاة إلى خراسان على الفور ، وأوصتهم بالحزم والحيطة وعدم إفشاء السر لمن يضمّونه إلى جانبهم إلا إذا أقسم بأغلظ الأيمان[3] .

وفي خلافة هشام ، وبينما كان خالد يحكم العراق ، نشبت معارك طاحنة عجيبة بين الخوارج والشيعة وذهب روّاد الحركة ـ في أكثر من موضع ـ طعمة للنيران ، وتعرّضوا للقتل[4] .

35]

ومن جهة أخرى ، فإن الخليفة ـ رغم تحذير والي خراسان ـ قد تصرّف مع

(١) اليعقوبي ، حـ٢ ، ص٣٥٦ .
(٢) نفس المرجع ص ، ٣٦٣ .
(٣) الدينوري ، ص ٣٣٦ـ٣٣٨ .
(٤) كتاب موير ، ص ٣٩١ـ٣٩٢ .

الدعاة العباسيين برفق واتّبع معهم المداراة [1] .

وكانت أعمال الدعاة العباسيين وحركاتهم تدار من جانب ١٢ نقيبا ومجلس مكون من سبعين شيخاً[2] . وفي بعض الأحيان ، كان أحد الدعاة يمتنع عن دعوته، ويروِّج أكثر عقائد غلاة الشيعة إثارة للفتنة وينشر أعجب آرائهم . وقد فعل الخداش ذلك ، فقُتِل في علم ٧٣٦م . ولو أراد القارىء أن يحصل على معلومات أكثر حول الخداش والراونديين والخرميين فإنا نحيله إلى دراسات ڤن ڤلوتن القيّمة (ص٤٧ - ٥١)، وإلى الفصل التاسع من هذا الكتاب .

وفي حدود علم ٧٤٣م ، مات محمد بن العباسي ، بعد أن أجلس ابنه إبراهيم مكانه ، واختار من بعده ولديه الآخرين : أبا العباس وأبا جعفر .

وفي حدود علم ٧٤٧ - ٧٤٨م ، قتل مروان الثاني - آخر خليفة أموي - الإبن الأول ، وبقي الإثنان الآخران ليستفيدا من ثمرات الكفاح المرير الطويل والمتاعب الكثيرة التي قاساها الدعاة العباسيون ، ويؤسسا الخلافة العباسية .

وفي نفس الفترة دلف إلى الميدان رجل غير عادي يدعى أبو مسلم ، وقد ساهم أكثر من غيره في انقراض بني أمية وانتصار العباسيين . ثم راح في النهاية ضحية حسد الذين يدينون لهمّته ويطوّق أعناقهم جميلُ شهامته .

[351] وكانت الأوضاع آنذاك تنذر بقرب حدوث صراع نهائي .

وقد جلس على العرش مروان الثاني في علم ٧٤٥م ، وكان يلقب بالحمار بسبب صموده ومقاومته ويقظته في الحرب . وشاع بين الناس أن (علم الحمار) علم النجاة والخلاص وأن عين بن عين بن عين (عبد الله بن علي بن عبد الله أبي العباس الذي سمي السفاح فيما بعد) سوف يقتل ميم بن ميم بن ميم « مروان بن محمد بن

---

(١) الدينوري ، ص ٣٣٨ .

(٢) كتاب ڤن ڤلوتن ، ص ٤٧ .

مروان آخر خليفة أموي»[1] وأخذت أمثال هذه الأقوال المشئومة تجري على أفواه العامة وتشيع بينهم . . . بينا البخلاء يسرق بعضهم بعضا ، والشعوب والأمم التابعة التي قاست عدة سنوات . . . تدرس كتب اليهود والنصارى الدينية والملاحم والمنظومات ونظائرها مما يتحدث عن الغيبيات . وكانت هذه الشعوب وتلك الأمم تتصوّر أن فرصة نجاتها قد حانت أخيرا ، وأن ظهور (المنتظر) لا يمكن أن يتأخر بعد أن أحاط جنود الجور والظلم بكل أنحاء الدنيا . . . فالمنتظر الذي سيزيُن الدنيا بالعدل والإنصاف سوف لا يتأخر أكثر من ذلك ما دامت الأمور قد ساءت إلى هذا الحد .

وكان الخليفة مروان ورجال بلاطه العميان وحدهم الذين لم يروا السحب المتراكمة ولم يلحظوا علامات الطوفان الذي يوشك أن يكتسح البلاد . . . رغم تحذير نوّابهم لهم ، وإرسالهم الرسل مرارا من الشرق . . . حاملين إليهم أخبار الخطر . فقد كتب نصر بن سيار والي خراسان ـ على سبيل المثال ـ أن ألف شخص قد أقسموا يمين الوفاء لأبي مسلم ، وختم خطابه بأشعار تفيض لطفا ، كُتِب لها الذيوع والشهرة، وهي: [2]

[352

أرى بين الرماد وميض نار[3] ... ويوشك أن يكون لها ضرام[4]

فإن لم يطفها عقلاء قوم ... يكون وقودها جثث وهام

فإن النار بالعودين تذكى[5] ... وإن الحرب أولها كلام[6]

---

(١) نفس المرجع ، ص ٥٧.

(٢) كتاب الفخري، ص ١٧٠، الدينوري ، ص ٣٥٦، اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٠٨ . وانظر كذلك صفحتي ٨٧ و٨٨ من كتاب نولدكه :

Noldeke, Delectus Carminum Arabicorurn.

(٣) تعليق المترجم : كتاب اليعقوبي، طبع النجف عام ١٣٥٨هـ ، جـ٣ ، ص ٧٩ : هجير .

(٤) تعليق المترجم : نفس المرجع ، ص ٧٩: له.

(٥) تعليق المترجم : نفس المرجع والصفحة: تورى.

(٦) تعليق المترجم : نفس المرجع والصفحة: وان الفعل يقدمه الكلام.

فقلت من التعجب[1] «ليت شعري آأيقـاظ أمية ام نيـام؟»

وقد وردت أسماء المعسكرات العربية في ثنايا الأشعار التالية ، وكانت هذه المعسكرات قد انفصلت عن بعضها البعض نتيجة للخلافات العشائرية ، ولهذا لم تكن على علم بالخطر الوشيك الوقوع ، ولم تكن تعيره اهتماما[2] :

أبلـغ ربيعـة في مرو وأخوتها أن يغضبوا قبل أن لا ينفع الغضب
ما بالكم تلقحـون الحـرب بينكم كأن أهل الحجى عن فعلكم غيب
وتتـركون عدواً قد أظلكـم ممـن تأشـب لا دين ولا حسب
ليسـوا إلى عرب منـا فتعرفهم ولا صميم الموالي ان هم نسبوا
قوم يدينـون دينـا ما سمعـت به عن الرسـول ولا جاءت به الكتب
فمـن يكن سائلي عن أصـل دينهم فـإن دينهـم أن تقتـل العرب[3]

[353] وقد كان هذا الإنذار بقرب حلول الأخطار ـ هو ونظائره ـ عديم الجدوى لا فائدة منه[4] . وكانـت خراسـان تعيش على أتـون من لهـب ، يغلي فيهـا مرجـل الغضب ، وتوشك الثورة أن تتفجر من بين جوانبها .

وحين اطمأن أبو مسلم آخر الأمر إلى أن كل شيء قد بات معدّاً مجهّزا ، رفع علم العباسيين الأسود ـ في يونيو من علم ٧٤٧م ـ في قرية سيفدنج قرب مرو[5] .

وكانت الآية الكريمة التالية مكتوبة على العلم ، وهي في الواقـع شعـار له

---

(١) تعليق المترجم : نفس المرجع والصفحة : أقول.

(٢) أنظر كتاب نولدكه الذي مر ذكره، ص ٨٨.

(٣) تعليق المترجم : نقلتُ صفحتي ٣٤٣، ٣٤٤ من الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ، طبع مصر ، مطبعة السعادة علم ١٣٣٠ هـ . ق، بناه على توجيه فروزا نفر.

(٤) أنظر الأشعار الحزينة التي نظمها الحارث بن عبدالله الجعدي ، والتي نظمها الأمير الأموي عباس بن الوليد . . . وهي الأشعار التي نقلها فن فلوتن في كتابه ص ٦٢ ، ٦٣ ، وانظر أيضاً كتاب الدينوري ، ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩.

(٥) فيا يتعلق بما يرمز إليه العلم الأسود ورداء العباسيين الأسود (المسميان المسوّدة) . . . إرجع إلى كتاب فن فلوتن (الصفحات من ٦٣ إلى ٦٥)، وإلى المراجع المذكورة في هذه الصفحات.

معناه ومغزاه : أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير[1] . ورغم هذا فإن حركة أبي مسلم لم تتجاوز حدود الشمال الشرقي لخراسان ونسا وأبيورد وهرات ومرو الروذ والأطراف .

وقد كتب الخليفة مروان في الرد على نصر بن سيار يقول[2] :

إن الحاضر يرى ما لا يرى الغائب ، فاحسم أنت هذا الداء الذي ظهر عندك . وكان التصرّف العملي الوحيد الذي أقدم عليه هو القبض على إبراهيم العباسي والزجّ به في السجن قبل إعطائه السم. ونتيجة لما حدث ، فر أخواه : أبو العباس وأبو جعفر برفقة بعض أقاربهما ، تاركين (الحميمة) ـ موطنهما في الشام ـ إلى الكوفة . وكان أبو سلمة وسائر رؤساء الشيعة يهتمون بهما في الكوفة حيث يختبئان .

وقد جاء في كتاب الفخري ما يلي : ثم نشبت المعارك بين أبي مسلم ونصر بن سيار وسائر أمراء خراسان ، وكان النصر لذوي الملابس السوداء . وكان الجنود [35] لهذا السبب يطلقون علي أبي مسلم لقبا هو : (ذو العباءة السوداء) . وقد اختير اللباس الأسود ليرتديه أفراد الأسرة العباسية . . فتأمّل قدرة الله تعالى ، واعلم أنه إذا أراد أمراً هيأ له الأسباب ، وإذا أمر بشيء فلن يحيد أحد عن أمره .

وبناء على ذلك ، فإن الله حين أصدر حكمه بنقل الحكم إلى الأسرة العباسية هيأ للأمر كل الأسباب والوسائل . لأن الإمام إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس كان معتكفا في الشام أو الحجاز ، متفرغا للصلاة والعبادة ، مهملا مصالح أسرته ، هاجرا النفوذ الدنيوي . . بينما أهالي خراسان يحاربون من أجله ولا يتوانون عن بذل المال والروح في سبيله ، وذلك في الوقت الذي كان فيه معظم الناس لا يعرفون اسمه أو شخصه .

---

(١) تعليق المترجم : سورة الحج ، ٢٢ الآية ٣٩ (طبع بصير الملك).

(٢) أنظر: كتاب الفخري ، ص ١٧٠ ـ ١٧١ .

فانظر كيف كان الإمام في حالة انقطاع عن الدنيا ، يقبع في منزله بالشام أو الحجاز . . . بينما هناك جيش عظيم في خراسان يضحّي بروحه فداه[1] . . . فهو لم ينفق مالا في ذلك السبيل ، ولم يعط أحدا سلاحا أو حصانا . . . بل الأمر على العكس من ذلك ، فقد كان الناس يمنحونه أموالهم ، ويحملون إليه الخراج سنويا . « حين أراد الله جلّت قدرته ، ارتدى مروان لباس الذل والعار ، وانقرض ملك بني أمية . لقد عرف الناس مروان خليفة ذا جند كثير ومال وفير وممتلكات وسلاح وضياع وعقار . . ومع ذلك كلّه تركوه وحيدا وتفرقوا أيدي سبا ، فوهن أمره وضعف نفوذه وتزلزلت قواعد ملكه . ثم هزم في نهاية الأمر وقتل (فتعالى الله) » .

[353] يقول ڤن ڤلوتن : « كان أبو مسلم شخصا عبوسا عنيدا قاسيا ، لا يهتم باللذائذ الدنيوية[2] . وكان حب أصحاب العباءات السوداء له وإقبالهم عليه يفوق كل حد ، حتى أنهم كانوا يضعون رقابهم تحت أمره . وكانوا لا يقبلون فدية أسير أو يقتلون عدوا دون أمر رؤسائهم .

أما العرب ، فكانوا من جانبهم يفتقرون إلى الحماسة والإحساس بحب الوطن ومعرفة الحق . كان كل واحد فيهم يجري وراء مصالحه الشخصية أو مصالح قبيلته ، وكان عليه تلافيا للخطر أن يجعل نفسه فداء بني أمية » .

ولو سايرنا اليعقوبي لقلنا إن اليمنيين في مرو كانت تغلب عليهم مشاعر الشيعة بأكملها ، ومع ذلك ، كان أبو مسلم يخطو بحزم وحيطة وتدبر وتفكير . فقد ظل يرقب جنوده سبعة أشهر في ضواحي مرو دون أن يتقدم تقدما جديا ، فلما اطمأن إلى مساندة الأعراب اليمنيين وضمن حمايتهم ، استولى على عاصمة خراسان واحتلّها . والحق أنه قد اتّسعت رقعة ثورة أبي مسلم وعمّ خطرها في هذه الفترة[3] .

(١) حذف المؤلف هذه الجملة ، وترجمناها عن الفخري ، طبع مصر ، ص ١٢٤ .

(٢) انظر كتابه ، ص ٦٥ ـ ٦٨ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٦٧ ، الدينوري ، ص ٣٦٠ .

وجاءت الافواج من كل حدب وصوب ، والتحقت بأبي مسلم . جاءوا لمعاونته من هرات وبوشنج ومرو الروذ وطالقان ومرو ونيشابور وسرخس وبلخ وصغانيان (چغانيان) وطخارستان وبلاد الختل وكش ونسف (نخشب)[1] .
وكانوا جميعا يلبسون ملابس سوداء ، ويمسكون في أيديهم عصيا تميل إلى السواد يدعونها مقرعة الكافر[2] . . بعضهم راجل وبعضهم راكب ، البعض يمتطي الخيول والبعض يركب الحمير .

[356] وكانوا ـ وعددهم مائة ألف شخص تقريبا ـ يتكلّمون في آذان الحمير ، ويحدثونها على أنها مروان ، فقد كان مروان الثاني يلقب بالحمار .

ومن يومها حتى عهد أبي العباس عبد الله السفاح (الملقّب بالمهدي) أول خليفة عباسي (بدأ حكمه في ٣٠ اكتوبر علم ٧٤٩م ، وألقى في اليوم المذكور الخطبة التي تلقى في هذه المناسبة) كان النصر والفتح والتقدّم نصيب أبي مسلم وحليف سائر الأئمة العباسيين بصفة دائمة .

« وكان الشخص الوحيد الوفي من بين رجال ذلك العهد الحافل بالخيانة والأنانية هو نصر بن سيار » . وقد مات في مدينة ساوه ـ في نوفمبر علم ٧٤٨م أثناء فراره . وفي شهر أغسطس من العلم التالي (٧٤٩) . . سيطر قحطبة على الكوفة . وفي الشهر نفسه ، هزم مروان بن عبد الله هزيمة منكرة على يد أبي عون في الزاب الصغرى[3] ، كما تعرّض مروان نفسه لهزيمة فاصلة في حوض نهر الزاب في ٢٥ يناير من علم ٧٥٠م . وبعد شهور ثلاثة سقطت دمشق عاصمة بني أمية في يد أعدائهم ، ووقع مروان آخر خليفة أموي في الأسر ، وكان متواريا في مصر . وتمّ قتله في الخامس من أغسطس من نفس العلم ، وأرسلت رأسه إلى أبي العباس .

---

(١) نفس المرجعين والصفحتين .

(٢) ضبطها الدينوري هكذا : (كافر كوبات) وصحة هذا اللفظ الكافر بكسر ثالثها ولكنهم يقرأونها في إيران بالفتحة ، وقد وردت في قافية أشعار قديمة أيضاً مع (بر) و(سر) وغيرهما .

(٣) تعليق المترجم : يقول افاى نقي زاده : لم يهزم مروان بن عبدالله على يد أبي عون ـ بل هُزم عبدالله بن مروان .

وفي العلم التالي (٧٥١م) تعرّض أفراد الأسرة الأموية للقتل العلم في فلسطين والبصرة وحتى في مكة المعظمة والمدينة الطيبة . وبقدر ما ظلموا وتجاوزوا، حدود الإنسانية ونشروا الخيانة تعرّضوا للنفور والاشمئزاز.

وقد تمكّن شخص باسم عبدالله الرحمن حفيد هشام من الوصول إلى أسبانيا آخر الأمر ، بعد أن فرّ مرارا ووجد مشقّة بالغة في الإفلات من الموت وقد رحّب العرب بقدومه، وأقام في هذه البلاد وأسس الدولة الأموية القرطبية التي استمرت [357] ثلاثة قرون تقريبا (٧٥٦ - ١٠٣١م)، وكانت تلم العباسيين بسبب احتقارهم خلفاء بني أمية في دمشق ونبش قبورهم .[1]

وقد ارتكب أحد قادة جيش انجلترا نفس الشيء في الآونة الأخيرة . وإذا لم نقل أن مواطنيه قد امتدحوه فإننا نقول - على الأقل - إنهم عفوا عنه . ولهذا يجب علينا ألا نستقبح عمل العباسيين أو نشتد في تقريعهم ولومهم .

وعلى كل حال ، فإن العباسيين حتى بعد عبورهم بحار الدم ووصولهم إلى الخلافة ، وبعد أن صاروا أصحاب النفوذ في إمبراطورية الإسلام الشرقية بلا معارضة . . لم يتمكنوا من نشر بساط العدل في سائر أنحاء العالم ، وكانوا أبعد ما يكونون عن هذه المرحلة، وقد قال أحد الشعراء في ذلك[2] :

فليت جور بني مروان عادلنا ... وليت عدل بني العباس في النار

وقد استولى اليأس التام على الكثيرين ممن عملوا بجديّة من أجل الثورة . . بعد أن قامت الثورة[3] . وقد سيطر اليأس على الشيعة خاصة ، لأن العباسيين كانوا يصدرون دعايتهم باسم بني هاشم وأغفلوا الشيعة الداعين لأسرة علي ، وقد عرف الشيعة الحقيقة بعد فوات الأوان ، وتنبهوا إلى أن لذرية الرسول - بين بني أعمامهم

(١) كتاب موير ، ص ٤٣٥ - ٤٣٦.

(٢) الأغاني، المجلد ١٦ ، ص ٨٤، (كتاب ڤلوتن ، ص ٦٩ ، نقلاً عن الأغاني) .

(٣) كتاب ڤلوتن، ص ٦٩ .

الهاشميين (أي في أسرة بني العباس) ـ أعداء يقولون في عداوتهم بني أمية الذين لا تربطهم بهم صلة الرحم .

[358] ولم يعف العباسيون حتى عن زعماء عمالهم الذين كانوا قد اختاروهم ليكونوا اليد المحركة والمنفذة لمخططاتهم . فقد قتلوا أبا سلمة غدراً عام ٧٤٩ ـ ٧٥٠م . وقد لقي أبو مسلم نفس المصير بعد أربعة أو خمسة أعوام[1] (٧٥٥م) . . مع أن النصر الذي ناله العباسيون كان يرجع في معظمه إلى همّة هذا الرجل ونبوغه النادر المثال ونشاطه وجديته .

وحقيقة الأمر ، أن كفاءة أبي مسلم النادرة لا تجعل قلوبنا تنفطر من أجله ؛ فقد تسبب قراره[2] في قتل مائة ألف شخص ، غير من هلكوا في الحرب ، كما قتل الآخرون ٦٠٠ الف شخص بدورهم[3] . لكنّه مع ذلك قد ولّد عند أتباعه شعور الفدائية على نحو قلّ نظيره . . حتى لقد كان لأتباعه من غير المسلمين نصيب من هذه الفدائية . يقول المؤرخ : [4] « هجر الدهاقنة (المُلاّك الإيرانيون) الدين المجوسي في عهده ، واعتنقوا الإسلام » .

وفيما يتعلق بالخرميين ـ الأكثر قرباً للشيعة ـ وبسائر الخياليين ممن كانوا يؤمنون بإمكانية التقريب بين المذاهب المختلفة والعقائد المتضادّة . . يقول ڤلوتن[5] :

[359] كان الكثيرون منهم يرون أنه وحده الإمام بحق . وقد يقولون إنه من نسل زردشت أو اشدربمي Oshêderbami (أوشيدر = هوشيدر بامي) أو اشدرمه Oshêderma (هوشيدرماه) . واشدرمه هذا هو نفسه المنتظر الذي ينتظر المجوس

(١) طبقاً لعقيدة الشيعة الاثني عشرية ، تمّ قتل كل أئمة الفرقة الإمامية الاثني عشرية في زمن العباسيين بالسم وبطريقة خفية ـ بصفة عامة ـ وذلك بناء على أمر الخلفاء . ولم يستثن من ذلك سوى الإمام الثاني عشر الذي ما زال باقياً ـ بناء على معجزة ـ في مدينة الأسرار (جابلقا) إلى وقتنا هذا . وسوف يظهر في هذه المدينة في فتنة آخر الزمان .

(٢) اليعقوبي ، جـ٢ ص ٤٣٩ .

(٣) موير ، هامش ص ٤٤٦

(٤) إبن أبي طاهر ، وينقل ڤلوتن عنه (ص ٦٧) .

(٥) نفس المرجع ، ص ٦٨ .

ظهوره كما ينتظر المسلمون ظهور المهدي . ولم تكن الفرق المذكورة تعتقد في موت أبي مسلم ، وكانت تنتظر ظهوره وتعتقد أنـه عائـد ليزين ممـالك الأرض بزينـة العدل .

وكان غير هؤلاء يعتقدون أن الإمامة قد وصلت لابنتـه فاطمـة . وقـد فر التركي المسمى إسحق[1] إلى ما وراء النهر عقب موت أبي مسلم ، وهناك ادعى أنه من دعاة أبي مسلم وأنه من المبلغين ، وقال إن مولاه قد اختفى في مدينة الري . ثم ما لبث أن ادعى النبوّة وقال إنه مبعوث زردشت ، وقد كلّفه بحمل الرسالة ، كما زعم أن زردشت ما زال حياً .

وقد ظل الحديث دائراً حول الخرّميين أو الخرم دينيين ـ الذين كانت تتشابه أصـول عقائدهـم فيما يبـدو مع أصـول عقائـد مزدك ـ مدة قرن اخـر . (أنظر الصفحات من ٢٤٩ ـ الى ٢٥٥) . وترتبط الفتن والثورات التي نشبـت ـ جديّة عنيفة كانت أم بسيطة هيّنة ـ في معظم نقاطها بفكر أبي مسلم . . ونعني بها الفتن والثورات التي أحدثها المتنبئون الكاذبون أمثال سنباذ المجوسي (٧٥٤ ـ ٧٥٥م) ، واستاذسيس (٧٦٦ ـ ٧٦٨م) ، ويوسف البرم ، والمقنع رسول خراسان ذو النقاب (٧٧٧ ـ ٧٨٠م) ، وعلي مزدك (٨٣٣م) ، وبابك (٨١٦ ـ ٨٣٨م) .

إن لم يكن قد نجم عن الثورة التي أوصلت العباسيين إلى سرير الحكم أي أثر ، فهي على الأقل قد غيّرت وضع الإيرانيين تماماً . ونعني بذلك أن القوم الذين كانوا تابعين ، يؤدون الخراج ويتعرّضون للّعن والإهانات . . قد ارتفعوا ـ عقـب هذه الثورة مباشرة ـ من حضيض الذلة إلى أوج العـز ، واحتلـوا ناصية أسمـى المناصب ، وشغلوا أكبـر القيادات نفـوذاً . بفضـل قوة سيف الإيرانيين خرجـت الأسرة العباسية من ميدان القتال منصورة ظافرة . ولا بدّ أن هناك سبباً وراء تسمية [360]

---

(١) كما أوضح صاحب الفهرست (ص ٣٤٥) فقد أطلق على هذا الشخص اسم التركي لأنه كان يبث دعوته في بلاد الترك .

أبي ريحان البيروني للعباسيين بالخراسانيين ، وتسميته تلك السلسلة بسلسلة الخلفاء الشرقيين[1] .

والحقّ أنه يمكن القول بأن الثأر للقادسية ونهاوند قد تمّ بجوار نهر الزاب ، وما سقوط بني أمية إلا نهاية لعصر . . هو عصر العرب الخالص[2] .

(١) الآثار الباقية ، ترجمة زاخو Sachau ص ١٩٧ .

(٢) أنظر إلى الأشعار الهامة التي نقلها فن كرمر في كتابه حول تاريخ الحضارة الإسلامية . والمتن موجود في صفحتي ٦٩/٧٠ ، والترجمة في صفحتي ٣١/٣٢ . وفي هذه الأشعار ، يشكو شاعر العرب مرّ الشكوى من غرور الموالي الايرانيين والنبطيين الذين كانوا في يوم ما أذلّة حقراء .

إيضافات وإيضاحات للمترجم

في صفحة ٣٧، السطر ١٣

يذكر براون أن الفتح الإسلامي لإيران قد مرَّ عليه أكثر من ١٢٠٠ عام، وقد اعتمد في ذلك على انتهائه من تأليف الجزء الأول من هذا الكتاب في ١٤ سبتمبر عام ١٩٠٢ م. والواقع ان نصر العرب على الفرس في المعركة الفاصلة «نهاوند» قد تمَّ في عام ٢١ هـ ، وان مصرع يزدجرد آخر ملوك الأكاسرة، ونهاية الصراع، كان في عام ٣١ هـ (٦٥١ـ٦٥٢ م). ولذا يمكننا الآن ـ ونحن في عام ١٤١٣/١٤١٤ هـ = ١٩٩٢/١٩٩٣ م ـ أن نقول إن الفتح الإسلامي لإيران قد مرَّ عليه أكثر من ١٣٠٠ عام.

(انظر = ٣٥٠٠ عام من عمر ايران للدكتور احمد كمال الدين، ص ٢٦٠، طبع مؤسسة الصباح، الكويت، ١٩٧٩ م).

* * *

في صفحة ٤٠

يعقد براون مقارنة بين حملة العرب على ايران.. تلك الحملة التي أطاحت بالدولة الساسانية والدين الزردشتي، وبين حملة الإسكندر التي انتهت بسيادة اتباعه على ايران، ويرى أنَّ فترة حكم أتباع الإسكندر ـ التي تبلغ حوالي ٥٥٠ عاماً (٣٣٠ ق.م. ـ ٢٢٦م) ـ كانت أقصر بكثير من فترة حكم العرب.. لكنّها مع ذلك قد أثرت في شعب إيران وأفكاره ولغته تأثيراً أكثر عمقاً ودواماً. وهو لم يعد الحقَّ فيما قاله من جهة عمق التأثير ودوامه، غير أنَّ سيادة العرب التي بدأت مع هجومهم وانتهت بزوال الخلافة العباسيّة من الوجود على يد المغول في عهد المستعصم بالله، عام ٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م.، والتي تزيد على الستمائة سنة ـ هي الأطول.

(انظر: السلاجقة في التاريخ والحضارة للدكتور احمد كمال الدين، الفصل الثامن، ص ١٥٨ـ١٦٦، ط٢. ذات السلاسل بالكويت، ١٩٨٦ م).

* * *

في السطر الأخير من صفحة ٤٠ يؤكد براون ان الصفاريين وليس الطاهريون هم أول من تمرّد من الأمراء على الخلافة العباسيّة... مع أن الثابت تاريخياً هو أن طاهر بن الحسين ـ مؤسس الأسرة الطاهرية ـ حين توطّدت صلته بالناس ـ حاول أن يستقل بخراسان عن الخلافة. فكان أن أسقط اسم المأمون من الخطبة، وبدلاً من الدعاء باسم الخليفة قال:

«اللهُمَّ أَصْلِح أُمَّة محمدٍ بما أصلحتَ به أولياءك، واكْفِنا مؤونةَ من بَغى علينا...».

وبلغ الخليفةُ العباسي خبره فقرّر عزله، ولكنه مات في نفس اليوم بتأثير الحُمّى أو بإيعازٍ من المأمون... الذي وَلّى مكانه ابنه طلحة بن طاهر على خلافِ ما هو منتظَر خوفاً من ثورة الخراسانيين، ولا شكّ أنه بذلك قد أفقد الخلافة أقصى ولاياتها في الشرق؛ فقد استقلّت خراسان في الواقع وباتت تبعيّتها للخلافة تبعيّة ظاهريّة.

(٣٥٠٠ عام من عمر إيران، ص ٢٩٠ـ٢٩١).

* * *

في صفحة ٤٧ تحت عنوان «النثر» يتحدث براون عن أقدم نماذج النثر، فيحصرها في الترجمة الفارسيّة لتاريخ الطبري، وكتاب الأبنية على حقايق الأدوية، والجزء الثاني من التفسير القديم للقرآن. ويمكننا أن نضيف إلى ما أورده الأعمال النثرية التالية:

(١) مقدمة شاهنامة المنصوري التي وضعها جماعة من العلماء في منتصف القرن الرابع الهجري.

(٢) حدود العالم من المشرق إلى المغرب، وهو مجهول المؤلف، يرجع تأليفه إلى عام ٣٧٢ هـ .

(٣) عجائب البلدان (عجائب بر وبحر، كتاب بلدان) لأبي المؤيد البلخي ... المؤلَّف في الفترة بين عامي ٣٦٦_٣٨٧ هـ .

(٤) گرشاسب نامه (شاهنامة أبي المؤيد اللخي) المؤلَّف في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري.

وإذا كانت هذه هي الآثار التي بين أيدينا فإنَّ هناك غيرها مما يُعتبر في حكم المفقود، مثل:

كتاب به أفرين، والترجمة الفارسيَّة لكتاب شاناق الهندي، وفرهنك ابي حفص السغدي، وكتاب لغة فارس، وشاهنامة ابو منصور. ويمكن معرفة الكثير عنها بالرجوع إلى ٣٥٠٠ عام من عمر ايران، ص ٣١٦_٣٢١.

* * *

توضيحاً لما جاء في صفحة ٤٨ السطر السابع يمكننا الرجوع إلى تذكرة دولتشاه السمرقندي، طبع براون، ص ٢٨ و٢٩ وإلى ٣٥٠٠ من عمر ايران، ص ٢٥١، ٢٥٢، حيث نجد أنَّ نصَّ البيت الفارسي المنسوب لبهرامگور هو:

مَنَم آن شيرشله مَنَم آن بيريله   مَنَم آن بهرامگور مَنَم آن بوجبله

والمعنى:

أنا الأسد الهصور أنا الفهد الكاسر، أنا بهرامگور أنا أبو جبلة.

ويقال إن بهرام قد نظم الشطرة الأولى على النحو التالي:

منم آن پيبيل دمان منم آن شيريله

(أنا الفيل الهائج أنا الأسد الكاسر).

وأن جاريته دلارام قد نظمت الشطرة الثانية على النحو التالي:

نام بهرام تُرا   وپدرت بوجبله

(إسمك بهرام وأبوك أبو جبلة)

في صفحة ٤٩ وفي السطر الثامن منها يورد براون خبراً استقاه من كتاب لباب الألباب لعوفي، ويعتمد الخبر على عدة أبيات نقلها عوفي من قصيدة فارسية. وهذا نص الأبيات التي لم يوردها براون:

أي رسانيده بدولت فرق خود تافرقدين
گُسترانيده بجود وفضل در عالم يدين

مر خلافت را تو تشايسته جو مردم ديده را
دين يزدان را تو بايسته چورُخ را هر دوعين

گس برين منوال پيش از من چنين شعري نگفت
مر زبان پارس را هست تا اين نوع ببين

ليك ازان گفتم من اين مِدْحَت تُرا تا اين لُغَت
گيرد از مدح وثناي حضرتِ تو زيب وزين

والمعنى:

- يا من أوصلتَ مفرقك إلى الفرقدين بجاهك وسلطانك،
وبسطت يديك في العالم بفضلك وإحسانك.

- أنت للخلافة كإنسان العين للعين، سواء بسواء،
ولازم لدين الله لزوم العينين للوجه، لا مراء.

- لم يسبقني أحد إلى نظم شعرٍ كهذا في كل البريئة،
ولم تقع العين على مِثله مذ كانت اللغة الفارسيّة.

- لكني مدحتك بهذه اللغة ووجَّهت هذا القول إليك.
لتقتبس الفارسيّة جمالاً وحسناً من مدحك والثناء عليك.

* * *

يدير براون حديثاً مختصراً حول الدولة الميديّة. ويمكننا بالرجوع إلى صفحة ١١٤ وما بعدها من كتاب ٣٥٠٠ عام من عمر إيران معرفة أن هذه الدولة قد تمكّنت خلال قرن ونصف قرن من سيطرتها ـ إثر انقراض الدولة الآشورية القويّة ـ من تأسيس إمبراطوريّة واسعة مترامية الأطراف، كانت تمتدُّ من جنوب إيران حتى تشمل قسماً من أراضي آسيا الصغرى. ولم تلفت القبائل الميديّة نظر القبائل الإيرانيّة المتفرّقة إلى الدول المستقلّة المستقرّة المتمركزة فحسب ـ بل إنها كانت أولى القبائل الإيرانيّة التي بسطت نفوذها خارج أراضي الآريين الإيرانيين، وعلّمت زميلاتها في العنصر والأرومة كيفيّة تشكيل الإمبراطوريات.

وتصل المدّة ما بين العام الذي وضع فيه الماديّون حجر الأساس لامبراطوريّتهم، وبين زماننا الحالي ما يزيد على ٢٧٠٠ عام. ويُعَدُّ (هووخشتر) أعظم ملوك الميديين، وقد توفي عام ٥٨٤ ق.م. بعد أن وسّع رقعة دولته بحيث شملت آشور وميديا وفارس بعد ان كانت مجرّد ولاية تابعة لغيرها.

وعن الميديين أخذ الفرس لغتهم الآريّة وحروفهم الهجائيّة التي تبلغ ٣٦ حرفاً. وتأثُّراً بهم، استبدل الفرس في الكتابة الرق والأقلام بألواح الطين، كما أخذوا عنهم قانونهم الأخلاقي. هذا، وقد كان ملوك الإمبراطوريّة الميديّة يحترمون دين المجوس ويعترفون به رسمياً.

يذكر براون النار في صفحة ١٩٠ أثناء حديثه عن الأسرة البيشراديّة، ويؤكد أن هوشنك هو الذي استخرجها من الحجر والفولاذ بطريق الصدفة، مما جعله يقرُّ عيداً يقام كل عام إحياء لذكرى هذا الاكتشاف الكبير... أسماه جَشْن سَده (عيد سده) وقد اعتمد براون في ذكره لهذا الخبر على ما أورده الفردوسي في شاهنامته... فقد ذكر هذا الشاعر أن هوشنج رأى ثعباناً أثناء تجواله، فقال إن جميع الحيوانات منّا إلاّ هذا، وألقاه بحجرٍ فأخطأه، فقدح الحجر بالصخر فاشتعلت الأرض واحترقت الحيّة، فاعتبر هو وقومه النار عوناً من الله وعليهم

احترامها؛ فكان العيد الفارسي: جشن سده الذي يَحتفل به في العاشر من بهمن = ٣٠ كانون الثاني.

(انظر: شاهنامة الفردوسي ـ ملحمة الفرس الخالدة للدكتور احمد كمال الدين، مجلة عالم الفكر، الكويت، م ١٦، العدد الأول، ص ٧٠، ٧١).

* * *

. في السطر الثامن عشر من صفحة ٢٠٤ يسجّل براون اسم الدقيقي لكنه يرجىء الحديث عنه في الجزء الأول من كتابه. والدقيقي هو أبو منصور محمد بن احمد، آخر الشعراء المبرزين في الدولة السامانيّة. ينسبه البعض إلى طوس والبعض إلى بلخ، ويرى آخرون وجوب نسبته إلى بخاري أو سمرقند.

سُمي بالدقيقي بسبب دقَّة ورقَّة ألفاظه. عَمِلَ في خدمة الجفانيين والسامانيين، وعلت مكانته بين معاصريه، وحظى بمديح الكثيرين. ويشتهر بأنه أول من بدأ نظم الشاهنامة. فقد نظم منها ألف بيت بأمر نوح بن منصور، ووصل بنظمه إلى ظهور زرادشت وديانته أيام كشتاسب، ثم أكملها الفردوس الطوسي نظراً لموت الدقيقي المفاجىء نتيجة طعنة خنجرٍ من غلام تركيٍ لأنه كان يبطن المجوسيَّة.

(انظر: ٣٥٠٠ عام من عمر ايران، ص ٣٣٢ـ٣٣٥).

في صفحة ٢٦٢ يورد براون قصة الخلاص من مزدك والمزدكيَّة، وقد وردت القصة في أكثر من مصدر بأكثر من صورة. وفي رواية طويلة كتبها حول مزدك اقتربت كثيراً مما أورده نظام الملك خاصاً بمصرعه ومصرع العديد من أتباعه على يد أنوشيروان.

(انظر: «النار تتكلم» للدكتور أحمد كمال الدين، نشر مؤسسة الصباح بالكويت، ١٩٨٠ م).

* * *

. صفحة ٣٣١، السطر ٧

استند الخوارج في إطلاق لقب الشراة على أنفسهم إلى الآية ٢٠٧ من سورة البقرة، ونصُّها:

ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاءَ مرضات الله والله رءوف بالعباد.

وإلى الآية ١١١ من سورة التوبة، ونصها:

إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنَّة يقاتلون في سبيل الله فيَقْتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً من التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتُم به وذلك هو الفوز العظيم.

* * *

. صفحة ٣٣٧، السطر الأول

نص أبيات الغزليّة بالفارسيَّة نقلاً عن «ديوان خواجه حافظ شيرازي» نشر سازمان انتشارات جاويدان، ص ١، الطبعة السابعة، ١٣٤٧:

ألا يا أيُّها الساقي أدر كأساً وناولها

که عشق آسان نهود اول، ولي افتاد مشكلها

ببوى نافه ئى كآخر صبازان طره بگشايد

زتاب جعد مشكينش جه خون افتاد در دلها!

مرا در منزل جانان امن عيش جون هردم

جرس فرياد ميدارد كه «بربنديد محملها!»

بمى سجاده رنگين كن گرت پيرمغان گويد

كه سالك بى خبر نبود زراه ورسم منزلها

همه كارم زخود كامى به بد نامى كشيد آخر

نهان كي ماند آن رازي كزو سازند محفلها؟

شب تاريك وبيم موج وگردابى جنين هايل

كجا دانند حال ما سبكباران ساحلها؟

حضوري كرهمى خواهى ازو غايب مشو حافظ

متى ما تلْقَ من تَهْوى دعِ الدنيا واهْمِلْها

ويرى القزويني (مجله، يا دگار، سالِ اول، شماره، ٩) أنه من الخطأ أن ينسب المصراع العربي ـ الذي تبدأ به الغزليّة ليزيد بن معاوية. وقد ورد في شرح ديوان الأحنف «ص ٦٣، طبع بغداد، ١٩٤٧ م».

بيتٌ لعباس بن أحنف الشاعر المعاصر لهارون الرشيد، يقترب مضمونه من المصراع المذكور، نصُّه:

يا أيُّها الساقي أدر كأسنا واكرر علينا سيد الأشربات

* * *

. صفحة ٣٤٢، الفقرة الرابعة

استعملت العربية في الدواوين بدلاً من الفارسيّة ـ لأول مرّة ـ في عهد عبد الملك الخليفة الأموي بايعاز وتوجيه من الحجاج بن يوسف الثقفي.

فهرست مختصر

للمؤلفات الأوروبية التي استخدمت في هذا المجلد



[697] ترد في هذا الفهرست الكتب الشرقية فقط التي ترجمت إلى لغة أوروبية ، أما أسماء سائر الكتب التي وردت في متن الكتاب فقد سطرت في الفهرست العام المثبت في آخر الكتاب . . وقد سطرت بأصلها الإنجليزي مع استخدام الحروف المائلة جهة اليمين. كما ميّزت المؤلفات التي استشهد بها - إلى جانب الخط المائل - بوجود نجمة بجوارها . ومعظم ما ذكر من مؤلفات ما زال غير مطبوع ، وقد اشترطت المكتبات التي تقتني النسخ الخطيّة لهذه المؤلفات شروطاً تجعل الاستفادة منها محدودة إلى حد ما .

وتعتبر مكتبات القارة الأوروبية الكبرى كلها تقريباً كريمة معوانة تفتح كنوزها لباقي المكتبات ، بل وتعير العلماء في حرية . ومن أكثر المكتبات الإنجليزية سخاء مكتبة وزارة الهند ومكتبة الجمعية الملكية الأسيوية.[1] تليهما مكتبة جامعة كمبريدج ثم مكتبة بودلين[2] . أما المتحف البريطاني فإنه لا يعير مخطوطاته إطلاقاً مهما كانت الظروف ، وهذا يلحق ضرراً بليغاً بعالم العلم والأدب .

وفي انجلترا توجد مكتبة أو مكتبتان تمتلكان مجموعات نفيسة من [69] المخطوطات الشرقية . . لكنهما تخلقان المشاكل حتى أمام العلماء والفضلاء ممن يرغبون في الاطّلاع بقاعة المكتبة .

وإذا تطرقنا بالحديث إلى المكتبات الخاصة كان من الإنصاف أن نذكر مكتبة لورد كرافورد[3] ونشيد بكرمه نحونا. ومن المؤسف للغاية أن باتت مجموعة مخطوطاته الشرقية النفيسة في يد أشخاص لا يضاهونه كرماً وسخاء.

---

(١) انجمن سلطنتي أسياني Royal Asiatic Society

(٢) Bodleian

(٣) Lord Crawford.

هذا وقد أوردت أسماء الكتب في هذا الفهرست وفقاً لترتيب الموضوعات والأزمنة ، واكتفيت بذكر نخبة من أهم الكتب ، وميّزت الكتاب النفيس من بينها بنجمة وضعتها ، وقصدت بلفظ (قديم) . . قبل الإسلام ، وبلفظ (جديد) . . بعد الإسلام . وعلى القارىء الذي يبغي دليلاً أفضل أن يلجأ إلى فهرست الكتب الجغرافية وكتب الرحلات والأسفار الذي رتبه لورد كرزن في كتابه العظيم الخاص برحلات إيران (في الصفحات من ١٦ ـ ١٨)[1] ، أو يلجأ إلى فهرست المؤلفات الأدبية والتاريخية واللغوية الذي وضعه زالمن وجوكوفسكي (في الصفحات من ١٠٥ ـ ١٠٨) من كتابهما قواعد اللغة الفارسية .[2]

وبالنسبة لمواضيع الكتاب الذي وضعه جايجر وكون خاصاً بمبادىء فقه اللغة الايرانية[3] ، أثبت المؤلفان فهرساً كاملاً في مقدمة كل باب من أبواب الكتاب . . يشتمل على المراجع والمصادر الخاصة بالموضوع .

كما ورد فهرس قيّم جداً في مقدمة رسالة برفسور جاكسون الأمريكي الخاصة بزردشت[4] وهو فهرس يدور حول الكتب الخاصّة بالدين الزردشتي .

(١) Persia and the Persian Question by the Hon. George N. Curzon, M., P, London, 1892.

(٢) Salemann and Zhukovski, Persische Grammatik

(٣) Geiger and Kuhn, Grundriss der Iranischen Philologie.

(٤) Professor A.V. Williams Jackson, Monograph. On Zoroaster (New York, 1899).

(ألف) التاريخ العام وعلم اللغـة

69] ١* ـ أساس فقه اللغة الايرانية :

ساهم في تدوينه كل من بارتـولمه ، اتـه ، جلـدز ، هرن ، هوبشمـن ، جاكسـون ، يوستي ، نولدكه ، زلمن ، ويسباخ ، ووست . وقـد تم نشره في علم ١٨٩٥ في اشتراسبورج بإشراف جايجروكون .

وهو كتاب قيّم لا يقدّر بمال ، ويعتبر دائرة معارف فيما يتعلق بفقـه اللغـة الفارسية . ويبحث الجزء الأول منه في تاريخ اللغات الايرانية القديمة . . خاصة لغة الأفستا والفارسية القديمة والفارسية المتوسطة أو البهلـوية . ويبحـث الجـزء الثاني في آداب اللغات المذكورة والفارسية الحديثة ، وبه فصل خاص بموضـوع الحماسة الوطنية كتبه البرفسور نولدكه . ويدور الحديث في الجـزء الثالـث حول الجغرافيا والنسب والتاريخ (حتى العصر الحديث)، وحـول الـدين والعمـلات والخطوط الايرانيـة .

*1. Grundriss der Iranischen Philologie. Unter Mituirkung Von Chr. Bartholomae, C.H. Ethé, K.F. Geldner, P.Horn, H. Hubschmann, A.V.W.Jackson, F. Justi, Th.Noldeke, C.Salemann, A.Socin, F.H. Wilhelm Geiger Und Ernst Kuhn (Strassburgh, 1895).

٢* ـ أعلام الايرانيين (مشاهير الايرانييـن) ،

تأليف فرديناند يوستى (طبع ماربورج ١٨٩٥م) وهو ثبـت بأسماء الوطنيين من رجال إيران . وترجع عظمته إلى إثباته أسماء إيرانيين هم أسماء إيرانية أصيلة (ليست عربية ولا إسلامية) .

*2. Iranisches Namenbuch, Von Ferdinand Justi (Marbung, 1895).

[700] ٣* - المعجم الجغرافي والتاريخي والأدبي لإيران والممالك المجاورة لها .

وهو مستخرج من معجم البلدان لياقوت . ألّفه باربيه دومينار الفرنسي ، وطبع في باريس علم ١٨٦١م .

*3. Dictionnaire géographique, historique et littéraire de la peose et des Contrées adjacentes, extriat du Modjem-el-Bouldan de Yacout... par C.Barbier de Meynard (Paris, 1861).

٤* - الترجمة الفرنسية لتاريخ الطبـــري .

وضعها زوتنبرج لترجمة البلعمي الفارسية (طبع باريس ١٨٦٧ - ١٨٧٤م) في أربع مجلدات ، وهي أفضل وسيلة يلجأ إليها الأوروبيون لمعرفة تاريخ الدنيا العلم بما فيه تاريخ إيران . . . من وجهة نظر المؤرخين المسلمين .

*4. Chronique de... Tabari, Traduite sur la Version Persane de... Bal'ami... par M.Hermann Zotenberg, 4 Vols. Paris, 1867-74.

٥ - تاريخ إيران ، تأليف سيرجان ملكم (من أقدم الأزمنة حتى العصر الحالي) في مجلدين، طبع لندن علم ١٨١٥ م.

5. Sir John Malcolm, History of Persia from the Most Early period to the present time... (2vols., London, 1815).

٦ - كليمنت ماركهم : تاريخ إيران العلم (مجلد واحد - طبع لندن ١٨٧٤م).

6. Clement Markham, General Sketch of the History of persia (1 Vol., London, 1874).

٧* - دراسات إيرانية ، بقلم دارمستتر (في مجلدين ، طبع باريس ١٨٨٣م) الجزء الأول منه يتعلّق بدراسات حول تاريخ قواعد اللغة الفارسية . والثاني خاص بلغة إيران القديمة وآدابها ودياناتها .

*7. Darmesteter, Etudes Iraniennes, (2 Vols., Paris, 1883).

٨ ـ الترجمة الإنجليزية لكتاب الآثار الباقية لأبي ريحان البيروني ، بقلم الدكتور زاخو (طبع لندن ١٨٧٩م).

8. Dr. C.E. Sachau, English translation of al-Biruni's chronology of Ancient Nations (London, 1879.)

٩ ـ مروج الذهب للمسعودي ، متن الكتاب مصحوباً بترجمة فرنسية بقلم باربيه دو مينار وباوه دوكورتي (طبع باريس ١٨٦١ ـ ١٨٧٧م) ، ويقع في تسعة أجزاء.

9. Les prairies d'Or, texte et traduction par C. Barbier de Meynard et Pavet de Courteille (Paris 1861, 1877).

(ب) التاريخ القديم

[701

١٠* علم إيران القديمة ، تأليف فريدريك اشبيجل (في ثلاثة أجزاء ـ طبع لايبزيج في تاريخ ١٨٧١ ـ ١٨٧٨م). كتاب قيّم ، يبحث في تاريخ أديان إيران وآثارها القديمة (من أقدم العهود حتى سقوط السلسلة الساسانية).

*10. Eranische Alterthumskunde, Von Fr.Spiegel (3 Vols... Leipzig, 1871-1878).

١١ ـ تاريخ إيران القديم ، تأليف الدكتور فرديناند يوستى (طبع برلين ١٨٧٩م) يبحث كذلك في تاريخ العصور التي تحدث عنها اشبيجل في الكتاب السابق الذكر . وهو من جهة الحجم أصغر منه ، يلقى قبولاً ورواجاً عنه ، ويشتمل على خريطة واحدة وأكثر من صورة.

11. Geschichte des alter persiens, Von Dr. Ferdinand Justi (Berlin 1879).

١٢ ـ موضوعات حول تاريخ إيران ، تأليف نولدكه (طبع ليبزيج ١٨٨٧م).
كتاب باللغة الألمانية ، يعدُّ في الحقيقة تهذيباً وإسهاباً للمقالة التي نشرها ذلك العالم الكبير في الطبعة التاسعة من دائرة المعارف البريطانية ، والتي تدور حول تاريخ إيران القديم وتنتهي بنهاية الدولة الساسانية.

12. Aufsatze Zur Persischen Geschichte Von Th.Noldeke (Leipzig, 1887).

١٣ ـ الميديون (شعب ماد) ولغتهم ، تأليف جول ابر (طبع باريس ١٨٧٩م).

13. Le peuple et la Langue des Mèdes, Par Jules Oppert (Paris, 1879).

[702] ١٤ ـ ج ـ رالينسون: الممالك الخمسة الكبرى في دنيا الشرق القديم . مؤلف في الجغرافيا والآثار القديمة . . في كل من كلدة وآشور وبابل وماد وفارس . نشرت طبعته الأولى في لندن علم ١٨٦٢م وتقع في جزءين . ونشرت الطبعة الثانية علم ١٨١٨م وتقع في ثلاثة أجزاء ، يتصل الأخيران منها بماد وإيران الهخامنشية .

14. G.Rawlinson, Five Great Monarchies of the Ancient Eastern World, or the History, Geography, and Antiquities of Chaldea, Assyria, Babylon, Media, and Persia.

١٥ ـ ج. رالينسون : المملكة السادسة الكبرى من ممالك الشرق . مؤلف في جغرافيا بارثيا وتاريخها وآثارها القديمة (طبع لندن ١٨٧٣م).

15. G. Rawlinson, Sixth Great Oriental Monarchy, Or the Geography, History and Antiquities of Parthia (London, 1873).

١٦ ـ ج. رالينسون: المملكة السابعة الكبرى من ممالك الشرق ، مؤلف في الجغرافيا والتاريخ وآثار الساسانيين القديمة أو إمبراطورية إيران الجديدة طبع لندن علم ١٨٧٦م.

16. G.Rawlinson, Seventh Great Oriental Monerchy, or the Geography, etc. of the Sasanian or New Persian Empire (London, 1876).

١٧ - ج. رالينسون : كتاب پارتيا ، ضمن سلسلة الكتب التي وضعت حول تاريخ الشعوب ، (طبع لندن ١٨٩٣م).

17. G.Rawlinson, Parthia, in the story of the Nations series (London, 1893).

١٨* - نولدكه:

تاريخ الإيرانيين والعرب في عهد الساسانيين ، ترجمة عن تاريخ الطبري ، مصحوبة بتعليقات وشرح وتكملة (طبع ليدن ١٨٧٩م). ومن المسلم به أن هذا أفضل كتاب كتب حول العصر الساساني .

*18. Prof. Th. Noldeke, Geschichte der perser und Araber Sur Zeit der Sasaniden, Aus der arabischen Chronick des Tabri Ubersetzt, und mit ausfuhrlichen Erlauterungen und Erganzungen Versehn (Leyden, 1879).

١٩ - پروفسور هايد:

تاريخ ديانات فارس و پارثيا وماد القديمة.

كتاب نشرت طبعته الأولى في أكسفورد عام ١٧٠٠م، والثانية عام ١٧٦٠م. ورغم أنه يعد من الكتب المنسوخة فإنه ما زال موضع الاهتمام. وهو يحتوي على إشارات هامة يمكن الاستفادة منها.

19. Prof. Thomas Hyde, Veterum Persarum et Parthorum et Medorum Religionis Historia (first edition, Oxford, 1700, second edition, 1760).

[70] ٢٠ - جايجر،

ثقافة الإيرانيين الشرقية في الأزمنة القديمة.

طبع هذا الكتاب عام ١٨٨٢م ، وترجم من الألمانية إلى الإنجليزية في لندن عام ١٨٨٥م على يد داراب پشوتن سنجانا .

20. Geiger, Ostiranische Kultur im Altertum (1882); English translation of the same by Darab Dastur Peshotan Sanjana: Civilization of the Eastern Iranians in Ancient Times (London, 1885).

(ج) فقه اللغـــة القديـــم

الفارسية القديمـــة

٢١ ـ تخت جمشيد، تأليف اشترلتزه. طبع علم ١٨٨٢م مصحوباً بمقدمـة بقلـم نولدكه وكثير من الصور الجميلة التي تصوّر الأطلال والنقوش الحجرية.

21. F. Stolze, Persepolis, With introduction by Noldeke.

٢٢ ـ ديولافوا: الصناعات القديمة في إيران. طبع في باريس علم ١٨٨٤م.

M.Dieulafoy: L'Art Antique de la perse (Paris, 1884).

٢٣* ـ اشبيجل: الخطوط المسمارية في إيران القديمة.

نشر المتن والترجمة في لايبزج علم ١٨٦٢ مصحوباً بقواعد اللغة ومفرداتها، ثم طبع بعد ذلك مرة أخرى بصورة أكثر تفصيلاً وذلك في علم ١٨٨١م.

*23. Fr. Spiegel: Die Altpersischen Keilinschritten im Grundtexte, mit ubersetzung, Grammatik und Glossar (Leipzig, 1862; Second and enlarged edition, 1881).

٢٤* ـ كاسو ويج: نقوش إيران الحجرية القديمة في العهد الهخامنشي.

طبع الكتـاب في سان بطرسبـرج علم ١٨٧٢، وكان طبـع النقـوش بالخـط المسماري.

*24. Dr. C.Kossowiez: Inscriptiones palaco-Persincoe Achaemenidarum (St-Petersburg, 1872).

أوستــا

٢٥ ـ بورنوف: الونديداد البسيط. كتاب من كتب زردشت، طبع في باريس طبعة حجرية فيما بين عامي ١٨٢٩، ١٨٤٣م، بناء على نسخة الزند التـي تملكها المكتبة الملكيـــة.

25. Eugene Burnouf: Vendidad Sade (Paris, 1829- 1843).

704] ٢٦ ـ بروكهاوس: الونديداد البسيط ، آثار زردشت المقدّسة ، اليسنا والويسبرد والونديداد ، طبع في لايزيج علم ١٨٥٠م، طبقاً لطبعة باريس وبمباي الحجرية ، مصحوباً بفهرست ومعجم .

26.H. Brockhaus: Vendidad Sade, die heiligen schriften Zoroaster's yacna, vispered und vendidad, nach den lithographirten Ausgaben von Paris und Bombay, mit Index und Glossar herausgegeben (Leipzig, 1850).

٢٧ ـ وسترگارد: زنـد اوستـا: الجـزء الأول، متـون الزنـد (كوبنهاجـن ٥٢ ـ ١٨٥٤م)

27. N.L.Westergaard: Zendavesta.. Vol.1, the Zend texts, (Copenhagen 1852-54).

٢٨ ـ اشبيجل: الأوستا ، الأصل مع ترجمة الهزوارش . طبع في مجلدين بفينا فيما بين عامي ١٨٥٣ ـ ١٨٥٨م .

28. Fr.Spiegel: Avesta.. im Grund texte sammt der Huzvaresh ilbersetzung (2 vols... Vienna, 1853-58).

٢٩ ـ جلدنر: الأفستا . . (في ثلاثة أجـزاء ـ طبـع اشتوتجـارت ، علم ١٨٨٦ ـ ١٨٩٥م).

29. K.F. Geldner: Avesta.. (3 parts, Stuttgart, 1886-95).

٣٠ ـ ميلـز ودارمستتـر : الترجمـة الإنجليزية للمجلـدات: الرابـع ، والثالـث والعشرين ، والحادي والثلاثين من الزند افستـا ـ أخـذا من كتـب الشرق المقدسة التي ألفها البروفسـور مكس مولـر. . (طبـع اكسفـورد ١٨٧٧ ، ١٨٨٠ ، ١٨٨٣م). وقد طبع المجلد الرابع للمرة الثانية في علم ١٨٩٥م .

30. Mills and Darmesteter's English translation of the ZendAvesta in vols.
IV, XXIII, XXXI of professor Max Muller's Sacred Books of the East (Oxford, 1877, 1880, 1883, and second edition of Vol. IV in 1895).

٣١* ـ دارمستتر: الزند افستا. ترجمة جديدة تصحبها حواش تتصل بالناحية التاريخية وفقه اللغة ، تم طبعها في باريس علم ١٨٩٢ ـ ١٨٩٣م في ثلاث مجلدات ، وهي المجلدات ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ وذلك بمناسبة الذكرى السنوية لمتحف جيمه.

*31. Darmesteter,: La Zend Avesta: Traduction nouvelle avec commentaire historique et philologique (3 vols. Paris, 1892-93; Vols. XXII, and XXIV of the Annales du Musée Guimet).

٣٢ ـ دو هارله: الأفستا: الترجمة عن متن الزند (طبع ليج في ثلاثة أجزاء، علم ١٨٧٥ ـ ١٨٧٧م، طبع باريس علم ١٨٨١م).

32. C. de Harlez: Avesta... traduit de texte Zend (3 vols, Liège, 1875-1877: second edition, Paris, 1881).

[705] ٣٣ـ اشبيجل: الافستا. . . الترجمة الألمانية (طبع ليزج، ١٨٥٢ ـ ١٨٦٣م، في ثلاثة مجلدات)، وقد ترجمه بليك إلى الانجليزية ، وطبع في هرتفورد علم ١٨٦٤م

33. Fr. Spiegel: Avesta... Ubersetet (3 Vols. Leipzig. 1852-63 English translation of this by A.Bleeck (Hertford, 1864).

٣٤ ـ ميلز: دراسات على كاثات زردشت الخمسة (طبع ارلانجن، ١٨٩٤م).

34. L.H.Mills: A study of the five Zoroastrian Cathas (Erlangen, 1894).

٣٥ ـ يوستي: دليل لغة الزند (طبع ليزيج علم ١٨٦٤م).

35. Ferdinand Justi: ''Handbuch der Zendsprache (Leipzig, 1864).

٣٦* ـ دوهارله: دليل لغة الافستا (طبع باريس ١٨٨٢م).

*36. C. de Harlez: Manuel de la langue de l'Avesta (Paris, 1882).

٣٧ ـ جكسون: قواعد لغة الأفستا، طبع اشتوتجارت، ١٨٩٢م. وكتاب قراءة الأفستا، طبع ١٨٩٣م.

37. A.V.W. Jackson: An Avesta Grammar... (Stuttgart, 1892); Adem, Avesta Reader (1893).

٣٨ ـ اشبيجل : قواعد اللغة الباختريه القديمة (لغة بلخ القديمة)، طبع ليبزيج علم ١٨٦٧م.

38. Fr.Spiegel: Grammatik der Altbaktrisl en Sprache (Leipzig, 1867).

اللغة البهلوية وعلاقتها بإيران الحديثــة

*٣٩ ـ مارتين هاوج : مقالة تتصل بموضـوع اللغـة البهلـوية (في ١٥٢ صفحـة) طبعت بعنوان «مقدمة على معجم لغة البازند البهلـوية القديمـة»، تأليف دستور هوشنج جي جاماسب جي آسا. . وكان طبعها في بمباي ولندن علم ١٨٧٠م.

*39. Martin Haug, Introductory Essay on the Pahlavi Language (pp.152), prefixed to Dastur Hoshangji Asa's Old Pahlavi pazend Glossary. (Bombay and London, 1870).

70 [٤٠ ـ دوهارله : دليل اللغة البهلوية إلى كتب إيران الدينية والتاريخية. يشتمل على قواعد اللغة ونصوص مختارة وكلمات. (طبع باريس علم ١٨٨٠م).

40. G. de Harlez: Manuel de Pehlevi des livres religieux et historiques de la perse Grammaire, Anthologie, Loxique (Paris, 1880).

*٤١ ـ زلمن : دراسات في اللغة الفارسية الوسيطة ، نشرت في كتاب معجم سان بطرسبرج علم ١٨٨٧م في الصفحات ٤٠٧ ومـا بعدهـا ، ثم طبعـت في المجلد التاسع في مجموعة المختارات الأسيوية (ص٢٠٧ وما بعدها). كما وردت مقالة نفس المؤلف التي تتعلق بالفارسية الوسيطة في الجزء الأول من كتاب أساس فقه اللغة تأليف جايجر وكون (الصفحات ٢٤٩ ـ ٣٣٢).

*41. C.Salamann: Mittelpersische Studien in the Bulletins de l'Aced. de St. Petersburg for 1887, pp. 417, et seqq. Métanges Asiatiques, Vol, ix, pp.207 et seqq. Also the same scholar's article Mittelpersisch in Vol.I of Geiger und Kuhn's Grundriss, pp.249-332.

*٤٢ ـ وست وهاوج ، ودستور هوشنگ جي جاماسپ جي آسا:
النص البهلوي لكتاب ارد ويراف مصحوباً بالترجمة الإنجليزية ومقدمة ، طبع بمبي ولندن علم ١٨٧٢م ، مع مجموعة كلمات وفهرست مرتب ترتيباً أبجدياً (علم ١٨٧٤م).

*42. West, Haug, and Dastur Hoshangji Jamaspji Asa: The Book of Arda Viraf: Pahlavi text... with an English Translation and Introduction (Bombay and London, 1872); Glossary and Index of the same (1874).

٤٣ ـ وست: النصوص البازندية والسنسكريتية للمينوى خرد (روح الحكمة) (بحروف رومانية) مصحوبة بترجمة إنجليزية ، وعرض سريع لقواعد اللغة البازندية ومقدمة . (طبع اشتوتجارت ، لندن ١٨٧١م).

43. West: The Mainyo-Khard (or "spirit of Wisdom") Pazand and Sanskrit texts in Roman Characters.. with an English Translation... Sketch of Pazand Grammar and Introduction (Stuttgart and London, 1871).

٤٤* اندره آس : النص البهلوي للكتاب السابق . . اعتماداً على النسخة الخطية التي جلبها وسترجارد من إيران ، وحفظت في كوبنهاجن ، وعمل لها كليشيه ثم طبعت (طبع كيل ١٨٨٢م)

*44. F.C. Andreas: Pahlaxi text of the above, a facsimile of a MS. brought from Persia by Westergoard and preserved at Copenhagen (Kiel, 1882).

٤٥ ـ نولدكه: دراسات فارسية حول القسمين الأول والثاني من الجزءين ١١٦ ـ [707]

١٢٦ من جلسات أكاديمية العلوم في إمبراطورية النمسا بڤينا - قسم الفلسفة والتاريخ (طبع ڤينا ١٨٨٨ و١٨٩٢).

45. Prof.th. Noldeke Persische Studien I and II invols. CXVI and CXXVI of the Sitzb.d. K. AK.d. Wissenschaften in wien, Phil- -Hist. Class (Vienna, 1888 and 1892).

٤٦ - بارتلمي: كجستك ابالش ، شرح محاضرة دينية برئاسة الخليفة المأمون : النص البهلوي مصحوباً بالترجمة والتفسير والمفردات (طبع باريس علم ١٨٨٧م).

46. A. Barthelemy: Gujastak Abalish relation d'une Conference théologique presidée par le calife Mamoun. Texte pehlevi... avec traduction, commentaire et lexique (Paris, 1887).

٤٧ - هرن: مباني الإشتقاق الفارسي الجديد (طبع استراسبورج ١٨٩٣م).

47 — P.Horn: Grundriss der Neupersischen Etymologie (Strassburg. 1893).

٤٨ - هوبشمن : دراسات إيرانية (طبع استراسبورج ١٨٩٥م). قواعد اللغة الأرمنية تأليف نفس المؤلف (طبع لايبزج ١٨٩٧م).

48. H. Hübschmann: Persische Studien (Strassburg, 1895) Idam, Armenische Grammatick (Leipzig, 1897).

٤٩ - دولاجارد: دراسات في اللغة الفارسية (طبع جوتينجن ١٨٨٤م).

49. Paul de Lagarde: Persische Studien (Gottingen, 1884).

٥٠ - اشبيجل: قواعد اللغة الفارسية ، مع ذكر أمثلة (طبع ليبزيج). وللمؤلف أيضاً : روايات الإيرانين وآثارهم وصلتها بلغات البلاد المجاورة.

50. Fr. Spiegel: Gramm. der Parsisprache nebst Sprachproben (Leipzig, 1851) Idem, Die Traditionelle Literatur der Parsen inihrem Zusammen-hange mit den angranzenden Literaturen (Vienna, 1860).

٥١* ـ وست: حول اتساع الأدب البهلوي واللغة البهلوية وعصور الأدب البهلوي. التقرير الصادر عن قسم الفلسفة وفقه اللغة بأكاديمية العلوم في الخامس من مايو علم ١٨٨٨م (الصفحات ٣٩٦ ـ ٤٤٣: برلين)

*51. E. West: On the Extent, Language, and age of Pahlawi Literature, in the sitzb, d. philos-Phliol. Classe der K. Akad.d.Wissenschaften vom 5 Mai, 1888 (pp. 396-443: Berlin).

د. الطرق الدينية قبل الإسلام ـ الدين الزردشتي [708]

٥٢* ـ پرفسور جكسون : زردشت، نبي إيران القديمة (طبع نيويورك ١٨٨٩م).
نلفت نظر القراء ثانية إلى فهرست الكتب القيّم الخاص بهذا الموضوع، والذي يقع في الصفحات من ١١ الى ١٥ من هذا المؤلف العظيم.

*52. Prof. A-V.W.Jackson: Zoroaster, the prophet of Ancient Iran (New York, 1899).

٥٣ ـ هوڤلاك: الأڤستا، وزردشت، ودين مزدا (طبع باريس ١٨٨٠م)

53. Hovelacque: L'Avesta, Zoroastre, et la Mazdéisme (Paris, 1880).

٥٤ ـ وست: ترجمة النصوص البهلوية، في الأجزاء: الخامس والثامن عشر والرابع والعشرين والسابع والثلاثين والسابع والأربعين من كتب الشرق المقدسة.

54. E.W.West: Pahlavi Texts translated in vols. V,X VIII of the sacred Books of the East.

٥٥ ـ پرفسور تيله: تاريخ الأديان (منذ أقدم العصور حتى عصر الإسكندر الأكبر) طبعة مجاز الألمانية بإشراف جريش، المجلد الحادي عشر؛ ديانة الشعوب الإيرانية، النصف الأول (الصفحات من ١ ـ ١٨٧) طبع جوتا علم ١٨٩٨م.

55. Prof. C.P. Tiele: Geschichte der Religion in Altertum bis auf Alexander den Grossen: Deutche autorisierte Ausgabe von G.Gehrich: Vol.Xi, Die Religion bei den Iranischen Völkern: erste Halfte, PP.1-187 (Gotha-1898).

٥٦ ـ جان ويلسون: الدين الفارسي، بناء على ما ورد في الزند أفستا (طبع بمباي ١٨٤٣م).

56. John Wilson: The Parsi Religon as contained in the Zand-Avesta (Bombay, 1843).

٥٧ ـ هاوج: مقالات تتعلق بالپارسيين، الطبعة الثالثة، تصحيح وست مع تفصيل أكبر. طبع لندن عام ١٨٨٤م.

57. Martin Haug: Essays on the parsis, 3rd. edition, edited and enlarged by E.West (London, 1884).

٥٨ ـ دوساباني فرامجي كاراكا: تاريخ الپارسيين (في مجلدين، طبع لندن عام ١٨٨٤م).

58. Dosabbai Framje Karaka: History of the Parsis (2 Vols. London, 1884).

[70] ٥٩ ـ الآنسة منان : الپارسيين وتاريخ مجتمع الزردشتيين الهنود: بمناسبة الذكرى السنوية لمتحف جيمه، مكتبة الدراسات، المجلد السابع (طبع باريس ١٨٩٨م).

59. Mademoiselle, D.Menant: Les Parsis, Histoire des communautés zoroastriennes de l'Inde: Annales du Musée Guimet, Bibliothèque d'Etudes, Vol. Vii (Paris, 1898).

٦٠ ـ هوتوم شيندلر : الفرس في إيران، لغتهم وقسم من آدابهم وعاداتهم. مقالة طبعت في المجلد السادس والثلاثين من مجلة الجمعية الألمانية الخاصة بممالك الشرق (عام ١٨٨٢م ـ الصفحات ٥٤ ـ ٨٨).

60. A.Houtum in Persien Schindler: Die Parsen in Persien, ihre Sprache und einige ihrer Gebräuche, in Vol XXXVi (1882: pp.54-88) of the Zeitschrift d.deutch.Morgenländ. Gesellsch.

المسيحيون في ظلّ حكم الساسانيين

*٦١ - جورج هوفمان: مختارات من الوثائق السريانية الخاصة بشهداء إيران ، (طبع لايبزج ١٨٨٠م)

*61. George Hoffmann: Auszüge aus Syrischen Akten Presischer Märtyner... (Leipzig, 1880).

٦٢ - الدكتور رايت : تاريخ الحرب بين اليونان وإيران في السنوات ٥٠٢ - ٥٠٦م ، (تأليف يشوع ، عام ٥٠٧م باللغة السريانية) مصحوباً بترجمة وحواشي . طبع كمبريدج ١٨٨٢م.

62. Dr. W.Wright: The Chronicle of Joshua the Stylile, Composed in Syriac, A.D.507, with a translation, and notes (Cambridge, 1882).

المانوية والبرديصانية والصابئون

*٦٣ - فلوجل: ماني وتعاليمه وكتاباته. (طبع لايبزيج ١٨٦٢م)

*63. Gustav Flugel: Mani, Seine Lehre und Seine Schriften (Leipzig, 1862).

٦٤ - الدكتور كسلر : ماني ودراسات حول مذهبه، (طبع برلين ١٨٨٩م).

64. Dr. Konard Kessler: Mani: Forschungen uder die Manichaische Religion (Barlin, 1889).

[710] ٦٥ - پرفسور بوڤان : نشيد الروح ، الوارد باللغة السريانية في قصص سانت توماس ، الطبعة الجديدة مع ترجمة إنجليزية (كمبريدج ١٨٩٧م)، وكذلك

نشيد البرديصانية الذي ترجم على يد بركيت إلى اللغة الإنجليزية بأسلوب أكثر تحرراً (طبع لندن ، مطبعة أسكس هاوس ، ١٨٩٩م).

65. Professor A.A.Bevan: The Hymn of the soul, Contained in the Syriac Acts of St Thomas: reedited with an English translation... (Cambridge, 1897) Also the same Hymn of Bardaisan rendered (more freely) into English by F.C. Burkit (London, Essex House Press, 1899).

*٦٦ - الدكتور خولسون : الصابئون ومذهبهم ، (طبع بترسبورج في مجلدين عام ١٨٥٦م)

*66. Dr. Chwolson: Die Ssabier und Ssabismus (2 vols. St.Petersburg, 1856).

٦٧ - روشا : ماني وأصول عقائده ، (طبع جنيف ١٨٩٧م).

67. E. Rochat: Mani et sa Doctrine (Geneva, 1897),.

السير الفارسية والأساطير القومية

*٦٨ - بروفسور نولدكه : أساطير إيران القومية . طبعة خاصة مستقاة من أصول فقه اللغة الإيرانية . (طبع استراسبورج ١٨٩٦م).

*68. Prof. Th.Noldeke; Das Iranische Nationalepos: Besonderer Abdruck aus dem Grundriss der Iranischen philologie (Strassburg,1896).

٦٩ - وينديشمن : دراسات حول زردشت : رسائل حول أساطير إيران القديمة وتاريخها (تصحيح اشبيجل - طبع برلين ١٨٦٣م).

69. Fr. Windischmann; Zoroastrische Studien: Abhandlungen Zur Mythologie und sagenge schichte des Alten Iran (edited by Fr. Spiegel: Berlin, 1863).

*٧٠ - شاهنامة الفردوسي : توجد ثلاث طبعات أوروبية للشاهنامة ، إحداها طبع

ترنوماكن (في أربعة مجلدات - طبع كلكته ١٨٢٩م) والأخرى طبع جول مل (في سبعة مجلدات بالقطع الكبير - طبع باريس ٣٨ - ١٧٧٨م) مع ترجمة فرنسية وحواشي وتعليقات . والثالثة طبع فولرس ولنداور (في ثلاثة مجلدات ، طبع ليدن ٨٤ - ١٨٧٧م) . والطبعة الأخيرة طبعة ناقصة تنتهي عند زمن الإسكندر ، وقد حُذف منها العصر الساساني برمّته . وقد نشرت ترجمة مل الفرنسية في سبع مجلدات دون أن يسجل معها المتن ، وذلك في باريس (١٨٧٦ - ١٨٧٨م) . وقد ترجم روكرت الشاهنامة إلى اللغة الألمانية (ونشرها باير - بعد تصحيحها - في ثلاثة مجلدات ، وذلك في برلين في الأعوام من ١٨٩٠ حتى ١٨٩٥م . ومن بين الترجمات المختصرة الموجودة حالياً توجد ترجمة لفن شاك ، طبعت في علم ١٨٧٧م في اشتوتجرت . وهناك عدة تراجم مختصرة أخرى باللغة الإنجليزية إحداها بقلم اتكنسون والأخرى بقلم هلن زيمرمن . [711]

*70. The shahnama of Firdawsi: European editions: Turner Macan. (Calcutta, 1829), *Jules Mohl, (Paris, 1838-78), Vüllers and Landuer, (Leyden, 1877-84), German translation by Ruckert (edited by Bayer, 3Vols. Berlin, 1890-95).
Aboidged Translations by A.F. Von Schack, Heldensagendes Firdusi, in deutcher Nachbildung rebst einer Einleitung (Stuttgart, 1877); English abridgments of J.Atkinson and Helen Zimmermann.

*٧١ - نولدكه : تاريخ اردشير بن بابك (كارنامه' اردشير پاپكان) - مترجماً عن البهلوية (طبع جوتنجن ١٨٧٩م) .

*71. Nöldeke: Geschichte des Artakhshir-i-Papakan, aus dem pehlewi Überseczt (Gottingen, 1897).

٧٢ - داراب دستور پشوتن سنجانا : كارنامه' اردشير پاپكان (كتاب أعمال أردشير بن بابك) . . النص البهلوي مع الخط اللاتيني مصحوباً بترجمة إنجليزية وكجراتية (طبع بمباي ١٨٩٦م) .

72. Darab Dastur Peshotan Sanjana: The Karname-i-Artakhshir-i-Papakan . Pahlavi text with transliteration... translations into English and Gujerati, etc. (Bombay, 1896).

*٧٣ ـ جايجر: يادگار زريران (ذكرى زرير) وصلتها بالشاهنامة التي طبعت في ميونيخ علم ١٨٩٠م في القسم الذي يتعلق بالفلسفة وفقه اللغة والتاريخ ، في مجلة أكاديمية العلوم الملكية . . القسم الأول من المجلد الثاني ـ الصفحات ٤٣ ـ ٨٤ . وقد نشر متنها البهلوي في بمباي علم ١٨٩٧م على يد جاماسب جي دستور منوچهر جي جاماست آسانا ، ونشرت ترجمتها الإنجليزية والكجراتية (في بمباي علم ١٨٩٩م) بقلم يوانجي جمشيد جي مودي .

[712

*73. W.Geiger: Das Yatkar-i- Zariran and sein Verhältiniss Zum Shahnamé in the Sitzb.d. Philos, Philogog. und Histor. Cl. D.K.Bayer. Ak.d.Wiss. for 1890, Vol ii, Part i, pp.43-84 (Munich, 1890). The Pahlawi text of this was published (Bombay, 1897), by Jamaspji Dastur Minochehrji Jamasp Asana, and Translations into English and Gujerati (Bombay, 1899), by Jivanji Jamshedji Modi.

٧٤ ـ الدساتير : كتابات أنبياء إيران القدامى . طبعها ملا فيروز بن كاوس مصحوبة بترجمة إنجليزية ، وذلك في مجلدين (بمباي علم ١٨١٨م) .

74. The Dasatir, or Sacred Writings of the Ancient Persian prophets, etc. Published by Mulla Firuzibn Kaus, with an English translation, in 2 vols (Bombay, 1818).

٧٥ ـ دبستان المذاهب (مدرسة الأديان) ترجمة عن الأصل الفارسي تقع في ثلاثة مجلدات (طبع باريس ١٨٤٣م) قلم بالترجمة : شيا وترويو .

75. The Dabistan... translated from Persian by Shea and Troyer. (3 Vols. Paris, 1843).

*٧٦ ـ غرر أخبار ملوك الفرس ، تأليف الثعالبي ، النص العربي مصحوباً بترجمة زوتن برج (في مجلد واحد ـ قطع كبير ـ طبع باريس ١٩٠٠م .) .

*76. Histoire des Rois de perse par.. al-Thaa'libi texte arabe, publie' et traduit par H.Zotenberg (1 larg folio vol, Paris, 1900).

(و) محمد بن عبدالله ، والقرآن والخلافـة

*٧٧ ـ سيرة ابن هشام (سيرة النبي) النص العربي ، تصحيح ووستنفلد (طبع جوتنجن ، ٦ ـ ١٨٥٨م)، الترجمة الألمانية لنفس الكتاب بقلم جوستاف وايل بعنوان حياة محمد (طبع اشتوتجارت عام ١٨٦٤م).

*77. Ibn Hisham's (the eldest extant) Biography of the Prophet Muhammed, edited in the original Arabic by F.Wustenfeld (Gottingen, 1858-60), translated into German (Das Leben Muhammeds... Stuttgart, 1864) by Gustan Weil.

*٧٨ ـ القرآن : طبعة فلوجل وردسلاب وغيرها من الطبعات مصحوبة بترجمات إنجليزية بقلم سيل عام ١٧٧٤م. (وقد طبعت بعد ذلك أكثر من مرة) : طبعة رادول (الطبعة الثانية لندن ١٨٧٦م)؛ وطبعة البروفسور بامر (مكان المجلدين ٦ ، ٩ من كتب الشرق المقدسة ؛ وترجمة كازيميرسكي الفرنسية (طبع باريس ١٨٥٤م)؛ والترجمة الألمانية التي وضعها أولمن (الطبعة الرابعة ـ بيلقلد ، ١٨٥٧م)؛ كشف كلمات القرآن باللغة العربية بإشراف فلوجل (طبع لايبزيج ١٨٤٢). . قطعات مستخلصة من القرآن مع ترجمة إنجليزية باهتمام سير ويليم موير (لندن ١٨٨٠م)؛ نولدكه : تاريخ القرآن (طبع جتينجن ١٨٦٠م) وهو كتاب قيّم لا يقدّر بثمن ، كما أن هناك كتاباً صغيراً مفيداً لعامة قراء القرآن نشرته جمعية نشر المعارف المسيحية .. [713]

*78. The Qur'an (Coran, Alcoran): editions by Flügel,Redslob, etc.; English translations by G.Sale (1774, and numerous later editions) J.M. Rodwell (2nd ed., London, 1876). and Professor E.H.Palmer in Vols. Vi and iX of the sacred Books of the east; French by Kazimirski (Paris 1854); German by Ullman (4th ed.,

Bielefeld, 1857); Concordance (Arabic) by Flugel (Leipzig, 1842); Extracts in the original, with Engl. Trans. Compiled by Sir W. Muir (London, 1880). Nöldeke, Geschichtedes Qorans is invaluable (cottingen 1860). A sueful little book for the general reader on the coran was published by the society for promoting christian knowledge.

٧٩ ـ اشبرنجر: حياة محمد وتعاليمه (في ثلاثة مجلدات ، طبع برلين ١٨٦٩م).

79. Sprenger: London und Lehre Mohammeds (3 vols. Berlin, 1869).

*٨٠ ـ وفاوزن : محمد في المدينة ، ترجمة مختصرة لكتاب المغازي للواقدي (طبع برلين ١٨٨٢م)

*80. Wellhausen: Muhammed in Medina, an abridged translation of al-Waqidi's Kitabi'L-Maghazi (Berlin, 1882).

* ٨١ ـ نولدكه: حياة محمد: طبقاً لما ورد في المصادر التي وضعت ليستفيد منها العامة (هانوفر ١٨٦٣م).

*81. Nöldeke: Das Leben Muhammeds, nach des Quellen Populär dargestellt (Hannover, 1863).

٨٢ ـ سير ويليم موير: حياة محمد وتاريخ الإسلام (في أربعة أجزاء ، طبع لندن ١٨٥٨ ـ ٦١م ، الطبعة الثالثة ١٨٩٥م).

82. Sir William Muier: Life of Mahomet and History of Islam (4 vols., London, 1858-61: 3rd ed., 1895).

[71 ٨٣ ـ سير ويليم موير : تاريخ الخلافة الأولى (طبع لندن، عام ١٨٨٣م).

83. Annals of the Early Caliphate (London, 1883).

*٨٤ ـ سير ويليم موير: الخلافة، رفعتها وانحطاطها وسقوطها (الطبعة الثانية لندن ١٨٩٢م).

*84. Idem, The Caliphate, its Rise, Decline, and Fall (2nd ed. London, 1892).

٨٥ ـ لودلف كرل : حياة محمد وتعاليمه (طبع لايبزيج ١٨٨٤م).

85. Ludolf Krehl: Das Leben und die Lehre des Muhammed (Leipzig, 1884).

*٨٦ - جوستاف وايل : تاريخ الخلفاء (في أربعة مجلدات ، طبع منهيم واشتوتجارت ، ١٨٤٦ حتى ١٨٦٢م . ويقع المجلد الرابع في قسمين ، وهو يبحث في الخلافة العباسية في مصر بعد حملة المغول) .

*86. Gustav Well: Geschichte der Chalifen (4 vols., Mannheim and Suttgart, 1846-62; Vol, IV, which is divided into 2 parts treats of the Abbasid Caliphate in Egypt after the Mongol invasion).

*٨٧ - سيد أمير علي : زندگاني وتعليمات محمد وروح إسلام (حياة محمد وتعليماته ، وروح الإسلام) ، طبع لندن ١٨٩١م . ولسيد أمير علي أيضاً دراسات نقدية تدور حول حياة محمد وتعاليمه ، وقد نشرت منذ ثمانية عشر عاماً تقريباً .

*87. Syed Ameer Ali: The life and Teachings of Mohammed and the Spirit of Islam (London, 1891).
Idem, A crittical Examination of the life and teachings of Mohammed, Published some eighteen years earlier.

٨٨ - فلوجل : تاريخ العرب حتى سقوط خلافة بغداد (الطبعة الثانية لايبزيج ١٨٦٤م) .

88. G. Flugel: Geschichte der, Araber bis auf den Sturz des Chalifats von Bagdad (2nd ed., Leipzig, 1864).

٨٩ - وايل : تاريخ الأمم الإسلامية بصورة مختصرة (من زمن محمد حتى زمن السلطان سليم) . (طبع اشتوتجارت ١٨٦٦م) .

89. G. Well: Geschichte der Islamitischen Völker von Mohammed Bis Zur Zeit des Sultan Selim übersischtlict dergestellt (Stuttgart, 1866).

*٩٠ - دوزي: كتاب تاريخ الدول الإسلامية (طبع ليدن ١٨٦٣م، طبع هارلم ١٨٨٠م): والترجمة الفرنسية لهذا الكتاب وضعها فيكتور شوون (طبع ليدن - باريس ١٨٧٩م):

*90. Dazy: Het Islamisme (Leyden. 1863: Haarlem, 1880); French Translation of the same by Victor Chauvin, entitled, Essai sur l'Histoire de l'Islamisme Layden- Paris, 1879).

*٩١ - ڤون كرومر: تاريخ الفرق الإسلامية، طبع لايبزيج ١٨٦٨م.

*91. Alfred VOn Kremer: Geschichte der herrschenden Ideen Des Islams; der Gottesbegriff, die prophetie und statsidee (Leipzig, 1868).

*٩٢ - ڤون كرومر: الآثار التاريخية لحضارة الممالك الإسلامية أو الدراسات الخاصة بتاريخ الحضارة الإسلامية (طبع لايبزيج ١٨٧٣م).

*92. Idem, Culturgeschichtlische Streifzüge auf dem Gebiete des Islams (Leipzig, 1873).

*٩٣ - ڤون كرومر: تاريخ ثقافة الشرق في عصر الخلفاء (في مجلدين، طبع ڤينا ١٨٧٥ - ١٨٧٧م).

*93. Idem Culturgeschichte des Orients under den chalifen (2 vols.. Vienna, 1875-77).

*٩٤ - دكتور جولد تسيهر: دراسات إسلامية (في مجلدين - طبع هاله، ١٨٨٩ - ٩٠م).

*94. Dr. Ignaz Goldzihes: Muhammedanische Studien (2 Vols, Halle, 1889-90).

*٩٥ - آرنولد: تعاليم الإسلام، تاريخ انتشار الدين الإسلامي (طبع لندن ١٨٩٦م).

*95. T.W.Arnold: The preaching of Islam, a History of the propagation of the Muslim Faith (London, 1896).

*٩٦ ـ كتاب الملل والنحل للشهرستاني ، باهتمام كورتن (طبع لندن ١٨٤٦م). والترجمة الألمانية لهذا الكتاب ، مقترنة بحواشي بقلم هارو بروكر ، طبع هاله ١٨٥٠ ـ ١٨٥١م.

*96. Shahristani's Kitabul'L-Milal Wa'n Nihal, or Book of Religons and Philosophical sects, edited by W.Cureton (London, 1846): translated into German, with Notes, by Th.Haarbrucker (Halle, 1850-51).

[716] *٩٧ ـ مقدمة ابن خلدون ـ مقدّمة على كتاب التاريخ العظيم الذي كتبه ابن خلدون. الفترة بأكملها في سبعة مجلدات (طبع بولاق ١٢٨٤هـ ، مع طبعة منفصلة للمقدمة، طبع بيروت ١٨٧٩م) متن المقدمة وترجمتها الفرنسية ـ قلم بتصحيح المتن كاترمر، وقلم بالترجمة دوسلان في المجلدات ١٦ ـ ٢١ ، وقامت مكتبة فرنسا الوطنية بتلخيص النسخ الخطية .

*97. Ibn Khaldun's prolegomena (or Muqaddamat) to his great history. Complete edition in 7 vols. (Bulq, A.H. 1284; Separate ed. of the prolegomena (Beyrout, 1879); text and French translation of the prolegomena (the former edited by Quartxe-mère, the latter by Masguckin de Slane) in Vols. XVi-XXi of Notices et Extraits des Manuscrits de la Bibliothèque Nationale.

*٩٨ ـ هيوز: ملاحظات حول الإسلام (طبع لندن، ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨م). ولنفس المؤلف أيضاً : كتاب معجم الإسلام أو دائرة معارف أصول الإسلام وعقائده وآدابه ورسومه وشعائره واصطلاحاته الفنية والدينية (ط٢، لندن ١٨٩٦م).

*98. T.P. Hughes: Notes on Muhammadanism (London, 1877, and 1878); Idem. A Dictionary of Islam, being a Cyclopedia of the Doctrines, Rites, Ceremonies and Customs, Together with the technical and theological terms, of the Muhammadan Religion (2nd ed., London, 1896).

*٩٩ ـ اشتاينر: المعتزلة أو ذوو التفكير الحرّ في الإسلام، والمعتزلة هم قادة المشرّعين والفلاسفة . . . (طبع لايبزيج ١٨٦٥م).

*99. H.Steiner: Die Mu'taziliten oder die Freidenker in Islam, and Die Mu'taziliten als Vorlaufer der Islamischen Dogmaticker und Philosophen.. both published in leipzig in 1865.

١٠٠ ـ برونا: الخوارج . . . (طبع ليدن، ١٨٨٤م).

*100. Brunnow: Die charidschiten.. (Leyden, 1884).

١٠١ ـ اشپتيا: حول تاريخ أبي الحسن الأشعري (طبع لايبزيج ١٨٧٦م).

101. W.Spitta: Zur Geschichte Abu'L-Hasan al-Ash'ari's (Leipzig, 1876).

١٠٢ ـ جولد تسيهر : الطريقة الظاهرية، منشؤها وطريقتها وتاريخها المختصر باللغة الألمانية (طبع لايبزيج ١٨٨٤م).

102. Goldziher: Die schule der Zahiriten, ihr Ursprung, ihr system und ihre Geschichte (Leipzig, 1884).

[71] ١٠٣ ـ جيار : قطعات خاصة بعقائد الإسماعيلية . . مصحوبة بترجمة وحواشي (طبع باريس ١٨٧٤م). ولنفس المؤلف أيضاً : أستاذ كبير من أساتذة الحشاشين (مستخرج من المجلة الأسيوية ، طبع باريس علم ١٨٧٧م).

103. S.Guyard: Fragments relatifs à la Doctrine des Ismaélis avec traduction et notes (Paris 1874): Idem, Un grand Maître des Assassins (Extrait du Journal Asiatique, Paris, 1877).

*١٠٤ ـ دوساسي : شرح عقيدة الدروز (طبع باريس علم ١٨٣٨م في مجلدين).

*104. S. de Sacy: Exposé de la Religion des Druzes (Paris, 1838), 2 Vols.

١٠٥ ـ ڤون هامر : تاريخ فرقة الحشاشين ، الترجمة من الألمانية إلى الفرنسية بقلم الرو دولانوره (طبع باريس ١٨٣٣م).

105. Von Hammer: Histoire de l'Ordre des Assassins... traduit de l'Allemand.. par J.J.Hellert et P.A. de la Nourais (Paris, 1833).

١٠٦ ـ ثلوك: التصوف، وحدة الوجود عند الإيرانيين وباقة من العرفان الشرقي (طبع برلين ١٨٢٥م).

106. Tholuck, Ssufismus, sive Theosophia persarum Pantheistica (Berlin, 1821); Idem Blüthensammlung aus der Morgenländischen Mystik (Berlin, 1825).

*١٠٧ ـ الدكتور ديتريني : فلسفة العرب في القرن التاسع والعاشر بعد ميلاد المسيح ، اقتباساً عن إلهيات أرسطو ورسائل الفارابي ورسائل إخوان الصفا. (١٦ مجلداً ، طبع برلين ولايبزيج وليدن ١٨٥٨ حتى ١٨٩٤م).

*107. Dr.Dieterici: Die Philosphie der Araber im ix u. X Jahr.n.chr.aus der Theologie des Aristoteles, den Abhandlungen Alfarabis und den Schriften der Lautern Brüder... 16 Bücher (Berlin, Leipzig, Leyden, 1858-94).

١٠٨ ـ البروفسور دوخويه : ملاحظات حول قرامطة البحرين والفاطميين (ليدن ١٨٨٦م).

108. Professor de Geoje: Mémorics sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimides (Leyden, 1886).

(ح) تراجم الأحوال والفهارس والتواريخ الأدبية ومعاني البيان وغيرها. [718]

*١٠٩ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان ، تراجم أحوال كبار المسلمين ومشاهيرهم : النص العربي ـ باهتمام ووستنفلد (طبع جوتينجن علم ١٨٣٧م ـ في مجلدين)، الترجمة الإنجليزية مصحوبة بحواشي بقلم دوسلان (٤ مجلدات ، طبع باريس ولندن ١٨٤٢ ـ ١٨٧١م).

*109. Ibn Kallikan's Wafayatual A'uan, Biographical Dictionary of eminent and Famour Muslims: Arabic Text, edited by Wüstenfeld (Cottingen 1837; 2Vols.) English translation, with Notes, by the Baron Mac Guckin de Slane (4 vols, Paris and London, 1842-71).

*١١٠ ـ حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، المتن

العربي ، الترجمة اللاتينية بقلم جوستاف فلوجل (٧ اجزاء - طبع لايبزيج ٣٥ - ١٨٥٨م).

يلجأ من يرغبون في معرفة الكتب الإسلامية وكتّاب الإسلام إلى هذا الكتاب بالضرورة . . ولما كان مؤلفه قد مات علم ١٦٥٨م ، فإن الكتاب يحوي أسماء كل الكتب العربية والفارسية والتركية باستثناء الجديد منها. وتشتمل طبعة فلوجل على فهارس أبجدية كاملة قيّمة .

*110. Haji Khalifa's Bibliographical Dictionary, the Kashfu'dh--Dhunun an asmai'L-Kutub wa'L-Funun, Arabic text with latin translation, by Gustav Flugel (7 vols, Leipzig, 1835-58).

*١١١ - بروكلمن: تاريخ الأدب العربي (المجلد الأول علم ١٨٩٧ - ١٨٩٨م) (المجلد الثاني الجزء الأول علم ١٨٩٩م - طبع ويمار). يجب الا يخلط بين هذا الكتاب وبين الكتاب الذي يفوقه شهرة والذي كتبه نفس المؤلف بنفس العنوان . . وهذا الكتاب يجري طبع نصف الجزء السادس منه حالياً في لايبزيج. (تمّ طبع النصف الثاني من هذا المجلد في علم ١٩٠١م).

*111. Carl Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literatur.

[71] *١١٢ - الدكتور پال هرن: تاريخ الأدب الفارسي:

*112. Dr. Paul Horn: Geschichte der Persischen Literatur.

١١٣ - پيتزي: ألّف كتاباً صغيراً قيّماً باللغة الايطالية يتّصل بالأدب الفارسي منذ أقدم العصور ، وذلك إلى جانب كتابه الآخر الذي ألفه حول اللغة الفارسية في علم ١٨٨٣م .

113. Pizzi, Besides his manuale della lingua persiana (1883), has published (in Italian) an excellent little sketch of persian literature from the earliest times).

١١٤ - البرفسور نولدكه : بحث في الشعر العربي في عهد الجاهلية (طبع هانوفر ١٨٦٤م).

114. Prof. Th.Nöldeke: Beiträge Zur Kentniss der Poesie der alten Araber (Hannover, 1864).

*١١٥ - ووستنفلد: المؤرخون العرب ومؤلفاتهم (طبع جوتنجن ١٨٨٢م)..

*115. F.Wüstenfeld: Die Geschichtschreiber der Araber Und ihre werke (Göttingen, 1882).

١١٦ - جيدي: فهرست أبجدي لكتاب الأغاني، يشتمل على: -

(١) أسماء الشعراء الواردة أشعارهم في كتاب الأغاني.

(٢) فهرست القوافي.

(٣) فهرست تاريخي.

(٤) فهرست جغرافي.

وقد عاون في إعداده: برونو، فرنكل، ون گلدر، گيرگاس، الوئى، كلاين، زاي بلد، وڤون ڤلوتن. (ونشر في ليدن في الفترة ما بين ١٨٩٥، ١٩٠٠م) وهو مجلد ضخم مسلسل يقع في ٧٨٠ صفحة، يعدّ مفتاحاً لمن يرغبون في الإستفادة من هذه الخزائن الواسعة الحافلة بالأشعار والحكايات المدرجة في المجلدات العشرين من هذه المجموعة العربية.

116. I.Guidi: Tables alphabétiques du Kitabu'L-Aghani, Comprenant(i) Index des poètes dont le «Kitab» cite des vers; (ii) Index des rimes; (iii) index historgique; (iv) index géographique rédigées avec la collaboration des MM.R.E. Brünnow, S.Fraenkel, H.D. Van Gelder, W.Guirgass, E.Hélouis, H.G.Klein, Fr.Seybold et G.van Volten, (Leyden, 1895-1900).

١١٧ - دارمستتر: مبادىء الشعر الفارسي (طبع باريس ١٨٨٧م).

117. Darmesteter: Les Origines de la Poésie Persane (Paris, 1887).

[720] *١١٨ - اته: رسالات عديدة حول شعراء إيران القدامى. (أنظر الملاحظة رقم ٧ في هامش الصفحة رقم ٦٥٩ من نفس الكتاب، غير أن هذا الكتاب غير كامل)، وهناك مقالة حول الأدب الفارسي بالمجلد التاسع من دائرة المعارف البريطانية * ومقالة أخرى في المجلد الثاني من كتاب جايجر وكون

في مبادىء فقه اللغة الايرانية (الصفحات من ٢١٢ - ٣٦٨) تحت رقم ١ من هذا الفهرست.

*119. Ethé: Numerous monographs on the early persian Poets (see n.2 on page 452 supra, but this list is by no means complete: article on Persian literature in the ninth Edition of the Encyclopedia Britannica, and Article in Vol.ii (pp.212-368) of geiger and Kuhn's grundriss (no; L Supra).

١١٩ - اوزلي = تراجم أحوال شعراء ايران (طبع لندن ١٨٤٦م)، كتاب بهيج ومفيد ، ولو أنه منسوخ من عدة جهات.

119. Sir Gore Quseley's Biographical Notices of Persian Poets (London 1846).

١٢٠ - كازيميرسكي : مقدمة ديوان منوچهري (طبع باريس ١٨٨٦م).

120. A. De Biberestein Kazimirski, Introduction to his Diwan of Minuchihri (Menoutchehri), Paris, 1886.

*١٢١ - ووستنفلد: مدارس العرب وأساتذتها (جوتنجن ١٨٣٧م)، تاريخ أطباء العرب وعلماء العلوم الطبيعية (١٨٤٠م)

*121. Wustenfeld: Die Academien der Araber und ihre Lehrer (Gottingen, 1837); Geschichte der Arabischen Aerzte und Naturforscher (1840).

*١٢٢ - جلدوين: مقالات في المعاني والبيان والعروض والقافية في الشعر الفارسي (طبع كلكتا علم ١٨٠١م، وقد تجدّد طبعه في لندن).

*122. Francis Gladwin: Dissertations on the Rhetoric, Prosody and Rhyme of the persians (Calcutta: reprinted in London, 1801).

*١٢٣ - بلوخمن: العروض الفارسي (طبع كلكتا ١٨٧٢م).

*123. H.Blochmann: The prosody of the Persians (Calcutta, 1872).

*١٢٤ - فريدريك روكرت: قواعد اللغة وشعر الايرانيين ومعاني بيانهم . . طبعة برج الجديدة (جوتا ١٨٧٤م)

*124. Friedrich Ruckert: Grammatik, Poetik, Und Rhetorik der

perser... neu herausgegeben von W.Pertach (Gotha, 1874).

[721] ١٢٥ ـ هوار: الترجمة الفرنسية لأنيس العشاق لشرف الدين رامي (طبع باريس ١٨٧٥م). دليل قيّم للغزل الفارسي.

125. Cl. Huart's French translation (Paris, 1875) of the Anisu'L--Ushshaq of Sharafu`-d-Din Rami.

١٢٦ ـ نولدكه: تاريخ الشرق، الترجمة الإنجليزية (طبع لندن وادينبور ١٨٩٢م)

126. T.Nöldeke: Sketches from Eastern History, translated by John Sutherland Black (London and Edinburgh, 1892).

١٢٧* ـ ووستنفلد: موازنة بين العلم الهجري والمسيحي (طبع لايبزيج ١٨٥٤م)، تعليق الدكتور مولر (طبع علم ١٨٨٧م). ابتدأت من علم ١٣٠٠هـ (١٨٨٣م) وانتهت بعلم ١٥٠٠هـ (٢٠٧٧م). وهو كتاب ضروري لمن يريد المقارنة بين التاريخين الهجري والمسيحي.

*127. Wustenfeld: Vergleichungs Tabellen der Muhammedanischen und Christlichen Zeitrechnung (Leipzig, 1854), With supplement (Fortsetzung) by Dr. Ed. Mahler (Leipizig, 1887).

(ط) الكتب العربية والفارسية الجديدة

سبق وقلنا أن ما لم يترجم من مؤلفات عربية وفارسية إلى الأوروبية لم يرد في الفهرست السابق ، لأن ذكره كان سيتسبب في إطالة الفهرست ، ولن يستفيد من ذكره غالبية القراء ممن لا دراية لهم بالفارسية والعربية .

وربما رغب بعض القراء ـ الذين يجهلون اللغتين ـ في دراسة إحداهما أو كليهما ، لهذا فإننا نضيف بعض المعلومات المتعلّقة بكتب قواعد اللغة والنصوص ، ولنجيب في نفس الوقت على أسئلة البعض ممن لا يمتّون بصلة المعرفة للكاتب.

وقد طبعت مجموعة من الكتب الصغيرة القيمة في قواعد اللغتين ، وذلك ضمن سلسلة منشورات رويتر (H.Reuther) تحت عنوان:
Porta Lingurarum Orientalium Series

وذلك في كارلسروهه (Carlsruhe) ولايبزيج. وكل مجلدات هذه الفترة مؤلفة في الأصل بالألمانية ، إلا أن بعضها ورد بالإنجليزية (ومن بينها الصرف والنحو العربي ، بقلم زوسين) (Socin, Arabic Grammer)

وقد ألف زلمن Salemann وجوكوفسكي Shukovski قواعد اللغة الفارسية في سنة ١٨٨٩م. . لكنه نشر باللغة الألمانية وحدها. ولكتاب قواعد زوستين طبعة أقدم ، نشرت في علم ١٨٨٥م . والمختارات التي اختيرت في تلك الطبعة أفضل بكثير من المختارات التي اختيرت في الطبعة التالية . وقد انتقى برونوBrunnow أفضل قطعات هذا الكتاب العربية ، وطبعها منفصلة علم ١٨٩٥م تحت عنوان مختارات عربية . . وذلك ضمن هذه السلسلة المنشورة نفسها.

والدارس الذي يبغي معرفة اللغة العربية إلى حد ما ، تكفيه طبعة علم ١٨٨٥م وحدها . ولما كان من المحال أن يقتني تلك الطبعة . . ولما كان مضطراً إلى الاكتفاء بالطبعة التالية . . فإن الواجب عليه أن يقتني مجموعة مختارات هذه الطبعة .

وفي كلا الكتابين ـ سواء قواعد اللغة العربية أو قواعد اللغة الفارسية ـ يوجد فهرس قيّم لأهم الكتب اللازمة للباحثين في اللغتين. وتشاهد في هذين المؤلفين الصغيرين القيمين معلومات تامة في هذا الموضوع لا داعي لتكرارها.

وأفضل كتاب لدراسة العربية هو كتاب الصرف والنحو (الطبعة الثالثة) لرايت ، وقد راجعه اسميث W.B. Robertson Smith ودوخويه. وقد طبع في مجلدين بكمبريدج فيما بين عامي ٩٦ ـ ١٨٩٨م. ورغم أن كتاب پامرPalmer (نشر لندن علم ١٨٧٤م) ليس كاملاً أو دقيقاً كما ينبغي. . فإنه أيسر للقارىء وأمتع.

[723]

وأقيم وأصغر كتاب يتصل بالكلمات العربية ومعناها بالفرنسية هو قاموس بلو

(Belot, Vocabulaire Arabe- Français à l'usage des Etudiants)

وهو كامل إلى حد ما ومفيد للتلاميذ. وقد نشرت طبعته الرابعة في بيروت عام ١٧٩٦م. والكتاب يحتوي على ١٠٠١ صفحة، ويصل ثمنه إلى ١٠ شلنات تقريباً.

والقواميس الأخرى هي:

قاموس فرنسي عربي (يقع في ١٦٠٩ صفحة - طبع بيروت ١٨٩٠)[1]،

الفترة العملية للغة العربية (لنفس المؤلف، طبع بيروت ١٨٩٦)[2]،

قاموس كازيميرسكي: أكمل وأكبر وأفضل من غيره، لكن ثمنه يصل إلى أربعة أو خمسة أضعاف ثمن غيره[3]. وقد طبع في باريس في مجلدين، أولها يتكون من ١٣٩٢ صفحة، والثاني من ١٦٣٨ صفحة، وذلك في السنوات ما بين ١٨٤٦، ١٨٦٠م. وقد وضع دوزي تتمة قيّمة للقواميس العربية (طبع الكتاب في ليدن علم ١٨٨١م في مجلدين، الأول ٨٦٤ صفحة، والثاني ٨٥٦ صفحة).

وقد ألف دوزي (Dozy) قاموساً نفيساً عظيماً كبيراً (عربي - إنجليزي)، كما ألف اشتاينجاس قاموساً لنفس الغرض، نشر في لندن علم ١٨٨٤م.

كما طبع سلمونه (Salmoné) قاموسه (عربي - إنجليزي) في لندن عام ١٨٩٠م.

هذا، وعدد الكتب التي كتبت حول المفردات الفارسية وقواعد اللغة الفارسية كبير، إلا أن تحديد الأفضل من بينها أصعب من تحديد أفضل قاموس

1. Dictionnaire Françms - Arabe - Français à L'usage des Etudiants.
2. Cours pratique de la Langue Arabe (Beyrouth, 1896).
3. A. de Biberstein Kazimerski. Dictionnaire Arabe-Français.

عربي أو أفضل كتاب في النحو والصرف العربي . واللغة الفارسية سهلة إلى حد ما ، ولهذا فإن أي كتاب يكتب في قواعدها ـ وتبذل في كتابته العناية اللازمة ـ يكون كافياً لتعليمها . ولا يوجد إلى الآن كتاب يبلغ حد الكمال في ذلك الشأن وما زلنا في انتظاره .

وهذه أهم الكتب التي يستفاد منها في انجلترا :

قواعد اللغة الفارسية ، تأليف فربز (Forbes) ـ الطبعة الرابعة ، لندن ١٨٦٩م ،

قواعد اللغة الفارسية ، تأليف ميرزا ابراهيم ، طبع هيلي بري Haileybury بلندن ، علم ١٨٤٣م ، وقد ترجم فلايشر هذا الكتاب إلى الألمانية ، وتم نشره في لايبزيج في السنوات ١٨٤٧ ، ١٨٧٥م ،

قواعد اللغة الفارسية ، تأليف پلتس Platts (الجزء الأول : التراكيب ، لندن ١٨٩٤) ،

قواعد اللغة الفارسية ، تأليف روزن Rosen (وقد ترجمه الدكتور دنسين روس E.Denson Ross إلى الإنجليزية) ، وهو يفيد في معرفة الموضوعات المتداولة أكثر من غيرها .

وقد كتب كازيميرسكي كتاباً بالفرنسية يستحق المديح ، أسماه : محادثات فرنسية باللغة الفارسية . استعرض في بدايته قواعد اللغة الفارسية باختصار ، وأنهاه بمعجم للكلمات (فرنسي ـ فارسي) ، ونشره في باريس علم ١٨٨٣م

(A. de Biberstein Kazimirski)

أما بقية المؤلفين ـ الذين كتبوا القواعد الفارسية بالفرنسية فهم :

شود زكو Chodzko (١٨٥٢ و١٨٨٣م) ، جيار Guyard (١٨٨٠م) ، هوارد Huart (١٨٩٩م) ، ونيكلا الذي ألف كتاباً في المحادثات الفارسية الفرنسية ، وألف كتاباً آخر في الكلمات الفرنسية وما يقابلها بالفارسية .[1]

1. J.B. Nicolas, Dialogues Persans-Français (1857) et Dictionnaire Français-Persans (1885-1887).

وإلى جانب الكتابين اللـذين مر ذكرهما ألف وارمونـد Wahrmund كتابـاً بالألمانية ، طبع في جيسن Giessen علم ١٨٧٥م .

كما ألف بيتزي Pizzi كتاباً بالإيطالية ورد ذكره في الفهرست السابق تحت رقم ١١٣ . وكتب فولرس في جيسن كتاباً باللغة اللاتينية (علم ١٨٧٠م) في قواعد اللغة الفارسية[1] . وأفضل قاموس صغير (فارسي ـ انجليزي) وبالعكس . . هو قاموس بامر E.H. Palmer وهناك قواميس أكبر ، منها : اشتاينجاس Steingass (فارسي ـ انجليزي)، ويقع في ١٥٣٩ صفحة . وقد طبع في لندن علم ١٨٩٢م ونشر في لندن عامي ١٨٨٢ و١٨٨٩م مجلدان يحويان كلمات إنجليزية وما يقابلها بالفارسية ، وذلك بفضل والستن Wollaston ومساعدة ميرزا محمد باقر بواناتي . (المجلد الأول كبير والآخر صغير) . (إرجع إلى صفحة ٥٦٦ من هذا الكتاب) .

[725]

وهناك قاموس (فارسي ـ لاتيني) مصحوبٌ باشتقاقات ، يقع في مجلديـن كبيرين ، ألّفه فولرس ، وتمّ طبعه في بون علم ١٨٥٥ ـ ١٨٦٧م[2] . ورغم أنه كتاب جاف سيء التنظيم . . إلا أنه يشكّل أهميّة للدارس . . وهو ضروري طالما الدارس لم يحط علماً بالفارسية بالقدر الـكافي الـذي يمكنـه أن يفيد من الكتـب الرئيسية التي أخذ عنها هذا الكتاب ، ونعني بها برهان قاطع وفرهنگ رشيدي ، وغيرها . ولا يوجد بين كتب القراءة كتاباً يفضل گلستان السعدي ، وقد نشرت طبعات جيدة لهذا الكتاب مصحوبة بفهرس كامل للكلمات والمعاني وترجمة للنص وضعها ايست ويك East Wick وپلتس Platts.

1. Vüllers, Grammatica Lingue persicae (Giessen, 1870).
2. Vüllers, Lexicon Persico Latinum Etynologicum (2 larg vols., Bonn 1855-67.).

فهرست عام

للأسماء الواردة في الكتاب

---

(١) أرقام صفحات هذا الفهرست هي أرقام صفحات الكتاب الفارسي الذي قمت بترجمته الى العربية . ونظراً لاختلافها عن صفحات الترجمة العربية قمت بوضعها على يمين المتن للرجوع إليها عند الكشف عن أي كلمة في هذا الفهرست . (المترجم إلى العربية) .



هذا الفهرست :

يرتّب الأسماء الفارسية الواردة بالكتاب ترتيباً أبجدياً مع ذكر الإسم المقابل لها بالعربية . ويورد أرقام الصفحات التي ترد فيها هذه الأسماء ، في الكتاب المترجم . وعلى من يريد معرفة شيء عن هذه الأسماء أن يرجع الى الأرقام الإفرنجية على يمين المتن .

« پ »

« خ »

« د »

« ش »

« ن »

« هـ »